
سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء الثالث
سورة الأعراف - سورة يونس
دار الكتاب العربي




من هدى القرآن
٣

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

من هدى القرآن

الجزء الثالث

سورة الأعراف - سورة يونس

دار القارئ



الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/ ٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين

سُورَةُ الأَعْرَافِ

* مكية.

* عدد آياتها: ٢٠٦.

* ترتيبها النزولي: ٣٩.

* ترتيبها في المصحف: ٧.

* نزلت بعد سورة ص.

فضلُ السّورة

روى العياشي بإسناده عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَعْرَافِ فِي كُلِّ شَهْرٍ كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، فَإِنْ قَرَأَهَا فِي كُلِّ جُمُعَةٍ كَانَ مِمَّنْ لَا يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(وسائل الشيعة: ج٧، ص٤٠٩).

•••

قال أبو عبد الله: «أَمَا إِنَّ فِيهَا آياً مُحْكَمَةً فَلَا تَدَعُوا قِرَاءَتَهَا وَتِلَاوَتَهَا، وَالْقِيَامَ بِهَا فَإِنَّهَا تَشْهَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَنْ قَرَأَهَا عِنْدَ رَبِّهِ».

(مستدرك الوسائل: ج٦، ص١٠٣).

الإطار العام

بناء الشخصية المؤمنة

هذه السورة تبحث موضوع الإنسان؛ ففي البداية تشير إلى كتاب الله الذي أنزله على قلب الرسول لهداية الناس وإنذارهم به حتى يؤمنوا به فيكون ذكرى لهم، ثم تفرض على الناس اتباع قيم الكتاب.

أما اتباع من لا يؤمن بهذه القيم فحرام، لأنهم يقودون البشر إلى الهلاك. ثم تشير السورة في مطلعها إلى أن الله سبحانه يحاسب الذين أرسل إليهم الكتاب كما يحاسب من أرسلهم لتبليغ الرسالة، وبعد الحساب الدقيق يفصل بين العباد، فمن ثقلت موازينه كان من أهل الجنة والفلاح، ومن خَفَّت موازينه كان من الخاسرين لأنه لم يستمع إلى آيات الله ولم يهتدِ بها (الآيات ١-٩).

ثم تبين السورة قصة الخطيئة الأولى وغريزة حب السلطة وحب الخلود، وكيف يغوي الشيطان البشر فيندم، ويتعدى على حقيقته التي لا يسترها إلا لباس التقوى، وإن من عوامل الخطيئة التقليد وتقديس الآباء والزعم بأن الله يأمر بذلك.

بينما الله لايأمر بالفحشاء، بل يأمر بالقسط، والتوجه مخلصاً إلى الله والتزين عند كل مسجد، وأن يتمتع الإنسان بالخيرات دون إسراف، وأن من الحرام الفواحش والبغي والشرك والتقول على الله بدون علم أو كتاب منير (الآيات ١٠-٣٣).

والإنسان يهتدي برسالات الله، أما من يكذب ويستكبر، أو يفتري على الله فإنه يعذب عذاباً شديداً، حيث تلعن كل أمة أختها بسبب الطاعة لها، أما في الجنة فهناك القلوب الصافية.

وهذا التقسيم للناس إنما هو بمقياس الهداية والضلالة، والعلاقة بينهما هي التي تظهر عند الله، حيث يستنجد الكفار بأهل الجنة، فيذكرونهم بأيام صدهم عن سبيل الله في الدنيا،

وبينهما أهل الأعراف من قادة المتقين حيث يعرفونهم جميعاً، ويوبخون أولئك الذين اتخذوا الدين لهواً ولعباً، وانتظروا نهاية الأمر (الآيات ٣٤-٥٢).

وعلاقة الإنسان بالله هي طلب المزيد من رحمته، لأنه رب العالمين، وعلاقته بالحياة وبالناس هي الإصلاح وعدم الإفساد.

وكما أرسل الله الرياح بشراً بين يدي رحمته، فكذلك أنزل رسالاته هدى ورحمة.

وقصة نوح عليه السلام مع قومه تدل كيف أن رسل الله يريدون هداية الناس وإنذارهم ورحمتهم بالتالي، ولكنهم يعاندون ويستكبرون فيهلكون (الآيات ٥٣-٦٤).

وكذلك النبي هود عليه السلام الذي دعا إلى التقوى، فكذبوه وسفّهوه، ولكنه ذكّرهم برب العالمين وصاحب الرحمة المكتملة لهم، وذكّرهم كيف استخلفهم الله في الأرض، فتمسكوا بضلالة آبائهم، فاستمهلهم الله قليلاً، وبعدئذ قطع الله دابرهم (الآيات ٦٥-٧٢).

أما صالح رسول الله إلى ثمود، فقد زوّد بناقة معجزة، وذكّرهم باستخلافهم، ونعم الرفاه والعمارة عندهم، ولكن حالةالاستكبار واستغلال المستضعفين منعتهم من الاهتداء، فعقروا الناقة، فأهلكهم الله (الآيات ٧٣-٧٩).

وانحرف الإنسان في قوم لوط عليه السلام بالشذوذ الجنسي، فأمطر الله عليهم -بعد نصيحة نبيهم- مطر السوء.

أما مدين؛ فقد نصحهم رسولهم شعيب عليه السلام بترك الفساد الاقتصادي، والإصلاح، وعدم الصد عن سبيل الله الذي اتبعه فريق منهم. ولكن الاستكبار منعهم، ودعاهم إلى محاولة إخراج شعيب. وتوكل المؤمنون على الله، فأخذت الرجفة الظالمين وأصبحوا حديثاً يروى، ولم يأس عليهم رسولهم الناصح (الآيات ٨٠-٩٣).

ويأخذ الله كل قوم يُرسِلُ إليهم نبياً بالبأساء والضراء، ولكنه يبدلهم بالحسنة السيئة، ثم إذا لم تنفعهم الحسنة بالسيئة يأخذهم بغتة، وأن الإيمان والتقوى يفتحان بركات السماء عليهم، ولكن هل يأمن أهل القرى بأس الله ومكره؟ إن عليهم أن ينظروا كيف يهلك الله قوماً، ويستخلفهم بقوم آخرين (الآيات ٩٤-١٠٠).

كذلك جاء النبي موسى عليه السلام بالآيات لملأ فرعون الذين ذكروا بها، وانتهت حياتهم الفاسدة، وذكّرهم النبي موسى عليه السلام بالحق وطالبهم بتحرير بني اسرائيل، فطالبوه بآية فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، وأراهم يده البيضاء، ولكنهم رموه بالسحر واتهموه بتهديد الأمن،

وسجنوه وجمعوا السحرة، فآمن السحرة وانقلبوا صاغرين، وعذب فرعون السحرة المؤمنين فصبروا، وطالب الملأ فرعون بعقاب موسى عليه السلام، فتوعد فرعون موسى عليه السلام، ولكن قوم موسى استعانوا بالله وصبروا انتظاراً لوراثة الأرض، فأخذ الله آل فرعون بالسنين والمصائب، ولكنهم نسبوا الحسنة إلى أنفسهم والسيئة إلى موسى عليه السلام، واستكبروا على الإيمان وتظاهروا بالإيمان عند السيئة، وكفروا عند الحسنة، فانتقم الله منهم فأغرقهم، وأورث الله الأرض الذين كانوا يُستضعفون، ودمر فرعون وقومه (الآيات ١٠١-١٣٧).

ويستمر السياق القرآني في بيان السيرة البشرية بين فريقي المهتدين والضالين، حيث يحدثنا عن مجمل قصص النبي موسى عليه السلام مع قومه (الآيات ١٣٨-١٥٦).

ثم يحدثنا السياق عن الرسالة الجديدة التي جاءت محررةً للبشرية من أغلالها النفسية والثقافية، وذلك على يد النبي الأمي المبشَّر به في الكتب السابقة، والتي هي رسالة جميع البشر (الآيات ١٥٧-١٥٨).

ويعود السياق إلى أمة النبي موسى وانقسامها وأخطائها؛ ومنها عدم تناهيهم عن المنكر في قصة السبت، وكيف مسخوا قردة، وكيف تركوا الدين بالرغم من أن بعضهم ظل متمسكاً بالكتاب، وكيف أمرهم الله بأخذ الكتاب بقوة وذلك بعد أن نتق الجبل فوقهم (الآيات ١٥٩-١٧١).

ولكن السياق يعود بنا إلى العهد الإنساني الأول، حيث أخذ ربنا من بني آدم عندما كانوا في ظهور آبائهم ميثاقاً باتباع الهدى، وكيف أن بعضهم يشرك الآن بسبب شرك آبائهم، وأن بعضهم ينقض هذا العهد -عهد العلم والمعرفة-، حيث يخالف ميثاق المعرفة (الآيات ١٧٢-١٧٦).

لذلك يختار الله اليهود تارةً والعرب تارةً، حسب ظروف فترة الاختيار، ويبين مدى الجريمة عند من يكذب بالدين، وكيف أن ربنا قد قدر لهم جهنم مصيراً، لأنهم لم يستفيدوا من مداركهم (الآيات ١٧٧-١٧٩).

ويبين الله أسماءه الحسنى، وكيف أن طائفة يلحدون في أسمائه سبحانه، وأن الله سيستدرج المكذبين ويملي لهم حسب خطة حكيمة؛ لأنهم لم يتفكّروا ليعرفوا أن رسولهم ليس بمجنون، ولم يتفكروا ليعرفوا ما في السماوات والأرض من آثار التدبير والتقدير، وأنه عسى قد يكون أجلهم قد اقترب، وأنه إن لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون؟ (الآيات ١٨٠-١٨٥).

والله يضل، ومن يضلله الله فلا هادي له، وأن الساعة علمها عند الله، وأما الرسول فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً (الآيات ١٨٦-١٨٨).

ويبين السياق كيف أن الله عزوجل قدر حياة البشر، وخلق الإنسان بوحدانيته المتعالية عن الشركاء، ولكن المربيين أفسدوا ضميره وأشركوا فيه، بينما الله هو ولي البشر، وولي الصالحين منهم بالذات، بينما الشركاء لا يستطيعون نصر البشر والشركاء لا يملكون السمع (الآيات ١٨٩-١٩٨).

وعلى الرسول أن يأخذ العفو، ويأمر بالفطرة والعقل، ويبتعد عن الجهل، وعلى الإنسان أن يتقوّى بالله عزوجل على شيطانه، وأن يتذكر ربه حتى يمسح عن نفسه آثار مس الشيطان ويبصر الحقائق، وإذا لم يكن الإنسان متقياً فإن الشيطان يمده في الغي والعمه فتراه يطالب أبداً بآية لم ينزلها الله دون أن ينتبهوا إلى أن الرسول مقيد بالوحي، وأن القرآن بصائر، وعلى الإنسان نفسه أن يتبصر الحقائق، وأن يستمع إلى القرآن، وأن يذكر ربه تضرعاً وخيفةً، وأن يتجنب الغفلة، ولا يستكبر عن عبادة ربه، ويسبحه ويسجد له، ذلك هو برنامج بناء الشخصية المؤمنة والإنسان المتكامل الذي تتناوله موضوعات سورة الأعراف (الآيات ١٩٩-٢٠٦).

الرسالة الميزان الحق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥) فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ (٧) وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)﴾.

هدى من الآيات:

﴿الٓمٓصٓ﴾ هذا كتاب أنزله الله على قلب الرسول الذي ينبغي أن يتسع له ولا يضيق به، ولا يتردد في قبوله وأدائه، وإنذار الناس به حتى يؤمنوا فإذا آمنوا فان الكتاب سيكون ذكرى لهم.

وعلى الناس اتباع قيم الكتاب، والذين يجسدون هذا الكتاب، أما غيرهم الذين يتخذون من دونهم أولياء على أساس القيم فحرام اتباعهم، لأنهم سوف يقودون البشر إلى الهلاك، فكم من قرية أهلكها الله فإذا بعذاب الله عزوجل يأتيها ليلاً، أو عند فترة القيلولة صباحا ولم يدعوا شيئا، وإنما اعترفوا بذنبهم، وأنهم ظلموا أنفسهم.

والله سبحانه يحاسب الذين أرسل إليهم الكتاب، كما يحاسب الذين أرسلهم لتبليغ

الرسالة، ثم يبين الله لهم الحقائق لأنه سبحانه كان شاهدا عليها ولم يكن غائبا عنها، ثم بعد الحساب الدقيق يوزن إيمان وأعمال العباد، فمن كانت موازينه ثقيلة فإنه من أهل الجنة والفلاح، بعكس ذلك الذي كانت موازينه خفيفة أنه قد خسر نفسه، وضيع الفرصة عليها، والسبب أنه حين جاءته الآيات الكريمة لم يستمع إليها حتى يهتدي بها ولا يظلم نفسه..

بينات من الآيات:

[١] ﴿الٓمٓصٓ﴾ هذه هي فواتح السور التي قيل عنها أشياء كثيرة قد يكون أغلبها صحيحا، باعتبار القرآن الكريم ذو أبعاد مختلفة، بيد أن من الممكن أن تكون هذه الأحرف رمزا تدل على ذاتها دون أي شيء وراءها، كما سبق وأن تحدثنا عنه في سورتي البقرة وآل عمران، وعلى هذا الأساس تكون الكلمة التالية لها خبرا لها.

ربانية الكتاب

[٢] ولم يكن القرآن من تأليف محمد ﷺ ولا من نبوغه، بل هو كتاب أنزله الله، وأحد أبسط الأدلة على ذلك أن صدر الرسول يكاد يضيق به، ولذلك أمر الله رسوله بأن يتسع قلبه الشريف لهذه الرسالة.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ الرسالة بحاجة إلى سعة الصدر حتى يتحمل الفرد ثقل الحقائق التي فيها وحتى يتحمل جهد العمل بها، وصعوبات تبليغها، وسعة الصدر يأتي من الإيمان بالغيب، بالمستقبل البعيد، بالآفاق الواسعة، ومن التوكل على الله، والثقة بالقدرات التي أودعها في كيان البشر، والإمكانيات التي سخرت له، وبالتالي فإن سعة الصدر نابعة من الخروج عن زنزانة الذات، والانطلاق في رحاب الله من أجل خدمة البشرية جميعا.

زنزانة الحياة

إن الشهوات، والآمال والطموحات الخاصة، والجهل بالمستقبل، والانحسار ضمن اللحظة الحاضرة كل تلك جدران معتقل البشر التي تضيق عليه رحاب الكون ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وعلى من يريد حمل رسالة الله سبحانه أن يتمتع بسعة الصدر بهذا المفهوم الواسع للكلمة، والهدف من الكتاب هو: إنذار غير المؤمنين، وتذكرة المؤمنين حتى يزدادوا إيمانا ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ

وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[٣] لقد أنزل الله الكتاب لكي لا يتبع الإنسان سوى القيم السماوية، والذين يجسدون تلك القيم، ولا يخضعون لهذا أو ذاك بأي أسماء مخترعة.. ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي لا تتركوا اتباع القرآن باتباع الأولياء الغرباء..

﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ إذ البشر قلما يستطيع التحرر من جاذبية الأشياء والأشخاص، والتحليق في سماء القيم، وإذا تمت هذه الحرية فإنما تتم عن طريق التذكر بالله وباليوم الآخر.

[٤] وحين يتبع الإنسان أولياء من دون الله فإنه هالك، ويأتيه عذاب الله على غفلة منه دون أن يستطيع له ردا.

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ أي ليلا أو في منتصف النهار حين يستريحون إلى نوم القيلولة، أو بتعبير آخر ليلا أو نهارا.

[٥] ولم تكن حجتهم إذ ذاك إلا الاعتراف بظلمهم ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ لقد كان ظلمهم بوعي، وبعد إتمام الحجة عليهم. لذلك اعترفوا به حين الهلاك ولم يدعوا -حتى بمجرد الادعاء- بغير ذلك.

[٦] ولم تنته العقوبة بالنسبة لهؤلاء بالهلاك الدنيوي، إذ جاء بعدئذ دور الحساب الأخروي ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي نسأل المبلغين للرسالة كيف بلغوا وبماذا أجيبوا؟ ونسأل الناس لماذا لم يجيبوا بعد إتمام الحجة عليهم؟.

[٧] ولكن هذا السؤال ليس عن جهل أو عن غيبة، بل لمجرد المحاسبة، ولكي يعترف الظالمون بجريمتهم، فإن الله سوف ينبؤهم عن كافة تفاصيل حياتهم بعلم، لأن الله لم يكن غائبا حين اكتسابهم للأعمال.. ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾.

[٨] وبعد المحاسبة يأتي دور الجزاء العادل، لأن ما يوزن به الأعمال حق ودقيق وليس فيه أدنى نقص.

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ لأنهم أصابوا الفلاح المادي والمعنوي بالجنة والرضوان، وقد انتهت صعوبات الحياة ومخاوفها بحياة رغيدة آمنة.

[٩] ولكن الخسارة كل الخسارة هي أن يكتشف الفرد خفة موازينه، إذ لا يملك البشر سوى فرصة واحدة للعمل هي أيام عمله المعدودة في الدنيا، فإذا خسرها فماذا يبقى له هناك؟.

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ إنهم ظلموا الآيات فلم يسمعوها، ولا عملوا بها، فإذا بهم يخسرون كل ما يملكون.

جذور الانحراف في حياة البشر

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠) وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ[1] (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا[2] مَّدْحُورًا[3] لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾.

هدى من الآيات:

في هذا الدرس يبدو أن القرآن الحكيم يذكرنا بالموضوع الأساسي في هذه السورة حيث تبين طبيعة الإنسان، وأسباب انحرافه، لقد خلق الله الإنسان وجعل له الأرض مكانا ومحلا للرزق، ولكن رد فعله لم يكن الشكر، ولكن لماذا لم يشكر؟.

إن هذا يعود إلى قصة الخطيئة الأولى، حيث خلق الله آدم وجعله في أحسن صورة وتقويم (وأعطاه الروح، والعلم، والإرادة) وأمر الملائكة بالسجود له، فلم يسجد إبليس له لأنه خلق من نار بينما خلق آدم من طين، وهكذا تكبر إبليس فطرد من السماء وأُخرج صاغرا، بيد أن إبليس

(١) الصاغرين: الصاغر الذليل بصغر القدر، وصاغر إذا رضي بالضيم.
(٢) مذؤوماً: الذم والذيم أشد العيب.
(٣) مدحوراً: الدحر الدفع على وجه الهوان والإذلال، يقال دحره إذا دفعه بقوة وقسوة

طلب المهلة، فأعطاه الله ما طلب، فأستغل إبليس مهلته في إغواء البشر عن الصراط المستقيم، واقسم انه سيأتيهم من قدامهم ومن خلفهم، ومن قبل أيمانهم وشمائلهم، ليحرفهم عن الشكر لله، لذلك أخرج ربنا إبليس كما أخرج الذين يتبعونه، وأوعدهم النار، وأن يملأ بهم جهنم جميعا.

هكذا كانت جذور الانحراف عند الإنسان، أما المثل الحي لهذا الانحراف فسوف يحدث عنه القرآن في الدرس القادم.

بينات من الآيات:

بين النعمة والجريمة

[١٠] من نعم الله عزوجل على الإنسان تمكينه في الأرض، وتذليل الأرض وتسخيره له، وجعل الله فيها معايش البشر، وما به تستمر حياتهم ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ بيد أن البشر لا يفكر في أسباب النعم وعواملها، لذلك لا يشكر عادة من انعم بها عليه ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

[١١] من أين تنشأ عادة الجريمة؟.

في قصة آدم وإبليس توضيح لهذا السؤال، لقد خلق الله البشر وصور خلقه جوهرا وصورة وهيئة، وربما المراد من الصورة هي ما أودع الله عند الإنسان من صفات وأخلاق، ومن غرائز وفطرة، وبالتالي العقل والإرادة كما قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١٣٠].

وقال: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٤].

وبعدئذ أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، وربما كان السجود رمزا لكرامة العلم والإرادة عند البشر، ورمزا لتسخير الحياة للإنسان بفضل العلم والإرادة، بيد أن الهدف من بيان قصة إبليس هنا، يختلف عن هدف ذلك في سورة البقرة، حيث كان الهدف هناك حسب الظاهر- هو بيان تسخير الحياة للإنسان بفضل العلم، أما الهدف منها هنا فهو:

بيان واقعة الخطيئة كيف؟ ولماذا وقعت؟.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

لماذا عصى إبليس؟

ولقد جاء في الأحاديث أن التعبير القرآني الذي استخدم ضمير الجمع هنا في: ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ دليل على واقعة الذر، حيث خلق الله عزوجل البشر جميعا بصورة (ذر) في صلب آدم، ولذلك جاءت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على الترتيب.

[١٢] ولكن ما هي الصفة التي كانت في إبليس، فمنعته عن السجود بعد ما جاء الأمر الصريح؟.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ استخدم القرآن التعبير بكلمة ﴿أَلَّا﴾ بدل (أن) ربما للإشارة إلى أن صفة المنع لم تكن آنية أو محدودة بهذا العمل، بل كانت مرتبطة بالطاعة على العموم، أي ما منعك عن الطاعة ألا تسجد.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ لقد كان جواب إبليس واضحا، لقد كان سبب عصيانه العنصرية، والزعم بأن عنصره أفضل من عنصر آدم، وعموما هناك مقياسان للإنسان، أما مقياس الذات، وأما مقياس العمل الصالح، فإذا كان مقياس الشخص هو ذاته، فإنه سوف لا يقف عند حد في جريمته، لأنه لا يرى شيئا أقدس من ذاته أو أعلى من نفسه، ومن هنا فإن جذر كل المشاكل البشرية، هو: تقوقع الإنسان في ذاته، واعتقاده بأن ذاته هي المقياس، وما الإقليمية، والقومية، والعشائرية، وكل الحواجز الذاتية ما هي سوى آثار لهذه العنصرية المقيتة.

[١٣] ولكن مقياس الحق هو: مقياس العمل الصالح، لا فرق بين عامله من يكون؟ ومن أي عنصر؟ لذلك أخرج الله إبليس من جنته.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من السماء أو من الجنة، وتدل كلمة الهبوط على الهبوط من مكان أعلى، ومن الطبيعي أن يكون هبوط إبليس ليس ماديا فحسب، بل ومعنويا أيضا، ولذلك عاد القرآن واستخدم كلمة الإخراج أيضا.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وهكذا كانت الخطيئة الأولى بسبب الاعتماد على العنصر، والذي تجسد في صورة التكبر عن الحق، ومن ثم كان الجزاء الهوان.

من حقائق الجزاء

[١٤] وعلى الإنسان أن يعرف حقيقة هامة جداً هي: أن الجزاء لا يكون دائما بعد العمل

مباشرة، بل على العكس حيث يتأخر الجزاء عن العمل، وهذا إبليس قد طلب المهلة من ربنا فأعطاه إياها. ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾.

[١٥] ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ وأهمية فهم هذه الحقيقة تأتي من أن البشر بسبب محدودية الرؤية، وضيق الأفق يزعم أنه لا يجازى على أعماله بمجرد تأخر الجزاء، بل حتى حين يأتيه الجزاء ينسى أنه جاءه نتيجة عمله، ولذلك لا يرتدع بالعقاب ولا يندفع إلى الثواب، وإنما يستفيد من الجزاء الذين يعدمون المسافة الزمنية بين العمل والجزاء، ويتصورون أنفسهم منذ لحظة القيام بالعمل وكأنهم في لحظة الجزاء، فالزارع الذي يتصور وقت الحصاد، والطالب الذي يتخيل قاعة الامتحانات، والجندي الذي تراقص في مخيلته لحظات الانتصار، والمؤمن الذي يظن أنه ملاق ربه يكون عملهم أتقن وأبقى، بينما المجرم الذي ينسى قاعة المحكمة، والفاجر الذي يكفر بالآخرة، والفاسق الذي يتناسى الموت يكون أجرأ على الله، وأوغل في الخطيئة.

[١٦] والهالك يسحب من حوله إلى الهلاك، كما الناجي يريد لمن حوله النجاة مثله، وإبليس حين أمره الله بالسجود تكبر فأخرجه، وهكذا أضمر حقدا مركزا ضد أبناء آدم الذي بسببه طرد من السماء.

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إنه يقعد لنا، أي: يرصدنا ويمكر بنا، ومكره يتجسد في محاولة سلب نعمة الاستقامة منا.

[١٧] ويسعى إبليس بكل وسيلة ممكنة لكي يضللنا ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ قد تكون هذه الجهات رمزا لإحاطة الشيطان بأبناء آدم من كل مكان، حتى يتحسس البشر بمدى الخطر الذي يهدده، فلا يكون في الحياة مهملا، فارغ البال، ضعيف العزيمة، بل يكون جديا ذا فعالية كبيرة.

وقد تكون رمزا لأساليب الشيطان، حيث يخدع البشر بالمستقبل القادم من بين يديه حينا، حيث يمنيه غرورا، ويزين له أشياء يعده بها، وقد يضله بتصوير الماضي بطريقة تدفعه إلى الأعمال السيئة، أو بسيرة الآباء، أو بفلسفة التاريخ أو.. بمن حوله من الناس، بأولاده وزملائه، أو بأعدائه والمتافسين له.

المهم: أن يعرف البشر أنه لو لم يتصل بالله سبحانه، ويستعد استعدادا كاملا، لأحاط به مكر الشيطان وأرداه وأهلكه، فلا يصبح شاكرا لأنعم الله عزوجل وجميل فضله ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ وهذا في الواقع أسلوب خبيث يستخدمه إبليس، حيث يربط النعم بنفسه،

أو بالأولياء من دون الله، والذين هم أدوات له وليس بالله سبحانه.

[١٨] والله تعالى أعطى البشر العلم والإرادة، وحذره من الشيطان، وبذلك كلفه مسؤولية الدفاع عن نفسه، ضد هجمات إبليس ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ أي أنه بعيد معنويا وماديا حيث أنه يذم ويطرد ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي بالتأكيد إن من يتبعك من البشر سيكون مكانه جهنم مع إبليس.

الغرور الشيطاني سبب الهبوط

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ[1] لَهُمَا مَا وُۥرِيَ[2] عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا[3] وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

كانت قصة إبليس وعنصريته، وتكبره وخروجه من السماء، ووعده أنه سوف يغوي أبناء آدم، وبالتالي كانت قصة الخطيئة الأساسية هي موضوع الدرس السابق، والآن جاء دور آدم وأبنائه كيف أنهم انخدعوا بإبليس، وكيف ينبغي تجنبه؟

أسكن الله آدم وزوجه الجنة، وسمح لهم بتناول كل الطيبات باستثناء شجرة واحدة،

---

(١) ليبدي. الإبداء والإظهار، وهو جعل الشيء على صفة ما يصح أن يدرك وضده الإخفاء، وكل شيء أريل عنه الساتر فقد أبدي.

(٢) وري: المواراة جعل الشيء وراء ما يستره ومثله المساترة وضدها المكاشفة.

(٣) سوآتهما: عوارتها.

والتي إنما نهيا عنها بسبب حكمة، بيد أن الشيطان وسوس لهما ليظهر ذلك العيب الذي ستره الله، وخدعهما بأن الله لم ينه عن هذه الشجرة إلا لكي لا يصبحا ملكين خالدين، وبذلك حاول أن يثير فيهما حب الرئاسة وحب البقاء.

وحلف لهما بأنه ينصحهما، ولكن ذلك كان غرورا، فلما طعما من الشجرة ظهرت العورات الخفية لهما، وإذا بهما يخصفان عليهما من ورق الجنة، وهناك ناداهما الله ربهما، وقال: أولم أنهكما عن الشجرة، وحذرتكما من عدوكما الشيطان، وبخلاف الشيطان الذي ازداد تكبرا، فإن آدم وزوجه ندما على عملهما واعترفا وقالا: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ولكن الذنب كان له أثره السلبي حيث أهبطا وذريتهما إلى الأرض، ليكون بعضهم لبعض عدوا، ولتكون لهم فيها فرصة محدودة.

بينات من الآيات:

طبيعة العجز البشري

[١٩] يبدو أن الجنة التي سكن فيها آدم وزوجه مثل حي لنعمة الحياة المرهفة التي يوفرها الله سبحانه للبشر إذا اتبع مناهجه، حيث أن مناهج الله ليست سببا للشقاء، بل سببا للسعادة والفلاح، والله لم يحرم الطيبات، بل حرم بعضا مما أوجبته حكمته سبحانه، كما أباح لأبينا آدم وزوجه أكل ما شاءا ولكن نهاهما عن شجرة واحدة بحكمته البالغة ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

[٢٠] قبل أن يواجه الإنسان التحديات والشهوات يزعم أنه قادر على مواجهة الضغوط والمشكلات، وأنه صالح، ولكن الضعف والعجز كامنان في طبيعة البشر، ويظهران في الامتحان، وعلى البشر أن يستعد للقيام بعد السقوط، والتوبة بعد الذنب، وألا يغتر بنفسه، ولا تأخذه العزة بالإثم.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾ والوسيلة التي استخدمها الشيطان هي الوسوسة، وحسب الظاهر فأن الوسوسة هي: التشويش على رؤية الإنسان وعمله وفطرته، وذلك عن طريق إثارة الغرائز التي تصبح حاجزاً بين العقل والحقائق.

واستخدم إبليس أسلوبين آخرين:

أولاً: تفسير الحقائق وتحويرها تفسيراً باطلاً.

ثانياً: الكذب والحلف عليه، أما التفسير الباطل فحين كذب.

﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾

جذر الخطأ

لقد أثار إبليس صفتين في آدم موجودتين في كل أبنائه:

الأولى: حب الملك والعزة والرفعة.

الثانية: حب الخلود والبقاء والاستمرار.

وهاتان الصفتان هما تعبيران عن حب الذات والعنصرية المقيتة اللتين توسل بهما إبليس في محاولته لإغواء أبينا آدم وأمنا حواء، بيد أن إبليس أظهر السبب صراحة، وعلينا أن نسعى من أجل مراقبة هذه الصفات التي ينفذ من خلالها الشيطان إلى قلوبنا ويفسد أعمالنا.

ومن الملاحظ أنه ليس ثمة نقص في مستلزمات الحياة ليكون سبب معصية آدم إنما هو حب الخلود والملك، وهكذا في أبنائه فلو استطاع البشر مقاومة هذا الحب لتخلص من كثير من المعاصي.

[٢١] ولم يكتف إبليس بتفسير النص الإلهي تفسيرا خاطئا لهما وإثارة الغرائز عندهما، بل كذب عليهما كذبا صريحا ومؤكدا بالقسم.

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ وأصل المقاسمة: أن تكون من طرفين كأية صيغة أخرى من دون المفاعلة، بيد أن إبليس قد يكون حلف حلفا مكررا كان يعارض حلف الطرف الآخر.

[٢٢] وكل ذلك التفسير والكذب والحلف كان غرورا، أي تركيزا للنظر في جانب واحد فقط، وترك الجوانب الثانية مهملة، حيث أن أصل الغرور هو الثوب حتى لا يتبين كل جوانبه، والشيطان ينفذ إلى قلب البشر من خلال الغرور حيث يسعى إلى تأكيد جانب واحد فقط من الحقائق وترك سائر الجوانب. ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ وأخيرا طعما شيئا من الشجرة، فظهرت لهما عوراتهما فإذا بهذا يرى عورة الثاني فاستحييا، فأخذا يجعلان أوراق الشجر على بعضها عسى أن تصبح على هيئة اللباس فيواري عوراتهما، وبالطبع فإن أبناء آدم حين يتبعون الشيطان تظهر نقائصهم، وضعف إرادتهم، وقلة مقاومتهم للشيطان ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ وهنا انتهت مرحلة الامتحان، فناداهما ربهما وقال لهما: ألم أنهكما عن هذه الشجرة، وهكذا يستيقظ الضمير بعد ارتكاب مانهي عنه ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾.

[٢٣] وعاد الرشد إلى آدم وزوجه وهذه من ميزات البشر على إبليس الذي لم يعترف

بالخطيئة. أما التوبة وإصلاح الفاسد من أبرز وأعظم الصفات الحسنة لو استغلت ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

[٢٤] وخسر البشر بذلك فرصة البقاء في الجنة، وهبطوا إلى دار الدنيا بسبب حب الخلود والرفعة. وانتشرت بينهم الخلافات، والصراعات الاجتماعية الدائمة والمقيتة وكل ذلك وليد هذه النفسية المدنبة، ولكن الله عزوجل أنعم عليهم ببعض الاستقرار على الأرض. وببعض المتاع والتمتع المؤقت ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

[٢٥] هنا دار الحياة والممات، ومن ثم البعث ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

كيف يواري لباس التقوى سوءة الإنسان؟

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ[1] مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٢٨) قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ[2] وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ (٣٠) ﴾.

هدى من الآيات:

كما نزع إبليس لباس أبينا آدم حتى بدت له سوءاته، كذلك يسعى من أجل أن ينزع لباس التقوى منا نحن أبناء آدم، ذلك اللباس الذي يواري سوءات البشر، وعلينا أن نتذكر هذه الحقائق: إن الشيطان أقوى منا في الخداع، لأنه يرانا دون أن نراه، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر إلا على الكفار، لأن الإيمان يقاوم إغراء الشيطان.

أما الكفار فإنهم يخدعون من خلال مجموعة أفكار خرافية مثل: اتباع الآباء، والاعتقاد

---

(١) قبيله. القبيل الجماعة من قبائل شتى، فإذا كانوا من أبٍ وأمٍ واحد فهم قبيلة.

(٢) بالقسط: العدل.

بأن كل ما يعمله الآباء فهو دين ومأمور من قبل الله سبحانه، بينما ربنا لا يأمر بالفحشاء، وهؤلاء يقولون ما لا علم لهم به، وإنما اتباعاً لأهوائهم، ولا يتذكر هؤلاء أن أباهم آدم قد خدعه الشيطان، فكيف بسائر الناس؟!.

إذ المقياس ليس ما يقوله الآباء، بل ما يأمر به الله سبحانه الذي أمر بالقسط.

بينات من الآيات:

لباس التقوى

[٢٦] لقد أنزل الله لبني آدم لباسا يواري عوراته، وأعطاه ريشا وزينة يتجمل بها، بيد أن لباس التقوى الذي يواري سوءات البشر المعنوية خير له، وعليها لا يكتفي بلباس البدن وحده.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ ﴾ وربما استخدم القرآن كلمة ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ لأن البركات كلها من السماء. ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ أي زينة ومتاعا ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ من لباس البدن بالرغم من ضرورة الاهتمام بهذا وذاك معا ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي هذه حجة من حجج الله، وآية على عظمة الله، وهذه الحقيقة يجب أن يستوعبها الناس ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ إن معرفة حاجة البدن إلى اللباس قد لا تحتاج إلى تعمق بقدر فقه حاجة الروح إليه..

[٢٧] ومرة أخرى يذكر الله البشر بأنهم أبناء آدم الذي فتنه الشيطان وأخرجه من الجنة، وعليهم أن يتحذروا من فتنة الشيطان.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ والشيطان كما نزع لباس أبوينا فإنه يسعى لينزع عنا لباس التقوى ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ وكذلك حين يفتن البشر يرى الواحد سلبياته وضعفه وعجزه، فيكون أول من يندم ويوبخ نفسه، والشيطان يملك وسيلة ضد البشر هي المكر والخداع، فإذا تسلح الإنسان باليقظة والحذر استطاع أن يقاوم كيد الشيطان﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾.

بين ولاية الله وسلطان الشيطان

ولكن ليس للشيطان سلطان على البشر، لأن البشر يملك الإرادة والعقل والضمير، ولكن الكفار يفقدون إرادتهم في مقاومة الشيطان، فيصبح وليهم بسوء اختيارهم ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ أما المؤمنون فالله وليهم وهم أحرار من قيود الشيطان. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾ [محمد :١١].

إن الدي يتبع شهوة الثروة ويخضع لسلطان الطاغوت ويستسلم لإرادة رئيس العشيرة ويخوض مع تيارات المجتمع حيث خاضت إنه يفقد إرادته ويصبح ذرة في مهب الرياح الشيطانية.

[٢٨] وعلامة فقد الإرادة، أن هذه الفئة لا تملك حرية التفكير وتتعرض لأسوء استعمار واستعباد وهو فقدان الاستقلال الفكري والثقافي الذي هو مقدمة لسائر أنواع الاستغلال والاستثمار ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾ زاعمين أن ذلك يكفي شرعية للعمل، وأسوء من هذا أنهم كانوا يزعمون أن أفكار الآباء تمتلك قداسة سماوية.

﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ ﴾ تلك التي يوافقها الفرد بعقله، وكلما يأمر به الآباء أو الأحبار أو السلاطين، ولكن العقل كان يعارضه فهو بعيد عن القداسة وعن الله ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

[٢٩] العدالة فطرة كامنة في البشر وطموح كبير وإذا لم يهو أحد القيام بالقسط بنفسه فلا ريب أنه يحبه للآخرين ويطالبه منهم، والله لا يمكن أن يأمر بغير القسط، والعالم كله يشهد له بالعدالة في كل شيء ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِۖ ﴾ وأمر الله بألا يعبد إلا هو، وحتى في المواضع التي يعبد من دون الله شركاء، يجب رفض الشركاء وعبادة الله الواحد القهار.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أنى كان ميعاد السجود علينا أن نسجد لله لا للشركاء، رمزاً لخلوص عبادتنا ووحدة اتجاهنا، ودعائنا كذلك يجب أن يكون خالصاً لله.

﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ ﴾ فلا يتجزأ الدين ليؤخذ منه جانب العبادات وتترك المعاملات الاقتصادية، أو القضايا السياسية أو ما أشبه، وليس هناك تمييز بين أبناء آدم حتى يعبد بعضهم بعضا، أو يترك بعضهم جانبا من الدين إرضاء للبعض الآخر ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾.

سواسية كأسنان المشط

[٣٠] نعم هناك اختلاف واحد بين أبناء آدم يعترف به الإسلام هو: اختلافهم من حيث الإيمان والعمل الصالح (أو بتعبير آخر اختلاف الإرادة والسلوك).

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ أي هداهم الله فاستجابوا للهداية ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۗ ﴾ وكتبت عليهم الضلالة بسبب توجههم إلى غير الله ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ حينما يهبط البشر إلى هذا الدرك لا يرجى له الشفاء ويصبح ممن حقت عليه الضلالة حيث يتخذ الشيطان الذي هو عدو ولياً وقائداً له، ويكفر بالله خالقه وراحمه، والأنكى من ذلك أنه يحسب نفسه مهتدياً، وهو في الضلال البعيد.

تشريعات الرسالة تكامل وواقعية

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٣١) قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٣٢) قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ[1] بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ (٣٣) ﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق، أمر القرآن بإخلاص الدين لله تعالى، ومعناه أن تكون وجهة البشر نحو الله في كل جوانب الحياة، وأن تكون برامج الله سائدة على كل أبعاد الحياة، وفي هذا الدرس يضرب القرآن لنا مثلاً واقعياً حيث يأمرنا بالتزين عند كل مسجد، فالمسجد عبادة، والزينة حياة، كما يأمرنا بالأكل والشرب ضمن حدود التقوى، ثم تساءل القرآن عمن حرم زينة الله؟، وطيبات رزقه التي هي خالصة للمؤمنين في يوم القيامة؟ ثم نهى القرآن عن مجموعة شؤون حياتيه كالفواحش والإثم والبغي فالفواحش والإثم مثلاً للسلوك الشخصي المنهي عنه والبغي مثلاً للسلوك الاجتماعي المنهي عنه.

كما نهى مرة أخرى عن الشرك الذي من مظاهره الخضوع للسلطان الظالم، ونهى عن القول بغير علم مثلا لتوجيه القرآن في الثقافة، هذا هو الدين وخلوصه يعني إلا يتبع الفرد شريعة ومنهاجا من غير الدين.

---

(١) البغي: الاستطالة على الناس، وحده طلب الترؤس بالقهر من غير حق.

بينات من الآيات:

كيف نعرف طبيعة الديانات؟

[٣١] بالنظر إلى جانب واحد من مذهب أو دين نستطيع أن نعرف طبيعته معرفة تامة، فإذا نظرت إلى مسجد المسلمين فإنك تستطيع أن تعرف الصيغة التكاملية للإسلام، فالمسجد محل عبادة يعرج منه المؤمنون إلى الله، ومقام حرب بين الهوى والعقل، وبين الباطل والحق، ولكنه في نفس الوقت مكان للتعارف والتعاون والاجتماع، وكلما يقرب الأفراد إلى بعضهم يستحب أو يجب وجوده في المسجد كالطهارة والنظافة والزينة، حيث أمر الله بأن يتخذ المؤمنون أفضل زينتهم عند المساجد حتى يكون مظهر المجتمع جذاباً، ويقرب مظاهر الأفراد بعضهم إلى بعض.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وكما أنزل الله لبني آدم لباساً وريشا، وكما أنعم على أبوينا باللباس كذلك أمر بالاستفادة من نعمة الزينة، ولكن ليس في التفاخر ولا في مجالس اللهو، وإنما للتعارف وللتعاون في المحافل الدينية، وكما ينبغي الانتفاع باللباس كذلك ينبغي أن يستفيد المؤمن من نعم الأكل والشرب ولكن في حدود العدالة التي تحافظ على تعادل المجتمع، كما تحافظ على سلامة الجسد الذي يفسده الإسراف في الطعام.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ إن حرمة الإسراف، وضرورة تنظيم الأكل والشرب مظهر آخر من مظاهر التكاملية في الإسلام.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الإسراف قد يكون بتجاوز حدود الشريعة، فالذي يأكل لحم الخنزير، ويشرب الخمرة فهو مسرف لا يحبه الله، إذ ما دام الحلال واسعا. فلا حاجة إلى الحرام، وقد تتجاوز حدود العرف العام فتبني بيتا بمليون دينار في الوقت الذي يكفيك نصفه، وقد تشتري سيارة بعشرة آلاف دينار بينما تكفيك سيارة بألفين، وحدود السرف ترتبط بالظروف الاجتماعية، بل وحتى الظروف الشخصية، فالفقير الذي لا يملك سوى بضعة دنانير فيصرفها في شراء العطور، ويهمل عائلته جائعين يعتبر مسرفا، بينما لو فعل الغني مثل ذلك لم يكن كذلك، والدول الفقيرة التي تقلد الدول الكبرى في بناء المطارات الضخمة، أو المباني الرياضية الكبيرة، أو بناء سفارات فخمة تعتبر مسرفة، بينما قد لا يعتبر مثل ذلك إسرافا للدول الغنية.

هل حرم الله الزينة؟

[٣٢] لم يحرم الإسلام الزينة على المؤمنين، بل اعتبرها خالصة لهم يوم القيامة، فكيف يحرمها الله على المؤمنين في الدنيا؟.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فالزينة مخلوقة للمؤمنين في الدنيا ولكنها غير خالصة من شوائب المصائب، أما في الآخرة فهي خالصة لهم ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بالعلم والمعرفة يعرف المؤمن أن الاستفادة من نعم الله عزوجل لا ينقص الإيمان، وإنما ظلم الناس، أو الخضوع للظلم، أو السكوت على ظلم الظالمين هو الحرام وهو الأصعب مسؤولية وواجبا، ومن استطاع أن يحقق هذا الواجب، ويؤدي هذه المسؤولية فقد اقتحم العقبة وفاز، ولكن من دونها لا ينتفع له التخشن في المأكل وترك الزينة.

تحريم الفواحش جوهر الدين

[٣٣] ركزّ القرآن على حرمة الفواحش والبغي والشرك وهي جوهر الدين واثقل مسؤولية، وهذه المحرمات الثلاث تتصل بثلاث أبعاد من حياة الفرد هي:

الأول: العلاقات الجنسية: حيث حرم ربنا الفواحش، ومن أبرز مظاهرها الشذوذ الجنسي الذي يهدم الأسرة، ويفسد العلاقات الاجتماعية، ويسيء التربية وهكذا، وليست الفواحش الظاهرة كالزنا هي المحرمة فقط، بل الباطنة أيضا منهي عنها مثل: مصادقة النساء، وربما تشمل الفواحش الباطنة تلك الأسباب التي تؤدي إليها مثل الخلاعة، ووضع العقبات أمام الزوج ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

الثاني: السلوكيات الشخصية: التي حرم ربنا فيها الإثم وهو كل حرام مثل شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، والمحرم من اللحوم خصوصاً ما لم يذكر اسم الله عليه.

الثالث: ظلم الناس وتجاوز حقوقهم: سواء كانت الحقوق المالية كحرمة السرقة، والرشوة، والضرائب المجحفة، والغش، وأخذ المال من دون عمل مناسب. أو كانت حقوقا اجتماعية مثل حرمة الغيبة والتهمة والنميمة وما إلى ذلك، إن كل ذلك ظلم وحرام.

﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وربما يكون كلمة ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تفسير للبغي، وأن كل تجاوز للحق يعتبر بغيا وظلما حراما.

وبعد هذه المحرمات يأتي دور المحرم الخطير؟!. وهو المرتبط بالسياسة حيث يحرم الخضوع لسلطان غير سلطان الله، أو اتباع شخص أو جهة لم يأذن به الله، وبالتالي يجب رفض كل نظام يحكم بغير حكم الله، أو يدّعي تمثيله سلطان الله كذبا وزورا وهذا هو الشرك.

﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾ في سلطانه وسيادته القانونية والسياسية ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾

فإذا أنزل الله سلطاناً بجواز اتباع أحد عبر أدلة عقلية واضحة لا يرتاب فيها الشخص، آنئذ فقط يجوز أن يخضع الفرد له وذلك الشخص مثل الرسول ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام، والعلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه.

أما أن يتخذ الفرد شخصا قائده وإمامه، أو يتخذ حزبا يقلده ويتبع برامجه بصورة عشوائية، فذلك أمر لا يجوز أبدا.

وإذا كانت الولاية لله سبحانه وتعالى، ولمن أنزل الله فيه سلطاناً يجب أن تكون الثقافة السائدة على هذا المجتمع ثقافة حقة، لأن الثقافة هي الخلفية الرصينة لهذه الولاية، وذلك لا يكون إلا بعد سكوت الجاهل، وعدم إشاعة الأفكار الباطلة، فإذا سكت من لا يعلم بحث الناس عن العلم الصحيح، ووصلوا إليه عبر قنواته السليمة.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أما إذا شاع الافتراء على الله، فقال كل واحد كلاماً ونسبه إلى الله، فإن طريق الحق يضيع بين طرق الضلال، وكلمة علم واحدة تختلط بألف كلمة جهل، ولا سبيل آنئذ للإنسان للوصول إلى الحقيقة.

هذه هي المحرمات التي لو واجهت الفرد المسلم أو المجتمع المسلم في تنفيذها لبقي جزء منها غير مطبق، إلا من عصمه الله لأنها صعبة للغاية، أما إذا تجنب الفرد جانباً من الطيبات، وتصور أنه زاهداً، أو اعتبر الدين كله مجرد الابتعاد عن بعض اللذائذ، فإن ذلك خداع ذاتي لا أكثر.

عاقبة الذين يفترون على الله الكذب

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾.

هدى من الآيات:

بياناً وتوضيحاً للدروس السابقة، جاء هذا الدرس ليذكرنا بأن حياة الإنسان محدودة بأجله، وأن أجله لا يتأخر ولا يتقدم، فليس بإمكانه أن يطلب المهلة ولو لوقت قصير، وأن الفرصة الوحيدة هي الحاضر، حيث جاءت الرسل تقص آيات الله، فعلينا أن نتقي الله عزوجل، ونصلح العمل حتى لا تضرنا العاقبة، بينما التكذيب بآيات الله، والاستكبار عنها ينتهي بالنار الخالدة، ولكن لماذا التكذيب؟ أو ليس ذلك ظلماً يظلم به البشر نفسه وبلا سبب، حيث يكتب عليه القانون ما ينبغي له، وآنئذ لا يجد له ملجأ يلجأ إليه، أما أولئك الشركاء الذين

كان يتوعدهم الله، فإنهم يغيبون عنه ولا يجد لهم أثراً، وهناك يقول الله لهم: الحقوا بأسلافكم من الكفار. أولئك الذين يستقبلونكم باللعنة، ويقول المتأخرون: يا رب؟ عذب هؤلاء الذين أضلونا عذابا مضاعفا، لأنهم كانوا السبب في وقوعنا في العذاب، بيد أن الله تعالى يقول. وأنتم بدوركم سينالكم العذاب المضاعف لأنكم فعلتم الذنب، ولأنكم اتبعتم السابقين من دون سلطان. بيد أن للسابقين كلمة أيضاً، حيث يقولون للآخرين: ماذا انتفعنا باتباعكم لنا؟!.

بينات من الآيات:

بين الأجل والعمل

[٣٤] أن يعرف البشر أن عقاب أعماله ليست عاجلة ولكنها مؤجلة لوقت محدد، إن ذاك يعطيه مزيدا من الكبح الذاتي، وينمي وجدانه الرادع ويربيه، ولكن قد يزعم البشر أنه ما دام العقاب مؤجل فمن الممكن أن نستفيد من تأخير العقاب مرة بعد أخرى، حتى نتوب أو نعمل صالحا فيرتفع العقاب رأسا، ولكن القرآن يسفه هذا الزعم: بأن لكل أمة أجلا حدده الله، وبالرغم من أن هذا الأجل مجهول إلا أنه معلوم عند الله، وإذا بلغ أجله فلن يتبدل، فعلينا إذا انتظار ذلك الأجل في كل لحظة، ولا مفر منه ولا تأخير فيه، وليس لدينا قدرة على مقاومته إلا بالعمل الصالح الذي يجعل الأجل في صالحنا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي وقت تستنفذ الأمة خلاله كل إمكانات التذكر والإيمان ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وكم يكون خطيراً هذا الأجل إذا جاء دون أن يعمل الإنسان صالحاً.

[٣٥] ولذلك فعلينا أن نستعد للأجل المحدد الذي لا يتغير، والاستعداد لا يتم إلا بالاستجابة لرسالات الله ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ فعليكم الاستجابة لهذه الرسالة، التي تفصل لكم كل شيء تفصيلا ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا خوف عليهم بسبب أعمالهم الصالحة، فهم لا يخشون بلوغ الأجل ونهاية الفرصة.

كما الطالب المجد لا يخشى الامتحان، وكما البريء لا يخشى المحاكمة، وهم لا يحزنون على ماضيهم الذي استغلوه بالعمل الصالح. استعداداً لهذا اليوم.

وربما تكون التقوى هي: الجانب النفسي، والإصلاح هو: الجانب العملي.

[٣٦] بيد أن الخوف والحزن من نصيب الكفار الذين يكذبون بالآيات بعد وضوحها، فهي علائم صريحة على الحقيقة التي لا يصدقون بها استكباراً، واستجابةً لأهوائهم، وعقدهم

النفسية ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ إن جزاء هؤلاء الاقتران بالنار، والتلاحم مع عذابها دون أن يجدوا خلاصاً ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وخلود هؤلاء في النار يعتبر الجزاء المناسب لعنادهم الذي لا رجاء في إصلاحه، ولاستكبارهم الذي جعل قلوبهم في صندوق حديدي لا ينفذ إليه النور والهواء، بالرغم من قوة ضياء النور أو زيادة دفع الهواء.

[٣٧] إذا كم يكون ظلم البشر لنفسه كبيرا حين يجعل نفسه في هذا المأزق الخطير، ويستكبر عن الحقيقة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ إن البشر حين يستكبر ويتطاول على الحقيقة يخدع نفسه والآخرين بصنع بديل للحقيقة، فهو من جهة يكفر بالحقيقة والآيات والعلائم الواضحة التي تدل عليها، ومن جهة ثانية يخلق لنفسه أفكارا وينسبها إلى الله كبديلة عن الحقائق، وجزاء هؤلاء هو: أن تلك الحقائق التي كفروا بها ستحيط بهم وتنتقم منهم.

﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ إن نصيب المؤمنين العاملين بالكتاب هو تحقق المكتسبات الرسالية الحسنة لهم، أما نصيب الكفار الرافضين للكتاب فهو تحقق العقوبات التي ينذر بها الكتاب ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي تلك الأفكار، وأولئك الشركاء الذين كانوا يجسدون تلك الأفكار في الواقع العملي، أين هم الآن؟ وقد كنتم تعتمدون عليهم، وتزعمون بأنهم يشكلون البديل المناسب عن الحقيقة، وعن آيات الله!.

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ كافرين بالحقيقة، وبالتالي شهدوا على أنفسهم بأنهم يستحقون العذاب.

حوار التابع والمتبوع

[٣٨] لأن هؤلاء كانوا مستكبرين، لذلك كانوا يفتخرون بأنسابهم وبعشيرتهم، وبالسابقين من آبائهم وكبرائهم، وحين اجتمعوا في النار ببعضهم، كان بين التابعين والمتبوعين منهم حوار نافع لنا ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ بالرغم من أن الأمم اللاحقة تعتمد على الأمم السابقة في الدنيا، لكنها في الآخرة -ولوضوح الحقائق عندهم جميعاً- يلعن بعضهم بعضا ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا ﴾ أي اجتمعوا إلى بعضهم، وأدرك بعضهم بعض ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ أي تلك الأمم المتأخرة ﴿لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ لأنهم أضلوا وسنوا سنة سيئة،

فسربا عليها فهم يستحقون ضعفاً من العذاب ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ لأولئك بسبب أسبقيتهم بالكفر، لأنهم سنوا تلك العادات السيئة، وروجوا لتلك الأفكار الباطلة، وكل من يدعو إلى فكرة باطلة فله عذاب من يعمل بها.

أما أنتم فعليكم ضعفاً من العذاب، لأنكم اتبعتم أولئك من دون سلطان من الله أنزل عليكم، فالذي يعمل السيئة بسبب شهواته عليه من العذاب بقدرها، أما من يعملها تقليداً لغيره فعليه بالإضافة إلى عذابها عذاب التقليد الباطل، لأنه يحرم شرعاً أن تتبع أحداً من دون الله تعالى، فإن إتباعك له شرك وضلالة بذاته، إنه كفران بنعمة الحرية، وتحطيم لكرامة الله عزوجل عليك ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

[٣٩] والسابقون أجابوا أتباعهم بأنهم لم يزيدوهم باتباعهم شيئاً، فما الذي إنتفع به فرعون من اتباع ملوك مصر له، وما الذي انتفع به سائر الظلمة المشهورين من إتباع بعض الحكام لهم ولأساليبهم؟ لا شيء.

﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ إن العذاب الذي يذوقه الكفار إنما هو بسبب ما اكتسبوه من أعمال، لا بسبب هذا الشخص أو ذاك.

عاقبة المكذبين والمستكبرين

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ[1] ٱلْخِيَاطِ[2] وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ[3] وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ[4] تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق. ذكرنا القرآن بسفاهة الإستكبار، وفي هذا الدرس يبين لنا جزاء الإستكبار، الذي هو في الواقع متصل بطبيعة الإستكبار.

التكذيب بالآيات، والإستكبار عنها معناه الخلود إلى الأرض، والاعتقال في السجون المادية، ولذلك لا يعرج المستكبر في سماء التقرب إلى الله، ولا يحلق في أجواء المعرفة والكمال،

---

(١) سم: الثقب.

(٢) الخياط: الإبرة.

(٣) عواش: الغواش جمع غاشيه وهو كل ما يغشاك أي يسترك.

(٤) غل: الفعل الحقد الذي ينفذ بلطفه إلى صميم القلب، ومنه الغلول وهو الوصول بالحيلة إلى دقيق الخيانة.

وكأن أبواب السماء مغلقة في وجهه، أما الجنة في الآخرة فإنها مغلقة دونهم ويستحيل عليهم دخولها، كما يستحيل ولوج الجمل بضخامته في ثقب المخيط.

إن ذلك جزاء المجرمين بسبب جريمتهم التي ارتكبوها، أما منزل هؤلاء في جهنم فأرضها من نار، وسقفها من لهيب ودخان، وهذا جزاء من يظلم نفسه.

وفي الطرف الثاني: المؤمنون الذين يعملون الصالحات حسب طاقاتهم ووسعهم يدخلون الجنة ويخلدون فيها:

وأبرز نعمة يسبغها الله عليهم هي نعمة الراحة النفسية، والصفاء بين بعضهم، حيث ينزع الله ما في صدورهم من غل وحسد ونفاق.

أما النعمة الثانية فهي: الأنهار التي تجري من تحتهم.

والنعمة الثالثة هي: رضاهم وتحقيق طموحاتهم، وشكرهم لربهم وشكر الله لهم، حيث يناديهم بأن الجنة إنما هي ميراث اكتسبوه بأعمالهم.

بينات من الآيات:

كيف يخسر المستكبرون

[٤٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا ﴾ الذين كذبوا بآيات الله عزوجل زاعمين أن التكذيب يخدم ذواتهم، ويشبع إحساسهم بالعلو والعظمة خسروا مرتين. مرة حين سدوا على أنفسهم بسبب التكذيب أبواب الرحمة وآفاق العلم ورحاب الحياة، إذ أن التكذيب كان معتقلا حصينا سجنوا أنفسهم بين جدرانه الضخمة المرتفعة، والشرط الأول للاتصال بالحياة هو معرفتها، وبعد المعرفة يسهل تسخير الحياة لأهداف البشر. والذي لايعترف بالمعرفة، ويكذب بآيات الحقيقة، بل لا يعترف بأن هناك واقعا عليه أن يوفق نفسه وأعمال حسبه، كيف يتسنى له تسخير الحياة؟!. من منا يكفر بالحياة ويهدم على نفسه السلالم التي لابد أن يتسلقها؟!. والخسارة الثانية: أنهم يخسرون مكانهم في الجنة، ويدخلون النار.

إن التعبير القرآني يسمو إلى منتهى اللطف والدقة حيث يقول: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم إن البشر يسمو بمعنوياته وبدعائه وبإيمانه وبإرادته وبرؤيته البعيدة وكل ذلك مسلوب ممن يكذب بآيات الله، لأنه لايعترف بالله تعالى ولا يريد الإيمان به.

إن أبواب السماء مفتوحة أمام أعمال المؤمنين ودعواتهم، بعكس الكفار.

ويأتي القرآن ليبيّن الخسارة الثانية فيقول: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ولأنه مستحيل أن يدخل الجمل بضخامته في ثقب المخيط لصغره، فإن دخول الجنة هو الآخر غير واقع ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ فليس ذلك فقط بسبب كفرهم واستكبارهم، بل وأيضا بسبب إجرامهم العملي، وبقدرة الله عزوجل أيضاً وقبل كل شيء.

[٤١] محل هؤلاء النار، حيث يستقرون في جهنم وفوقهم ظلل من اللهيب والدخان، تغشاهم وتسترهم.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ بظلمهم وبقدر ذلك الظلم، وحسبما يبدو لي: إن الجمل الاعتراضية في القرآن كالتي سوف تأتي في الآية التالية وهي: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إنها والجمل النهائية مثل آخر الآيتين الأخيرتين وما أشبه هي إشارات إلى الفطرة البشرية التي يهدي إليها العقل، ويذكر بها الوحي، وتبنى عليها شرائع السماء جميعا، فالجريمة والظلم قبيحان وجزاؤهما يجب أن يكون شديدا، والمستكبر المكذب بآيات الله. مجرم ظالم، وهذه الإشارات تشكل القيم الأساسية في القرآن الحكيم.

عاقبة المؤمنين

[٤٢] تلك كانت عاقبة المكذبين الظالمين، فما هي عاقبة المؤمنين الصالحين؟

أولاً: هؤلاء لا يكلفون فوق طاقتهم، فليس الإيمان أو الواجبات شيئا شاقا حسبما يوهم الشيطان للبشر، بل هو عمل ميسور.

ثانياً: إن مصير الإيمان والصلاح الجنة والرضوان، وصاحب الإيمان والصلاح هو صاحب الجنة والرضوان، ذلك حق لا ريب فيه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[٤٣] **ثالثاً:** أن الإيمان بالله تعالى هو مثل للخروج من معتقل الذات إلى رحاب الحقيقة، ومن نتائجه الأولية الواقعية في الرؤية، وأن يرى الشخص نفسه، ويرى الآخرين معه، فلا تضيق نفسه بما أنعم الله عليهم، ولا ينافق معهم ولا يسلب منهم نعم الله، أو يحب ذلك ويعلم أن فضل الله على أي أحد يتناسب وطيبة نفسه ومقدار عمله وحكم الله في الحياة، فإذا لماذا الحقد والحسد؟ ولماذا الفسق والتزوير والنفاق؟ هذه الصفة تنعكس في الآخرة على شكل مؤانسة وصفاء بين قلوب المؤمنين ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الرضا من نعم الله على المؤمنين في الجنة، فهم كما رضوا في الدنيا بما قسم الله عليهم وأسلموا

لربهم، راضون في الآخرة لأنهم رأوا عاقبة عملهم الصالح ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إذا فهي نعمة كبرى لايبلغها الفرد بذاته، بل بالله سبحانه، ومن هنا يستوجب المزيد من الشكر، والمزيد من الحمد والرضا ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

كانوا يؤمنون بهذا الحق في الدنيا إيمانا غيبيًا، وها هم يرونه عين اليقين أمامهم، وكما أن المؤمنين يشكرون ربهم، فإن الله يشكرهم ويشعرهم بأن أعمالهم الصالحة هي التي أوجبت لهم هذا الفضل العظيم، وبهذا يزدادون إحساساً بالرضا والاعتزاز، إذ فرق بين أن تحصل على نعمة صدفة أو تخطط لها وتتعب نفسك فتصل إليها بجهدك ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ العظيمة الواسعة النعم ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأعمالكم الصالحة هي التي جعلتكم تملكون هذه الجنان إرثا حلالاً.

جزاء الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ[1] رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ (٤٦) ۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٧)﴾.

هدى من الآيات:

في صورة حوار يجري مستقبلاً بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، يجسد القرآن الحكيم حقائق الحاضر، وأبرزها أن ما يقوله الله حق، وأن لعنة الله على أولئك الذين يظلمون أنفسهم فلا يستجيبون للحق، بل يصدون الناس عن سبيل الحق، ويحرفون السبيل ليضلوا الناس وهم يكفرون بالآخرة.

بين الجنة والنار مرتفع من الأرض أشبه ما يكون بسور يقف عليه أئمة الصلاح، الذين يعرفون المؤمنين والكافرين بسيماهم، وينادون أصحاب الجنة ويسلمون عليهم. ويأذنون لهم بدخول الجنة، وقد استجيبت كل طلباتهم، فلا يطمعون في شيء آخر.

بينما لا ينظرون إلى أهل النار، إذا صرفت أبصارهم تلقاء جهنم فزعوا من هول جهنم، وخافوا أن يصبحوا من أهل النار من شدة فزعهم وقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

إن هذا الدرس يتابع فكرة الدروس السابقة التي هي تصوير للحقائق، لعل البشر يخرج من قوقعة ذاته إلى رحاب الحقيقة.

---

(١) الأعراف: الأمكنة المرتفعة، والعرفاء من الناس أعلاهم منزلة، والعريف الشرطي.

بينات من الآيات:

كيف نتذكر الحقيقة؟

[٤٤] لكي يتغلب البشر على مشكلة النسيان في ذاته، ويتمكن من تذكر الحقائق التي يهتدي إليها بعقله، ويحيط بها علمه، وبالتالي لكي يشاهد بأحاسيسه وببصيرته الحقائق القادمة، فعليه أن يتسلح بالتصور، وتجسد الحقائق أمامه يقرب بالخيال واقعيات المستقبل التي لا يعلم بها إلا رمزا.

مثلاً: الجندي الذي يتدرب في المعسكر والذي يعلم أنه سوف يخوض في المستقبل معركة المصير، وأنه لو تدرب جيداً فسوف يتغلب فيها وإلا فلا. على هذا الجندي أن يتصور أبدا ساحة المعركة ومدى المكسب فيها عند الانتصار ومدى الضرر عند خسارتها، وكذلك الباحث في مكتبه، والعامل في مصنعه، والمدير في دائرته، كل أولئك لو فكروا في مستقبل أعمالهم وتذكروا ذلك المستقبل إذا لعملوا أفضل وأفضل.

والقرآن الحكيم يصور لنا المستقبل في صورة حوار بين المؤمنين والكافرين، وهذا الحوار يتم بشكل مناداة فإذا بالقشور السميكة التي تحيط بقلوبنا تتفتت بفعل هذا الصوت المخترق.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فما دام كلام الله حقا، ووعده صدقا، فلماذا التكذيب به؟! ولماذا الامتناع عن الاستجابة له وفيه منافعه؟! إن ذلك ظلم عظيم، ورحمة الله تتمثل في جنته، وتوفيقه بعيد عن الظالم..

وسوف نتحدث -إن شاء الله- عن المؤذن الذي نتصور أنه صاحب الاعراف الآتي ذكره.

ظلم النفس والمجتمع

[٤٥] والظالم لايبقى في حدود ظلمه لنفسه، بل أنه سوف يظلم الناس أيضاً، وسوف يدعو الناس إلى منهجه الباطل، ويقف عقبة أمام توجه الناس إلى الله، بل ولا يدع الناس يعملون الخير ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

[٤٦] ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وبين أهل الجنة والنار حجاب، والحجاب في الآخرة تعبير عن الحجاب في الدنيا بين المؤمن والكافر، ذلك هو الفرق بين فريقي المؤمنين والكافرين.

واختلاف جبهتيهما حيث أن المؤمن الذي لا يؤمن بهذا الحجاب يشك في إيمانه.

وبالرغم من اختلاط الناس ببعضهم في الدنيا فهم في الآخرة مختلفون جداً، وبين الجنة والنار أعراف وهو: مرتفع من الأرض يفصل بين الموقعين؛ ويجلس عليه رجال معينون أهم ميزة فيهم هي: معرفتهم التامة بالناس ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ﴾ ويبدو أن هذه الفئة هم القدوات والأئمة الذين يميزون بين الحق والباطل، وصفات أهلهما، وبالتالي يعرفون كلا منهما، هذه الفئة هم القادة المؤمنين في الدنيا، وفي الآخرة قادة الناس جميعا، فهم يميزون هناك كما في الدنيا بين الطائفتين، وهؤلاء يعطون للمؤمنين الإشارة الخضراء لدخول الجنة ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ وحين يدخل المؤمنون الجنة تملأ الجنة كل طموحهم وتطلعهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

[٤٧] ويبقى هؤلاء الأئمة متوجهين في الأكثر إلى أهل الجنة، وإذا توجهت نظراتهم إلى أهل النار مرة واحدة أفزعتهم النار بما فيها من أنواع العذاب، وطلبوا من ربهم نجاتهم منها ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

هكذا ينسى الله الذين اتخذوا دينهم لعبا

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ (٤٩) وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٥٠) ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ (٥١) وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥٢) هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ (٥٣)﴾.

هدى من الآيات:

في جو النداء الصارخ ومع الحوار الساخن يذكرنا السياق القرآني بذات الحقائق التي يذهل عنها الناس وهم يصارعون المشاكل اليومية، أولئك الناس الذين يعتمدون على العشيرة والحزب والزملاء.

ولذلك فهم يستكبرون عن الحقائق ولكن عند الله عزوجل لا يغني كل ذلك عنهم شيئا، وقد يستصغر البشر المؤمنين لقلة عددهم وضعف عدتهم، ويحلفون بالله تعالى أنهم

منبودون عنده، ولكن الله يدخل هؤلاء الجنة، وهناك يطفق أولئك المستكبرون المعتمدون على كثرة العدد والعدة بالسؤال من المؤمنين أن يعطوهم الفائض من مائهم، والفتات من نعم الله عليهم ولكن هيهات.

إن الكفار الذين حرموا على أنفسهم نعمة الدين، واتخذوه أداة للتسلية، واستهانوا به، وانبهروا بعاجل الدنيا. إنهم حرموا على أنفسهم بذلك نعم الآخرة أيضاً. إن الله ينساهم هناك كما نسوا الآخرة، وكما أنكروا آيات الله الدالة على الحقائق.

والله لم يقصر في هداية الناس حتى يحتجوا عليه يوم القيامة، بل جاءهم بكتاب مفصل ومبين في كافة حقول الحياة، خلفيته العلم والمعرفة، وهدفه التوجيه والهداية، ونهايته السعادة والرحمة، بينما الكفار ينتظرون تطبيق آيات الكتاب عمليا حتى يؤمنوا به، وآنئذ لاينفع الإيمان.

بينات من الآيات:

التصور اجنحة الحقيقة

[٤٨] في يوم القيامة حين ينشغل الجميع بأنفسهم، يتفرغ أصحاب الأعراف وهم أئمة المتقين لمحاسبة الناس واسترجاع ذكريات الماضي.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ ﴾ أي ملامحهم التي تتأثر بالعذاب، وتمسخ عنهم الإنسانية إلى صور مفزعة ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ أي ما الذي أفادتكم الجماعة التي اعتمدتم عليها وزعمتم أنها ستنفعكم في أوقات العسر والشدة فأين هم الآن! ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ أي أين ذلك الغرور الذي جعلكم تستكبرون به، أين القوة وأين الشباب وأين المال وأين الصحة؟؟ وبالتالي أين تلك الماديات الزائفة التي غرتكم، وجعلتكم تتطاولون على الحقيقة وتحسبون أنفسكم فوق الحق وأعلى من القيم؟!.

إننا إذ نتصور ذلك اليوم، وتلك الساعة التي يخاطب أصحاب الأعراف واحدا منا إذا كان مستكبرا -لا سمح الله- لنعود ونرتب أوراقنا من جديد، ونتساءل عما إذا كنا في ذلك اليوم غير قادرين على التوبة، أو على العودة إلى الحياة للتوبة، فما دمنا نملك فرصة الحياة إذا دعنا نتوب إلى ربنا، ونصلح أنفسنا ونتقرب إلى أصحاب الأعراف الذين مثلهم بيننا مثل الأنبياء بين أقوامهم، يعرفون ملامح المؤمنين وملامح الكفار، ويتضرعون إلى الله لإصلاح الناس بعد إصلاح أنفسهم، نتقرب إليهم ونستمع إلى نصائحهم التي تشبه نصائح الطبيب الذي يكشف المرض، ويعرف ملامح المريض لعل ذلك يؤثر في مصيرنا، ومرة أخرى أقول: دعنا نتصور ذلك الموقف الرهيب،

فإن التصور أجنحة الحقيقة التي تجعلك تلامس الواقع المستقبلي، وترى الغيب البعيد.

[٤٩] وينظر أصحاب الأعراف إلى أهل الجنة، ويسألون أهل النار ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ ﴾ وحلفتم زوراً وكذباً، وتمادياً في غروركم واستكباركم.

﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ﴾ هذه رحمة الله تغمرهم، ثم يخاطبون المؤمنين: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ فعلى الإنسان ألا يزعم أن تأكيده وحلفه بغير الحقيقة، بل يفضحه أكثر فأكثر، فهناك يستبد به الخوف على مستقبله والحزن على ماضيه.

[٥٠] ويكون مصير الكافر بالحقيقة الاستجداء من المؤمنين، الذين كان إيمانهم بها سبباً لحصولهم على الجنة، وتسخيرهم إياه لنعمه ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

[٥١] ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ الكافرون لم يتحركوا عبر المنهج المرسوم بل واستهزءوا به أيضاً، فبدل أن يزرعوا أحرقوا، وبدل أن يبنوا هدموا، وبدل أن يسيروا على الطريق أحرقوا معالمه، كل ذلك جعلهم يعضون أناملهم حين الحصاد، ويفترشون الأرض ويلتحفون السماء ويضلون الطريق.

[٥٢] لقد جاءهم ربهم برحمته الواسعة المتمثلة بكتابه الذي أتم به حجته عليهم، حتى إذا نسيهم في الآخرة فليس لهم أن يقولوا لماذا؟.

إن ذلك النسيان كان نتيجة سوء انتخابهم.

وهذا الكتاب مفصل بما فيه من بصائر وحجج وتشريعات، والتفصيل قائم على أساس العلم الإلهي المحيط بكل شيء.

وهدف هذا الكتاب توفير فرص الهداية لمن آمن ووطّن نفسه للحق، وإسباغ النعم رحمة لمن عمل به: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

الدين منهج الحياة

الدين منهج حياة يهديك إلى العمل الصالح في الدنيا الذي يتجسد في الآخرة نعيماً مقيماً، إنه أرض خصبة تزرعها وتأخذ نتاجها حين حصادها، ومعالم على الدرب تعمل على هداها حتى تبلغ غايتك.

ومن الناس من يتخذ الدين لهوا يعمل به دون هدف، أو حتى لعبا يضعه حسب مشتهياته، فإنه آنئذ لا ينتفع بالدين، وهو بالتالي لا يحصد نتائجه ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ أما قيادة هؤلاء فهي بيد أهل الدنيا، لأن الدنيا قد استعبدتهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ إن هؤلاء ينسون مستقبلهم ويختصرون حياتهم في حدود الحاضر ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ من ينسى يوم الحصاد ينساه الناس في ذلك اليوم، لأنه قبلئذ كلما قالوا له: ازرع لم يسمع، وجحد بآيات الله ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾.

قيمة العقل

[٥٣] قيمة العقل الأساسية أنه يرشدك إلى الحقائق المستقبلية، ويجعلك تتجنب المشكلات والصعوبات قبل وقوعها، والرشيد حقا هو: الذي يتنبأ بالمستقبل، بينما الغبي حقاً هو: الذي لا يعترف إلا بالواقع الحاضر، فإذا قيل: إن هذا الجدار يريد أن ينقض، اتكأ عليه وقال: إنني لم أهدم الجدار، وحين ينهدم الجدار سأقوم عنه، ولكن إذا انهدم الجدار هل يبقى له اختيار؟ كلا..

كذلك المؤمنون والكفار، أولئك يعقلون المستقبل ويتنبئون به، ويعملون وفق الرشاد الذي يهديهم إليه العقل، بينما هؤلاء ينتظرون وقوع الحقائق وحضورها عندهم، وهذا ما يسميه القرآن بالتأويل، أي عاقبة الأمر وما يؤول إليه، وبعد التأويل وحضور المستقبل لا ينفع العلم به شيئا، إذ آنئذ حتى الحمار يراه!!.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ إن انتظار الشفيع، أو العودة إلى الماضي هو نوع من الغباء أيضا، إذ كيف يبني الله الحكيم الجزاء على أساس عمل الآخرين، وليس على أساس عمل الشخص ذاته مباشرة أو غير مباشرة؟! وكيف يعود الماضي؟!

إن للإنسان فرصة واحدة فقط هي مدة عمره، فإذا انقضى أجله، ولم يستفد من الفرصة ضاعت عليه نفسه وإلى الأبد ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ إن نفسك مقسمة على ساعات عمرك، فكلما ضيعت ساعة أكل الندم جزءاً من نفسك.

أما الباطل الذي لا يستمد وجوده وشرعيته من الحق والواقع، فإنه يضل كما السراب في الصحراء، إن تصوراتك تعتمد على وجودك فإذا خسرت نفسك فهل تنفع تصوراتك وخيالاتك؟ فالسعي مردود، والجهد خائب، وهذا وذاك في ضلال مبين ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

بالدعاء يستنزل المحسنون بركات الله

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا[1] وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾.

هدى من الآيات:

في الدروس السابقة تذكرة بمصير المؤمنين والكافرين، وحان الآن وقت توجيه القلوب إلى الله الذي لو عرفه البشر لصلحت سريرته وعلانيته، ومعرفة الله تتم بآياته المنتشرة في السماء والأرض، فهو الذي أبدع السماوات والأرض، وكلما توسع العلم في السماء أو تعمق في الأرض، كلما ازداد معرفة بالله وبعظمته، لقد خلق الله الخلق في ستة أيام علامة لقدرته وسيطرته التامة والمستمرة على الخلق، والدليل على ذلك: أن الله يدبر أمور الكون، وهو الذي يجعل الليل يغشي النهار ويلاحقه باستمرار، وهو الذي يسخر الشمس والقمر والنجوم فيأمرها ويجبرها على الطاعة، ذلك لأنه خلق الخلق في البدء وأجرى أموره بصفة مستمرة، لذلك فهو واسع المقدرة، مبارك تنمو خلائقه وهو رب العالمين.

وعلى العباد أن يتوجهوا إلى ربهم بالدعاء والتذلل بروح متواضعة، ذلك لأن الله يحب المتذللين له، ولا يحب المعتدين الذين بسبب تكبرهم على ربهم، وعدم تربية أنفسهم بالدعاء يعتدون على الناس.

---

(١) حثيثاً: الحثيث السير السريع.

وبسبب معرفة الله، والتذلل له تنمو عند البشر روح الإصلاح، ومن دونهما تفسد سريرته وتجنح نحو الإفساد، والله أصلح الكون بخلقه الصالح وبهداه، وإذا التزم الإنسان الدعاء، وخشي غضب الله، وطمع في رحمته كان صالحا ومحسنا.

بينات من الآيات:

من هو الرب وما هو دور الزمن؟

[٥٤] من هو رب البشر الذي يتوكل عليه ويستلهم منه هداه ومنهجه؟ أنه ليست هذه الأصنام الحجرية، ولا تلك الأصنام البشرية، الذي خلق السماوات والأرض، وكانت خلقته متدرجة للخلائق، لذلك فهو رب يربي الأشياء كما يربي الأشخاص.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ربما تكون الأيام الستة رمزاً لستة مراحل مرت بها الخليقة، أو إشارة إلى فترة من الزمن ممتدة ومتدرجة، وبالتالي إشارة إلى دخول عنصر الزمن في ذات الأشياء، أو تكون توجيها إلى نقص الأشياء أو تطورها نحو الكمال وفق سنة الله سبحانه وبأمره، إلا أن الفكرة التي نستوحيها من الأيام الستة في الخليقة هي: أنها بحاجة إلى تربية الله وحسن توجيهه، والذي ربى الخلائق أحرى به بأن يتخذ ربا للبشر.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فبعد أن خلق الخلق لم ينته إشرافه على الكون، كما يصنع أحدنا الساعة ويكونها فتتحرك من دون أشراف له عليها، كلا.. إن ربنا استوى على عرش السلطان والتدبير، واخذ يجري تلك السنن التي وضعها في الخلائق بعلمه وقدرته.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ فالليل لا يغشى النهار بصورة طبيعية، بل الله هو الذي يجعله يغشي النهار ويلاحقه بإصرار ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ذلك الأمر المستجد كل يوم وكل ساعة ولحظة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الخلق الأول والأمر المستجد ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الله مبارك لأن رحمته مستمرة ومتنامية، ومبارك لأن خلقه في تكامل، ومبارك لأنه رب العالمين، فهو الذي يعطيه القدرة والتطور والرحمة.

الدعاء مصنع الإنسان

[٥٥] ولكن أي رب ندعو؟ الله عز وجل أم الأصنام؟.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ إنه ربكم غير تلك الآيات المخلوقة، وليكن دعاؤكم من أجل

خروجكم من غلظة الأنانية إلى رقة الضراعة، ومن فقر الإستكبار وذل المعصية إلى غنى العبادة وعز الطاعة.

إن الإنسان يولد ـ كما زبر الحديد ـ فيحتاج إلى صقل، والدعاء هو ـ ذلك المبرد الذي يصقل النفس الإنسانية، لأن الدعاء يولد في القلب إحساسا بالنقص، وثقة بإمكان التغلب عليه، والدعاء يعرف الفرد بمواطن ضعفه وضرورة جبرانها، والدعاء يجعلك واقعيا تعترف بجدواك، لذلك فهو أفضل وسيلة لكبح شهوة الاعتداء على الآخرين والبطش بهم.

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ التضرع لكي يكون الدعاء واقعيًّا، ولإصلاح الذات، ولعلاج داء الإستكبار ومرض الفخر والعزة بالإثم، أما الخفية فلأجل ألا يصبح الدعاء رياءً، وبالتالي تكريساً لمرض التكبر والفخر ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الذين بسبب عدم تضرعهم لله وخضوعهم لعظمته يجنحون نحو الاعتداء على الآخرين، وبدل إصلاح أنفسهم بالطريقة السليمة فهم يحاولون تعويض نواقصهم عن طريق الظلم واغتصاب حقوق الآخرين، أو يحاولون تعويض شعورهم بالنقص بالإستكبار على هذا أو ذاك.

إن رحمة الله قريب من المحسنين

[٥٦] الإحساس بالمحبة للحياة، وبضرورة إصلاحها هو الشعور المنبعث من الخضوع لله، والدعاء إليه تضرعاً وخفية، وبالتالي فإنه انعكاس إيجابي للإيمان بربوبية الله سبحانه، ومحاولة تقليد هذه العلاقة (علاقة الربوبية) فيما يتصل بتعامل البشر مع الحياة، فكما أن الله يرحم العباد، ويخلق الأشياء ويسخرها، ويتسلط عليها من أجل إجراء السنن الأخيرة عليها، ومن أجل تكميلها وإنزال بركته عليها، كذلك عليه أن يتقمص صفة الخلق والبناء والإصلاح لا صفة الاستهلاك والهدم والإفساد ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

والسؤال هو: كيف ننمي في أنفسنا صفة الإصلاح؟.

الجواب: عن طريق دعاء الله، والمزيد من التقرب إليه تعالى.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفاً من عذابه وسلب نعمه، وطمعاً في المزيد ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين دأبهم ليس فقط إصلاح الحياة، بل إصلاح الناس أيضا، والعطاء من أنفسهم لهم، إن الخوف والطمع من الله يخلق في البشر صفة الإحسان إلى بعضهم أكثر فأكثر.

الإنسان بين سنن الطبيعة وبصائر التاريخ

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ[1] سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا[2] كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾.

هدى من الآيات:

لكي نفهم علاقة الربوبية التي تسود بيننا وبين خالقنا، تلك العلاقة التي تعني أن الله يتابع نعمه علينا ويبارك لنا ويكمل حياتنا، لكي نفهم تلك العلاقة وتستفيد منها علمياً وعمليًّا لابد أن نلقي نظرة على الطبيعة، ونظرة إلى التاريخ، فمن الطبيعة نستوحي التطور المادي الذي يباركه الله عز وجل، وفي التاريخ نتبصر آثار التكامل الاجتماعي والمعنوي.

---

(١) أقل: الإقلال حمل الشيء بأسره حتى يقل في طاقة الحامل له بقوة جسمه.

(٢) نكداً: النكد العسير الممتنع من إعطاء الخير على وجه البخل.

لننظر إلى المطر، كيف يرسل الله عزوجل الرياح مبشرات بالربيع والرخاء، ولتحمل السحاب المليئة بالماء وتساق من قبل الله تعالى إلى بلد ميت، فإذا بالماء يحيي الأرض ويخرج نبات كل شيء، وهكذا كما في الربيع عندما يحيي الله تعالى الأرض ويبعث فيها الحياة، كذلك في يوم القيامة يخرج الله الموتى، والقضية بحاجة إلى تذكر وتفهم.

بيد أن إنزال المطر لا يعني الحياة، بل يجب أن تكون الأرض مستعدة لتقبل النعمة والاستجابة لها، فالأرض الطيبة تخرج نباتها بإذن الله، أما الأرض الخبيثة فإن نباتها يخرج نكداً، كذلك آيات الله التي أنزلت على الرسل عليهم السلام بحاجة إلى أرضية مناسبة لدى الإنسان حتى يستفيد منها، تلك الأرضية هي أرضية الشكر والاستجابة، وإلا فلا تنفع وهذا أعظم درس نستفيده، من النظر إلى التاريخ، فلقد أرسل الله نوحاً عليه السلام إلى قومه، حيث دعاهم إلى عبادة الله، وحذرهم من عذابه العظيم، بيد أن قومه اتهموه بالضلالة، فنفى عن نفسه الضلالة وبين لهم أنه رسول من رب السماوات والأرض، وأنه جاء لينصحهم لأنه يعرف من دونهم تعاليم السماء، وكيفية الاستفادة منها، ثم بين لهم أنه لا عجب في أن يرحم الله عباده، لأنه ربهم الذي ينزل عليهم بركاته دائما، ويزيد لهم التكامل والتطور، وأن رسالة الله تهدف الاستفادة من الإنذار لكل البشر معنويا بالتقوى، وماديا بالرحمة.

بيد أن تكذيب الناس لنوح عليه السلام ورسالته سبب غضب الله تعالى لهم، لأنهم كانوا قوما عمين عموا عن الحق وضلوا فأضلوا.

بينات من الآيات:

التدبير الحكيم والقدرة المهيمنة

[٥٧] القرآن الحكيم يلفت نظر البشر إلى الطبيعة الزاخرة بالحيوية والجيشان، وانطلاقا من الحقائق الظاهرة المشهورة يبلغوا الحقائق الغيبية المعقولة.

الحقيقة المشهورة هي أن الرياح التي تبشر بالمواسم الخيرة وتحمل السحاب الثقال، فيسوقها الله عزوجل إلى البلد الميت لينزل منها الماء ويخرج به الثمرات، هذه الحقيقة المشهورة تكشف لنا أمرين:

الأول: أن وراء الطبيعة إرادة حكيمة تسيرها.

الثاني: أن تلك القدرة المهيمنة على الكون هي التي تخرج الموتى من الأرض وتبعثهم للحساب.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ فالرياح لا تأتي عفوياً، بل

يرسلها الله إرسالاً، والدليل هو هدفية الظواهر، فالرياح تهدف البشارة برحمة قادمة، والبشارة هدف لا يمكن تحقيقه عبثا، ومن دون خطة حكيمة وفعل منظم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ إن كل ذلك يتم بإرادة الله وحسن تدبيره، ولو لا ذلك لم تكن الصدفة قادرة على تحقيق هذه الأهداف، إذ أن الهدف هو البشارة بالرحمة، وإحياء البلد الميت، وإخراج الثمرات، ولا يمكن تحقيق ذلك بمجرد تحرك السحاب، بل بمجموعة عوامل متفاعلة ومتزامنة كأن تكون الأرض مستعدة، والطقس ماسا، والأمن مستتبا، وأن يكون مقدار المطر كافيا، غير ناقص ولا زائد عن الحد، وهكذا حتى يحيي الأرض ويخرج النبات، وذلك يدل على أن هناك هدفا وراء السحاب يجريه الله سبحانه بعلمه وقدرته.

وإذا تبصرنا قدرة الله في الطبيعة آمنا بأن هذه القدرة المطلقة الحكيمة هي التي تخرج الموتى للحساب، فلا تبقى عقبة في طريق إيماننا بالبعث والنشور.

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ولكن لا يمكننا أن نفهم حقائق الكون من دون تذكر وتبصر وربط للحقائق ببعضها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فالتذكر يربط الحقائق، ويستنتج من خلاله المعلومات، ويلقي بالمسؤوليات والواجبات.

بين البصيرة والاستنباط

[٥٨] حين يزود الإنسان بسلاح البصيرة النافذة ويتذكر يستنبط الحقائق المختلفة، أو بالأحرى الأبعاد المختلفة من الظاهرة الواحدة، فمن ظاهرة السحاب والمطر وإحياء الأرض يتوصل إلى أن نبات الأرض مختلف بالرغم من أن الماء الذي ينزله الله على الأرض واحد، مما يدل على أن استجابة الأرض للماء شرط أساسي لحياة الأرض، كذلك استجابة البشر لرسالة الله تعالى شرط لانتفاعه بها.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي عسيراً وبخيلاً ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ فالذين لايشكرون النعمة ولا يقدرونها حق قدرها لا ينتفعون بالآيات، كما أن الأرض الخبيثة لا تنتفع بالمواسم الخيرة، وفي القصص التالية عبر كافية لهذه الحقيقة.

لماذا نوح بالذات؟

[٥٩] لأن الله رب العالمين ورب الإنسان الذي يحب للبشرية التكامل والرقي، فقد أرسل نوحاً عليه السلام إلى قومه ولم يرسل غيره، لأنه منهم وأثره في تطورهم أبلغ، ولم يدع نوح قومه

إلى نفسه بل إلى ربهم الله الذي لا إله غيره ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

[٦٠] أما الملأ الذين كانوا يستثمرون الجماهير ويتسلطون قهرا عليهم فقد قاوموا رسالة الله ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إنهم وقفوا عقبة أمام انتشار نور الهداية بين الناس، فاتهموا نوحا بالضلالة، وزعموا أنهم يرون ذلك رؤية ظاهرة.

[٦١] ونفى نوح عليه السلام وجود أي نوع من الضلالة عنده، وبين لهم أنه رسول أرسل إليهم من قبل الرب الذي ينزل بركاته على العالمين ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٦٢] وينبغي أن يستجيب الجميع لنبي الله نوح عليه السلام لعدة أسباب:

أولاً: لأنه مبلغ لرسالات الرب، ومن الطبيعي أن تكون تلك الرسالات ذات محتوى تكاملي للبشر، لأنها صادرة من ربهم الذي يطورهم إلى الأفضل.

ثانياً: لأنه ناصح يعمل في سبيل رشدهم.

ثالثاً: لأنه أعلم منهم، وعلمه مستلهم من الله، ويرتبط بتعاليم الله وشرائعه.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[٦٣] وليس بعيداً أن يبعث الله رسولاً لعدة أسباب هي:

أولاً: لأن الله رب الناس الذي ينزل بركاته المادية المشهودة عليهم في كل لحظة.

ثانياً: لأن البشر بحاجة إلى تذكرة حتى يهتدوا ويكتملوا، والرب يوفر كلما يحتاج البشر إليه.

ثالثاً: لأن الله تعالى لا يعذب الناس حتى يبعث سلفا رسولا إليهم، فينذرهم، ويوفر لهم فرصة التقوى والحذر من العذاب، ولكي يوفر لهم بالتالي فرصة الرحمة والرخاء والحياة السعيدة.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ ولا عجب مما تقتضيه سنن الحياة وفطرة البشر، ومن ذلك: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[٦٤] ولكن مع كل ذلك البيان كذب قوم نوح عليه السلام برسالة الله، وجاءت العاقبة

المناسبة للمؤمنين حيث أنجاهم الله، والكافرين أغرقهم الله لأنهم لم يستفيدوا من نعمة البصيرة ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾ هكذا تتجلى صفة الربوبية في قصة نوح عليه السلام وقومه، إن الله يبعث رسالته رحمة بالناس وتكميلا لنواقصهم، بيد أنهم يرفضون الانتفاع بها، كما الأرض الخبيثة لا تستجيب للسماء حين تبعث إليها السحاب الثقال.

الأسماء المصطنعة
سجون ثقافية وسفاهة فكر

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ[1] وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ[2] اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ[3] وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) ﴾.

---

(١) سفاهة: السفاهة خفة الحلم، وثوب سفيهٌ إذا كان خفيفاً.

(٢) آلاء: الآلاء النعم.

(٣) رجس: الرجس العذاب.

هدى من الآيات:

تتكرر قصة نوح عليه السلام بين هود عليه السلام رسول الله وقومه عاد، حيث أمرهم بتقوى الله، ولكنهم اتهموه بالسفاهة، وكادوا يكذبونه، فنفى هود عن نفسه السفاهة، وقال: إنه رسول من الله الذي ينزل بركاته على العالمين، وبين أن ذلك لم يكن بعيدا عن سنن الله، وعن حكمة العقول، إذ أن الله أنزل بركاته المادية على عاد، وجعلهم الوارثين للأرض بعد قوم نوح عليه السلام وزادهم من نعمه، فكان عليهم أن يعترفوا بنعم الله ويتذكروا أن الرب الرحيم الذي انعم بها عليها هو الذي أرسل رسالته المباركة بواسطته.

لكن عاداً كذبوا هوداً وتحدوه ونازلوه واستعجلوا العذاب، بيد أن هوداً عليه السلام كان يرى في تكذيبهم رجساً وغضباً، لأنهم خضعوا لمجموعة أصنام لا رصيد لها من الواقع، بل هي حروف بلا معاني وبلا سلطان من الله عليها، ثم استجاب هود عليه السلام لتحديهم وطلب منهم الانتظار.

وقد أنجاه الله والذين معه برحمةٌ منه، وأنهى مدينة عاد ومن بها ممن يكذب بآيات الله لأنهم كفروا بالله. وهذا مثل آخر لنعم الله التي تتجلى بها صفة الربوبية، فلو استجاب لها البشر لانتفع بها، وإلا فإنها سوف تتبدل إلى نقمة عليهم.

بينات من الآيات:

افتراءات الملأ

[٦٥] أرسل الله إلى عاد واحداً منهم وهو أخوهم هود عليه السلام الذي دعاهم إلى الله الذي لا ملجأ لهم إلا إليه، وأمرهم أن يحذروا منه ويتقوه ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

[٦٦] وهنا وقف جماعة من قومه يعارضونه، وهؤلاء هم الملأ الذين اختاروا الكفر بوعي وإصرار، واتهموا هوداً بالسفاهة لأنه تحدى حضارتهم، وواجه قوتهم التي كانوا مغرورين بها، زاعمين أن منهجهم في الحياة منهج سليم، بدليل أنهم قد بلغوا عن طريقه إلى هذه الحضارة، وهذه القوة الكبيرة، بل إنهم كادوا يتهمونه بالكذب، والفرق بين السفاهة والكذب إنما هو في النية، فالسفاهة هي الإصرار على الخطأ بنية صالحة وذلك لقلة العقل، بينما الكذب هو تعمد الخطأ مع العلم به وذلك للوصول إلى هدف باطل، وقوم عاد كانوا يرون في هود الصلاح والزهد، لذلك لم يكونوا يجرءون على اتهامه بالكذب لذلك: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

[٦٧] وحين يصر صاحب الفكرة على فكرته برغم تحذير الآخرين له، فإنه يدل على أنه عارف بفكرته واع لأبعادها، ولذلك فهو ليس سفيهاً غير عارف بطبيعة فكرته.

وهود عليه السلام نفى عن نفسه السفاهة، وأصر مرة أخرى على أنه رسول ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الله الذي استوى على عرش السماوات والأرض يدبر أمورها، ويكمل خلقها، إنه هو الذي أرسل هوداً إلى عاد ليكمل عليهم نعمه، ويكمل حياتهم.

نزاهة الرسول دليل صدقه

[٦٨] لم يكن هود عليه السلام إلى نفسه داعياً بل إلى ربه، فلم تكن لديه مصلحة ذاتية في دعوته، وكانت دعوته إلى كل خير وحق، فلذلك فهي في مصلحة الناس وعليهم أن يهرعوا إليها ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وأمانة الإنسان حقيقة ظاهرة، لا يمكن أن يفرضها ويتكلف في التظاهر بها، بل هي كما سائر الصفات النفسية الحسنة والسيئة، تظهر على أفعال الفرد وأقواله، شاء أم أبى، لذلك كان الأنبياء عليهم السلام يستدلون بهذه الصفة الموجودة في أنفسهم على صدق رسالاتهم دون أن يكذبهم أحد، لأنها كانت صفة ظاهرة.

[٦٩] ويصدق البشر بالحقائق المألوفة بسهولة، بينما الحقائق التي لا تقع إلا عبر فترات متباعدة لا يسهل التصديق بها، مثلاً: التصديق بالتغيرات الجذرية والتحولات الاجتماعية الكبيرة ليس بسهولة وكذلك التصديق بموت أحد عزيز، بالرغم من أن هذه وتلك حقائق واقعة وسنن فطرية، ومن هنا كان أحد العقبات الرئيسية في طريق إيمان الناس برسالات الله هي: أنها لم تكن وقائع مألوفة، فكان الأنبياء عليهم السلام يذكرون الناس بأنها حقائق فطرية يصدق بها وجدان البشر، وهي من السنن التي تقع بين فترة وفترة.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ ولا عجب في ذلك لأن الرب الذي يدبر أمور عباده، وينزل عليهم بركاته جدير بأن يهدي الإنسان، ويذكره بالحقائق، ثم إن من رحمة الله أنه انزل ذكره على واحد منهم لأن هدفه هو إنذارهم، والإنذار سيكون أبلغ لو كان عن طريق واحد منهم.

ولأن قوم عاد كانوا مغرورين بقوتهم وبطشهم، لذلك ذكرهم أخوهم هود بأن هذه القوة نعمة من الله عزوجل وليست من أنفسهم، بدليل أنها كانت قبلئذ عند قوم نوح عليه السلام فأخذها الله منهم وأعطاهم إياها، فالقوة هذه يجب أن تكون مدعاة لقبول الرسالة شكراً لنعمة الله سبحانه وتعالى.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الفلاح والسعادة يأتيان نتيجة معرفة أسباب النعمة، وعوامل الحضارة، واليقظة في المحافظة عليها، لتستمر وتزداد، لذلك حين يتذكر البشر أن النعم من عند الله سيكون واعيا لاستمرارها.

مواقف المجتمع المتخلف

[٧٠] وحين أفحم هود قومه، وأثار فيهم دفائن عقولهم، واستوضح لهم فطرتهم ووجدانهم، لم يبق لهم سوى الإتكاء على ماضيهم فقالوا: إننا لا نغير واقعنا ولا نريد لأنفسنا التطور إلى الأفضل لأن آباءنا كانوا هكذا، فسوف نبقى نحن الأبناء على سنة آبائنا، وقال لهم هود عليه السلام: إذا لا رجاء في إصلاحكم.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لقد بلغ فيهم الجمود حدا يستعجلون معه العذاب ولا يرضون بالتغيير، وحالهم حال كل الأمم المتخلفة والمغرورة، أنهم يقبلون بالأمر الواقع حتى مع علمهم بفساده وخطورته عليهم، وكلما يدعوهم المصلحون بضرورة تغيير الواقع لا يسمعون لقولهم، لتشبثهم بالواقع القائم وخوفهم من أي تغيير.

[٧١] وقال هود عليه السلام وهو الذي يسعى لهدايتهم بكل وسيلة: أن الواقع الذي تعتزون به واقع فاسد، وهو رجس وغضب، رجس فيه كل ضلالة وانحراف، وغضب فيه كل سوء ودمار.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ وربما تقدم الرجس لفظيا على الغضب لأنه سابق له واقعيا، حين يبدأ الانحراف، ثم يظهر في صورة عذاب.

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ تلك القيم الزائفة التي تحجبكم عن رؤية الحقائق ليست سوى ألفاظ منمقة وأسماء بلا معاني ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

[٧٢] وانتهت قصة قوم عاد بنجاة هود عليه السلام والمؤمنين من قومه، ودمار الكفار لأنهم كذبوا بآيات الله ومعالم الحقيقة، ولأنهم كفروا بالله وبرسالته ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي برحمة مشهودة وواضحة. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

الرسالة تُبير المستكبرين

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ(١) فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟(٢) فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟(٣) عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ(٤) فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ(٥) ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

---

(١) بوأكم: التبوئة التمكين.

(٢) تعثوا: العثي الفساد.

(٣) عتوا: العتو تجاوز الحد في الفساد.

(٤) الرجفة: الرجف الاضطراب يُقال رجف بهم السقف يرجف رجوفاً اذا اضطرب من تحتهم.

(٥) جاثمين: الجثوم البروك على الركبة.

هدى من الآيات:

وباختلاف بسيط في التفاصيل ولكن ضمن خط رسالي واحد، يأتي (صالح) رسول الله إلى قومه ثمود ليقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

ثم أوضح لهم أن هذه آية بينة واضحة، قد جاءتهم من الله ربهم الذي لا زالت نعمه تترى عليهم، فهذه ناقة الله اتركوها في أرض الله ولا تمسوها بسوء، فإن ذلك سوف يسبب لكم العذاب.

ثم بين لهم أن العلاقة التي تربطهم بالله هي علاقة الربوبية والعطاء، حيث أورثهم الأرض من بعد قوم عاد حتى تمكنوا في الأرض وبنوا القصور والبيوت، وأمرهم بأن تكون علاقتهم بالأشياء والأشخاص علاقة إيجابية، فلا يسعوا في سبيل الفساد بل في طريق الإصلاح والتربية، بيد أن صالحا كما اخوته في الرسالة لم يجد الاستجابة المطلوبة، حيث وقف المستكبرون عقبة في طريق انتشار الرسالة، وحاولوا تضليل المستضعفين المؤمنين عن الرسالة، وعقروا الناقة التي كانت آية إلهية، تحديا للرسالة وإفسادا في الأرض.

وجاءت العاقبة حيث زلزلت الأرض من تحتهم فاصبحوا جاثمين في دورهم، وأنقذ الله صالحا الذي لم يذرف الدمع عليهم، لأنه نصحهم نصيحة بليغة فلم يسمعوا له، وهذه قصة جديدة لكنها تتكرر كل يوم لتعطينا عبرة جديدة، لعلنا نهتدي بها إلى الحقيقة.

بينات من الآيات:

رسالات الله منطلق التحضر

[٧٣] يبدو أن ثموداً كما قوم عاد وقوم نوح، بدأت حياتهم الاجتماعية بفهم سنن الله في الحياة ومنها ضرورة الإصلاح، وتسخير إمكانات الطبيعة من أجل الأهداف النبيلة، إلا انهم بعد نمو مدنيتهم، وتواتر نعم الله عليهم فسدوا وأفسدوا، فجاءت رسالة الله تحذرهم من عاقبة الإفساد، وتذكرهم بأن هذه النعم التي يرونها ليست ذاتية لهم ولا هي أبدية، وإنما هي آلاء الله، كانت عند قوم فأهلكوا بسبب فسادهم وإفسادهم وأورثها الله لهم، فإذا فسدوا وأفسدوا يهلكهم الله أيضا، وربما تكون الناقة التي أخرجها الله لثمود من بطن الجبل آية كبيرة، ربما تكون رمزا لتلك النعم، فلو اهتموا بها ولم يمسوها بسوء، ولم يتعرضوا لها بقتل لانتفعوا بها، ولكن عذبهم الله ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي

أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

[٧٤] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ لقد كانت تلك حضارتهم، حيث استقروا في الأرض من دون خوف من الطبيعة أن تقسوا عليهم، وذلك بسبب توفر وسائل الحياة في تلك الأرض، حتى كانت لديهم القدرة على نحت الجبل ليتخذوا منه بيوتا، أو حتى رفع الأبنية فوق السهل قصورا، ولكن كانت ثمود تتجه نحو الفساد شأنها شأن الحضارات التي تغتر بمدى قدرتها فتتآكل وتتداعى وتنهار، لذلك وقف رسول الله صالح عليه السلام إليهم محذراً وقال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

والفساد ضد الإصلاح، وليس بين الفساد والإصلاح عمل آخر وصبغة أخرى، ذلك لان علاقتك بالأشياء قد تكون علاقة التربية والسعي للتغيير نحو الأفضل، وأن تضيف إليها من نفسك شيئا جديدا كأن تبني الأرض، وتنشأ الحقل، وتربي الطفل، وتصنع من الحديد آلة مفيدة، وهذا كله إصلاح، أو تكون علاقتك هي الانتفاع بالأشياء فقط، فتملك البيت دون أن تبنيه أو ترممه، وتأكل من الحقل دون أن تنشئ بديله أو تسقيه، وتترك ابنك لتربية الشوارع والأزقة، وتستهلك الآلات والمكائن دون أن تصنع بديلها أو تقوم بصيانتها، وتلك كلها علاقة الفساد، والمجتمعات قد تكون متجهة بصفة عامة نحو الإصلاح والبناء والتصنيع وتغيير الأشياء إلى الأفضل، فتكون آنئذ متجهة نحو الحضارة والمدنية، أو متجهة نحو الاستهلاك والانتفاع والتغيير نحو الأسوأ، فتهدم حضارتها وتهوي نحو التخلف، ورسالات الله تأمرن بالإصلاح الذي يبني الحضارة وتسوق الأمة نحو التقدم.

صفات المستكبرين (الملأ)

[٧٥] إن حالة الإسراف والتبذير، وصبغة الفساد والاستهلاك من دون الإصلاح والإنتاج لا تنتشر مرة واحدة في المجتمع، بل تتجلى أولا في الملأ منهم الذين يشكلون طبقة المستكبرين، وأبرز صفاتهم هي:

استهلاك المزيد من النعم، وخلق تيار معارض للإصلاح، ولأنهم يريدون أن يأكلوا أكثر مما ينتجون، فإنهم يسرقون إنتاج الآخرين بشتى الوسائل والحيل ويستضعفونهم، ويتسارع المستضعفون نحو الرسالة الجديدة التي تبشر المجتمع بالإصلاح والعدالة، فيبدأ الصراع المرير بينهم وبين أولئك المستكبرين، وينتهي الصراع بهلاك المستكبرين ونجاة المستضعفين بإذن الله.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ

أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾.

إن المستكبرين يحاولون إفساد الطبيعة والإنسان معا، فلذلك تراهم يفسدون آراء المستضعفين ويجرونهم نحو التيه والضلالة لكي يستمروا في استغلالهم، واستهلاك المزيد من إنتاجهم، بيد أن طائفة من المستضعفين يسارعون إلى الإيمان، ويقوم الصراع بينهم وبين المستكبرين.

[٧٦] ولذلك تجد المستكبرين يكفرون بالرسالة ليس بمجرد أنها رسالة، وإنما لأنها مبدأ يؤمن به المستضعفون ويتخذون منه أداة لصراعهم ضدهم، وهذا يبدو جليا من أقوالهم حيث

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ المستكبرون يريدون دينا يؤيدهم في استغلالهم للناس وتسلطهم عليهم، ولا يؤمنون بدين يؤمن به المستضعفون، ويتخذون منه وسيلة لنجاتهم، وخشية خلاص لهم من ظلمهم.

[٧٧] ولكي يتحدى المستكبرون دين المستضعفين، ويجردوهم من تلك الوسيلة التي تنقذهم من أيديهم، عمدوا إلى الناقة -رمز الرسالة الإلهية عند ثمود- فقتلوها ظنا منهم أن إعدام الناقة يضع حدا لتحرك المؤمنين، لأنها رمز وحدتهم، وعنوان نشاطهم الاجتماعي، ولكنهم أخطأوا حيث أن عقر الناقة وما تبعه من أعمال تخريب وإفساد عرضهم لغضب الله سبحانه وعجل في نهايتهم.

﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ ﴾ ومن المعروف أن واحدا منهم فقط هو الذي عقر الناقة، ولكن البقية رضوا بعمله فكان كما لو أن الجميع اشتركوا في عقرها.

﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ حيث تجاوزوا الحد في الفساد برغم أمر الله عزوجل لهم بالإصلاح ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

العاقبة الحتمية

[٧٨] وكما نهاية ثمود كذلك نهاية كل الطغاة المستكبرين كلما بالغوا في الفساد، وإنما يفعلون ذلك بعد تنامي حدة الصراع بينهم وبين أصحاب الرسالة إذ أنهم يضطرون آنئذ إلى مقاومة الرسالة بالمزيد من عمليات التخريب والفساد، وهكذا أنزل الله على ثمود العذاب حيث ارتجت بهم الأرض وتزلزلت من تحتهم، وتهدمت مدنيتهم، وماتوا وهم جالسون دون أن يمهلوا حتى يمدوا أرجلهم استعدادا للموت ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾.

[٧٩] إن البشر يهرع لمساعدة نظرائه واخوته، ولكن المستكبرين لم يحزن لهلاكهم أحد، وهذا منتهى الخزي والعار الذي قد يلحق بأحد. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

إن قصة ثمود عبرة لكل واحد منا كي يبادر لقبول النصح، ويتجه نحو التربية والإصلاح. ويكون همنا الإنتاج والإنشاء لا الاستهلاك والإفساد.

قوم لوط عاقبة الجريمة الخلقية

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ[1] ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

وتكررت ذات الحقائق التي شهدناها عند عاد وثمود في قصة لوط عليه السلام، حيث بارك الله لهم في نعمه فطغوا بها، وشذوا عن الصراط القويم في الانتفاع بها، فإذا بهم يتخذون الفاحشة سبيلاً لإرضاء شهواتهم الجنسية، إنهم يأتون الرجال بدلاً من النساء، ويسرفون في الشهوات.

إنها مرحلة الغرور في قوم أنعم الله عليهم بالاستقرار والأمن والنعم، وتأتي صرخة السماء الهادرة تنذرهم عاقبة الفجور، ولكن قوم لوط يحاولون إخراج لوط من قريتهم بتهمة التطهر، والمجتمع الذي يصبح التقوى والتطهر جريمة فيه لا يرجى له الخير أبدا.

وتحين ساعة العقاب حيث ينجي الله لوطاً عليه السلام وأهله المؤمنين بالرسالة، ويهلك الآخرين وفيها بينهم امرأته التي أصبحت من الهالكين بسبب إتباعها لهم، وطريقة العقاب هي أن الله أنزل عليهم من السماء مطر السوء كما أنزل عليهم بركاته من قبل.

وهكذا ترى رسالات الله تحذر البشر من عاقبة أفعالهم السيئة وسلوكهم الشاذ، ولكن

---

(١) الغابرين: الباقين في قومه المتخلفين حتى هلكت.

أكثر الناس لا يشكرون نعمة الرسالة فيهلكون.

بينات من الآيات:

قوم لوط من الألف إلى الياء

[٨٠] أرسل الله لوطاً عليه السلام إلى قومه، ويبدو لي -مرة أخرى- أن قوم لوط كانوا في البداية مستقيمين يسعون من أجل بناء حضارتهم، لأن الخط العام لحركتهم كان سلبيا، وكان مجمل سلوكهم سلبيا، بيد أنهم حين بلغوا مرحلة من التحضر أصيبوا بالإسراف، وجاء في بعض الأحاديث أنهم أصيبوا كذلك ببخل وإسراف وهاتان صفتان نابعتان من جذر واحد هو: عبادة المادة، والابتعاد عن القيم المعنوية.

وإذا كان قوم عاد قد أصيبوا بصفة الغرور والبطش والظلم، ووأصيبت ثمود بالفساد والاستكبار والطبقية، فان ترف قوم لوط دفعهم إلى الشذوذ الجنسي، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وقد يكون سبب هذا الشذوذ هو البخل، حيث أن الشاب الذي تلتهب شهوته ولا يجد امرأة يتزوجها إلا بمهر عظيم وبشروط قاسية، شأنها في ذلك شأن المرأة في المجتمعات المرفهة التي تبحث عن الكماليات قبل ضرورات العيش، إن هذا الشاب الذي لا يملك ذلك النشاط الذي يدفعه إلى العمل والإنتاج والحصول على المال، يفضل الجنوح نحو الجريمة واختيار الشذوذ الجنسي الرخيص على العلاقة الشريفة.

بيد أن السبب الأخطر للشذوذ هو الإسراف، ذلك لأن المجتمع الذي لا يتطلع نحو بناء المستقبل الأفضل، ولا يبحث عن قيم التضحية والفداء ويملك قدراً كبيراً من فائض النعم والوقت والمال، يبالغ في الشهوات ويسرف فيها ويشذ عن سبلها السليمة، فيشتري عذاب الله. لذلك أرسل الله لوطاً عليه السلام إلى قومه في تلك المرحلة من حضارتهم، حيث قعدوا عن الطموحات الكبيرة وتركوا قيمهم الفاضلة، أرسله ليحذرهم عاقبة الشذوذ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

[٨١] ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

[٨٢] أعوذ بالله من حالة الانزلاق في وادي الشهوات، خصوصا لو شاع ذلك في المجتمع، حيث يتواصى أبناء هذا المجتمع الفاسد بالجريمة والشذوذ كما يتواصى المتقون بالصلاح، ولقد أصبحت الجريمة والشذوذ قيمة اجتماعية عند قوم لوط ولذلك لم يستمعوا إلى نصيحته، بل اتهموه بالطهر والتقوى، وأمروا بإخراجه ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن

قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

[٨٣] والله سبحانه أنجى لوطاً عليه السلام من تلك القرية فهاجر منها بأمره سبحانه، وكذلك يهاجر المؤمنون من كل مجتمع يشيع فيه الفساد ولا يقدرون على إصلاحه.

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ ولم تكن امرأة لوط من أهله، كما لم يكن ابن نوح من أهله، لأنهما كانا على غير ملتهما.

[٨٤] وجاءت أخيرا العاقبة السوء حيث دمر الله تعالى قرى لوط بعذاب بئيس يفصله القرآن في سور أخرى ﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ لننظر إلى عاقبتهم، ونعتبر من قصصهم لكي لا نصبح مثلهم -لا سمح الله-.

الرسالة الإلهية وسيلة الإصلاح الاقتصادي

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ[1] أَخَاهُمْ شُعَيْبًا[2] قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا[3] النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)﴾.

هدى من الآيات:

وأهل مدين كما ثمود وقوم لوط عليه السلام، انهارت مدنيتهم على رؤوسهم بسبب فسادهم، وأبرز مظاهر الفساد عندهم كان البخس في الميزان، وإفساد الأرض زرعا وضرعا، وقطع طرق الخير على عابريها، والصد عن سبيل الله، وتحريف الدين.

لقد جاءت رسالة الله على لسان شعيب لتنهاهم عن الفساد بعد الإصلاح، والتخلف بعد التقدم، والتدهور بعد النشاط، فانقسموا على أنفسهم فريقين، فمنهم من آمن ومنهم من

(١) مدين: قبيلة سميت باسم جدهم (مدين) حفيد إبراهيم عليه السلام.
(٢) أخاهم شعيب: وهو من أحفاد إبراهيم عليه السلام، فهو أخ القبيلة.
(٣) ولا تبخسوا: البخس النقص عن الحد الذي يوجبه الحق.

كفر. والله سوف يحكم بين الفريقين، والزمن شاهد على صدق النبوءة.

واحتدم الصراع وبدأ الكفار بمنع الناس عن الإيمان بالرسالة واعتبار ذلك خسارة، وانتهت قصتهم بعذاب أنزله الله عليهم في صورة رجفة قضت عليهم، وشهد التاريخ أن الخاسرين إنما كانوا هم الذين كذبوا بشعيب عليه السلام لا المؤمنين به، وتلك النعم التي اغتروا بها لم تنفعهم في ساعة العذاب.

أما شعيب عليه السلام فلم يحفل بمصيرهم لأنه نصحهم وأبلغهم رسالات ربهم، فكفروا بها، فلم يأسف لمصيرهم، ويبدو لي: أن أهل مدين كما أصحاب الحضارات السابقة كانت علاقتهم بالأشياء والأشخاص علاقة العطاء والتربية والإصلاح فبنوا تلك المدنية، ولكنهم بدلوا تلك العلاقة وأصبحت علاقتهم علاقة الإسراف والاستهلاك والإفساد فدمرت حضارتهم.

بينات من الآيات:

التمثيلية التاريخية

[٨٥] وتتكرر مشاهدة في التاريخ حتى ليكاد المرء يتصور أنها جميعاً مشهداً واحداً لا يتغير سوى الممثلين فيه، وأن كانت هناك اختلافات فإنما هي في المظاهر الخارجية للأحداث، فكل الجرائم والانحرافات التي يبتلى بها المجتمع تنشأ من عدم التسليم لله عزوجل وعدم اتباع مناهجه كاملاً، والشرك به عن طريق طاعة غيره من الطواغيت والأصنام الحجرية أو البشرية، أو التشبث بالقشور والأسماء التي لا يوجد وراءها شيء، لذلك تجد رسالات السماء تؤكد أولاً وقبل كل شيء على الوصية بعبادة الله، ففي القصص السابقة بدأ كل نبي حديثه مع قومه بهذه الكلمة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾

ماذا تعني عبادة الله؟

عبادة الله لا تعني مجرد التسليم النفسي له، بل ويجب التعبير عن صدق هذا التسليم عمليا في صورة الكفر بالطاغوت والتمرد ضد أي حكم ظالم يتخذ من القوة أداة للسيطرة والقهر، وبالتالي التمرد ضد كل حكم غير شرعي.

إن أنبياء الله عليهم السلام كانوا يهدفون تغيير النظام السياسي في المجتمع، من نظام شركي قائم على أساس الحاكم والمحكوم، إلى نظام توحيدي يقوم على أساس رفض الحاكميات جميعاً سوى

حاكمية الله الحي القيوم، ولذلك تجد الآيات السابقة التي تحدثت عن رسالات الله أكدت قبل كل شيء صرورة رفض الآلهة التي تعبد من دون الله، والذي يعني: رفض الحاكميات البشرية والتسليم لحاكمية الله وعبادته سبحانه.

ورفض أي نظام سياسي باطل لا يعني الفوضوية بل إقامة كيان سياسي صحيح مكانه، ذلك هو كيان التوحيد القائم على رسالة بينة ينتفع بها المجتمع، يؤمنون بها ويخضعون لها.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فعليكم باتباعها، تلك البينة هي رسالة الله ورسوله المطاع بإذنه.

وبعد تثبيت دعائم السلطة السياسية السليمة، أمر شعيب عليه السلام قومه بتصحيح مسيرة الاقتصاد، وإصلاحه من اقتصاد قائم على أساس الاستغلال والاستثمار إلى اقتصاد قائم على أساس الوفاء بالحقوق، وإعطاء كل ذي حق حقه بالكامل ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ حين يكون المجتمع رشيدا من الناحية الاقتصادية فإنه لا ينهب ولا يغش، بل ولا يفحش في الربح أيضا أو يسعى كل طرف للحصول على المنفعة الأكبر، وهذا هو التطلع الأرفع الذي يجب أن يهدفه المصلحون في حقل الاقتصاد أن يرى كل طرف منفعة الآخرين بمثل ما يرى منفعته فلا يبخس أحدا شيئا.

وبعد النظام الاقتصادي، يأتي دور الإصلاح في مجمل سلوك البشرية تجاه الأشياء والأشخاص، ذلك الذي أكدت عليه رسالات السماء، حيث أمرت بضرورة إيجاد علاقة الإصلاح بين الناس والطبيعة، وبين الناس بعضهم مع بعض، فلا يكون هدف المجتمع الانتفاع بالحياة فقط بل يكون هدفه:

أولاً: تفجير طاقات الطبيعة لمصلحة الإنسانية، وتنمية هذه الطاقات، وتطويرها إلى الأفضل، مثلاً: زراعة الأرض، وصناعة المعادن، وتعبيد الطرق، وبناء الجسور، وعمارة المدن، والمحافظة على البيئة بكل أبعادها، كالمحافظة على نقاء الهواء والطيور وأنواع الوحوش والدواب، وأنواع الأسماك، وبالتالي كل ما يصلح الأرض لا ما يفسدها.

ثانياً: تنمية طاقات البشر ومواهبه، والمجتمع الراشد يسعى من أجل دفع المستوى الخلقي لأبنائه والمستوى التعليمي، ويربي المزيد من الكوادر المتقدمة في كافة الحقول، إنه مجتمع يربي القادة والمفكرين والمخترعين والأبطال، ولا يكتفي بذلك بل ويسعى من أجل تعميم الحضارة على كل المجتمعات القريبة فيما يخص أبناءه ومساعدتهم على التقدم والنمو، لذلك قال ربنا على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ وقد

تكررت هذه الكلمة في الآيات السابقة أيضاً، ويتساءل المرء لماذا جاءت هذه الكلمة في صورة النهي، أو لم يكن الأفضل أن يقول ربنا سبحانه: وأصلحوا في الأرض؟.

أتصور أن هذه القصص بالذات تعكس وضع الحضارات في ظروف شيخوختها، وتنامي نقاط الضعف فيها، وأفول نجمها حيث أن الحضارة تنشأ وتتنامى فيها نقاط القوة، ولكن الغرور والإرهاب والاستكبار كل ذلك يبدل نقاط القوة فيها إلى نقاط ضعف حتى تقضي عليها، ورسالات السماء تسعى من أجل إيقاف تدهور الحضارات ودمار العمران بتوعية الناس بأسباب قوتهم السابقة، وعوامل الانقراض ومنها بل ومن أبرزها هي: الفساد بعد الإصلاح، أي تحول تلك العلاقة الإنتاجية والعمرانية والإبداعية التي كانت حاكمة سابقا بين أبناء المجتمع بعضهم مع بعض أو مع الطبيعة إلى علاقة استهلاك واستغلال وترف.

إن حالة الاستهلاك القائمة اليوم في بلادنا الإسلامية، وصفة الترف والتوسع في الحاجيات الكمالية، والرغبة عن الأعمال الإنشائية مثل العمران والتصنيع إنها جميعا تشكل أخطر عوامل التخلف عندنا، ويا ليتنا نتدبر في هذه القصص لنكشف فيها سر تخلفنا، وأسباب النهوض ببلادنا بعد الركود والتخلف ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الهدم أصعب

يزعم البعض أن الإسراف خير من الاقتصاد في المعيشة لأنه يمتعك باللذائذ أكثر وبجهد أقل، أو يزعم أن استغلال جهود الآخرين واستهلاك ما ينتجونه خير من الاجتهاد والإنتاج لأنه تجاوز للتعب والإرهاق، وإشباع للغرائز بأقل قدر من العمل، وبالتالي يزعم أكثر الناس أن الهدم خير وسيلة للدفاع، وأفضل وسيلة لإدارة الصراع بنجاح، ولكن ما أبعد الحقيقة عن هذه المزاعم.

إنك حين تسرف في النعم فانك تهلك أنسجة بدنك بقدر ما تستهلك من المواد، وتفسد عاداتك ونفسيتك بقدر ما تفسد الطبيعة.

إنك حين تنتج فإنك ترتفع إلى مستوى الإنتاج وتتكامل قدراتك وتُصقل مواهبك بذات النسبة، والبلد الذي ينتج الصناعة المتقدمة يختلف عن الذي يشتريها اختلاف الأم التي تنجب طفلا عن تلك التي تتبنى طفلاً.

إن البلد المنتج تتكامل قدراته وترتفع إلى مستوى إنتاج الحاجات الصناعية المتقدمة، وصناعة البدائل، كذلك المزارع الذي يحرث الأرض ويسقي الحقل حتى يجني الثمرات، ليس

أبدا مثل ذلك الذي يلتهم الفاكهة دون أن يعرف قيمتها الحقيقية، إن المزارع يتفاعل مع الثمار ويتكامل بها لأنه ينتجها، بينما الذي يأكل الفاكهة يستهلك بقدر ما يستهلك.

ومن قال أن الهدم أفضل وسيلة للدفاع، وخير أداة في الصراع؟.

إنك حين تقتل جنديا عدوا تزداد قوتك بقدر جندي واحد، أما حين تضيف جنديا إلى جنودك من أعدائك فان باستطاعة هذا الجندي أن يستقطب إليك جنودا كثيرين.

وحين تهدم مصنعا للعدو تزعم بأن قدرتك الاقتصادية ازدادت بقدر مصنع واحد، ولكن هل هو واقع أم خيال؟ بينما لو أضفت مصنعا إلى مصانعك فان هذا المصنع يكمل حلقات مصانعك ويرفع النقص الموجود فيها، وبالتالي يعطيك قدرة على تطوير مصانعك.

وفرق بين أن تحرق مزرعة للعدو أو تنشئ مزرعة لنفسك، إن المزرعة التي تنشئها لا تضيف قوة اقتصادية إلى اقتصاد بلدك فحسب، بل وتزيدك قوة إنتاجية، بمعنى أن الحبوب المنتجة من المزرعة تصلح أن تزرع في أرض أخرى، وأن اليد العاملة في المزرعة تقدر على أن تزرع أخرى، والنظام المشجع على إنشاء مزرعة ينشئ مزارع عديدة وهكذا..

وهكذا يصبح البناء أفضل وسيلة لهدم كيان العدو، والإصلاح أفضل وسيلة لتصفية دعاة الفساد ودعائمه، وصدق الله العلي العظيم حين يقول: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

مراحل الانحطاط

يتدرج المجتمع في الانحطاط عبر عدة مراحل، ففي البداية تفسد السلطة السياسية، ثم تفسد طريقة التعامل، ثم أساليب الإنتاج، ثم فساد القيم وهو أخطر مراحل الفساد، لذلك نجد شعيبا عليه السلام بدأ حديثه الناصح بالتحذير من الفساد السياسي والاقتصادي، ومن ثم الفساد الثقافي والقيمي.

فحذر من النهي عن المعروف والصد عن سبيله، ومحاولة تضليل الناس عن سبيله الأقوم في الحياة، ومحاولة توجيههم إلى السبل المنحرفة، وأمرهم بتذكر الماضي حيث أنهم كانوا أقلاء فكثرهم الله بالسبل القويمة، كما نصحهم بالاعتبار بما أصاب المفسدين السابقين، وأمر شعيب عليه السلام المؤمنين من قومه بالصبر حتى يحكم الله، وتبين العاقبة.

[٨٦] قد يفسد البشر عمليًّا، بينما يبقى من الناحية النظرية مؤمناً بالقيم ومعترفاً بخطئه

حين لا يعمل بها، ويرجى لمثل هذا الشخص الفلاح بالتوبة، ولكن إذا بقي على ضلالته العملية قد ينحدر شيئاً فشيئاً إلى الكفر بتلك القيم رأساً، أو لا أقل من تفسيرها تفسيراً خاطئاً يتوافق مع سلوكه الباطل، وهذا الشخص يصعب إصلاحه.

لأنه ليس فقط يعمل الأخطاء بعمد وإصرار، بل ويدعو الناس إليها، وقد يجر الآخرين إلى إتباع منهجه، وقوم شعيب بلغوا هذا الدرك الأسفل فنهاهم رسولهم عليه السلام عن ذلك وقال: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ أي تهددون السالكين فيه من الذين يبتغون الوصول إلى الله والحق والعمل الصالح ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ أي لا تسمحون للمؤمنين بالله أن يسلكوا السبيل الموصل إليه سبحانه ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أي تحرفون نصوص الدين، وتزعمون أن السبل الملتوية هي الطرق البالغة.

الثقافة التبريرية نسيج التخلف

إن الأمم المتخلفة تصنع لنفسها نسيجا من الأفكار الباطلة، والثقافات التبريرية التي تكرس واقعها الفاسد، ولكي تتجاوز الأمة هذه الثقافة التبريرية الكسولة عليها أن تصلح نظرتها إلى الحياة، ولا تزعم أن النعم الموجودة فيها مستمرة وذاتية، بل تتذكر ماضيها الحافل بالمشاكل والعقبات، وكيف تحدتها، وبفضل أي نوع من القيم والأفكار، ثم تدرس حياة المجتمعات الأخرى التي فسدت خزائنها، كيف وبسبب أي نوع من السلوك زالت تلك المجتمعات؟ لذلك ذكر شعيب عليه السلام قومه بماضيهم وبماضي المجتمعات الزائلة وقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

[٨٧] وكانت نصيحة شعيب عليه السلام للكفار المناهضين لرسالته هي الكف عن مقاومتهم لنور الرسالة، أما وصيته لأنصاره المؤمنين فهي الصبر والاستقامة حتى يحكم الله بينهم وبين الكفار فقال: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

المكذبون بالرسالة خاسرون

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا[1] فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى[2] عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)﴾.

هدى من الآيات:

كانت رسالة شعيب عليه السلام التي نصح بها القوم ذات قيم فطرية، يهتدي إليها العقل وتعارضها الشهوات العاجلة، وقد تحدى الملأ شعيباً عليه السلام، والملأ هم: كبار القوم الذين استكبروا في الأرض وجعلوا فيها الناس ضعفاء. لقد تحدوا هذه الرسالة ليس بالحجة وإنما بالقوة، حيث هددوه عليه السلام بالإخراج من قريتهم أو العودة إلى دينهم الفاسد، وتساءل شعيب: «كيف تسمحون لأنفسكم إجبارنا على العودة إلى ملتكم الفاسدة كرها، أو ليس في ذلك شهادة

---

(١) يغنوا. غَني بالمكان، يغنى غناً وغُنياناً أقام به كأنه استغنى بذلك المكان عن غيره والمعاني المنزل وأصل الباب الغِنى.

(٢) آسى: الأسى شدة الحزن.

على أن ملتكم فاسدة، وأن منطق القوة وليس القناعة هو السائد عليها؟».

وإذا كانت القوة حاكمة فقوة الله أعظم من قوتكم، فلا نرضى بالتسليم لكم، والافتراء على الله كذبا، والكفر بنعمة الهداية التي أسبغها الله علينا فأنجانا بها من الملة الفاسدة.

وهل يستطيع البشر أن يتجاوز إرادة الله؟ كلا.. لذلك لا يستطيع أحد أن يكره أحداً على فكرة الباطل، لان الله ربهما والمطلع على شؤونهما. لا يسمح بذبح حرية أحد إلا بمشيئة، أو تقصير الإنسان نفسه. فإذا توكل البشر على ربه، واعتمد على قوته، فانه خير من يفتح بينه وبين عدوه بالحق. إذا فحري بالبشر الاعتماد على الله في مقاومة تهديد أهل الباطل، وعدم الخشية من تمكنهم منه.

بينات من الآيات:

المستكبرون العائق الأكبر

[٨٨] الناس العاديون يستقبلون رسالات الله بفطرتهم النقية، لو لا أن المستكبرين الذين يستغلون جهود الضعفاء يفرضون عليهم نهجا فكريا معينا بالقهر، وهؤلاء هم الذين يشكلون حينا السلطة السياسية، وحينا السلطة الاقتصادية، وحينا السلطة المسماة بالدينية، بيد أنها جميعا سلطة قهرية تسرق إرادة الإنسان، وهذا نموذج من قهرهم، أنهم هددوا شعيبا عليه السلام بالإخراج من القرية لو عارض نهجهم السياسي ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

والكلمة الأخيرة: تدل على صفة الجبر والقهر في السلطة القائمة في مجتمع مدين، وبالتالي على نظام الطاغوت الذي يعتمد على الملأ من الناحية الطبقية، وعلى الاستكبار من الناحية الاجتماعية والثقافية، وعلى الإرهاب من الناحية السياسية.

الصمود شاهد صدق

[٨٩] الذي يحمل رسالة الله إلى الناس حقاً لا يتنازل عنها تحت ضغط الظروف، وتلك شهادة بينة على صدقه، أما الذين يفترون على الله الكذب ويدعون أنهم رسل الله باطلاً، فإنهم يتركون الرسالة حين يتعرضون للضغط، من هنا قال المؤمنون من قوم شعيب: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ وحيث أن الله أنجاهم من ضلالة الطاغوت بالرسالة. فالعودة إلى ملتهم السابقة إنما تكون بعد وعي كاف ببطلانها، فيكون ذلك تكذيباً

متعمداً للحق، وجحوداً سافراً بآيات الله، والعذاب سوف يكون عليهم مضاعفاً.

ومن جهة أخرى العودة إلى الملة الباطلة التي أنقذهم الله منها لا تكون ممكنة بالقهر والإكراه، لأن الله قد ضمن للبشر حريته وكرامته، ولن تكون القوى الشيطانية قادرة على إلحاق أي نوع من الأذى، أو إيجاد أي قدر من التأثير على أحد من دون مشيئة الله وإذنه سبحانه ذلك لأن قوى الطاغوت لا تعصي الله عن غلبة سبحانه- أو بتجاوز ملكوته . كلا، وإنما لأن الله أمهلهم وأعطاهم فرصة الاختيار الحر لفترة محدودة لهذا فإن الطاغوت لا يقدر على جبر المؤمنين على الكفر لأن الله لا يسمح له بذلك.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ وكما أن قدرة الله مهيمنة على الكون فلا يقدر الكفار على تجاوزها، كذلك علمه النافذ في كل شيء، ولكي يقاوم المؤمنون قوى الطاغوت المادية يلتجئون أكثر فأكثر إلى قوة الله المعنوية ويقولون:

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ المؤمنون لا يسعون نحو تحقيق الانتصار على عدوهم بالباطل، أي دون أن يكون لديهم مؤهلات النصر، أو دون أن يكونوا أفضل من عدوهم، بل إنما يريدون الفتح بالحق ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾.

الخسارة العظمى

واقتربت النهاية لقوم شعيب عليه السلام، حيث انهم اعتمدوا على القوة المادية زاعمين أنها كل شيء، وأن من يخسرها فانه يخسر كل شيء، لذلك قالوا للمؤمنين: إنكم لخاسرون، يزعمون أن الثروة والسلطة والجاه التي يملكونها والتي يحرمون المؤمنين منها تعتبر خسارة، بينما المؤمنون يعرفون أن القيم الباطلة التي يقوم عليها بناء مجتمع الطغيان والفساد تنسف كل تلك الماديات الظاهرة.

ومن هنا أخذت قوم شعيب عليه السلام الرجفة فإذا بهم جاثمون، وإذا بالخسارة الحقيقية تكون من نصيبهم هم، أما شعيب عليه السلام فلم يأسف لهم لأنه قد أبلغ رسالات ربه، وقدم النصيحة لقومه، ولكنهم كفروا بها فكيف ييأس عليهم.

[٩٠] إن النظرة المادية الضيقة التي يرى بها الكفار الأمور تجعلهم محدودين جدا، لا يفهمون حقائق الحياة، وهؤلاء يرمون الناس بالسفه وبالجنون، ويزعمون أن الذي لا يعمل للربح المادي العاجل خاسر لحياته، لذلك تجد الملأ من أهل مدين يعتبرون إتباع شعيب خسارة كبيرة لهم ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ومنتهى ما

يستطيع الملأ المستكبرون أن يلحقوه من الأذى بالمؤمنين هو: منع بعض النعم المادية عنهم، وهذا ما كان ولا يزال الطغاة يهددون المعارضين والمجاهدين به، ولكن من الذي تكون له عاقبة الدار؟!.

[٩١] إن الله سبحانه يعطي فرصة محدودة للبشر ليمتحن إرادتهم فيها، ومدى قدرتهم على مقاومة إغراء الشهوات، وقد منح هذه الفرصة لقوم شعيب عليه السلام، وها هم الآن استنفذوا فرصتهم واقتربت ساعة المصير ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ وكانت الرجفة قوية إلى درجة أن الله لم يمهلهم حتى يتخذوا حالة الاستلقاء استعداد للموت، بل وقعوا على وجوههم ذلة وهوانا.

معيار الخسارة

[٩٢] وهنالك تبين ذلك الواقع الذي حذر منه شعيب، وآمن به القوم المؤمنون وهو: أن الخسارة والربح إنما هما بالقيم لا بالمصالح العاجلة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ انتهت فرصتهم، وتداعى كيانهم، وزالت مكاسبهم، حتى يخيل للإنسان إنه لم يكن شيئاً موجوداً ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

[٩٣] أما شعيب عليه السلام فقد ترك قومه الهالكين وهم صرعى دون أن يذرف عليهم قطرة دمع ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾.

أسباب الحضارة ومراحل حياة الأمم

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا[1] وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً[2] وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا[3] ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَٰفِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ (١٠٢) ﴾.

---

(١) عفوا: أصل العفو الترك، وعفوا تركوا.

(٢) بغتة: البغتة الفجأة، وهي الأخذ على غرة من غير تقدمه تؤذن بالنازلة.

(٣) بأسنا: البأس العذاب، والبؤس الفقر.

هدى من الآيات:

بعد أن ذكرنا القرآن الحكيم بقصص الأولين من الرسل وقومهم، عاد ليبين لنا عبرا من التاريخ وأبرزها:

أولاً: أن الأمم تسير عبر مراحل ثلاث:

- مرحلة: الشدة والضنك.
- مرحلة: الرفاه والرخاء.
- مرحلة: الفساد والهلاك.

ورسالات السماء حاضرة في هذه المراحل، وإرادة الله مهيمنة عليها.

ثانياً: هلاك الأمم ليس قدراً محتوماً عليها، إنما هو بسبب كفرهم وعدم التزامهم بالأوامر والتوجيهات، فإذا آمنوا واتقوا الله فتح الله عليهم بركات السماء.

ثالثاً: وراء الرخاء الظاهر قد يكمن مكر الله الخفي الذي ينبغي ألا يؤمن، والذي يأتي ليلاً في حالة النوم، أو نهاراً في حالة اللعب والغفلة، وإنما يخسر البشر حين يأمن مكر الله وما تخبئه الأيام من شدة ومكروه.

رابعاً: توارث الأمم هذه الأرض، ولابد من أن يتعض اللاحقون بمصير السابقين، وليعرفوا هذه الحقيقة: أن الذنوب تحيط بالإنسان، وتأخذه في حين غفلة، ذلك لأن الذنب يسبب عمى القلب أيضا.

خامساً: بالرغم من أن الله يبعث رسله إلى الأمم حين تتدهور، لكن كفرهم السابق وذنوبهم التي أعمت قلوبهم لا تدعهم يؤمنون برسالات الله، كما لا تدعهم يفون بعهد الله عليهم، لذلك كانت الأمم هذه لا عهد لها ولا دين وبذلك هلكت.

بينات من الآيات:

المصاعب امتحان وتربية

[٩٤] في هذه الآية نجد حكمة الصعوبات التي تعصر البشر والهدف التربوي منها، الذي لو عرفه الإنسان وسعى إليه فليس فقط لا يتضرر منه، وإنما يستفيد منها كثيرا يقول

الله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ فالضراعة هي هدف البأساء والضراء في الحياة، والبأساء -حسبما يبدو لي-: كل سوء يصيب البشر بأيديهم كالحروب، والفقر الناشئ من وضع اجتماعي سيئ، والظلم والإرهاب، بينما الضراء هي: الخسارات التي تصيب البشر من البيئة الطبيعية كالكوارث والأمراض وما أشبه.

والضراعة هي: العودة إلى واقع الذات وما فيه من نقص وعجز وانحراف، بعيدا عن أي غرور أو استكبار، أو عزة بالإثم، والضراعة إلى الله تعطينا الثقة بقدرتنا على تجاوز كل ذلك بعون الله.

وربما تكون هذه الآية توضيحا لبداية انطلاقة المجتمعات وشروطها الواقعية، وهي ظروف قاسية يمر بها المجتمع فيتحداها بالضراعة، وهي وعي الذات وما فيه من نواقص يجب تكميلها، وإمكانيات يجب تفجيرها.

[٩٥] وبعد الضراعة وتكميل النواقص بالتوكل على الله، وبالاعتماد على قيمه السامية، تأتي مرحلة الرفاه حيث تتبدل الصعوبات إلى يسر وسلامة، ومن بعدها تأتي مرحلة الرخاء حيث تفيض النعم عن الحاجة، وهناك يفسد المجتمع بسبب الطغيان والترف والبطش فيصيبه الدمار، بيد أن الدمار لا يصيب المجتمعات شيئا فشيئا بل يصيبهم فجأة ومن دون شعورهم به ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ أي حتى كثرت النعم وأصبحت عفوا وزيادة تترك ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾.

لا حتميات بل حقائق

[٩٦] إن هذه المسيرة الدورية في المجتمعات ليست ضرورة حتمية، أو سنة إلهية قسرية لا يمكن الخروج من شرنقتها بالتصحيح والإصلاح مثلاً. بل هي حقائق تاريخية باستطاعة البشر تغييرها عن طريق الإيمان والتقوى، فإن الإيمان ضمانة فكرية وثقافية واجتماعية لبقاء عوامل الحضارة، والتقوى ضمانة تشريعية سياسية واقتصادية وسلوكية لبقاء إطارات الحضارة.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ ربما تكون البركات هي كل ما يكمل حياة البشر ويطورها للأفضل ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ إذ أن الظروف القاسية التي تصيب البشر تأتي بسبب تكذيبه للحقائق، واكتسابه للمنكرات من هنا نستطيع أن نستنبط فكرة جديدة في فلسفة التاريخ، وفلسفة الحضارات بين

المكرتين المتطرفتين وهما:

الفكرة الأولى: التي تقول أن للحضارات دورة حياتية حتمية مثل مراحل الحياة للشخص، من الطفولة إلى الشباب إلى الشيخوخة فالموت.

الفكرة الثانية: التي تقول أن الحضارات إنما هي نتيجة فكرة حضارية تنمو حولها وبها إمكانيات المجتمع حتى تصبح حضارة.

الفكرة الثالثة: التي يمكن استنباطها من هذه الآيات -لو صح التفسير الذي فسرناه بها - هي:

أن هناك سببين للحضارة:

السبب الأول: سبب طبيعي هو تحدي الصعوبات الفاسدة من ظروف قاسية أو من صراعات اجتماعية، إذ ينشا من هذا التحدي الضراعة فإصلاح النواقص فالرخاء والرفاه، وهذا السبب الطبيعي يتحرك وفق سنن طبيعية تقريبا كسائر القوانين الاجتماعية.

السبب الثاني: الإيمان بفكرة رسالية والالتزام بمناهجها (الإيمان والتقوى) ولهذا السبب سنته الذاتية، بمعنى أن الحضارة تبقى مع الإيمان والتقوى، وتصبح قادرة على تجاوز السقوط.

[٩٧-٩٨] ولأن هلاك المجتمعات الفاسدة يكون فجائيًّا بعد تراكم السيئات، وإحاطتها بالذين يكتسبونها، فإن علينا أن نترقب بأس ربنا في كل لحظة، ليلاً ونهاراً، في حالة النوم أو في حالة الغفلة!! **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾**.

[٩٩] **﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾** من هم الخاسرون؟. الخاسرون هم الذين يحسبون أن تراكم المكاسب الظاهرية، وبناء العمارات الشامخة، والشوارع المعبدة والمضاءة، والمصانع الكبيرة، والملاعب الواسعة، والجيوش المسلحة بأحداث الأسلحة، إن كل ذلك يكفي في بناء الحضارة وتحقيق طموحات البشر.. كلا، إن ذلك ما كان ليتم لولا القيم السليمة، والتطلعات المشروعة، والمناهج الصائبة، ولولا ذلك لحملت الحضارة نقيضها في ذاتها، حيث يلتف عليهم العذاب من حيث لا يشعرون فيقضي عليهم، ذلك هو مكر الله، إن المدنية القائمة على الظلم أو الطغيان، والمجتمع القائم على الاستغلال والطبقية، والثقافة القائمة على المصالح الذاتية كل ذلك مهدد بالزوال في كل لحظة وبصورة مفاجئة.

إد أن المظلومين المستغلين، والمستضعفين المقهورين سوف يتنفضون بعد أن يطفح بهم كيل الغضب، فلا يهابون الموت فيدمرون كل شيء في لحظة، والله سبحانه ينزل عليهم صاعقة من عذابه بعد أن تنتهي الفرصة الممنوحة لهم، والأجل المحدود لاختبارهم، فيقضي عليهم إنه مكر الله ولا يأمن مكره أحد.

إن المكر هو: الالتفاف حول شيء وأن يأتيه الأمر من حيث لا يحتسب الفرد، والذي لا يحسب لمكر الله حسابا يخسر، لأنه يبني دون أن يملك ضمانة لاستمرار بنائه، وهو أشبه بجيش لا يسد على نفسه الثغرات الخلفية، وينظر فقط من جهة واحدة، حيث أن العدو يأتيه من الخلف فيقضي عليه، إن على البشر أن يلاحظ خلفيات الأمور، وعوامل الهدم والدمار، وقيم التقدم والاستمرار.

[١٠٠] لكي يكون لديك بصيرة نافذة، تعرف بها عوامل الدمار التي لا ترى ظاهراً، عليك أن تعتبر من التاريخ، وتدرس حال الأمم التي بادت وأورثك الله الأرض من بعدهم، أولئك الذين أحاطت بهم ذنوبهم، وأغلقت قلوبهم فلم تسمع الحقيقة، وأنت أيضا مع مجتمعك يمكن أن يصيبكما الله بذنوبكما، فتغلق قلوبكما وتندحر حضارتكما ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أو لم يكن ذلك الاستخلاف والتوارث هداية كافية لهم ليعرفوا.

﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصاب الله أولئك بها الذين من قبلهم ليكونوا هم الوارثين ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

آثار الذنوب

إن الذنوب تعكس خطين من الآثار السلبية في حياة البشر:

الخط الأول: في الواقع الخارجي، فالظلم والإرهاب والجريمة كل ذلك يخلف الخراب والغضب والتحدي في واقع الطبقية والمجتمع.

الخط الثاني: في الإنسان العامل بالذنب، فالظلم يغشي القلب، ويضعف الإرادة، ويقتل الوجدان، ويحجب العقل، وكذلك الإرهاب والجريمة.

والقرآن يشير إلى أن هلاك الأمم كان يتم بسبب تراكم آثار الذنوب على كلا الخطين، فمن جهة كان الله يصيبهم بذنوبهم وتراكمات آثار الخطين في الواقع الخارجي، ومن جهة ثانية كان الله يطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون بسبب تراكمات الآثار النفسية، ولا يقدرون على الاستجابة لمغيرات الحياة أو الانتباه إلى أجراس الخطر التي كانت تقرع على مسامعهم، بل

حتى أنهم كانوا يكذبون بآيات العذاب وهي قادمة إليهم، فمثلاً كان بعض الهالكين من الأمم السابقة يرون سحابة العذاب فيزعمون أنها سحابة رحمة ممطرة، فتمطر عليهم العذاب بدل الرحمة. كذلك هي بعض الأنظمة اليوم حيث تزعم أن رفض الناس لها وتمردهم عليها إنما هو موجّه من خارج أراضيها، بينما هي نتيجة الفساد في ذات الأنظمة.

[١٠١] ومن علائم طبع القلب وانغلاقه عن الاستجابة للمتغيرات، أو فهم إشارات الخطر: أن الرسل كانوا يأتون إليهم بالبينات والآيات الواضحة ولكنهم يكذبون بها، حتى يدمر الله عليهم قريتهم ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ إنهم كذبوا بالقيم أول ما انحرفوا، فجاءت الرسل تنذرهم بالخطر من بعد أن تراكمت ذنوبهم وأحاطت بهم فلم يعبئوا بذلك ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حين يكفر المرء يؤثر الكفر في قلبه فينغلق دون التوجيه السليم، ذلك لأن الكفر يأتي نتيجة الاستكبار عن الحق، والغرور بالذات، وحين يستجيب المرء للكفر يزداد تكبرا وغرورا، وهكذا حتى تنسد منافذ قلبه جميعا، حيث أن الاستكبار عدو الفهم السليم.

[١٠٢] والله سبحانه حين أهلك الأمم السابقة لم يهلكهم إلا بعد أن توافرت فيهم أسباب الهلاك ومنها: نقض العهد، والفسق، أما نقض العهد فهو حالة نفسية تنعكس في تعامل الإنسان مع القيم والتزامات البشر، فالكذب والغيبة، والتهمة وإخلاف المواعيد، والغش والتدليس، والنفاق كل ذلك من مظاهر نقض العهد، حيث يتظاهر الفرد بشيء ويتعهد به ظاهرا ولكنه ينقضه، وكذلك عدم الدفاع عن الوطن، وعدم التعاون في مقاومة الظلم أو مواجهة مشكلات طبيعية.

أما الفسق فهو تجاوز الحد في السلوك الشخصي مثل: أكل الحرام، والتهاون في الحقوق ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾.

الظلم بآيات الله وعاقبة المفسدين

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ[1] عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ[2] يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨)﴾.

هدى من الآيات:

بعد الحديث عن تلك المجتمعات التي بادت وهلكت بسبب فسادها، جاء الحديث يبين لنا عاقبة مجتمع آخر أعرق حضارة وأشد جاهلية وأطول صراعا، ذلك هو مجتمع فرعون وملئه، ويطول الحديث القرآني حول هذا المجتمع هنا وفي سور أخرى، ربما لأنه أقرب صورة للمجتمع الذي سوف يتكون بالإسلام.

موسى عليه السلام يبعثه الله بالآيات البينات إلى فرعون وملئه من المستكبرين حوله، ولكنهم يظلمون الآيات، فاعتبر بعاقبة هؤلاء المفسدين، تلك العاقبة المشتركة في الجذور والسنن بالرغم من الاختلاف في التفاصيل المشتركة بين قوم موسى وقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، تلك العاقبة التي لو استخلص المرء عبرها لاستطاع أن يتجنبها.

---

(١) حقيق: حدير وخليق.

(٢) نزع: النزع إزالة الشيء عن مكانه الملابس له المتمكن فيه كنزع الرداء عن الإنسان، والنزع والقلع والجذب نظائر، وفلان ينازع إذا أرادت روحه أن تفارق جسده.

وجاء موسى عليه السلام إلى فرعون ليعرف نفسه بأنه رسول رب العالمين، وأنه يجب ألا يقول على الله إلا الحق، وانه جاء ببينة من الله عز وجل وبرسالة هي إنقاذ بني إسرائيل المستضعفين.

وتحدى فرعون موسى عليه السلام وطالب بالآيات إن كان صادقا، واستجاب موسى عليه السلام لتحديه فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.

وهكذا بدأ الصراع بين فرعون ورسول الله الذي يحدثنا السياق عنه عبر دروس عديدة.

بينات من الآيات:

ظلم الحقائق

[١٠٣] الظلم قد يقع على البشر وقد يقع على فكرة أو حقيقة، والبشر المظلوم لا بد أن يأخذ حقه عاجلا أم آجلا، كذلك الحقيقة المظلومة التي ترك الظالم العمل بها أو حتى الاعتراف بها، وحين تظلم الحقيقة يعم الفساد، وعاقبة الفساد هي الهلاك، وهكذا كانت قصة موسى مع قومه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي من بعد تلك الرسالات وأولئك الرسل ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ كما في المجتمعات السابقة كذلك في مجتمع فرعون، كان الناس منقسمين إلى الملأ وهم كبار القوم والعامة، بيد أن ثمة مؤشر لتطور المجتمع الفرعوني أكثر من سابقيه، وهو صيرورة الأقسام ثلاثة (فرعون - الملأ - العامة) وفي الآيات القادمة ما يكشف عن أهمية ثنائية (فرعون - الملأ): ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي بتلك الآيات، والآيات هي العلامات التي تدل على الحقيقة، والظلم بها يعني: ظلم الحقيقة، أو بالأحرى ظلم الإنسان لنفسه عن طريق ظلم الحقيقة وكفره بآياتها.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أو لم يهلكوا بخزي وعار، إن الفساد هو كل حركة مخالفة لسنن الله في الحياة، ومخالفة لآيات الحقيقة، وإذا تدبرنا في هذه المجموعة من الآيات ابتداء من الآية (٥٦) من هذه السورة حيث تقول: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ وحتى آخر القصص التي تحكي عن صراع الأنبياء مع مجتمعاتهم الجاهلية يتبين لنا هذا المعنى العام للفساد وهو مخالفة سنن الله وآيات الحقيقة.

[١٠٤] والله سبحانه يصلح العالم، وينزل عليه بركاته، ويكمل وجوده ويطوره نحو الأفضل، فهو رب العالمين، ولذلك فهو يبعث رسولا من لدنه إلى البشر لذات الغاية التي من أجلها سخر الشمس والقمر والنجوم، ولذات الهدف الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

بين التكذيب والتصديق

[١٠٥] كان الرسل عليهم السلام يؤكدون في دعوتهم على هذه الحقيقة وهي أن الكذب على الله جريمة كبيرة وذنب عظيم، وهذا التأكيد يكشف للناس أنهم عليهم السلام لابد أن يكونوا واحدا من نوعين من الرجال:

- فأما أن يكونوا مجرمين من الدرجة الأولى -حاشاهم- وسيرتهم حافلة بالأمانة والصدق والفداء وهذه الصفات تكشف للناس غير ذلك.

- وإما أن يكونوا صادقين، ولولا هذا التأكيد المكرر على أن الافتراء على الله ضلالة كبرى وجريمة نكراء، لكنا نحتمل أن يكون النبي كاذبا لمصلحة الناس مثلا دون أن يعرف أهمية الكذب أو مدى قبحه، وموسى عليه السلام بدأ حديثه مع فرعون بهذه الكلمة ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي يجب ألا أقول على الله إلا الحقيقة، وهذا الوجوب أعرفه جيدا وأعترف به، فإني بعيد عن الكذب على الله بسبب اعتبار ذلك جريمة، وأكثر من هذا أني أملك بينة واضحة على ذلك ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لقد كانت رسالة الله على موسى ذات صفة اجتماعية واضحة، حيث طالب موسى فرعون بكف الظلم عن بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون، ومن المعلوم أن موسى عليه السلام كان يهدف أيضا نجاة فرعون وقومه من ضلالتهم، لكن بدأ رسالته من حيث كان الانحراف الكبير أو الفساد العظيم، وهكذا ينبغي ألا تكون دعوة المصلحين في الفراغ، بل متجهة إلى أكبر انحرافات المجتمع لكشفها وإصلاحها.

[١٠٦] أما فرعون رأس هرم المجتمع الفاسد، وقائد الملأ الكاذب فإنه تحدى موسى وطالبه بالآية التي جاء بها ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

[١٠٧] واستجاب موسى عليه السلام للتحدي فوراً ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

[١٠٨] ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ كانت يده عليه السلام التي تشع بالبياض آية واضحة على صدق رسالته.

تضليل الملأ ضد رسالات الله

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ[1] وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ[2] (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ[3] وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ﴾.

هدى من الآيات:

كانت تلك الرسالة رسالة الله ببيناتها ودلائلها، فلننظر إلى ذلك الطرف لنرى ما هو جواب المستكبرين من قوم فرعون؟.

إنهم اعتمدوا على عدة وسائل لمقاومة رسالة الله، ولم يكن بينها بالطبع الاهتداء بها أو مواجهتها الحجة بالحجة:

أولاً: قالوا لموسى عليه السلام إنه ساحر عليم، ليضللوا الناس عن رسالته.

ثانياً: استثاروا حب الأمن لدى الناس، واتهموا موسى عليه السلام بتعكير الأمن عليهم.

ثالثاً: توسلوا إلى القوة وسطو لاعتقال موسى وأخاه عليهما السلام.

---

(١) أرجه: أخّر أمر عقوبتهما.

(٢) حاشرين: جامعين للسحرة.

(٣) واسترهبوهم: خوفوهم تخويفاً شديداً.

رابعاً: جمعوا المشعوذين من سحرة البلاط، وهكذا جاء السحرة لفرعون ولكن لم يكن لهم رسالة اجتماعية أو إصلاحية بل جاءوا إليه طلبا للمال والجاه، فوعدهم فرعون أن يجعلهم من المقربين إليه، فسألوا موسى عليه السلام أن يلقي ما لديه أولاً، فتحداهم موسى عليه السلام وطالبهم بالمبادرة، فلما ألقوا سحرهم سحروا أعين الناس واسترهبهم سحرهم وقد كان سحرا عظيما.

وهكذا جمع الطاغوت كل قواه المادية لمقاومة الرسالة، ولكن ترى هل يقدر على ذلك؟.

هذا ما يتحدث عنه القرآن الحكيم في الدروس القادمة إن شاء الله.

بينات من الآيات:

التهم الرخيصة

[١٠٩] في الإجابة على تلك الأدلة الفطرية الواضحة قال الأشراف والمستكبرون من قوم فرعون: إن موسى ساحر عليم، في محاولة لتضليل الجماعة المستضعفة.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ والناس كانوا يعرفون السحرة آنئذ، ويعرفون انهم يستخدمون ما عندهم من علم وفن ليس في خدمة الناس وإنما في خدمة السلاطين أو خدمة أغراضهم الدنيئة، ودائما يحاول أعوان الطاغوت إلقاء شبهة معينة بين الناس من النوع الذي يعرف الناس أمثاله، فمثلاً: لو قام مفكر أصيل بنشر ثقافة تغييرية عالية بين الناس إتهمه أولياء الطاغوت بأنه صحفي عميل، أو كاتب مأجور، لأن الناس يعرفون كثيرا من الصحفيين العملاء والكتاب المأجورين، حتى أنهم يشتبهون فعلا في معرفة المفكر الأصيل، أو إذا تصدى عالم دين صالح ومجاهد لقيادة الناس نحو حياة أفضل، قالوا: إنه رجل دين متخلف، لأنه كثيراً ما رأى الناس مثل ذلك.

[١١٠] ثم توسل أشراف قوم فرعون بما يتوسل به عادة كل الطغاة من اتهام أعدائهم بمحاولة تعكير صفو الأمن على المجتمع فقالوا: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ واسلوب ثالث استخدمه الملأ من قوم فرعون لمقاومة رسالة الله كان الاعتقال، باعتباره حاجزاً بين صاحب الرسالة وبين الجماهير، وأما الأسلوب الرابع فكان حشد كل الذين يرضون ببيع علمهم وفنهم لقاء أجر محدود لمصلحة السلطة الفرعونية.

[١١١] ﴿قَالُوٓا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ أي أسجنه هو وأخاه، وأرسل الشرطة ليحشدوا السحرة.

[١١٢] ويبقى السؤال: ما هو السحر؟.

إن أساس السحر هو: التأثير في الخيال في الطرف الثاني لكي يزعم شيئا معينا غير

الحقيقة. والسحر قد يكون عن طريق غسيل الدماغ الذي يستخدمه العلم الحديث، أو عن طريق الدعايات الباطلة، وقد يكون عن طريق بعض أنواع الشعوذة، مثل ما فعله سحرة فرعون حيث وضعوا الزئبق في أجسام لينة تشبه العصي ثم القوها فتحركت بفعل تحرك الزئبق بحرارة الشمس، وعلى العموم ليس السحر سوى استخدام الوسائل الطبيعية غير المعروفة للناس في سبيل إقناع الآخرين بغير الحقيقة.

[١١٣] والسحرة أولئك المأجورون الذين لم تكن لديهم رسالة في الحياة إلا إشباع شهواتهم العاجلة وقد سألوا فرعون قبل كل شيء عن الأجر ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ ويبدو أن السحرة كانوا يخشون الهزيمة بسبب معرفتهم ببطلان سحرهم، وأنهم لا يقولون الحق، كما يبدو أنهم قد اجهدوا أنفسهم في الحصول على كل وسيلة ممكنة من وسائل السحر، ولهذا سألوا فرعون الأجر.

[١١٤] أما فرعون الطاغوت الذي رأى أن كيانه يتداعى تحت ضربات عصى موسى المعجزة، فإنه كان كريما في إعطاء الوعود ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ حيث عرف فرعون أن طائفة السحرة يجب أن تكون على مقربة منه لمواجهة الظروف الطارئة، كما أن الملوك والرؤساء وطغاة اليوم يصطحبون معهم رتلا من الصحفيين المأجورين، والمستشارين العملاء الذين باعوا ما لديهم من فكر وعلم وأدب من أجل تدعيم نظام الظلم والقهر.

التحدي الرسالي

[١١٥] وحشد الجمهور، ووقف موسى عليه السلام يتحدى كل ذلك الكيان الطاغوتي، فرعون وجنوده وسحرته، يتحداهم وحده بالتوكل على الله، والثقة المطلقة بوعده الصادق بنصره لذلك ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾.

[١١٦] ﴿ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ إن موسى عليه السلام واثق من النصر لأنه على حق، ولأنه يعتمد على ركن شديد هو الله سبحانه، لذلك أمرهم بأن يخرجوا ما لديهم من مكر وسحر، كما أمر نوح عليه السلام قومه بأن يجمعوا أمرهم وأن يأتوا إليه من دون نظرة ومهل.

وهكذا كل الدعاة إلى الله سبحانه يتحدون أعلاء الله الطواغيت دون خوف، وينازلونهم في ميدان المواجهة الشاملة، وهذا بذاته دليل صدقهم واعتمادهم على الله سبحانه، وعلى الحق الذي يحملون رسالته.

الرسالة تتحدى التضليل والإرهاب

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

وجاءت مرحلة الحسم، وأوحى الله سبحانه إلى موسى بإلقاء عصاه، فإذا بها تتحول إلى ثعبان عظيم يبتلع سحر قوم فرعون، وإذا بالحق الذي كان يبشر به موسى أصبح واقعا، والباطل الذي كان يحذر منه تبين بطلانه للجميع.

وانهزم فرعون وقومه وذلوا، وكان أول من عرف عظمة المعجزة سحرة فرعون أنفسهم حيث وقعوا ساجدين لله، وهتفوا بأنهم آمنوا برب العالمين رب موسى وهارون عليهما السلام، وارتاع فرعون، وعرف أنه لا يجديه السحر والمكر شيئا، وأن عليه أن يستخدم آخر الأسلحة وهو سلاح الإرهاب، فقهر سحرته وقال لهم: أتؤمنون بموسى قبل أن يصدر الإذن مني وأقرر أن نهاية المعركة لصالح موسى عليه السلام باعتباري ملكا، ثم اتهمهم بما يتهم كل طاغوت من يخرج عليه، اتهمهم بأنهم يهدفون إشاعة الفوضى والمؤامرة على أمن البلد، ويريدون إخراج الناس،

وهددهم بأنه سوف يصلبهم أجمعين.

أما المؤمنون فانهم تقبلوا التهديد بكل رحابة صدر وقالوا: إن الموت هو جسر العبور للعودة إلى الله تعالى، وقالوا له: إن تهمك باطلة، وإنما تريد أن تعذبنا لأننا آمنا بآيات ربنا، وعلامات الحقيقة حيث جاءتنا، وطلبوا من الله سبحانه أن يمدهم بالصبر، وأن يختم عاقبتهم بالخير.

وهكذا أسدل الستار على مشهد آخر من مشاهد صراع الحق والباطل.

بينات من الآيات:

التوكل على الله سر العظمة

[١١٧] موسى عليه السلام الذي تحدى كل ذلك الطغيان الجاهلي العظيم بسحره وجبروته وإرهابه لم يفعل ذلك بقدرته الذاتية، بل بالقدرة المعنوية -بالتوكل على الله- وهذا هو سر العظمة، إذ لو كان موسى يملك سحرا أقوى ثم يتحدى سحر السحرة، أو كان يملك جيشا اكبر ثم يتحدى الطاغوت فرعون، أو يحظى بمؤيدين أكثر إذن ما كان له هذا الفخر وهذه العظمة، إنما كان يتحدى الجاهلية بعصاته التي يخشى منها حين يلقيها، لأنه لا يعرف كيف تتحول إلى ثعبان، وحين وقف موسى أمام السحرة ورأى سحرهم العظيم، وأنهم استرهبوا الجماهير، وكادوا يضللونهم أوجس في نفسه خيفة، لأنه يخاف من غلبة الجهال ودول الضلال كما جاء في الحديث، ولكن يشاء ربه امتحان الناس بهذا السحر، وامتحان استقامته، وحين ينتصر موسى عليه السلام بعصاه حينذاك تكون عظمته، لأنه يعتمد على الإيمان، ويضحي بنفسه في هذا المجال، لذلك يؤكد ربنا على الوحي في مواجهة الجاهلية ويقول: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي تبتلع إفكهم وانحرافهم وكذبهم.

[١١٨] وحين يصبح الحق واقعا عينيا يؤمن به الجميع، ولكن قبل ذلك لا يؤمن به سوى أصحاب البصائر النافذة والرؤى الصادقة ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إنهم عملوا الباطل وأرادوا تكريسه، ولكن الحق وهو سنة الله وفطرته وقانونه في الحياة هو الذي انتصر أخيرا، فالظلام في الليل يزيله بصيص نور شمعة، وكما أن هذه الشمعة قطعت الظلام كذلك النور في النهار، وكذلك العدالة الاجتماعية وكذلك في المقابل سقوط الظلم وانهيار الفساد.

[١١٩] أما قوم فرعون فلحقهم الخزي والهزيمة ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾.

[١٢٠-١٢١-١٢٢] والمفاجئة كانت حين ألقى السحرة ساجدين، تلك كانت الإصابة في مقتل النظام الماكر وذلك أن السحرة هم أكثر من يميز بين السحر والمعجزة، ويبدو أنهم بوصفهم النخبة المثقفة كانوا على اطلاع ببعض الرسالات السماوية ولو من خلال نبي الله يوسف عليه السلام، وفي اللحظة الحاسمة التي حدثت صدمة المعجزة آبوا إلى الرشد ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

فلسفة الاستبداد

[١٢٣] للاستبداد فلسفة يعتمد عليها ويشيعها الطاغوت بين الناس، هذه الفلسفة هي قاعدة كل تشريعاته، ومنطلق كل تصرفاته، وهي: المحافظة على الأمن ضد العدو الخارجي أو الداخلي، حتى أن الطواغيت يصطنعون عادة أعداء وهميين، أو يستزيدون عداء الشعوب فيختلقون الحروب لكي يعتمدوا عليها في ترسيخ كيانهم الباطل، وفرعون كذلك عاد إلى تلك الفلسفة الباطلة لكي يخرج من ورطته المخزية، حيث انهار عمود من أعمدة حكمه وهو السحر، ووقع السحرة ساجدين لله لذلك ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ إن فرعون انطلق من فكرة خاطئة هي: أن ملكه ونظامه هو أساس أمن البلد، لذلك فإنكم حين آمنتم بموسى قبل أن تستصدروا الأذن مني فإنكم خالفتم هذا الأساس، لذلك قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أو بالتعبير الشائع اليوم إنها مؤامرة قمتم بها في البلد ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

[١٢٤-١٢٥] وعاد إلى السلاح الأخير وهو الإرهاب، ذلك السلاح الذي يعتمد عليه الظالمون والطغاة قبل كل شيء، بالرغم من أنهم لا يصرّحون به، ومن أهم نتائج الصراعات الرسالية مع الطغاة والظالمين هو: فضح اعتمادهم على الإرهاب ليعرف الجميع أن الادعاءات الأخرى إن هي إلا غطاء لهذا السلاح ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ أي تقطيع الرجل من طرف واليد من طرف آخر ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وذلك للجمع بين النوعين من أنواع الإعدام، الإعدام بنزف الدم من اليد والرجل المقطوعتين من اليمين واليسار، والإعدام بالصلب في جذوع النخل، وذلك بشد الفرد على الجذوع حتى يقضى عليه تنكيلا به، وليشهد موته كل الناس فيكون رادعا لهم عن الإيمان بالرسالة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾.

[١٢٦] ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ وهكذا استعد السحرة التائبون لمواجهة مكر فرعون وكيده، تضليله وإرهابه، فمن جهة قالوا له: إن غضبك علينا ليس إلا لأننا عدنا إلى حريتنا واستقلالنا وآمنا بالحق من دون

إذنك، ومن جهة ثانية تضرعوا إلى الله ليرزقهم الصبر الشامل، والاستقامة حتى الموت، وذلك لمواجهة إرهاب فرعون وبذلك أتم الله حجته على سائر الملأ من قوم فرعون الذين ظلوا على جهالتهم خشية فرعون وبطشه، حيث أن السحرة أيضا تعرضوا لمثل ذلك ولكنهم صبروا واستقاموا بالتوكل على ربهم، وأتم الله حجته على بطانة المستكبرين عبر التاريخ انهم قادرون على التوبة إلى الله إن شاءوا، كما فعل سحرة فرعون التائبون، وأتم حجته على الناس ليعلموا أن إيمان المؤمنين لم يكن بدافع مصلحي أبدا.

حكمة حياة البشر تجربة إرادته

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾.

هدى من الآيات:

وانتهت الجولة الأولى من المعركة بين موسى عليه السلام وفرعون وملئه بانتصار الرسالة، واستعادة موسى حريته، واتبعته الجماعة المستضعفة من قومه، وجاء المستكبرون يخبرون فرعون بأن موسى وقومه يفسدون عليه الأمر، ويهدمون نظامه الطاغوتي، ويتمردون عليه وعلى نظامه السياسي والديني، فخطط فرعون لمرحلة جديدة من الإرهاب وقال: سنقتل أبناء بني إسرائيل ونبقي على نسائهم أحياء ونستخدم القوة القهرية عليهم، وقال موسى لقومه وهو يحثهم على مقاومة الضغوط استعينوا بالله بالإيمان به، وبالثقة بوعده، وبالمناهج الرسالية التي وضعتها لكم القيادة الحكيمة- وأمرهم بالصبر وبين لهم أن الأرض ليست ملكا لفرعون وقومه حتى يستحيل انتزاعها منهم، بل هي ملك لله يعطيها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

أما قوم موسى عليه السلام فقد فرغ صبرهم وقالوا له: إننا تحملنا الأذى قبل وبعد مجيئك إلينا، ولكن موسى طمأنهم وقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالانتصار عليهم، والهدف من استخلافكم هو: اختياركم، وامتحان عملكم بعد الانتصار.

بينات من الآيات:

بعد العسر يأذن الله بالنصر

[١٢٧] وينصر الله سبحانه المؤمنين الرساليين في أوقات الأزمات الشديدة كما نصر موسى عندما أراد فرعون سحق رسالته بالسحر، بيد أن من واجب الرساليين آنئذ ألا يدعو لحظة واحدة لا يستفيدوا منها في توعية الجماهير وتنظيمهم، وترسيخ دعائم النهضة والتغيير، وهدم أسس النظام الفاسد، وذلك استعدادا لجولة جديدة من المعركة الساخنة مع النظام الطاغوتي، فهذا موسى عليه السلام بعد أن انتصر على فرعون، واستعاد منه حريته، جمع حوله الأنصار، وأخذ يفسد نظام فرعون الطاغوتي من كل جهة ممكنة، ويهدم أساس كيانه وهو الاعتماد على السلطة السياسية الطاغوتية التي يمثلها فرعون رأس النظام ذاته، وأيضا السلطة الدينية والثقافية الفاسدة، التي كان يمثلها: الكهنة والأحبار لذلك جاء كبار رجال فرعون ومستشاروه إليه يخبرونه بالأمر ويحذرونه منه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ -يبدو لي-: أن مرادهم بالفساد في الأرض هو هدم الأنظمة التفصيلية، والكيانات والمؤسسات المختلفة للدولة، بينما المراد من ترك فرعون هو ترك سلطانه السياسي، والمراد من ترك الآلهة ترك خلفية هذا النظام السياسي والثقافي. وعندما حذر الملأ فرعون من مغبّة التساهل مع موسى عليه السلام، وما قد يترتب على ذلك من نتائج مدمّرة على سلطانه السياسي والعقائدي، كشّر فرعون عن أنيابه وصرّح لهم بما ينويه من ممارسة أعنف ألوان الإرهاب بحق النبي وأتباعه: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾.

[١٢٨] وحين استخدم فرعون سلاحه الأخير، وأراد تصفية المستضعفين جسديا، أمر موسى قومه بالاستعانة بالله، ويتساءل المرء: ما هي الاستعانة بالله؟.

ونعرف الإجابة إذا تذكرنا بأن لله الأسماء الحسنى، وحين يؤمن العبد بربه يسعى لتجسيد ما استطاع من تلك الأسماء في ذاته، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وحين يتصل العبد بالله تتجلى فيه صفة العزة الإلهية، كما تتجلى فيه صفة القدرة، وعدم الخضوع لضغوط الشهوات، أو الاستسلام للمتغيرات الآنية العاجلة، وبقدر ذلك تتجلى فيه صفة الرحمة والشدة والحكمة والعلم و.. و . وكلما زادت الأسماء الإلهية الحسنى في المؤمن تجليا وظهورا كلما أصبح أقدر على مواجهة المصاعب وتسخير الحياة، والله سبحانه خلق لعباده وسائل للتقرب إليه، وللاتصال بينابيع قدرته وعظمته، والأخذ بتلك الوسائل هو الاستعانة بالله، فكلما تمسك المؤمن بتلك الوسائل كلما أصبح اشد قدرة وأكبر عظمة، والتقوى هي: جماع تلك الوسائل، أما تفاصيلها

فهي: تلك المناهج التشريعية المعروفة في الإسلام وفي سائر الرسالات.

ومن أبرز تلك الوسائل هي: الولاية الإلهية التي تتجلى في القيادة الرسالية النابعة من المبدأ، حيث أن الاستعانة بالله تعني بالضرورة المزيد من التمسك بهذه القيادة، وتوحيد الجهود تحت رايتها، لذلك فحين أمر موسى عليه السلام قومه بالاستعانة بالله كان يعني كل ذلك، ولكن مع ذلك ركز موسى عليه السلام على صفتين أساسيتين هما:

-الصبر: لرؤية المستقبل والاستقامة على مشاكل الحاضر.

- التقوى: للالتزام بكل المناهج المفصلة التي تضمن تفجير الطاقات، واستغلال المواهب، وتربية الشخصية الرسالية العاملة. وبالتالي توفير كافة عوامل النصر في الفرد والمجتمع الرسالي من عوامل مادية أو معنوية.. من هنا: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ إن معرفة هذه الحقيقة وهي: أن السلطة الحاكمة ليست أبدية، وإنما هي نتيجة عوامل ومعادلات سياسية اجتماعية، وانه لو تغيرت المعادلة والعوامل سقطت السلطة، وجاء بديلها السلطة الأكثر قوة وكفاءة، وهي حكومة المتقين، إن معرفة هذه الحقيقة تفجر طاقات الجماهير المستضعفة وتعطيها الأمل والصمود.

[١٢٩] وأما قوم موسى فقد طفح كيلهم، وكاد اليأس يحيط بقلوبهم حيث: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ولكن حين تفقد الأمة قدرة الاحتمال من شدة الضر الذي يصيبها، وحين تتضرع إلى الله وينقطع أملها من النجاة بالوسائل الإصلاحية المتدرجة، وتعرف أن تغييرا جذريا في شخصيتها وفي علاقاتها مع بعضها ومع الطبيعة أنه الكفيل بنجاتها، وهذا لايمكن إلا عن طريق الإيمان بالله وبرسالاته، حينذاك فقط تنزل عليها رحمة الله سبحانه لذلك ذكرهم موسى و.. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ والانتصار إنما هو بهدف الامتحان، وعلى الأمة ألا تفكر في ذلك الانتصار الرخيص الذي هدفه استعلاء طائفة، واستكبار فريق مكان فريق آخر، بل تفكر سلفا أن الانتصار لا يحصل لفريق أو لحزب أو لطائفة بل للمبدأ، وتعمل الأمة في هذا المجال حتى تنجح بإذن الله.

لذلك فان الحركات الحزبية الضيقة التي همها انتصارها هي لا انتصار الأمة، تفشل في الأكثر، لأن الله لا ينصر أمة إلا بعد أن تتضرع إليه، ويكون هدفها رساليا خالصا.

وهكذا نصر الله عباده بالغيب

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[1] ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ[2] ﴿١٣٧﴾ ﴾.

(١) ينكثون: النكث نقض العهد الذي يلزم الوفاء به.

(٢) يعرشون: يبنون، يقال عرش مكة أي بناؤها.

هدى من الآيات:

وهذا مشهد آخر من مشاهد الصراع بين الرسالة والرجعية الجاهلية، حيث أن الله أراد أن يهدي آل فرعون عن طريق كسر غرورهم، وتذليل نفوسهم المستكبرة بالمصائب والمشكلات، ولكنهم استكبروا وكانوا يزعمون أن الخير والرفاه هو الأصل في حياتهم وهو منهم، وأما الشر والمصائب فهي من نحس موسى -حاشاه- ولم يكونوا يشعرون بأن كل خير أو شر إنما هو من عند الله ينزله بسبب أعمال العباد.

وحين لم تنفع هذه الوسيلة في هدايتهم، بل صرحوا بأن الآيات هذه (سواء العصى واليد البيضاء أو المصائب والمشكلات كالجدب ونقص الثمرات) لا تجديهم نفعا، وأنهم لن يؤمنوا بالرسالة مهما كان، آنئذ أخذهم بالعذاب.

ولقد أرسل الله عليهم الطوفان، وانتشر فيهم الجراد والقمل والضفادع والدم بأمر منه سبحانه وكانت هذه الآيات مفصلة وواضحة، لكنهم استكبروا عنها وكانوا قوما مجرمين، فإذا كانوا فاسدين فكريا وعمليا.

إنهم كانوا يتوسلون بموسى كلما يقع عليهم الرجز، ويصيبهم العذاب، ويتعهدون له بالإيمان لو كشف الله عنهم الرجز، ولكنهم كانوا ينكثون كلما كشف الله عنهم العذاب لأجل محدد.

وكانت تلك المصاعب والمصائب تستهدف هدايتهم، ولكن حيث كفروا واستكبروا حان وقت الانتقام والعذاب، فأغرقهم الله في البحر بسبب تكذيبهم وغفلتهم عن آيات الله، وعواقب التكذيب بها.

بينات من الآيات:

الغرور سبب الكفر

[١٣٠] سبب كفر الإنسان وتكذيبه بآيات الله عزوجل هو: استكباره وغروره، وكلما كانت حضارة الإنسان ومدنيته وغناه أكثر كلما كان غروره أكبر.

ولكي يكسر الله غرور البشر، فيرتفع عنهم هذا الحجاب الكثيف فيرون الحقيقة، فانه يبعث إليهم رسولا ينذرهم ويحذرهم، ويعمل بكل طاقته في سبيل إثارة فطرتهم، وتنوير قلوبهم، وإيقاظهم من السبات، ولكن إذا ظل أولئك كافرين ومستكبرين عن الحقيقة فهنا

يتخذ ربنا سبيلا آخر لهدايتهم هو: ابتلاؤهم في أموالهم أو في نفوسهم ببعض البلاء العام، فإذا لم ينتفعوا بها أيضا أخذهم الله بالعذاب الشديد، لذلك أخبر الله عن آل فرعون وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ أي بالقحط والجدب، وكانوا قبل ذلك مغرورين بالأنهار التي تجري من تحتهم، وبالنيل الذي فجر الله به خيرات الأرض لهم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ كان المطر يملأ مراعيهم خضرة، ويملأ نيلهم ماء فيسقي البساتين فتزداد الثمرات، ولكن حين قل المطر أصبحت الصحاري جفافا والبساتين يابسة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون أن هذه المدنية ليست من ذاتهم بل من الله سبحانه.

[١٣١] البشر قد يغفل وقد ينام وقد يغمى عليه، ولكنه بالمعالجة يتذكر ويستيقظ ويحس، أما الذي فسدت رؤيته وانحرفت ثقافته فإنه لا تنفع معه المعالجة، فمثلاً: البشر العادي حين تراه قد استغنى ولا يحتاج إلى أحد يستبد به الغرور والاستكبار، ولكن إذا فقد سبب غروره وافتقر عادت نفسه إلى حالته الأولية وتقبل الهداية.

أما البشر المعقد الذي تحضر واستبدت به ثقافة خاطئة، وفقد فطرته الأولية، فان تلك الثقافة تبقى معه حتى بعد رحيل النعم عنه، وعودته إلى الحالة الطبيعية، فلا يزال مغرورا بذاته وبمنجزات آبائه وبمكاسبهم، لذلك لا يصدق نفسه حتى أن نـزل عليه البلاء، بل ويزعم أن هذا البلاء إنما سببه بعض الطوارئ الخارجة عن إرادته، وإنه استثناء إذ يزعم أن الحضارة جزء من ذاته، ومعلولة عن عنصره وعن بلده وعن أفكاره، لذلك ترى قوم فرعون ينسبون الحسنة إلى أنفسهم والسيئة إلى موسى عليه السلام ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ يقولون إن السيئة إنما هي بسبب موسى، كما تنسب الأنظمة الفاسدة اليوم المشاكل كلها إلى الرساليين والمجاهدين، حيث تزعم أنهم -دون فساد أنظمتهم- سبب التخلف الاقتصادي والتبعية والإرهاب وما أشبه.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ المشاكل ليست بسبب هذه الحركة أو تلك الفكرة، وإنما بسب النظام ذاته وبسبب فساد الأعمال، والله هو الذي يقدر الخير والشر، والحسنة والسيئة حسب قوانين دقيقة وثابتة عند الله سبحانه، يجريها ربنا بحكمته البالغة وبعلمه النافذ، ومعرفة هذه الحقيقة تعطي البشر قدرة على التحكم في الحياة.

التطرف في الكفر

[١٣٢] وبلغ الكفر والجحود بآل فرعون حداً بنوا بينهم وبين الحقيقة سداً منيعاً من الجحود، وتشبثوا بسلسلة من الأفكار المخدرة التي تفسر كل آيات الحقيقة ومعالمها ببعض

التفسيرات الباطلة ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فموسى عليه السلام لا يزال عندهم ذلك الساحر العليم الذي يعرف كل وسائل السحر، وهدفه ليس هداية البشر بل تسخير الناس لأهدافه الخاصة، لذلك فهم مصرون على الكفر به، وبآياته أنى كانت واضحة.

وهذه المرحلة السحيقة من الكفر هي أخطر دركات السقوط، حيث يصنع الفرد لنفسه تابوتا من المسلمات الفكرية ويصمم على الاحتفاظ بها أنى كان الثمن، إنه عين الضلالة وقمة التعصب الأحمق.

على الإنسان أن يبقى أبدا مفتوح العين، يقظ الضمير، نابه الروح، ولا يقتل وجدانه تحت مطرقة شهواته، ولا يعمي عينه بمسامير بغضه وحقده، ولا يميت ضميره بحب أو بغض.

إن كثيرا منا يزعم انه إذا فتح عينه مرة واحدة، واتخذ طريقا لنفسه يستطيع أن يبقى على ذات الطريق إلى الأبد، ويستغني عن عينه، ولكن كلا.. إن عقل الفرد يتكامل، وروحه تكبر حتى تتسع لمزيد من الحقائق، وفكره ينمو، والعالم يتغير، وآيات الحقيقة تترى.. ولذلك فعلى الإنسان أن يبقى أبدا على يقظة وانتباه، ويستغل كلما لديه من وسائل اكتشاف الحقيقة من عقل وضمير.

[١٣٣] ولأن آل فرعون افقدوا أنفسهم نعمة البصيرة، واختاروا التفسير الخاطئ لكل الحوادث، فان الآيات المختلفة التي توالت عليهم لم تزدهم إلا رسوخا في الكفر، وتوغلا في الجحود، لذلك أرسل الله عليهم الطوفان ففاضت أوديتهم حتى دخل الماء بيوتهم، فنصبوا الخيام في الصحراء، ثم أرسل الله عليهم الجراد فأكلت محاصيلهم الزراعية، وانتشر فيهم القمل، والحشرات، والضفادع التي توالدت بسرعة في برك الماء المكونة من الفيضانات، وابتلوا بالدم ربما بسبب الرعاف أو بعض الأمراض الآتية بسبب بعض الجراثيم (كما قال بعض المفسرين) ولكن كل ذلك لم ينفعهم علماً وهدى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ وتعالوا عن الحقيقة، وزعموا أن ذواتهم هي أعلى من الحقيقة، وأرادوا تغيير قوانين الكون حسب أهوائهم، لا تزكية ذواتهم حسب أنظمة الكون ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ حيث إنهم ظلموا أنفسهم باستكبارهم عن الحقيقة، إن تقدم البشر في أي حقل من حقول الحياة إنما هو رهن بمعرفة أنظمة الكون، واستغلال هذه المعرفة من أجل تسخير الحياة، وتبدأ مسيرة القهقرى حين يستهين بهذه الأنظمة، ويتعالى عنها فيظلم نفسه بذلك.

كذب واستكبار

[١٣٤] ولقد أتم الله حجته على آل فرعون بتلك المصائب التي توالت عليهم، إذ أن البلاء يكشف الحجب الكثيفة التي يجعلها الفرد على عينيه مثل: التعصب، والحقد، والحب المفرط، ولكن إذا انكشف البلاء عادت الحجب، وعادت مشكلة الجحود.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾ وهو العذاب الآتي بسبب الانحراف، والشذوذ في الطبيعة أو في السلوك ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ إن نظرتهم المادية الضيقة لم تزل لاصقة بأذهانهم، إذ أنهم لا يزالون يزعمون أن الهدف من بعثة موسى هو الانتفاع من وجوده في كشف الضر عنهم، ولم يفقهوا دور المعنويات في حياة البشر، وأن رسالات الله تنفع البشر في رفع معنوياتهم، ووضع برامج صائبة لهم، وليس فقط في دفع البلاء الذي يصيبهم بسوء أعمالهم، أما آل فرعون فقد كانت نظرتهم إلى الدين وإلى حاملي رسالته كنظرة كثير منا حيث نريد الدين لمصالحنا الذاتية لذلك قالوا: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ ﴾ والرجز يكشفه الله بالتوبة والعمل الصالح، ولكنهم نسبوا الأمر إلى موسى عليه السلام لقصر نظرهم ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

[١٣٥] ولكن هل كانوا يصدقون؟ كلا.. ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ عهدهم ويعودون إلى سابق كفرهم وجحودهم، وعند ذاك تكتمل حجة الله عليهم، إذ لا يمكنهم في يوم الانتقام التعلل بأنهم إنما كفروا غفلة أو جهلا، فقد عرفوا الحقيقة ولجأوا إليها، وتعهدوا بالوفاء لها عندما أحاط بهم البلاء، والآن ينقضون العهد، وهذه التجربة يمر بها كل فرد وكل مجتمع، حيث أن الله سبحانه يأخذ البشر بالبأساء والضراء لكي يرفع عن أنفسهم حجب الغفلة والنسيان، ولكي يحتج عليهم لو عادوا إلى الكفر بعد الإيمان في أوقات العسرة.

سوء المصير

[١٣٦] وحان ميعاد الانتقام، وأغرق الله آل فرعون في البحر بسبب تكذيبهم بآيات الله، وبالتالي بالحقائق التي وراءها، وبسبب غفلتهم عنها وعن دورها في سعادتهم وخلافتهم ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾.

[١٣٧] وكما انتقم الله من آل فرعون لتكذيبهم بآيات الله، أنعم الله على بني إسرائيل لتصديقهم بها، وأورثهم الأرض المباركة ذات الخيرات الوفيرة ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ

يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ ويقهرون من قبل فرعون وقومه، وهم بنو إسرائيل، أورثهم الله ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ كل ذلك بسبب تصديقهم بالحقيقة تصديقاً نظريًا وعمليًا، والشاهد على تصديق بني إسرائيل بالحقيقة هو صبرهم واستقامتهم ﴿بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ ﴾ من زخرف، وصور، وأسلحة، وأدوات، وأمتعة.. و.. و.. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ من بنايات فخمة، وحدائق، وحقول، وتماثيل، وبالتالي دمر الله أموالهم المنقولة وغير المنقولة بسبب كفرهم، وهكذا ينتقم الله للحقيقة.

بنو إسرائيل والردة الجاهلية

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ(١) مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

هدى من الآيات:

أفضل ساعات البشر وخير أيامه إيمانا وهدى هي ساعة عسرته، ويوم بؤسه، لأنه لا يستكبر هنالك على الحقيقة، ولا يغتر بما لديه من قوة ومنعة، وكذلك أفضل مراحل الأمة هي مراحل الثورة حيث تتعرض للضغوط وتتحدى الصعاب.

وبنو إسرائيل حين تعرضهم للاستضعاف من قبل آل فرعون وقومه استقاموا على الطريقة وصبروا، ولكن بعد أن أنجاهم الله، وأورثهم الأرض دفعهم ضعفهم السابق وذلتهم إلى محاولة تقليد الآخرين في عبادة الأصنام وفي مظاهر الدنيا، فحين أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنماً كما لأولئك القوم، فذكرهم موسى بأنه لا مستقبل لعبدة الأصنام، وأن عملهم باطل، وأنه كيف يبحث لهم عن إله غير الله وهو فضّلهم على العالمين، بما أنعم عليهم من التوحيد والنصر، ثم ذكرهم أيامهم السابقة، حيث كانوا يتعرضون لأنواع العذاب على يد فرعون، ومنها تقتيل أبنائهم، واستحياء نسائهم، وأن

(١) متبر: مهلك مدمر.

ذلك كان بلاء عظيما، وتزكية لنفوسهم، وحين أنجاهم الله يعودون للكفر.

ويمكننا أن نستلهم من هذه القصة كيف أن الأمم تفسد بعد الإصلاح، وكيف أن التوجيه ينفعها، وأن السقوط ليس سنة حتمية.

بينات من الآيات:

الكفر بعد الإيمان

[١٣٨] هيأ الله أسباب النجاة لبني إسرائيل، تلك الأمة الفتية التي تستعد الآن لبناء حضارتها بعد تخلصها من سلطة الطاغوت، فتركوا أرض مصر باتجاه فلسطين بعد أن هيأ الله لهم أسباب العبور على البحر، وقبل أن تجف أقدامهم من آثار العبور أصيبوا بنكسة إيمانية، حيث مروا على قوم يعبدون أصناما لهم فطالبوا موسى عليه السلام وهو رسولهم وقائد مسيرتهم باتخاذ إله لهم كما لأولئك القوم ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إن بني إسرائيل كانوا يعيشون تحت سيطرة الطاغوت سياسيا وثقافيا، وكانت علاقاتهم الاقتصادية ببعضهم منسوجة حسب تلك السيطرة، وقام موسى عليه السلام والمؤمنون من أصحابه بتفجير ثلاث حركات متتالية لإنقاذ قومه من السيطرة -السياسية، فالثقافية، فالاقتصادية- (وقد سبق الحديث عن ذلك في تفسير سورة البقرة)[1]، ويبدو أن هذه المرحلة هي مرحلة الثقافة التي تحمل في طياتها تصفية آثار السيطرة السياسية أيضاً.

إن قوم موسى عليه السلام عاشوا ردحاً طويلاً من الزمن وهم يعانون الذل والخضوع والاستسلام للآخرين، وكانت السياسة الطاغوتية لفرعون هي التي فرضت عليهم هذه الحالة، ولكنهم على أي حال تأثروا بها نفسيا، فحين أنقذهم الله غيبيا بقيت آثار تلك السيطرة عالقة بنفوسهم، ولم يقدروا على ممارسة حريتهم والحضور في ساحات الحياة، واتخاذ القرارات المناسبة فيها اعتمادا على أنفسهم، لذلك حنوا إلى حالتهم السابقة فطالبوا موسى بإله -كما لهم آلهة- والإله هو السلطان الاجتماعي والسياسي والثقافي، ورمز هذا الإله هو الصنم، وبنو إسرائيل في هذه الصفة كانوا تماماً مثل الشعوب التي تتحرر من الاستعمار السياسي، ولكنها تقلد الغرب أو الشرق في أنظمتها وثقافتها، وكأنها تخرج من الاستعمار القسري وتعود إلى الاستعمار اختياريا، وذلك لاستمرار قابلية الاستعمار في أنفسهم.

---

(١) راجع الجزء الأول، ص: ١٩٦.

أما موسى عليه السلام فقد شرح لقومه:

أولاً: العامل الداخلي لهذا الطلب وهو الجهل وقلة الوعي ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

[١٣٩] ثانياً: بيّن لهم أن وضع هؤلاء هالك ولا دوام له ولا استمرار، إذ أن الوضع الفاسد لا يملك رصيدا واقعيا، كشجرة مجتثة من فوق الأرض، ظاهرها شجرة، وواقعها حطبة.

ثالثاً: بيّن أن العمل الذي يقوم به الإنسان في إطار النظام الفاسد هو عمل باطل، وينتهي إلى الدمار حتى ولو كان ظاهر العمل حسنا، مثلاً: ظاهر البناء أنه عمل جيد، ولكن إذا كان المهندسون والبناءون ومصانع الحديد ومعامل الإسمنت كلها تعمل من أجل بناء معتقل أو قاعدة صاروخية تقذف المستضعفين فإن هذا العمل تخريب وليس بناء، كذلك كل عمل لا يكون ضمن إطار صالح أو هدف مقدس فانه باطل وينتهي، لذلك قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

جوهر عبودية الله تحرر الإنسان

[١٤٠] ثم بعد أن وضح فساد الوضع الذي يدعون إليه، شرح لهم موسى بأن الرب الذي أنقذهم من سلطان فرعون، وحررهم من الطاغوت خير لهم مما يدعون إليه ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إن الله فضلهم بالحرية والعلم، وأن يقودوا أنفسهم بعيداً عن ضغوط الطاغوت، وهم يريدون العودة إلى العبودية.

إن البشر حين ينفي ألوهية أي شيء أو أي شخص من دون الله سبحانه فسوف يكون محررا، مسلطا على نفسه بقدر ما يأذن الله له.

[١٤١] والله سبحانه هو الذي أنجاهم من آل فرعون وبطشهم وقهرهم بالتوحيد، وإن فكرة التوحيد التي أنقذتهم من تلك الورطة، أولى بالاتباع من تلك الثقافات الجاهلية التي سهلت استعبادهم واستغلالهم ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يحملونكم الإرهاب والعذاب ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وهل هناك نعمة أفضل من التحرر من إرهاب الطاغوت وسيطرته؟، وكم يكون البشر غبيًا لو أراد العودة إلى العبودية بعد الحرية، والتعاسة والبؤس بعد الرفاه والراحة

إن استمرار الحالة الثورية التي رافقت نجاة الأمة من الطاغوت هو أفضل وسيلة للخلاص من عوامل الانتكاس في العملية التغييرية، وهذا ممكن مع تذكر أيام الطاغوت وكيف تغيرت.

تنمية روح الإيمان بالله

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ[(١)] رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ[(٢)] رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ[(٣)] فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ[(٤)] مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ (١٤٥) ﴾.

هدى من الآيات:

وواعد الله عزوجل موسى عليه السلام ثلاثين ليلة لميقاته، وذهب موسى إلى الميقات بعد أن وصى أخاه هارون تلك الوصايا المؤكدة، التي كان الرسل عليهم السلام يوصون بها قومهم باتباع

---

(١) ميقات: الفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدّر ليعمل فيه عمل من الأعمال، والوقت الشيء قدره ولذلك قيل مواقيت الحج وهي المواضع التي قدرت للاحرام فيها.

(٢) تجلى: التجلي الظهور، ويكون تارة بالظهور وتارة بالدلالة.

(٣) صعقاً: مغشياً عليه.

(٤) الألواح: اللوح صحيفة مهيأة للكتابة فيها.

سبيل الإصلاح، وترك سبيل المفسدين، وجاء موسى لميقات ربه وهو يحمل رجاء قومه بالنظر إلى الله، فلما كشف لربه عن هذا الطلب الغريب النابع عن جهل الناس بالله وبصفاته الحسنى، أمره ربه بالنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فقد يكون لكلامه وجه، ولكن الجبل تدكدك وخر موسى صعقا، وأغمي عليه من هول المنظر، ولما أفاق قال: سبحانك أنت منزه عن هذا الطلب وأنا أول المؤمنين بك، وربما كانت تلك هي البداية الظاهرة للثورة الثقافية التي يقوم به الرسل بعد وقبل السيطرة على السلطة، حيث أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام برسالاته، وأنه كلمه من دون الناس تكليما، وأن عليه أن يأخذها بقوة، وأن يمتلأ قلبه رضا بها وشكرا، حتى يدافع عنها بكل قوة.

وكتب الله لموسى في تلك الألواح التي أنزلها ما ينفع الناس من كل شيء، وفي كل حقل، وذلك بهدف تزكية الناس، وبيان تشريع مفصل لهم، وأمره بالدفاع عن هذه الرسالة، وأن يبلغها قومه حسب الظروف المختلفة، ففي كل ظرف يعملون بأحسن ما في الرسالة، وأكثرها تطبيقا على ذلك الظرف، وحذره من الفسق وعدم تطبيق بنود الرسالة، وقال له: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

بينات من الآيات:

حكمة الغيبة

[١٤٢] مع انتصار بني إسرائيل تلك الفئة المستضعفة التي آمنت بموسى وبرسالته الاجتماعية، ازداد تعلق الجماهير بقائدهم موسى عليه السلام تعلقاً شخصيًّا، وكان من الضروري تحول هذه العلاقة من شخص موسى عليه السلام إلى رسالته وقيمه ليستمر خطه من بعده وربما لذلك غاب موسى عليه السلام بأمر من ربه عن قومه أربعين ليلة، وكانت غيبة -كما سيأتي في الدرس القادم- بامتحان عسير لقومه، كشف ما بهم من نقاط ضعف ثقافية واجتماعية، وأعطى لموسى عليه السلام فرصة كافية لتربيتهم وهدايتهم ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ وسيأتي في الدروس القادمة حكمة إتمام الثلاثين بعشر ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أما وصية موسى عليه السلام لخليفته وأخيه هارون فكانت هي ضرورة المحافظة على الإصلاح.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ لقد سبق الحديث عن أن الأمم في بداية انطلاقها تهتم بالبناء والإنتاج والإصلاح، أما بعدئذ فإنها تقوم بالاستهلاك والهدم والفساد، وعندها كان الرسل عليهم السلام يحذرون الناس من الفساد، فأوصى موسى أخاه بهذه الوصية عندما تخلص بنو إسرائيل من الطاغوت، وخف عندهم شعورهم الثوري السابق.

ويتبين من الآية كما من سائر الآيات: أن قوم موسى عليه السلام كانوا فريقين، مصلحين ومفسدين، وكانت تجربة غياب قائدهم ومنقذهم كافية لفرز هذين الفريقين، وبالتالي تزكية المجتمع عن طريق تصفية فريق المفسدين.

من أين تبدأ الثورة الثقافية؟

[١٤٣] لا يزال بنو إسرائيل تلك الطائفة التي عاشت فترة طويلة في ظل الطاغوت، وتعرضت لعمليات غسل الدماغ من قبل السلطة الظالمة، لا تزال هذه الطائفة تحمل رواسب الماضي بعد تحررها، ولابد من إحداث التغيير الثقافي فيها، ولكن من أين يبدأ هذا التغيير؟.

إنه يبدأ من إصلاح جذر مشكلة الثقافة عند البشر، حيث أن الإنسان يحن نحو الماديات الظاهرة، وينسى المعنويات، ويغفل عن الغيب، يغفل عن غيب القيم، وعن قدرة الله وحكمته ورحمته، يغفل عن المستقبل وما فيه من إمكانيات، ويلتجئ إلى الظواهر في الحاضر، إلى ما يشاهده من قوة السلطة الجبارة، وما يراه من إمكاناته الحالية، فيخضع لها، ويستسلم لاتجاهها.

ورسالات السماء توجه الناس إلى الله، إلى غيب الغيوب، إلى ملهم القيم ومالك المستقبل، إلى مبعث الأمل المشرق، وإذا تعلق الإنسان بالله (الغيب) فإنه يتخلص من كل رواسب الثقافة المادية، لذلك بدأ الله في إصلاح قوم موسى عليه السلام انطلاقا من هذه النقطة، حيث كان قوم موسى يلحون عليه بأن يريهم ربهم ومرة قالوا له: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، ومرة صنعوا لأنفسهم عجلاً وزعموا أنه هو إله موسى، ومرة طلبوا أن يروا الله جهرة، وهكذا لذلك راح موسى عليه السلام يدعو الله أن يريه نفسه وهو يعلم أن الله لا يرى[1] ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ

---

(١) بين ذلك هو: ما ورد، عن الإمام الرضا عليه السلام في جواب المأمون العباسي: «قَالَ لَهُ فَمَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ...﴾ الْآيَةَ، كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلِيمُ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الرُّؤْيَةُ حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ؟. فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: «إِنَّ كَلِيمَ اللَّهِ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عليه السلام عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى [عَزَّ] عَنْ أَنْ يُرَى بِالْأَبْصَارِ وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَرَّبَهُ نَجِيّاً رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّمَهُ وَقَرَّبَهُ وَنَاجَاهُ. فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ كَمَا سَمِعْتَ وَكَانَ الْقَوْمُ سَبْعَمِائَةِ أَلْفِ رَجُلٍ فَاخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ أَلْفاً، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعَةَ آلَافٍ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعَمِائَةٍ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِ رَبِّهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ فَأَقَامَهُمْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ وَصَعِدَ مُوسَى عليه السلام إِلَى الطُّورِ وَسَأَلَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُكَلِّمَهُ وَيُسْمِعَهُمْ كَلَامَهُ فَكَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَسَمِعُوا كَلَامَهُ مِنْ فَوْقُ وَأَسْفَلَ وَيَمِينٍ وَشِمَالٍ وَوَرَاءٍ وَأَمَامٍ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحْدَثَهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ جَعَلَهُ مُنْبَعِثاً مِنْهَا حَتَّى سَمِعُوهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ. فَقَالُوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي سَمِعْنَاهُ كَلَامُ اللَّهِ ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، فَلَمَّا قَالُوا: هَذَا الْقَوْلَ الْعَظِيمَ وَاسْتَكْبَرُوا وَعَتَوْا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ صَاعِقَةً فَأَخَذَتْهُمْ بِظُلْمِهِمْ فَمَاتُوا، فَقَالَ مُوسَى يَا رَبِّ مَا أَقُولُ: لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَيْهِمْ، وَقَالُوا: إِنَّكَ

لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾.

هدف المعجزة

هناك رؤية تقول: بأن كثيرا من طلبات الرسل، بل وكثيرا من أوامر الله لهم، تهدف تبليغ الرسالة بطريقة صارخة، حين أمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه كانت الحكمة من وراء ذلك نسخ عادة جاهلية معروفة آنئذ وهي ذبح الأبناء لله أو للأصنام، ولكن حين أمر إبراهيم بذبح ابنه ولم تعمل السكين، كانت تلك المعجزة أبلغ أمرا في النفوس، وأقدر على نسخ هذه العادة من الموعظة الكلامية، وكذلك حين طلب موسى عليه السلام من ربه بأن ينظر إليه، كانت دعوته هذه بهدف صنع واقعة عينية تذهب مثلا في الآفاق، وتتناقلها الألسن، حتى تنتزع من النفوس جذور المادية، ولذلك طلب موسى عليه السلام المستحيل وهو رؤية ربه وتجلى الله للجبل وجعله دكا متهاويا على نفسه، ووقع موسى مغشيا عليه ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

ويبقى السؤال: ما هي مناسبة اندكاك الجبل مع استحالة النظر إلى الله؟.

والجواب: أن قدرة الإنسان محدودة بشكل أنه لا يتحمل رؤية جبل يندك، وهو أهون شيء في ميزان قدرات الله سبحانه التي لا تحد فكيف يرى الله؟ وينظر إليه؟ وهو مبعث القدرة والحكمة والرحمة والعظمة و.. و.. وبالتالي الأسماء التي لا تعد ولا تحصى، فكيف يراه البشر المحدود. الذي يتناهى في ضعفه ومحدوديته؟ (سبحان الله)؟!.

[١٤٤] وحين ترسو قاعدة التوحيد الراسخة على أساس الإيمان بالغيب، فإن بناء الثقافة الأصيلة والتشريع السليم سيكون قويا ورفيعا، لذلك فان ربنا أوحى إلى موسى عليه السلام برسالاته التي تمثل الثقافة والتشريع.

= ذَهَبْتَ بِهِمْ فَقَتَلْتَهُمْ لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ صَادِقاً فِيمَا ادَّعَيْتَ مِنْ مُنَاجَاةِ اللَّهِ إِيَّاكَ فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ وَبَعَثَهُمْ مَعَهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يُرِيَكَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ لَأَجَابَكَ وَكُنْتَ تُخْبِرُنَا كَيْفَ هُوَ فَنَعْرِفُهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ، فَقَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا قَوْمِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُرَى بِالْأَبْصَارِ وَلَا كَيْفِيَّةَ لَهُ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ وَيُعْلَمُ بِأَعْلَامِهِ، فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَسْأَلَهُ. فَقَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا رَبِّ إِنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ مَقَالَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِصَلَاحِهِمْ. فَأَوْحَى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَيْهِ يَا مُوسَى: اسْأَلْنِي مَا سَأَلُوكَ فَلَنْ أُؤَاخِذَكَ بِجَهْلِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾. قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ -وَهُوَ يَهْوِي- فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ -بِآيَاتِهِ- دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ يَقُولُ رَجَعْتُ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ عَنْ جَهْلِ قَوْمِي ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مِنْهُمْ بِأَنَّكَ لَا تُرَى. فَقَالَ الْمَأْمُونُ: لِلَّهِ دَرُّكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ». (بحار الأنوار: ج٤، ص٤٧، باب ٥ نفي الرؤية وتأويل الآيات).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ وعبر الرسالة اصطفى الله القيادة السليمة المبدئية التي تجسد الولاية الإلهية في الأرض، وميز هذه القيادة بكلامه سبحانه المباشر لها، ولكنه أمر موسى عليه السلام في المقابل بحراسة رسالاته، والعمل بها، والشهادة لها، وأيضا الاطمئنان إليها والرضا بها، والإحساس بأنها نعمة كبيرة يجب ألا يفرط بها أبدا ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

محتوى رسالات الله

[١٤٥] ماذا كان في رسالات الله وكتبه؟. كان فيها:

أولاً: رسالة متكاملة بالنسبة إلى كافة شؤون الحياة في الثقافة والسياسة والاقتصاد و.. و.. ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾.

ثانياً: كان في الكتب موعظة لتزكية نفوس البشر، وإثارة عقولهم، واستجلاء فطرتهم.

ثالثاً: كان فيها تشريع مفصل للحياة، ولتلك السبل التي يهتدي إليها العقل والفطرة.

﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ أي اتبعها وأنت قوي الإرادة، لتتحدى الضغوط التي تترى عليك من اتباع هذه الرسالة من لدن ذاتك، أو من جانب المجتمع المحيط بك.

إن أهم ميزة في القيادة هي: الثقة بالرسالة التي تحملها، والاعتماد عليها، مما يستقطب ثقة الناس بها وبالرسالة.

أما الجماهير فإن اتباعها لتلك المناهج لايكون إتباعاً أعمى، بل سوف يكون إتباعاً واعيًا بعد دراسة الظروف المحيطة بها، ليعرفوا أي منهج هو الأقوم في هذا الظرف أو ذاك، وكذلك بعد دراسة الحكم ذاته وهل جاء دائما أو خاصا بظرف معين؟.

﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ إن تقييم الأحسن من الحسن إنما هو وظيفة الأمة، ومن هنا يدخل الوعي والعقل في الساحة ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الذين لا يتبعون الأحكام الشرعية كلها، فإن دارهم ستكون مهدمة على رؤوسهم، وتلك عبرة كافية لكم بألا تعصوا ربكم في مناهجه.

كيف يضل المتكبر؟

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

إنها آيات الله الكريمة التي أوحى بها إلى موسى عليه السلام، إنها كانت وسيلة لاختيار الله موسى عليه السلام قائدا وإماما لقومه، بيد أن الله حذر قوم موسى من التهاون في الأخذ بدساتير الله، وحذرهم بأن ذلك سيهدم دار الفاسقين الذين يعصون أوامر الله، وبين في هاتين الآيتين أن الفسق قد يكون شخصيا فيهدم دار الفاسق، وقد يكون اجتماعيًّا فإنه سوف يسبب في الهلاك وحبط الأعمال، والفسق الاجتماعي يتمثل في هدف المجتمع ككل، إذا كان هدفا باطلا نابعا من التكبر بغير حق، ومحاولة السيطرة على الآخرين، إذ أن ذلك سوف يسبب في الكفر بالآيات، وقلب المقاييس الفطرية، حتى يصبح الرشد غيا عندهم، والغي رشدا، كل ذلك بسبب التكذيب بآيات الله والغفلة عنها.

هذا من الناحية الفطرية، أما من الناحية العملية فإن أعمال هؤلاء تحبط ولا تنفع شيئا، لأنها تسير في الاتجاه الباطل، حتى ولو كان العمل صحيحاً من الناحية الجزئية، إلا أنه بسبب الأعمال الخاطئة والفاسدة، فإن تلك الأعمال سوف تغطي على حسنات هذا العمل الجزئي، كما أنه لو كانت مجمل أعمال الفرد أو المجتمع صحيحة فإن هفواته الجزئية تغفر له، لأن: ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤].

بينات من الآيات:

طريق الانحدار

[١٤٦] كما السيارة إذا وضعت في طريق منحرف تعمل كل أجزائها في ذلك المسير وبصورة منحرفة، حتى إذا كانت سليمة بحد ذاتها وغير معطبة، كذلك المجتمع إذا توجه نحو تطلعات خاطئة، فإن كل أعضائه تعمل في ذلك الطريق وبصورة خاطئة.

التطلع السليم للمجتمع هو بناء ذاته، والتعاون على الخير مع سائر المجتمعات، أما إذا تكبر في الأرض، وتطلع نحو استعباد الآخرين واستثمار طاقاتهم، فانه ليس فقط ينحرف في هذه الجهة، وفيما يخص علاقاته بالآخرين فحسب، بل سوف ينحرف بكل أبعاده حتى فيما يتصل بعلاقاته الداخلية، ذلك لأن الله لم يجعل في جوف الناس قلبين، إنما هو قلب واحد فإذا كان متكبراً باحثاً عن المجد الذاتي، متخذاً نفسه -وليس الحق- محوراً ومعياراً، فإن كل تصرفاته ستكون مصبوغة بصبغة التكبر.

لذلك لا يكون الفرد مؤمناً وعاملاً بآيات الله ورسالاته إذا تطلع نحو استعباد الآخرين، وتكبر في الأرض بغير الحق، وأراد أن يتعالى بها لا يحق له ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ -يبدو لي-: أن كلمة الآيات هنا تعني الآيات التشريعية حسب السياق، حيث كان الحديث في الآية السابقة حول رسالات الله وكلامه.

﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ والآية هنا -حسبما يبدو لي- تعني الآية التكوينية مثل المعاجز، وعبر التاريخ، والتطورات التي تبين الحقائق وهكذا الآن القلب المتكبر لا يبحث عن الحقيقة، بل عما يخدم ذاته، ويشبع غروره، ولذلك فهو لا يلتفت إلى الحقائق ولا يهتم أو يؤمن بها حتى إذا رآها رأي العين، وهو كذلك لا يبحث عن الطريق السديد لأنه قد انحرف بوعي وإصرار ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ إنهم منحرفون ولذلك فهم يبحثون عما هو منحرف ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ إن تكذيبهم الأول بآيات الله جعلهم ينصرفون عن الحقائق، ويغفلون عن أهمية الآيات التشريعية، إن البشر ينحرف أول ما ينحرف بسبب اختياره السيئ، ولكنه ينحدر بعدئذ نحو الكفر والجحود بصورة أقرب إلى اللا اختيار.

العاقبة في الحقل العملي

[١٤٧] تلك كانت عاقبة المتكبرين الفكرية: أنهم لا يهتدون إلى الحقيقة لا عن طريق

رسالات الله التي يصرفون عنها، ولا عن طريق الحقائق والعبر الواقعية، أما عاقبة المتكبرين العملية فهي: أن أعمالهم الصالحة تحبط بسبب أعمالهم السيئة، والتي خطهم العام في الحياة دون تلك ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ لأن الخط العام لحياتهم خط منحرف، لذلك فإن العمل الجزئي لم ينفعهم شيئاً، بل سوف يحبط ولا يؤدي مفعوله، والواقع أن سبب حبط العمل ليس عدم إيمانهم فقط، بل لأن عدم الإيمان يؤدي بهم إلى سلسلة من الانحرافات العملية التي تكون هي السبب لحبط العمل، لذلك قال ربنا سبحانه: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

عجل السامري ورواسب الجاهلية الفرعونية

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ (١) عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ (٢) وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) ﴾.

هدى من الآيات:

وأبتلي قوم موسى في غيابه لمناجاة ربه بالعجل، حيث اتخذوا عجلا مصنوعا من حليهم وذهبهم إلها، لقد كان جسدا له خوار وزعم السامري انه إلههم، ولم يعرفوا أن الرب هو الذي

---

(١) حليّهم: الحلي ما اتخذ للزينة من الذهب والفضة.

(٢) سقط في أيديهم: وقع البلاء في أيديهم أي وجدوه وجدان من يده فيه.

يهدي الناس إلى سبل السعادة، وهذا العجل لا يفعل ذلك، وهكذا ظلموا أنفسهم وحين انكشفت لهم الحقيقة ندموا وعرفوا مدى الضلالة التي وقعوا فيها قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين، وهذا الدعاء يكشف أن قوم موسى تجاوزوا مرحلة الصنمية بعد التوبة.

وعندما عاد موسى عليه السلام من مناجاة ربه غضب، وكان آسفا كيف عبد قومه العجل ونادى فيهم، بئسما خلفتموني من بعدي، أهكذا ينقلب الناس بعد غياب قادتهم، وألقى موسى الألواح التي كانت برفقته وفيها رسالات الله، ألقاها جانبا لأنها لا تنفع قوما تركوا الإيمان إلى الشرك، وأخذ برأس أخيه هارون وهو يستفسر منه الوضع، ويسحبه من ذلك القوم الضال، ولكن هارون عليه السلام وضح له الحقيقة وهي: أن قومه استضعفوه، وأنهم هموا بقتله، ولذلك فهو اتقاهم حتى يعود موسى عليه السلام وطلب هارون من أخيه بألا يشمت به الأعداء، ولا يجعلهم يفرحون بمعاملة موسى لأخيه المعارض لهم، كما طلبه بألا يفسر سكوته الظاهر بأنه نابع من رضاه بالوضع، كلا.. بل إنه كان سكوتاً غاضباً بانتظار الفرج القريب.

بينات من الآيات:

لماذا العجل؟

[١٤٨] لماذا عبد بنو إسرائيل في غياب موسى إلى الطور العجل، واتخذوه إلههم؟.

يبدو أن رواسب الجاهلية الفرعونية التي عاش بنو إسرائيل في ظلها قرونا، والتي كانت تعبد العجل وتتخذ منه رمزاً للرخاء الزراعي، إنها كانت السبب في صناعة العجل، إلا أن الحلي من الذهب والفضة كانت مادة لهذه الصناعة، لأن بني إسرائيل حين رحلوا عن أرض مصر حملوا معهم حليهم، وكانوا يعتزون بها باعتبارها الرصيد الاقتصادي الوحيد الذي كانوا يملكونه، فحين ظهرت رواسب الجاهلية الكامنة على السطح، صنعوا من الحلي عجلا، فهم في الواقع كانوا يعبدون الذهب والفضة والرخاء باعتبار أن شكل العجل يدل على ذلك الرخاء، وباعتبار أن العجل صنع من الحلي.

وهكذا دلت الحادثة على أن التحول السياسي الذي حدث في بني إسرائيل لم ينعكس على ثقافتهم، وكانوا يحتاجون إلى ابتلاء ليظهر واقعهم فيعالجه المصلحون، وربما لذلك واعد ربنا موسى ثلاثين يوماً ثم أضاف إليها عشرا حتى يكون الجو مهيئا للسامري بأن يشيع نبأ كاذباً هو: أن موسى عليه السلام قد مات، ويظهر واقع السامري وما كان ينتظره من موت موسى ليخرج بدعته، وهكذا وقع السامري في المكر الإلهي.

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ الخوار صوت الثور، وربما كان السامري قد صنع جسد العجل وهيكله بطريقة معينة بحيث كان يخور إذا دخل فيه الريح، أو كانت القبضة التي أخذها السامري من أثر الرسول هي التي جعلت العجل يخور.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ بينما الله كان يكلم موسى تكليما، وقد فصل له ولقومه رسالاته التي تهديهم سبل السلام.

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ وأي ظلم أكبر من الشرك بالله والردة بعد الإيمان، إن عجل بني إسرائيل كان مثلاً للقيادة الباطلة التي كان السامري يسعى من أجلها، لقد كان العجل يخور -كما القيادات الباطلة تنطق بما لا يهدي سبيلاً، وبما لا يوضح علماً حقيقيًّا- وكان جسداً هيكلاً ولكن بلا روح، كذلك القيادات الباطلة لا تعطي الأمة روحا معنوية.

[١٤٩] وجاء موسى عليه السلام، وانفضحت الكذبة الكبرى، التي اعتمدتها الردة الجاهلية وهي موت موسى عليه السلام، وندم الجميع وسقط في أيديهم، وظهرت الحقيقة المخفية وهي: أنهم قد ضلوا، وآنئذ تابوا إلى ربهم ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ -يبدو لي- أن رحمة الله هنا متمثلة في هداية الله التي من دونها يبقى البشر في الضلالة.

امتحان وفرز

[١٥٠] كانت عبادة العجل امتحانا عسيرا القوم موسى عليه السلام وتصفية للعناصر الضعيفة والخائنة في المجتمع الرسالي الذي ينبغي أن يقود المجتمعات الأخرى، ويكون شاهداً عليها (أي النموذج الصالح لها)، لذلك حين عاد موسى إلى قومه كان غضبان أسفا.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ﴾ -يبدو لي- أن الغضب هو الرفض الشديد لشيء ما مع القيام بعمل ما من أجل تغييره وإصلاحه وتعويضه، بينما الأسف هو: رد الفعل النفسي تجاه حادثة سابقة قد وقعت خطأ، وموسى عليه السلام كان متأسفاً لما وقع عليه قومه سابقاً من انحراف وضلالة، وغاضباً عليهم الآن لما هم فيه من نقص وقلة فهم ووعي . ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ﴾ لقد تركت وصيي كقائد لكم وكشاهد عليكم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ وأردتم الوصول إليه قبل ميعاده.

إن قوم موسى كانوا لا يزالون في مرحلة الإيمان بالحضور والشهود لا بالمستقبل والغيب، وهذا كان أحد العوامل لتسارعهم إلى عبادة العجل باعتباره إله موسى، كما كان السبب في طلب

فريق منهم رؤية الله بأعينهم ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ كان موسى يحمل معه الألواح التي فيها موعظة وهدى، فإذا به يرى قومه قد شكوا في أصل الربوبية فلذلك ألقاها جانبا، وأخذ يعالج هذه المشكلة، وبدأ بسؤال أخيه وخليفته باعتباره القائد عليهم من بعده. ولكن هارون عليه السلام أوضح له الحقيقة ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لم أكن أنا بنفسي قادرا على مقاومة الردة، لأنهم أفقدوني قومي وجعلوني ضعيفا، وجردوني من أسلحتي، ولذلك فقد كادوا يقتلونني لو لا أنني أمسكت عنهم بانتظار عودتك، وافتضاح كذبهم، لذلك فمن الخطأ أن تحملني مسؤولية عملهم أو تجعلني معهم.

[١٥١] وهنا أدرك موسى حقيقة الأمر و.. ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ومرة أخرى أعتقد أن أبرز مظاهر رحمة الله هي هدايته للإنسان، وأن يعصمه من أن يزل في الظروف الصعبة.

عاقبة عباد العجل

[١٥٢] وتلك عاقبة الرافضين لعبادة العجل، أما عاقبة المستسلمين للعجل والراضين بعبادته فإنه سيلحقهم غضب من الله، يتمثل في ألوان العذاب الآتية من حكم الطاغوت، وانحراف المجتمع، ومن نقص في بركات الله تلك التي تأتي من القيادة السليمة في المجتمع.

كما يصاب هؤلاء بذلة حيث أن انحراف القيادة من قيادة رسالية إلى قيادة صنمية تسلب كرامة الإنسان، وتحوله إلى أداة ذليلة بيد الأصنام البشرية الحاكمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي الذين يكذبون على الله افتراء عليه، والذين يتخذون طريقاً خاطئاً ويصورونه لأنفسهم طريقاً سليماً سينالهم غضب من ربهم.

[١٥٣] أما إذا تاب هؤلاء إلى ربهم، وآمنوا بالله إيماناً صادقاً، ولم يتركوا سيئة إلى سيئة أخرى، إنما تركوا السيئة إلى الصراط المستقيم، أولئك يرحمهم الله ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ربما يكون معنى كلمة ﴿بَعْدِهَا﴾ أي إنه بعد انتهاء آثار السيئة الأولى سوف تأتي رحمة الله تعالى.

عاقبة التقوى في الدنيا وفي الآخرة

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾.

هدى من الآيات:

وعادت الظروف الطبيعية للأمة بعد ذلك الامتحان العسير، وعاد إلى موسى عليه السلام هدوئه بعد الغضب، فإذا به يأخذ الألواح ليقرأ فيها الهدى والرحمة.

حيث كانت تهدي الناس إلى السبل السليمة المؤدية إلى رحمة الله عزوجل، والرحمة والهدى يشترط فيهما الرهبة والتقوى له سبحانه.

وهذه الرهبة لا تدخل قلب البشر لو لم يؤمن إيمانا صادقا بالله تعالى، والإيمان الصادق لا يكون إلا بعد معرفة الله -في الغيب الذي لا تراه الأبصار- وكان في قوم موسى عليه السلام نزعة مادية، لذلك طالب ممثلوهم وهم سبعون رجلا مختارا، طالبوا موسى برؤية الله جهرة، فأخذتهم الرجفة الشديدة فصرعتهم، وتوسل موسى عليه السلام إلى ربه أن يعيدهم وقال: أن هذا

الطلب إنما هو من السفهاء، وأن هذا امتحان منك، وإنك رب الهداية، وإنك تضل من تشاء حين لا تريد هدايته، وإنك ولينا جميعا فاغفر لنا ما سلف من ذنوبنا، وأنت ارحم الراحمين فأنزل علينا رحمتك ونعمك.

أن الهدى الذي كان في كتاب الله لموسى عليه السلام كان يدعو البشر إلى الالتزام بالخط المستقيم بين حاجات الدنيا وتطلعات الآخرة، لذلك دعى موسى عليه السلام بأن يكتب الله لهم الحياة الحسنة في الدنيا والآخرة. وهذا لا يكون إلا بالتوجه إلى الله، وربنا الكريم بين له أن عذابه إنما هو من نصيب من يشاء، وأما رحمته فهي واسعة، وهي للذين يتقون ويزكون أنفسهم ويؤمنون بآيات الله عزوجل.

بينات من الآيات:

حكمة الغضب

[١٥٤] يصور القرآن الحكيم النبي موسى عليه السلام عبر آياته العديدة شخصية سريعة الغضب، مما يطرح هذا السؤال: هل كان موسى فعلا كذلك أم أن ظروفه كانت تستدعي ذلك؟ بحيث لو وضعنا أيوب مثل الصبر والهدوء في مكانه لكان يفعل ذلك أيضا؟.

الواقع: أن بني إسرائيل كانت أمة مستضعفة اعتادت الذل والهوان، وكانت بالرغم من ذلك شديدة العلاقة بموسى باعتباره منقذا لها، لذلك كانت هذه الأمة بحاجة ماسة إلى التدخل المباشر من قبل موسى عليه السلام في شؤونها اليومية، والتدخل المباشر لم يكن ممكنا بصورة هادئة، إنما بطريقة تثير دخائل وأعماق هذه الأمة التي اعتادت الصياح والزجر.

من هنا نعرف أن غضب موسى عليه السلام كان يسكت كلما كانت الظروف العادية ترجع إلى الأمة، باعتبار أن غضبه ليس لنفسه وإنما لرسالته ولله ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ -ويبدو لي- أن غضب موسى لم يسكت عنه إلا بعد تصفية العناصر الخائنة، وقتل أعداد كبيرة منهم، وقبول توبة البقية، بعدئذ أخذ موسى عليه السلام يخطط لبناء مجتمع سليم.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أن التخطيط للحياة الإسلامية في المجتمع إنما يكون بعد إرساء قاعدة التوحيد في النفوس، لذلك أخذ موسى عليه السلام يشرح ما في الألواح للناس بعد انتهائه من تصفية العناصر الخائنة، وكانت الألواح تهدي الناس إلى طريق رحمة الله ونعمته، ولكن هذه النعمة ليست إلا للمتقين ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

كيف نصفي الشوائب

[١٥٥] ولا تزال في نفوس بني إسرائيل بعض الرواسب الجاهلية، لذلك قام موسى بعملية جديدة من أجل ترسيخ دعائم التوحيد في النفوس، وذلك حين اختار سبعين شخصا من قومه ليرافقوه في مناجاته بطور سيناء، وكان هؤلاء يمثلون الشعب، وينقلون طلباته لله سبحانه، فجاء هؤلاء وطلبوا رؤية الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة فقضت عليهم. إلا أن موسى دعا ربه بإعادتهم إلى الحياة ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ حيث طلبوا من هؤلاء السبعين رؤية الله فنقل هؤلاء طلب السفهاء إلى الله، أجل.. كانت تلك فتنة امتحن الله بها عباده، فمن اهتدى فإنما بفضل الله سبحانه، ومن ضل فإنما بإذن الله. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ أن ربنا سبحانه يجري تحولات اجتماعية، وتغييرات طبيعية من فقر وغنى، وصحة ومرض، وعزة وذلة، وحر وبرد، ورخاء وقحط، كل ذلك بهدف امتحان البشر ليستخرج كلما في ذاته من قوة أو ضعف، وقدرة أو عجز، ولكي يصلح نفسه ويكمل نواقصه، فمن اهتدى إلى هذه الحقيقة، وتوكل على الله، واستغفر من ذنوبه، وسعى من اجل إصلاح ذاته، فان الله سيرحمه ويغفر له، انه يرحمه بتكميل نواقصه، ويغفر له بإصلاحه لها.

واجب الإنسان

[١٥٦] والله سبحانه يكتب للناس ويقدر لهم الحسنات والسيئات حسب أعمالهم، ومدى إيمانهم أو كفرهم، ويبقى على الإنسان أن يتطلع إلى اكتساب الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة، ويعمل من أجلها حتى يبلغ مناه، أن التطلع إلى الأفضل يخلق في القلب دافعا إلى العمل، وآنئذ يحتاج البشر إلى الخطة المتكاملة ليتحرك عبرها نحو الهدف، وتلك الخطة هي مناهج الله سبحانه، لذلك قال أصحاب موسى: ﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أن هذا التطلع السامي الذي يمكن ضمانة تنفيذه عن طريق التوكل على الله، والثقة بأنه سوف يكتب ذلك، إنه من أبرز سمات المؤمنين الصادقين، إلا أنه بحاجة إلى عمل جاد، لذلك بين الله سبحانه ذلك ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أن عذاب الله مهيأ للمذنبين، بيد أن الأصل هو رحمة الله التي وسعت كل شيء، فتلك الرحمة هي مهوى تطلع البشر، ومعتمد إيمانه وتوكله، ومنطلق تحركه.

بيد أن رحمة الله سبحانه مشروطة بما يلي:

أولاً: التقوى والتعهد بالقيام بالواجبات.

ثانياً: الزكاة وهي العطاء من كلما يملكه الإنسان من مال وعلم وجاه، وقد جاء في الحديث: «**زَكَاةُ الْعِلْمِ نَشْرُهُ زَكَاةُ الْجَاهِ بَذْلُهُ**»[1].

ثالثاً: الإيمان بكل الآيات سواء كانت في مصلحة الشخص العاجلة أو لم تكن، وعدم تبعيض الإسلام بقبول الجانب السهل منه، وترك الجوانب الصعبة، كأن يصلي الشخص ولا يزكي، أو يحج ولا يجاهد كلا.. أن رحمة الله عزوجل لاتسع قوماً يجزئون الدين ويأخذون ببعضه فقط.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٧ ص٤٦.

ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ(١) وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق قصة موسى عليه السلام يذكر القرآن الحكيم برسالة محمد صلى الله عليه وآله ليربط الحاضر بالماضي، وليعطي درساً حكيماً منتزعاً من حقائق تاريخية، وليشجع اليهود على إتباع الرسالة الجديدة، ومنهج القرآن في الاستدلال منهج فطري يستفيد من أقرب جهة إلى القلب والوجدان، وهنا يُبيّن أن الرسالة الجديدة تدعو إلى ذات القيم التي كانت في رسالة موسى عليه السلام بالإضافة إلى إنها مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، فلماذا الكفر بها؟!.

أن هذه الرسالة كما تلك الرسالات- تأمر بالمعروف الذي يتوافق مع فطرة البشر،

---

(١) عزروه. وقروه وعظموه.

وتنهى عن المنكر، وتحل لهم الطيبات وتحرم عليهم الخبائث، والهدف منها دفع ثقل الشرك والاستعباد، وفك أغلال المجتمع الفاسد، والسلطة الفاسدة، والفلاح إنما هو من نصيب أولئك الذين آمنوا بهذا الرسول وقووا جبهته، ونصروه واتبعوا رسالته، وجعلوها نورا يهتدون بها في الحياة.

والرسالة هذه إنما هي من الله سبحانه الذي له ملك السماوات والأرض الذي لا إله إلا هو. وهو يحيي ويميت، وعلى الناس إتباع هذه الرسالة التي هي ملك لهم جميعا، وبذلك يضمنون لأنفسهم الهداية بإذن الله، وليس قوم موسى عليه السلام كلهم على ضلالة، بل إن فريقاً منهم يأمرون بالحق ويهدون إليه، ويجعلونه مقياسا لتقييمهم.

بينات من الآيات:

من خصائص الرسول صلى الله عليه وآله

[١٥٧] رسالات الله تتميز بأنها للناس جميعاً بعيداً عن أي تمييز قومي أو إقليمي أو عنصري أو ما أشبه، وهي تدعو إلى بناء أمة واحدة ذات رسالة سماوية، ورسول واحد، والرسول في هذه الرسالة ينتمي إلى تلك الأمة التي تتمحور حول الرسالة، ولذلك يكون من أبرز صفاته أنه أمي، وأنه نبي يوحى إليه، وأنه رسول يحمل لهم رسالة فيها مناهج لحياتهم.

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ وكلمة ﴿الْأُمِّيَّ ﴾ -كما يبدو لي- منتزعة من الأمة، التي يقول عنها ربنا في آية أخرى ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وهناك من قال بأن الكلمة منتزعة من الأم باعتبار أن الرسول لم يكون قارئاً أو كاتباً، أو إلى أم القرى ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾ مكتوب بصفاته وأسمائه، كما هو مكتوب بالقيم التي يدعو إليها ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ وكل رسالة سماوية تثير دفائن العقول، وتنطلق بصميم الفطرة، وتنسجم مع حقائق الكون التي يشهدها أكثر الناس، ويبدو لي أن المعروف هنا هو ما يعرفه قلب البشر السليم، والمنكر ما ينكره ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ والطيبات والخبائث هما أيضا مما يبينه الوحي، ويصدقه العقل ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ الإصر هو: الثقل، والبشر يعيش في ذاته ثقل المادة، حيث يحن إلى ما في الحياة من زينة، وينهار أمام شهوات النساء والثروات والمناصب ويضغط عليه واقع اليوم دون حقيقة المستقبل، وهكذا يصبح البشر أن لم يقصمه الله جزءا من الطبيعة، يتحرك حسب

عواملها وتغيراتها.

ورسالات الله تنقذ الإنسان من أصله، وترفع عنه هذا الثقل المادي بتوجيهه إلى العالم الأعلى، عالم الروحيات، وعالم المستقبل القريب في الدنيا، والمستقبل البعيد في الآخرة.

وكما ترفع الرسالة أصر البشر ترفع الأغلال الآتية من الإصر، مثل الأغلال الاجتماعية التي يفرضها النظام السياسي، أو الاقتصادي الحاكم على المجتمع، والقوانين المعيقة للتقدم، والكبت والإرهاب الفكري الذي يمنع تفجير النشاط، وتفتق المواهب.

شروط الفلاح

وعاقبة هذه الرسالة الفلاح والسعادة، ولكن بشرط أن يؤمن البشر بها، وأن يعظمها ويوقرها، وأن ينصرها عمليًا باتباع كل مناهجها، وأن يتخذ قيمها ومعاييرها ميزاناً لتقييم أحداث الحياة، وتفسير متغيراتها، ومعرفة الناس ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ إيماناً واقعيًا بأن سلموا له أنفسهم، ولم يتكبروا أو يتعالوا عليه ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي جعلوه كبيراً في أنفسهم، أكبر من شهواتهم ومن ضغوط الحياة ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي قدموا له إمكاناتهم، وجعلوها في خدمة رسالته ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القرآن، وكما يستضيء البشر بنور المصباح في الليل، كذلك استضاءوا بنور القرآن في ليل الحياة، فرأوا به ومن خلاله ما في الحياة من خير وشر، وحق وباطل، وهدى وضلالة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي السعداء في الدنيا والآخرة.

كيف نعرف الله؟

[١٥٨] معرفة الله سبحانه تسبق سائر المعارف الدينية، وهي تتم بطريقة فطرية، وبالتذكرة بها في الكون من آيات، وبها في النفس من بحث ووله، وحين يتذكر البشر ويعرف ربه يسهل عليه أن يعرف رسالة ربه لما فيها من تناسب وتناغم، فرسالة الله شاملة واسعة الرحمة، لطيفة المناهج، متينة الأركان كأي اسم آخر من أسمائه الحسنى، فهي كما الشمس والقمر، ومثل السماوات في سعتها وقدرتها، ومثل الأرض في متانتها واستقرارها، ومثل ظاهرة الحياة فيما تعطيها للنفوس من حرارة الحياة، لذلك كان من أقرب الطرق إلى معرفة الرسالة والرسول هو معرفة الله، والتذكر بعظمته وقدرته ولطفه ورحمته، ولذلك أيضا كان يستشهد الرسل بالله على صدق رسالاتهم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وكما أن رحمة الله وسعت كل شيء، كذلك رسالته فهو ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ

وَيُمِيتُ﴾ ومثلما يحيي الخلق ماديا فهو يهديهم بالرسالة التي هي حياة معنوية، ومثلما يميتهم ماديًّا فهو يضلهم حين يكفرون بالرسالة فيموتون وهم أحياء ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وإنما يدعوكم إلى الله لا إلى نفسه، وهو أسبق الناس إلى الإيمان بالله وبرسالاته التي أوحيت إليه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إن إتباع الرسول سوف ينتهي بالبشر إلى الارتفاع إلى مستوى معرفة الحقائق بأنفسهم.

[١٥٩] ليست رسالات الأنبياء عليهم السلام مبعث خلاف ونزاع، ولا هي أنزلت لتكون أداة للعنصرية والطائفية، لذلك فهي تؤكد أبداً على وحدة الرسالات، وأهمية القيم، وأن من يتبع القيم الرسالية فهو على صراط مستقيم حتى ولو لم يلتزم بخط معين في هذا الاتبع. لذلك أكد القرآن الحكيم هنا أيضاً على أن الحكم الكاسح بكفر بني إسرائيل جميعا خطأ، بل أن بعضهم على صواب ما دام يلتف حول رسالة السماء، ويشكل أمة واحدة، وما داموا يرشدون إلى الحياة الفاضلة عن طريق الحق، ويحكمون الحق في علاقاتهم الاجتماعية، وفي مواقفهم من الناس أو من الظواهر الحياتية ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

الرجز عقبى الظلم بعد الإيمان

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ (١) مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ (٢) وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ (٣) فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(١) فانبجست: الانبجاس خروج الماء الجاري بقلة، والانفجار خروجه بكثرة وكان يبتدئ الماء من الحجر بقلة ثم يتسع حتى يصير إلى الكثرة.

(٢) الغمام: السحاب الأبيض الرقيق.

(٣) يعدون: يعتدون بالصيد المحرم.

بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ[1] عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ[2] ﴿١٦٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

بنو إسرائيل فريقان: فريق يؤمن وهي الأمة الحقة، والفريق الثاني: ظالم وأول سماتهم احتلافهم، واستمرار التقسيمات الطبيعية القبلية بينهم، وعدم شكرهم لربهم على ما رزقهم من المن والسلوى، وظلل عليهم السحاب، وأن ذلك ظلم لأنفسهم.

وحين أمرهم الله أن يسكنوا القرية ليأكلوا منها حيث شاءوا، ويستغفروا الله عن ذنوبهم حتى يغفر لهم خطيئاتهم، وأن يزيد المحسنين الذين يتجاوزون العمل بالواجبات إلى الإحسان.. بدل الفريق الظالم منهم قولا غير ما قيل لهم، فأرسل الله عليهم رجزا من السماء بسبب ظلمهم. وهناك تجربة لا تزال ماثلة في ضمير التاريخ من ظلم هؤلاء لأنفسهم، انهم كانوا في قرية حاضرة البحر وقريبة منه، وكانوا يتجاوزون حدود الله سبحانه في حرمة الصيد في يوم السبت، ولكي يمتحن الله هؤلاء كانت الحيتان تأتيهم في يوم السبت ظاهرة على البحر، بينما لا تأتيهم في غير السبت، واختلف الناس ثلاثاً في هذه القرية، ففريق عملوا الجريمة، وفريق سكتوا عنها، وفريق نهوا عنها، وحينما سألهم البعض: لماذا تعِظون قوماً أهلكهم الله بالمعصية؟ أجابوا: لأننا نأمل في هدايتهم ولِتتمَ الحجة عليهم، وكانت العاقبة أن الله عذب الفريقين الأولين وأنجى الفريق الثالث، وعذبهم بأن مسخهم قردة خاسئين.

بينات من الآيات:

التكامل الاجتماعي

[١٦٠] وكانت بنو إسرائيل أمة منقسمة في اثنتي عشرة قبيلة، كل قبيلة أو سبط أمة تتبع قيادة معينة.. ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ -ويبدو لي إن هذه الفرق المختلفة لم تبلغ مستوى تلك الأمة التي تحدثت عنها الآية السابقة، التي كانت تهدي بالحق وبه تعدل، بل كانت لا تزال في عهد التقسيمات الطبيعية حيث كانت القبائل تتبع رئاستها، والله سبحانه الذي خلق الطبيعة قدر لها سننها وهدى الناس إليها، بالوحي والعقل كما خلق الأسرة، وجعل

---

(١) عتوا: العتو الخروج إلى أفحش الذنوب، والعاتي المبالغ في المعاصي، والليل العاتي الشديد الظلمة.
(٢) خاسئين: المطرود المبعد عن الخير، من خسأت الكلب إذا أقصيته خسأ أي بعُد

لها سنة التحابب والتعاون.

وهدى الناس بالوحي والعقل إلى أهمية الأسرة في بناء كيان المجتمع، كذلك خلق القبيلة وشد بعضها إلى البعض بحبال المحبة، والوحدة الثقافية، ووحدة الهدف والمصير، وهدى الناس إلى أهمية إيجاد الترابط البناء بين أعضاء القبيلة في إطار التقوى، والتعاون على البر والإحسان.

ولكن هذه السنن الطبيعية لا تعني أن قمة الكمال هي في التعرف عليها، والإهتداء إلى كيفية الاستفادة منها، بل قد يكون التكامل في تغيير الطبيعة وتكييفها حسب القيم العليا للحياة، مثل تحويل الحياة القبلية إلى مستوى الأمة تستلهم من قيمة التقوى في بناء علاقاتها الاجتماعية، كما كانت الأمة الإسلامية الأولى، وكما تكون التجمعات الرسالية المكتملة، حيث يرتفع الفرد فيها على علاقاته الأسرية والقبلية، ويبني أساس علاقاته على الاخوة المبدئية، ويكون التجمع هو أبوه وأخوه ورابطته الأولى، ويرى نفسه ابنا للتجمع قبل أن يكون إبنا لوالديه، ومنتمياً إلى حزب الله قبل أن يكون منتمياً إلى قبيلة كذا أو عنصر كذا.

ومن هنا بدأ الله حديثه عن الأمة الواحدة في بني إسرائيل في الدرس السابق ثم تحدث عن الأمم المتنافسة، وبين أن رسالة موسى عليه السلام كانت تهتم أيضا بتلك القبائل والأسباط، وتستخدم تلك العلاقات الطبيعية في تنظيم المجتمع، لذلك فجر الله لموسى عليه السلام اثنتي عشرة عينا، لكل قبيلة مشربا معينا ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ ثم بين الله النعم التي أسبغها لأولئك الناس الذين لم يذوبوا أنفسهم بالكامل في بوتقة الإيمان، وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ المن هو قسم من الحلوى، والسلوى هو الطير المشوي ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لماذا لم يعد الغمام يظللهم، والمن والسلوى لا ينزلان عليهم؟.

لأنهم ظلموا أنفسهم كما سبق في آيات سورة البقرة، حيث أنهم ملوا حياة البداوة ودعوا ربهم بالعودة إلى المدن.

نقاط الضعف الحضارية في المدينة

[١٦١] وبعد أن هبطوا القرية التي هيأها الله عزوجل لهم فسدت أخلاقهم، فبدل أن يشكروا الله على النعم التي وفرها لهم، وبدل أن يستغفروه سبحانه بخضوع وقنوت حتى

يتكملوا عن طريق التعرف على نقاط ضعفهم وأسباب تخلفهم، وبدل أن يتخذوا الإحسان أداة لتنمية علاقاتهم الاجتماعية وتزكية نفوسهم، بدل كل ذلك مما أمرهم به الله غيروا وكفروا بأنعم الله، واستكثروا من اللذات ولم يتنبهوا النواقصهم ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي اللهم حط ذنوبنا واغفر لنا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ خاضعين لله عزوجل حتى لا يستبد بكم طغيان النعم وغرور القوة ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ حيث أن المدنية تصبح آنئذ سببا لتطوركم ورقيكم، ذلك لأن عوامل الضعف في المدينة هي العوامل التالية التي نهى ربنا عنها:

أولاً: القيود الإضافية التي لا فائدة منها والتي تحدد انتفاع البشر بنعم الله، من العادات الجاهلية، والآداب الزائدة، وسائر القيود وقد نهى ربنا عنها بقوله: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ فأمرهم بعدم التقيد بالأغلال الجاهلية التي ما أنزل الله بها من سلطان، وقد أوضح القرآن ذلك في آيات أخرى سبقت أو تأتي في سائر السور.

ثانياً: الغرور، والطغيان، والشعور بالاستغناء، حيث يخشى على المتحضرين من هذه الصفة الرذيلة، وقد أمر الله بالاستغفار تحصنا من الغرور والاعتزاز بالإثم، والاعتقاد ببلوغ مرحلة الاكتمال التام.

ثالثاً: التجبر والطغيان على خلق الله بسبب الغنى والعزة، والاتحاد الموجود في المدينة، وأمر الله سبحانه بني إسرائيل بالسجود لله عند دخول المدينة، لكي يعرفوا أن غناهم وعزتهم ووحدتهم كل ذلك إنما هي من الله سبحانه لا من عند أنفسهم حتى يتجبروا على الآخرين.

رابعاً: البخل والشح عن العطاء مما يسبب التفاخر والمنافسة الحادة، فأمر الله في نهاية الآية بالإحسان، وبين أنه سوف يسبب زيادة النعم حتى يتجاوز بنو إسرائيل في قريتهم هذه الصفة المهلكة، وقال سبحانه: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

من هنا نعرف أن المدينة مفيدة وضارة، مفيدة إذا استطاع المجتمع تجاوز سلبياتها الأربعة، وإلا فهي ضارة وتحرق خيرات البشر.

[١٦٢] أما بنو إسرائيل فقد هزهم دخول القرية لان أكثرهم لم يتقيدوا بتعاليم ربهم سبحانه.. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ وانتهت حياتهم المدنية إلى العذاب بسبب ذلك الظلم الذاتي.

ظلم الذات

[١٦٣] وكمثل على ذلك الظلم الذي انتهى إلى العذاب بيّن الله عزوجل لنا قصة السبت، حيث أمرهم بألا يصيدوا يوم السبت تنظيما لحياتهم الاجتماعية، وراحة لهم وتفرغا للعبادة، ولكن الطمع دفع بهم إلى تجاوز حد الله في السبت إذ كانت الحيتان تأتيهم ظاهرة في يوم السبت ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ وربما المراد بكلمة ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ هو أن هذه الحيتان كانت لهم بالتالي، فإن لم يصيدوها في يوم السبت وفروها ليوم الأحد، ولكنهم لم يكونوا يفقهون تشريع هذه الظاهرة ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ يبدو أن المراد أنها في غير السبت لم تكن ظاهرة، وكان ذلك امتحاناً لهم وابتلاءً من قبل الله حتى يعرفوا مدى ضعفهم ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ إذا فسق الإنسان فسقاً خفيًّا وبطريقة منافقة فإن ربنا سبحانه يمتحنه امتحاناً صعباً وظاهراً، حتى لا يقدر على مقاومة الإغراء بسبب فسقه الخفي الذي أضعف إرادته وخور عزيمته، فيضطر إلى إظهار واقعه، وهذا معنى الابتلاء حيث أنه يظهر الواقع الخفي.

وفي القصص التاريخية بيان لطبيعة نفاق أصحاب هذه القرية، حيث أنهم كما جاء في تلك القصص يلقون الشباك في يوم السبت ثم يستخرجون السمك في يوم الأحد، أو أنهم كانوا قد صنعوا أحواضا على البحر يدخلها السمك يوم السبت ثم لا يستطيع أن يخرج منها فيصيدونها يوم الأحد.

مواقف المجتمع تجاه الجريمة

[١٦٤] وانقسم أهل هذه القرية الساحلية إلى ثلاث فرق: بعضهم المجرمون، وبعضهم الساكتون على الجريمة، وبعضهم الناهون عنها، وينقل الله سبحانه حواراً بين الساكتين والناهين ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي ما لكم تعظون المجرمين الذين لا فائدة من وعظكم إياهم، بل سوف يهلكهم الله أو يعذبهم.

﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ لأن النهي عن المنكر واجب شرعي حتى ولو كان بهدف تسجيل الحضور، وبيان انحراف المنحرف، ولو من أجل الأجيال القادمة، والله لا يعذر البشر بمجرد الاعتقاد بأن النهي عن المنكر لا ينفع ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهناك أمل بان يتقي جماعة منهم ربهم فيكفي ذلك ثواباً.

[١٦٥] وذكر الله سبحانه هؤلاء المجرمين بالمناهج التي يجب إتباعها، وحذرهم من تجاوز الحدود وذلك عن طريق الناهين عن المنكر من قومهم، ولكنهم نسوا ما ذكروا به فأنجى الله الناهين، وأخذ الباقين بالعذاب ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ وكان بين المهلكين الساكتين عن المنكر.

[١٦٦] وكان العذاب الشديد هو أن الله سبحانه قال لهم كونوا قردة خاسئين ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ وتكبروا عليه ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾.

كيف انتكس بنو إسرائيل بالتبرير

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ[1] هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا[2] مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾.

هدى من الآيات:

وأعلن ربنا سبحانه حكمةُ الحاسم -الذي جاء نتيجة ذلك السلوك الفاسد لبني إسرائيل حيث عصوا رسالات ربهم، وكان ذلك الحكم- هو سيطرة الطاغوت عليهم إلى يوم يبعثون حتى يسومهم سوء العذاب، ذلك لأن الله سريع العقاب وهو غفور رحيم.

وكان من مآسي بني إسرائيل تشتتهم في البلاد، كل جماعة منهم سكنوا منطقة، وكان بينهم الصالحون وغيرهم، وقد أمتحن الله بني إسرائيل بالحسنات لعلهم يشكرون، وامتحنهم

---

(١) عرض. العرض ما يعرض ويقل لبثه، ومنه سمي العرض القائم بالجسم عرضاً لأنه يعرص في الوحود ولا يجب له من البث ما يجب للأجسام.

(٢) ودرسوا. الدرس تكرار الشيء، ويقال درس الكتاب إذا كرر قراءته، ودرس المنزل إذا تكرر عليه مرور الأمطار والرياح حتى انمحى أثره.

بالسيئات لعلهم يتوبون إليه ويعودون إلى شرائعه ومناهجه.

ويبدو أن بني إسرائيل هبطوا بعدئذ إلى درك التخلف الثقافي، حيث انتشرت فيهم الثقافة التبريرية، فخلف من بعد ذلك الجيل جيل فاسد ثقافيا حيث كان أفراده يهتمون بمظاهر الدنيا، ويزعمون بأن الله تعالى سيغفر لهم ولكن كيف يغفر الله لهم وهم لم يتوبوا توبة نصوحا، بدليل أنهم لو وجدوا مثل تلك المظاهر لأخذوا بها أيضا؟!.

إن تلك الأفكار التبريرية التي كانت تشجع على الفساد بأمل الاستغفار لم تكن أفكارا دينية، لان ميثاق الكتاب وعهده يقضي بألا ينسبوا إلى الدين إلا الحق، وكان الحق السليم هو الاهتمام بالآخرة وأولويتها على عرض الدنيا.

وفي ظلمات تلك العصور كان يشع نور الطليعة الرسالية الذين تمسكوا بقوة بالكتاب، وأقاموا الصلاة، وكان همهم هو إصلاح الناس بعد إصلاح أنفسهم، والله لا يضيع أجر هؤلاء حيث أنه بنسبة عملهم كان يرفعهم.

بينات من الآيات:

التقليد داء المجتمع

[١٦٧] لقد مسخ فريق من بني إسرائيل قردة خاسئين، وبالرغم من أن ذلك الفريق السيئ الحظ قد هلك بعد ثلاثة أيام أو سبعة أيام حسب ما جاء في التاريخ، إلا أن تلك الحالة قد استمرت بعدئذ في أجيال بني إسرائيل التي عصت ربها واتبعت شهواتها، أو حتى لم تحترم قوانين الدين.

ما هي تلك الحالة؟.

لابد أن نعرف مسبقاً أن أبرز سمات القرد هو التقليد والتشبه بالآخرين، وهذا يستدرج منتهى درجات الذلة والقماءة، ولذلك فإن الحالة التي استمرت مع الأجيال الصاعدة من بني إسرائيل كان الاستعباد والذلة، حيث سلط الله سبحانه عليهم طاغوت الظلم والإرهاب، فأذاقوهم سوء العذاب، وذلك بسبب عصيانهم لربهم أو سكوتهم عن المعاصي ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أعلن ذلك بوضوح كاف ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ما داموا في معصية الله أو بالسكوت عن المعاصي، وإذا غيروا ما بأنفسهم غير الله لهم حالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ بالرغم مما يتراءى للبشر أن عقابه بطيء.. كلا إنه

سريع يلحق بالبشر في الدنيا، وقبل الوقت الذي يسوف العاصي فيه التوبة، ويمني نفسه بتأخر العذاب.

ثم إن عقاب الله ما دام ثابتاً لا محالة، فإن كل آت قريب يحدوه إليه الليل والنهار بسرعة فائقة، ولا يقدر البشر على الفرار منه إلا إليه سبحانه، وبالعودة إلى مناهجه، وإصلاح الفاسد، ذلك لأن رحمة الله واسعة ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

نتائج الظلم الاجتماعي

[١٦٨] الظلم الذي مارسه بنو إسرائيل من هتك حرمة السبت كان ظلماً اجتماعيًّا عاماً وسبباً في تبدل النظام السياسي، وتسلط الطغاة على الحكم وقيامهم باضطهاد الشعب، «كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّ عَلَيْكُم»[1] وكان من نتائج هذا الظلم الاجتماعي وأشباهه الانهيار في مجتمعهم، حيث تساقطت حدود المجتمع وتفرقت بنو إسرائيل مجموعات.. مجموعات..

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ وكانت تلك بدورها مرحلة من مراحل سقوط هذا المجتمع المؤمن، حيث تفرقوا واختلفوا، ولكن بقيت فيهم أمة صالحة وأمم متدرجة في الصلاح، ولكن الله أنزل عليهم الحسنات حيناً والسيئات حيناً لكي يختبرهم ويمتحن مدى صمودهم أمام إغراء الحسنات وعذاب السيئات ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ حيث أن فلسفة الاختبار هي: ظهور ما خفي على الإنسان من واقعه الضعيف حتى يصلحه ويكمل نفسه.

ثقافة التبرير

[١٦٩] أما المرحلة الأخطر التي هبط إليها بنو إسرائيل فقد كانت انتشار الثقافة التبريرية التي تتخذ من الدين ستارا لاتباع الشهوات، كما هو الحال عند بعض المسلمين حيث إنهم يعملون المعاصي بعد التحايل على الدين، بزعمهم بطريقة أو بأخرى، فيرابون باسم البيع، ويسكتون عن الظالم بتبرير أنه من أولي الأمر، أو باسم أن العصر هو عصر التقية والانتظار، أو يشجعون الخلافات باسم أنها الأولى بالاهتمام، وهكذا.. كانت بنو إسرائيل في هذه المرحلة تتوسل ببعض النصوص وتفسرها حسب آرائها، وتعمل المعاصي باسمها.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ولكنهم لم يعملوا به وإنما كانوا ﴿يَأۡخُذُونَ

---

(١) كنز العمال: ج٦ ص٨٩، مستدرك سفينة البحار للنمازي الشاهرودي: ج٧ ص٤٣٥.

عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ إن تفسيرهم للاستغفار ساذج وبعيد عن الحقيقة، ذلك لأن الاستغفار هو في واقعه الندم والعزم على ترك المعصية، وإصلاح آثار الذنب السابق، أما هؤلاء فقد زعموا أن مجرد التمني بالمغفرة كاف في درء خطر العذاب، علماً بأن ذلك كان نتيجة إتخاذ الدين وسيلة تبرير لأخطائهم، والدليل على ذلك أنهم يعودون إلى الذنب كلما وجدوا عرضاً زائلاً من أعراض الدنيا، وخطورة هذا النوع من التفكير أنه يكرس ضلالة البشر، إذ أن وسيلة إصلاح البشر وهي الدين قد اتخذت عندهم وسيلة تبرير للفساد فكيف يمكن إصلاحهم؟! لذلك فإن القرآن شديد أبداً على أولئك الذين يحرفون الدين ويفسرون نصوصه وتعاليمه تفسيراً خاطئاً وقد اتخذ مسبقاً العهود والمواثيق على من أرسل عليهم الكتاب بألا ينسبوا إلى الله غير الحق المتمثل في توصية الناس بأن الآخرة أفضل من الدنيا، وذلك هو هدى العقل إذا انتفع الإنسان بعقله.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وكانت تعاليم السماء واضحة بالنسبة إلى الدنيا وإنها عرض زائل ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[١٧٠] وبالرغم من أن أكثر هؤلاء قد انحرفوا وحرّفوا الدين ونسبوا إلى ربهم أفكاراً باطلة، إلا أن طائفة منهم تمسكت بالكتاب تمسكاً شديداً، وطبقت تعاليمه ومنها: إقامة الصلاة، والاستلهام من الله تعالى في تصرفاتهم ومواقفهم عن طريق إقامة الصلاة، والله سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء لأنهم مصلحون، لا يكتفون بالصلاة بل بإقامتها وتطبيق سننها في الحياة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾.

الميثاق الإلهي لمواجهة أتباع المبطلين

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا(١) ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

متى أخذ الله من بني إسرائيل ذلك الميثاق الذي كان من أبرز بنوده ألا يقولوا على الله إلا الحق؟.

الجواب: مرتين، مرة حيث قلع قسما من الجبل وجعله فوقهم كأنه ظلة أو سقف، تصوروا أنه سيقع ويقضي عليهم، وهنالك أخذ ميثاقهم وقال لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه، وليكن هدف ذكر ما فيه التقوى والالتزام بواجبات الله سبحانه.

هذه مرة، ومرة أخرى حين أخرج الله ذرية آدم في صورة ذر ونشرهم في الفضاء، وأشهدهم على أنفسهم وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ وآنئذ حذرهم الله من التبريرات التي قد يتخذونها وسيلة لعدم الالتزام بالحدود، ومنها: أن يقولوا يوم القيامة. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كلا.. إن

---

(١) نتقنا: النتق قلع الشيء من الأصل، وكل شيء قلعته ثم رميت به فقد نتقته.

كل جيل مكلف ومسؤول عند ربه بما أتاه الله من فطرة وعقل، وبما أتخذ عليه من شهادة في عالم الذر ولذلك لا يصح أن يقول أحدهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أن هذه الايات التي يفصلها ربنا سبحانه تهدف إعادة الإنسان إلى فطرته النقية، إلى حيث تعاليم الله.

بينات من الآيات:

خذوا ما أتيناكم بقوة

[١٧١] في قصة سبق الحديث عنها في سورة البقرة، أقتطع ربنا جانبا من الجبل وجعله فوق رأس بني إسرائيل، وأمرهم بأن يتعهدوا بأخذ ما آتاهم أخذا قويا دون أن يتكاسلوا أو يتوانوا فيه..

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي رفعنا جزء من الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي كأنه شيء يظلهم كالسقف والسحاب ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي واقع عليهم، وفاتك بهم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي اجمعوا عزيمتكم، وسخروا همتكم، واثبتوا تصميمكم على إتباع الدين، فالدين ليس متكأ لكل خاوي العزيمة، ضعيف الهمة، فاقد التصميم، أو لكل كسول جبان متعاجز، إنما هو رسالة الله إلى الإنسان، ورسالة المؤمن إلى نظرائه من البشر، إنه يصقل شخصية البشر ويفجر طاقاته، ويظهر مدى تحمله للصعوبات وتعهده بالمسؤولية، إنك لا تستطيع أن تطلب من الدين شيئاً قبل أن تعطيه من نفسك ومن قدراتك التضحية والإيثار، وأن تكون لديك العزيمة الكافية لاتباع مناهجه مهما كلف الأمر.

وحين تخونك عزيمتك، وتخشى أن يداخلك الشيطان ويفسد عليك تصميمك، عليك أن تعود إلى الكتاب وتتدبر في آياته، وتذكر تعاليمه حتى تخشى الله، وتتعهد بالمسؤولية، وتتسلح بالتالي بالتقوى ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وبقيت لنا كلمة في هذه الآية وهي: إن كل الناس وبالذات الرساليين منهم يمتحنهم الله كما امتحن بني إسرائيل، فيأخذهم بالبأساء والضراء حتى يتعهدوا بالمسؤولية ويأخذوا الدين بقوة، ولا يجب دائما أن تكون الظلة قطعة جبل، فقد تكون الظلة كابوس نظام ظالم، أو فقراً مدقعاً أو مرضاً مزمناً، وقد يكون الرسول الذي يبلغه ضرورة الالتزام بالدين والتعهد باتباعه بقوة، قد يكون أحد المبلغين القادمين، أو حتى آيات في الكتاب يتذكرها المؤمن في تلك اللحظات، ومنها هذه الآية التي تصدق في كل مكان ومع كل إنسان ولكن بطرق شتى.

كيف نبلور جوهر الذات؟

[١٧٢] كما حبة حيّة يدفنها التراب والوحل والسماد ولكنها تنشط وتتحدى وتخرج إلى النور وتبرز حيويتها وقدراتها، وإمكاناتها وتعطي ثمراتها، كذلك كل واحد من أبناء البشر يدفنه ركام الخرافات، ووحل الضغوط والشهوات، عليه أن ينشط وأن يتحدى وأن يبلور جوهرته الإنسانية، وأن ينبعث خلقاً جديداً، وهذه مسؤولية الإنسان، وذلك ميثاق الله الذي تعهد به كل فرد من أبناء آدم وحواء.

ولكن كيف يبلور الواحد منا جوهر الإنسانية في ذاته، ويصبح ذلك الإنسان الذي فضله الخالق وأكرمه وخلقه في أحسن تقويم؟.

إنها عن طريق الإتصال المباشر بالله، والإنطلاق من الإيمان به نحو بناء حياة جديدة لنفسه، مستقلة عن تقليد الآباء، وحرة بعيدة عن الغفلة والنسيان.

لقد كنا في صورة ذرّ -كما جاء في أحاديث صحيحة-، وكنا في صُلب آدم عليه السلام، أو كان بعضنا في صلب البعض، وأخرجنا الله سبحانه وأشهدنا على أنفسنا ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيَ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قد يكون معنى هذه العبارة أن ربنا أخرج كل ولد من ظهر والده. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ الغفلة لا تكون تبريراً مقبولاً للبشر عند الله، بل يجب أن يتحدى البشر حجاب الغفلة بنور التذكر، وبوهج العقل الذي يشع في ضمير البشر في بعض الأحيان إن لم يكن دائماً.

[١٧٣] ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أن هذا التبرير ليس سليماً ولا مقبولاً عند الله، إذ أن الله قد أخذ الميثاق من كل واحد منا وحمله مباشرةً مسؤولية الإيمان، وإذا قصر جيل في إيمانه فأن الأجيال القادمة غير معذورة باتباع ذلك الجيل الأول، وهذه الآية تحذر من التقليد ببلاغة كافية.

[١٧٤] وربنا الحكيم يذكرنا بهذه الحقائق لكي نعود إلى فطرتنا، ونبلور جوهر الإنسان في ذواتنا، ونرفع عن أنفسنا غشاوة الغفلة وأغلال التقاليد ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ارتداد العلماء

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) ﴾.

هدى من الآيات:

حين يتخذ الدين أداة لشحذ العزيمة، ووسيلة لتكامل البشر، فإن ذلك سيكون وفاءً لميثاق الإنسان وعهده مع ربه، ولكن حين يكذب البشر بآيات الله، ولا يتمسك بها بقوة، بل ينسلخ منها إذا تعرض لضغط ما، فإن الشيطان سيلحق به ليملأ قلبه الذي فرغ من آيات الله فيصبح خاوياً، والله قادر على أن يرفع البشر بآياته، ولكن بشرط أن ينبعث البشر بذاته عن جاذبية الأرض، ولا يتبع هواه، أما إذا أخلد إلى الأرض، وركن إليها، واعتمد على العرض الزائل من الدنيا، فمثل هذا الشخص كمثل الكلب في خسته ودناءته، وارتباطه بالدنيا واتباعه لأهلها بأقل شيء، وهناك صفة أخرى له هي أنه يلهج بآيات الله التي لم يستفد منها إلا ألفاظاً وأسماءً، فهو حين تجادله في آيات الله يلهث بها، أو تتركه يلهث بها مراء ونفاقا.

ولقد ضرب الله هذه الأمثلة لعل الناس يتفكرون، ولا يتخذون الدين تقليداً أو أسماءً بلا معاني.

أن الذين يكذبون بآيات الله هم المثل السيئ الذي يعكس واقعاً فاسداً لأنهم يظلمون

أنفسهم بتكذيبهم آيات الله.

أن الهدى من الله، لا ما يتخيله البشر بفكره القاصر، أما الضلالة فهي نتيجة طبيعية لفقدان هداية الله، ومن لم يهده الله فأن أساطير البشر وخيالاته هو لا تعطيه الهداية، بل تزيده خسارةً وضلالاً.

بينات من الآيات:

ضرورة الالتزام

[١٧٥] لابد للإنسان أن يتبع منهجا، ويلتزم بميثاق، فان اتبع منهج الله وميثاقه فقد فاز، وإلا فسوف يملأ الشيطان فراغه، فيتبع منهجه، ويصبح من حزبه، وحين يؤتي الله فردا نعمة الرسالة، فينزل عليه آياته، فعليه أن يتعهد بميثاق الله فيها، وهو الالتزام المطلق بها دون أن يترك شيئا منها، تحت ضغط الشهوات أو سبب الإهمال.

أما إذا ترك جانبا من آيات ربه بعد أن استوعبها، فان الشيطان سوف يصبح قرينه وساء قرينا، ويكون مثله مثل الكلب كما علماء السوء، والأحبار والرهبان، وكل من أوتي علما فتركه ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾.

[١٧٦] ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا ﴾ أن الله قادر على أن يجعل آياته سببا في رفعة البشر، بشرط أن يسعى هو من أجل ذلك، أما إذا لازم الأرض وما فيها من ذلة وصغار، وشهوات عاجلة زائلة، فأن الله يتركه لشأنه..

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾ واتباع الهوى هو نتيجة مباشرة للخلود إلى الأرض، والاكتفاء بها وشهواتها، وعدم التطلع إلى السماء، وإلى القيم الروحية وإلى المستقبل الأفضل، وإلى مرضاة الله وإلى الجنة.

إن العلم معراج البشر، ولكن إذا ركن الفرد إلى الأرض وشهواتها وجاذبيتها، فإن العلم سوف يترك مكانه للجهل، والعقل للشهوات، وتصبح كلمات العلم عند صاحبها كلهث الكلب ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾ إن كل الحيوانات تلهث حين تتطلب الحاجة إلى اللهث، كما إذا حمل عليها فإنها تلهث دفاعا أو استعدادا للخطر، أما الكلب فإنه يلهث بمناسبة وبدون مناسبة لأن عادته اللهث كذلك العالم

الذي يتبع هواه، يلهج بالعلم لا من أجل العمل به، أو توجيه الناس إلى الخير به، بل من أجل المباهاة والتعالي على الناس باسمه، فالعلم بدون هدف أو العلم الذي يستخدم لأغراض دنيئة، كما لهث الكلب لا فائدة من ورائه ولا كرامة.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الذين يكذبون بآيات الله لا يجدون علما يهتدون به، أو نورا يستضيئون به، وإنما يتعلمون كلمات يلهجون بها، كما يلهث الكلب بلا هدف.

إنما يستفيد البشر بالعلم إذا تفكر، وتحول العلم إلى جزء من شخصيته، وتعلم علما يفيده، وكان تعلمه لهدف مقدس، أما وسيلة تعلمه فهي القصص الواقعية التي يستلهم منها رشدا وعبرا ودروسا.

حب الشهرة

[١٧٧] إن أكثر ما يخدع رجال العلم فيدفعهم نحو المتاجرة بالعلم هو حب الشهرة، بيد أنهم سوف يشتهرون بالسوء اكثر ما يشتهرون بالخير، وهم يضربون بذلك أسوأ الأمثلة.

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ إنهم أسوأ مثل، لأنهم وجدوا فرصة للفلاح فظلموا أنفسهم بترك الفرصة.

[١٧٨] من أسباب هلاك البشر هو اتكاله على نفسه، وغروره الذي يستغني به عن هدى الله، وعظمة رسل الله والعلماء بالله، وخصوصاً علماء السوء فإنهم يهلكون بهذا الزعم كثيراً، ولذلك يؤكد ربنا على أن الهدى من الله، وعلى البشر أن يتمتع بالتسليم والقنوت له سبحانه حتى يهتدي، أما إذا لبس رداء الغرور والكبرياء فسيضل، لأنه سوف لا يهديه، وليس هناك مصدر آخر للهداية ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾.

كيف ندعو الله بأسمائه الحسنى

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا[1] لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾.

هدى من الآيات:

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وزوده بكل وسائل الهدى، ولكن حيث ترك الانتفاع بها أصبح حقيراً إلى درجة لا ينفع إلا لجهنم، وكأنه قد خلق لها ومن أجلها، لقد زود الله البشر بالقلب وجعل التفقه به من مسؤولية البشر، وزوده بالعين ولكن التبصر بها من واجبه، وكذلك الأذن جعلها من اجل السماع الاستماع لا يمكن إلا بإرادة البشر وبقراره.

إن الإنسان الذي لا يقرر الانتفاع بوسائل الفقه والمعرفة التي عنده يشبه الأنعام، بل أضل منها منهجا وطريقا، لأن الأنعام لا تملك قدرة والبشر يملكها ولا ينتفع بها، وهؤلاء غافلون عن قدراتهم العاملة، وعن المستوى الذي بإمكانهم بلوغه.

ولله سبحانه الأسماء الحسنى، وكل اسم من أسمائه يشير إلى قوة فاعلة في الحياة، أو سنة جارية فيها، فإذا عرفنا الله بآياته عرفنا تلك الأسماء، ومن خلالها استطعنا أن نكيف أنفسنا مع

(١) ذرأنا: الذرء بمعنى الانشاء والاحداث والخلق.

الحق. ودعاء الله بأسمائه الحسنى يكرس روح الحقيقة في البشر، أما من يغير أسماء الله فعلينا أن نتركهم للجزاء العادل.

وهناك من يحكم بالحق ويجعله مقياسا لتقييم الحياة، أما الذين يكذبون بآيات الله فإنهم سوف يتدرجون إلى النار من حيث لا يعلمون، وأن الله يُملي لهم ويمهلهم إلى حين.

بينات من الآيات:

الحكمة الربانية

[١٧٩] إن ربنا رحيم ورحمته واسعة، ولكن رحمته سبحانه قد حددها بحكمته البالغة، بأولئك الذين ينتفعون بالنعم ويقررون الاستفادة منها، أما من لا يشتغل قلبه وسمعه وأذنه وبالتالي مداركه فان رحمة الله تتبدل بالنسبة إليه إلى نقمة شديدة، حيث يلقى به في جهنم وكأنهم قد خلقوا لها.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ من الآية يظهر بوضوح أن الهدى من الله، ولكن الاهتداء بالهدى من البشر ومن صنعه، فهو الذي يقرر التفقه بالقلب، والتبصر بالعين، والسماع بالأذن، ومن دون هذا القرار فان الله لا يكره احدا على الهدى.

﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام تهتدي بفطرتها نحو منافعها، وهؤلاء ينحرفون حتى إنهم ليضرون بأنفسهم بوعي ومن دون وعي، كالذي يشرب الخمر ويضرر بنفسه، والذي يسلط الطاغوت ليستعبده، والذي يعاقر المخدرات ويمارس الفاحشة ليضر بنفسه، مما لا يفعله الحيوان لأنه يهتدي بفطرته إلى مصالحه..

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الغافل هو: الذي يملك ذخائر المعرفة ولكنه لا يستفيد منها فيقع في المهالك.

الكفر بالأسماء والصفات

[١٨٠] بسبب الإلحاد والانحراف في أسماء الله، ينحرف كثير من الناس فيزعمون مثلاً أن الله واسع الرحمة وأنه لذلك لا يعذب احدا لأن رحمته تأبى ذلك، أو يزعمون بأنه لو زل أحد فإنه قد سقط نهائيًا وسوف يعاقبه الله لأنه شديد العقاب، ولا يرجى له الخير أبداً، هذا التصور

الخاطئ أو ذاك يكرس انحراف البشر، بينما الاعتقاد السليم إن الله واسع الرحمة وإنه شديد العقاب كل في محله وحسب الحكمة، وإن الرحمة والنقمة تأتيان بعد إرادة البشر ومشيئته، فلو أراد الرحمة لنفسه لحصل عليها، ولو شاء العذاب لأبتلي به، هذا الاعتقاد السليم يبعد البشر من انحرافاته، وهذا الاعتقاد السليم إنما يبلغه الإنسان بفطرته النقية وعقله وبصيرته، حيث ينسب بها إلى ربه احسن الأسماء ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ إن دعاء الله بأسمائه الحسنى يكرس الضمير الحسن عن الإنسان، فيهتدي إلى السنن الحاكمة في الحياة والتي يجريها ربنا بأسمائه الحسنى ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ والإلحاد في أسماء الله عزوجل يسبب انحرافات علمية، وعلى تلك الانحرافات يعاقب الله عباده، لا على مجرد التصور الخاطئ، بل نستطيع أن نؤكد أن الانحرافات العملية هي السبب المباشر في الإلحاد في أسماء ربنا. إذ لو ترك الإنسان وفطرته النقية لعرف الله بأسمائه الحسنى ولذلك لا ينفع الجدل في أسماء الله مع الملحدين فيها، لأن سبب الانحراف والإلحاد ليس سوء الفهم وإنما سوء النية، وربما لذلك أمرنا الله بترك هؤلاء الملحدين وشأنهم، إذ المجادلة مع المنحرفين بوعي مسبق وإصرار عليه تشوش رؤية البشر الصافية، وبغير جدوى.

وتبقى كلمة في أسماء الله وهي: يبدو أن الخليقة تقاد بقوى معينة مثلا بالعلم، والحكمة، والقدرة، فالشمس تجري لمستقر لها، ولكن كيف؟.

الحكمة هي التي تجعل للشمس هدفا تتحرك نحوه من أجل تحقيقه، والعلم هو الذي يحدد مسيرة الشمس بحيث تبلغ الهدف، والقدرة هي التي تنفذ الحكمة والعلم وتقهر الشمس على إتباع تلك المسيرة المحددة، هذه هي أسماء الله سبحانه، وتجلياته، فالعلم اسم من أسمائه الذي يتجلى في كل صغيرة وكبيرة في الكون، والحكمة كذلك، والقدرة وهكذا..

وحين ندعو الله بأسمائه ونقول يا عليم، يا قدير، يا حكيم، أو نقول نسألك بعلمك، وبقدرتك، وبحكمتك، فإننا في الوقت الذي نكرس في أنفسنا قيمة العلم، والقدرة، والحكمة ونستخدمها في واقعنا، فان هذه القيمة لا تكون منفصلة عن توحيد الله وعن عبادته، وعن الإيمان بأنه أعلى من أسمائه، وأن علينا التوكل عليه لا الاعتماد فقط على أسمائه.

التوسل بالذات لا بالصفات

إن من أكبر أخطاء البشر هو التوسل بأسماء الله سبحانه دونه، لأن ذلك يشكل جزءاً من الحقيقة الكونية، وهو يؤدي إلى الإيمان ببعض الحقيقة، فمثلا، الإيمان بالعلم دون الحكمة يسبب جعل العلم معبوداً وحيداً كما فعل الفرنسيون في منطلق ثورتهم، والعبودية للعلم تجعل

العلم بلا هدف، بل بهدف استغلال البشر، وسحق القيم المعنوية عنده، كذلك القدرة إذا أصبحت معبودة بذاتها لا بصفتها اسما من أسماء الله الحسنى، فإن القدرة المطلقة بلا حكمة تستهوي الناس وتجعلهم يطلبونها بشتى الوسائل، حتى بفداء القيم.

ومن هنا تركز الأدعية المأثورة على تذكر الأسماء الحسنى بأنها منسوبة إلى الله وجاء في بعض الأدعية:

١ - «اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ يا اَللهُ يا رَحْمنُ يا رَحيمُ يا كَريمُ يا مُقيمُ يا عَظيمُ يا قَديمُ يا عَليمُ يا حَليمُ يا حَكيمُ سُبْحانَكَ يا لا اِلهَ اِلاّ اَنْتَ الْغَوْثَ الْغَوْثَ خَلِّصْنا مِنَ النّارِ يا رَبِّ»[1].

٢ - «اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ يا عَلِيُّ يا وَفِيُّ يا غَنِيُّ يا مَلِيُّ يا حَفِيُّ يا رَضِيُّ يا زَكِيُّ يا بَدِيُّ يا قَوِيُّ يا وَلِيُّ»[2].

٣ - «اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ مِنْ بَهائِكَ بِأَبْهاهُ وَكُلُّ بَهائِكَ بَهِيٌّ، اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ بِبَهائِكَ كُلِّهِ... اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ مِنْ عِلْمِكَ بِأَنْفَذِهِ وَكُلُّ عِلْمِكَ نافِذٌ، اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ بِعِلْمِكَ كُلِّهِ»[3].

٤ - «اَللّهُمَّ اِنّي اَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَبِقُوَّتِكَ الَّتي قَهَرْتَ بِها كُلَّ شَيْءٍ، وَخَضَعَ لَها كُلُّ شَيْءٍ، وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيْءٍ، وَبِجَبَرُوتِكَ الَّتي غَلَبْتَ بِها كُلَّ شَيْءٍ، وَبِعِزَّتِكَ الَّتي لا يَقُومُ لَها شَيْءٌ، وَبِعَظَمَتِكَ الَّتي مَلأَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَبِسُلْطانِكَ الَّذي عَلا كُلَّ شَيْءٍ، وَبِوَجْهِكَ الْباقي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِأَسْمائِكَ الَّتي مَلأَتْ اَرْكانَ كُلِّ شَيْءٍ»[4].

إن أسلوب الأدعية يكرس قيمة الأسماء التي تذكر تارة بالعموم وتارة بالتحديد، ولكن تبقى قيمة التوحيد فوق قيمة أسماء الله، لأن هذه الأسماء تتصل بالتالي بالله سبحانه.

موقف التصديق

[١٨١] وحين يدعو المؤمن ربه بأسمائه الحسنى يجعل الحق مقياسا وقيمة، لأنه بمعرفة الله سبحانه ومعرفة أسمائه الحسنى يستوعب البشر جوانب الحق ﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ** ﴾ والملاحظ في الآية أن الله سبحانه عبر عن أولئك الذين يحكمون بالحق بـ (الأمة) باعتبارهم طائفة منتظمة تحت قيادة إمام، ثم يهدون الناس إلى الحق، وهم

(١) البلد الأمين: دعاء الجوشن الكبير: ص٤٠٢.

(٢) البلد الأمين: دعاء الجوشن الكبير: ص٤٠٤.

(٣) البلد الأمين: دعاء البهاء: ص٢٦٣.

(٤) البلد الأمين: دعاء كميل: ص١٨٨.

بدورهم يأخذون بالحق ويجعلونه مقياساً لتطبيق العدالة في المجتمع.

موقف التكذيب

[١٨٢] وفي مقابل هؤلاء جماعة يكذبون بآيات الله التي تهدي إلى الحق، وجراء هؤلاء استدراجهم حتى يصلوا إلى الدرك الأسفل من حيث لا يعلمون ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والاستدراج هو: إعطاء الطرف الآخر فرصة التقدم حتى يقع في الفخ مفاجئة، لذلك لا يجوز للبشر أن يستريح على المهلة التي يعطيها الله له، أو على النعم التي تترى عليه، أو ما أشبه.. فإن المهلة أو النعمة قد تكون مصيدة له، وفخا سرعان ما يقع فيه.

[١٨٣] ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ أي أعطيهم مهلة، وذلك خطة لأخذهم أخذاً لا يقدرون على الفرار منه، لأن خطة الله متكاملة ومحكمة.

عسى أن يكون قد اقترب الأجل

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ[1] إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ[2] أَيَّانَ مُرْسَاهَا[3] قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ[4] عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾.

هدى من الآيات:

زود الله البشر بأدوات التفكر ليكتشف الحقيقة بنفسه، وإذا لم يفعل فإن ضلالته مؤكدة، وعن طريق التفكير يبلغ البشر إلى طبيعة الأشياء والظواهر، فظاهرة الرسالة لو تفكر المرء فيها عرف أنها حق، وأن الرسول ليس به جنون، بل إن ما يرى في هذه الظاهرة من مظاهر الانتفاضة والتغيير فإنما هو شهادة على واقع جديد سيأتي وراءه، والرسالة إنذار واضح بوقوع ذلك الواقع.

وكذلك لو تفكر المرء في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من عظمة وفخامة، ولو تفكر في خلق أي شيء مخلوق وما فيه من متانة ولطف ودقة وإتقان، آنئذ يعرف أن هذا النظام

---

(١) جنة: الجنة الجنون وأصله الستر.

(٢) الساعة: الساعة التي يموت فيها الخلق.

(٣) مرساها: الإرساء الإثبات، ومرسيها مثبتها، ورسا الشيء يرسو فهو راس إذا أثبت.

(٤) حفي: الحفي المستقصي في السؤال، واحفي فلان بفلان في المسألة إذا أكثر عليه وألحّ.

المتكامل يعتمد على هيمنة قوة أعلى منه، وأن هذا النظام يهدف:

أولاً: امتحان البشر.

ثانياً: أن المدبر له لو شاء ترك النظام يتهاوى وهذه اللحظة محتملة في أي وقت. وإذا تفكر البشر في الرسالة، ثم تفكر في الخليقة لآمن بها، وإذا تولى جحودا فلا شيء آخر يمكن أن يؤمن به بعقله، كيف والهدى من الله عزوجل وقد تولى عنه؟ ومن يضلله الله يمنع هداه عنه، فإن طغيانه واستكباره سيجعله قابعا في ضلالته إلى الأبد.

وهم يسألون الرسول عن الساعة: متى ترسو عليها سفينة الكون؟.

تلك الساعة الثقيل وقعها في السماوات والأرض، إنها لا تأتي إلا مفاجئة وعلمها عند الله تعالى، وأكثر الناس لا يعلمون.

بينات من الآيات:

لا للتبرير

[١٨٤] سبق الحديث في آية (١٧٣) على أن على البشر مسؤولية المعرفة والتصميم، وأنه لا يمكنه تبرير فساده بالغفلة والتقليد، وها هو القرآن يذكرنا مرة أخرى بمسؤولية التفكير الوسيلة الوحيدة لمقاومة الغفلة: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ ولأهمية التفكير وضرورته الفطرية يتساءل الله: لماذا لم يتفكروا؟.

﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ إن الرسول يخبرهم عن أشياء جديدة غير مألوفة ولذلك فيمكن أن يكون هذا في نظرهم جنونا عارضا أو إنذارا مبينا، وبالتفكير نعرف المتانة في الكلام، والقوة في الدليل، والسلامة في النية، وشواهد الوجدان والعقل مما يدل جميعا على أن كلام الرسول ليس جنونا بل هو إنذار حق وواضح.

[١٨٥] ذلك الإنذار الذي يحذر من المصير الذي ينتهي إليه المجرمون، يمكن أن نسمعه من الرسول ومن لسان الكون أيضاً، الذي ينطق بالنظام الدقيق والعظمة المتناهية ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وما فيهما من عظمة تدل على قدرة الخالق وهيمنته.. ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ وما في كل شيء ينظر إليه الإنسان من خلق الله دلالة واضحة على دقة النظم، وإتقان الخلق، وحسن التدبير.

إن النظر في عظمة الكون، وفي أي شيء مخلوق، يهدينا إلى الله تعالى الذي يهيمن على

تدبير الكون. والله في أي لحظة يمكن أن يسحب تدبيره عن الكون فيتهاوى، وإنه لم يخلق الخلق عبثا وبلا هدف، بل بحكمة بالغة هي: ابتلاء الإنسان، واختبار تحمله لمسؤولية التفكر، وإرادة التصميم.. ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا تركوا هذا الحديث الذي هو إنذار مبين، ويشهد عليه النظر في السماوات والأرض وفي أي مخلوق صغير أو كبير من خلق الله سبحانه، هل هناك حديث أفضل منه يؤمنون به؟.

[١٨٦] الذي لا يهتدي بهدى الله فان البديل الوحيد له هو الضلالة الدائمة. لماذا؟.

لأن عدم إيمانه بهدى الله ناشئ من طغيانه على الله والحق، وهذا الطغيان باقٍ معه ويسبب له العمه والضلال ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

متى تقوم الساعة؟

[١٨٧] إذا كانت شواهد الكون تدل على أن النظام الذي يمسك السماوات والأرض سوف ينتهي في يوم، وأن سفينة الكون سوف ترسو في نهاية المطاف على شاطئ، فإن هذا السؤال سوف يطرح أيان مرسى هذه الساعة؟ متى؟ وكيف؟: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ومتى تقف عند الشاطئ النهائي؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ يبدو لي: أن ساعة كل طائفة تنتهي في حين، فماذا ينفعها حين ينتهون؟ إن الحياة تستمر في غيرهم، إن ساعة قوم لوط رست عندما نزل العذاب عليهم في صورة زلزال عظيم، وأن ساعة فرعون وقومه قد حلت حينما أغرقوا في اليم، وهذه الساعة تأتي مفاجئة دون إنذار.

وربما يشير إلى ذلك ضمير (كم)، ذلك لأن نهاية الكون لا تأتي الجميع، بل فقط أولئك الذين يتواجدون آنئذ.

ويبقى السؤال: لماذا يطرح الناس هذا السؤال على الرسول؟ أو ليسوا هم المسؤولون أولاً وأخيراً عن أنفسهم؟ أو لا يهمهم أمر نهايتهم وبلوغ ساعتهم، أو أن الرسول حفي بها.. مطلع عنها؟ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ﴾ يستقصي السؤال عنها، ويطلع بجوانبها، بينما هم المسؤولون وعليهم التقصي كما الرسول ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي يقرر متى ينتهي وقت الامتحان، ويبلو واقع كل واحد منا، فيقرر بمشيئته المطلقة ميعاد الجزاء . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقيقة الواضحة وهي: أن مصير البشر بيد الله العزيز الحكيم، لا بيدهم أو بيد الرسول ﷺ.

الإنسان: قصة البداية

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)﴾.

هدى من الآيات:

لو تدبر الإنسان في كتاب الحياة لعرف الحقيقة، كذلك لو تدبر في نفسه وما فيها من علائم النقص وآيات الخلقة.

من أنا؟ وكيف خلقت؟ وما أملك؟ ومن يملك أمري؟.

إني موجود لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا في حدود الحرية والإمكانيات التي وفرها الله لي، ولا أعلم الغيب بدليل إني أخسر كثيراً بسبب جهلي بالمستقبل وبالغائب عن نظري، وكثيراً ما تحمل الحوادث السوء لي وأنا استقبلها جهلاً، والإنسان بحاجة إلى الرسول الذي ينذره بالمستقبل ويجعله يتحذره، ويعرفه كيف ينتفع بالمستقبل.

كيف خلقني الله؟.

لقد غرز الله شهوة الجنس في والدي، حيث خلقهما من نفس واحدة وجعل أحدهما

يسكن إلى الآخر، ويتكامل وجوده النفسي والجسدي والمعيشي بالثاني، وحين أتى الرجل زوجته حملت منه حملا سهلا لم تشعر بثقله حتى إنها كانت تقوم بأعمالها العادية، حتى أثقلت بالحمل بعد فترة، وهناك شعرا هي وزوجها- بمسؤولية الطفل ودعوا الله أن يرزقهما صالحا غير فاسد، وتعهدا بشكر الله، ولكن حين رزقهما الله ولدا صالحا نسيا الله ونسبا ولادة الطفل إلى بعض الشركاء، دون أن يفكرا في أن الشركاء لا يملكون لهما نصرا ولا يمكن الانتصار لهما، كما أنهم عباد مخلوقون ولا يقدرون على خلق شيء، كما انهما نسيا تلك الحالة السابقة حيث توسلا -عندئذ فقط- بالله دون الشركاء! لأنه في حالة الشعور بالخطر ينسى المرء الشركاء.

بينات من الآيات:

من هو الرسول؟

[١٨٨] من الرسول؟ هل هو شخصية متميزة جسديا؟.

كلا.. إنه فقط يتميز بالرسالة الموحى بها إليه، وبالاتصال بينه وبين ربه، فما لديه إنما هو من الله سبحانه وبه.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ فحين أصاب بالسوء كأي بشر آخر، وحين لا استكثر الخير لعدم معرفتي بالمستقبل، فإني بشر مثلهم. نعم أعلم الغيب في حدود تعليم الله لي ووحيه علي، كما أني أملك النفع وأدفع الضر في تلك الحدود أيضا.

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أما الذين لا يؤمنون فإن الوحي لا ينفعهم إذ الوحي إنما ينفع من يريد ويصمم على تطبيقه وتنفيذ مناهجه، وإذا كان الرسول لا يملك نفعاً ولا ضراً، فكيف بسائر الناس؟ ومعرفة الإنسان بنقاط ضعفه تجعله يعود إلى واقعه ويعرف أنه مربوب مخلوق.

قصة الخلق

[١٨٩] الآن لا أملك شيئاً إلا بقدر ما ملكني الله، أما في الماضي فقد كنت نتيجة غريزة جنسية خلقها الله في والدي، وربما الوالدين لم يستهدفا من وراء الزواج ولادتي، بل ربما أرادا قضاء شهوة جامحة!.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ فلذلك يحن الواحد منا إلى الآخر، ويعطف

عليه ويأنس إليه، ولذلك أيضا لا فوارق بين البشر ونظيره البشر، وخصوصاً لا فرق بين الذكر والأنثى فرقا حقيقيا..

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فالرجل خلق متكامل مع الأنثى لذلك لا يسكن إلا إليها، ومن مظاهر السكن، إن كل شخص يشعر بنقص حتى يكتمل بالزواج، وآنئذ يكون بإمكان الطرفين تكميل حياتهما معا، فإذا وفر الذكر للحياة المتكاملة: القوة، والعزيمة، وخشونة التحدي، فان الأنثى توفر لها الرحمة، والعاطفة، ونعومة الرفق، وكلُ ما هو ضروري للتعاون..

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي مارست أعمالها العادية بسهولة ويسر، دون ثقل عليها من قبل الجنين، الذي يتكامل في رحمها بسرعة، أو ليس ذلك يدل على إتقان الصنعة، ولطف التدبير، من قبل الرب الحكيم العليم..

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إن الشعور بالثقل لا يلازم أبدا الشعور بالصعوبة، إذ المرأة السليمة لا تشعر بصعوبة بالغة بسبب الحمل إلا قبيل الولادة، ولكن هذا الشعور إنما هو بهدف إشعارها بالمسؤولية القادمة، وذلك للاستعداد لها وتوفير وسائل الراحة والأمان للضيف الجديد، وهكذا نرى كيف يتغير الوالدان ويشعران بمسؤولية بالغة تجاه الوليد، وأول طلبهم هو: أن يكون خلاصة حياتهما وفلذة كبديهما سالما وصالحا، جسديا وروحيا، ولفرط الإحساس بالمسؤولية ينسيان الشركاء المزيفين ويتوجهان إلى الله ربهما، مثلما ينسى البشر كل الشركاء في أوقات العسر الشديد، بل ويتعهدان بالشكر لله، والقيام بواجبات الوليد الجديد مثل: التربية السليمة، والارتفاع إلى مستوى الأب والأم إذا آتاهما صالحا..

الإنسان والنسيان

[١٩٠] ولكن سرعان ما ينسيا هذه التعهدات حيث يعودان إلى الشركاء، وهي كل القوى المادية التي تضغط على البشر باتجاهات منحرفة، مثل المجتمع الفاسد ورمزه السلطة، ومثل الثقافة الفاسدة ورمزها الأحبار، والرهبان، والشعراء، ومثل الاقتصاد الفاسد ورمزه أصحاب المال، والأنظمة الرأسمالية ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ولذلك لم يطبقا مناهج الله في تربية الأولاد، بل اتبعا الشركاء، فأفسداه اجتماعيًّا حينما أخضعاه للطاغوت، وأفسداه ثقافيًّا حيث سلماه بيد أدعياء العلم والدين وهما يعرفان فسادهم، وأفسداه اقتصاديا حيث ربطاه بعجلة الرأسمالية.

بينما كان الواجب عليهما تربيته على أساس سليم، وفصله عن سلبيات الشركاء أنى كانوا، وتحريره لله وجعله مرتبطاً به وبرسالاته، ذلك الرب الذي أعطاهما إياه وجعله صالحاً غير فاسد، ولكنهما هما اللذان أفسداه، وكما قال الرسول ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَ يُنَصِّرَانِهِ**»[1] والله أعلى من الشركاء، والحق الموصى من عنده سوف يجرف غثاء الشركاء وزبدهم، ويحرر الناس من يد الفاسدين.

قابلية الانهزام والاستعمار

[١٩١] والناس لا يفكرون ما هي قوة الطاغوت، أو قوة الرأسمالية، أو علماء السوء؟ إنهم ضعفاء لو لا تسليم الناس لهم، وخضوعهم لسيطرتهم الظالمة، إن هؤلاء الشركاء لا يخلقون شيئا بل هم الذين يخلقون، يخلقهم الله، فيسرقون إمكانات الناس، ويفرزهم الوضع الفاسد ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ إن الطاغوت مخلوق لله، ولكنه في الوقت ذاته يستغل جهل الناس وغفلتهم، وأطماع طائفة منهم وصغر نفوسهم، يستغلها في خلق قوة ضاربة له يتسلط بها على المستضعفين، فكيف يخضع البشر لبشرٍ مثله مخلوق غير خالق؟ خلقه الله وصنعه الوضع الفاسد؟.

[١٩٢] أن الهدف من وراء إتباع السلطان، أو التسليم للوضع الفاسد، الركون إلى قوته ونصرته في الوقت الذي لا يملك الشركاء قوة ونصرا، بل إذا تدبرنا جيداً عرفنا: إننا نحن الذين ننصر الطاغوت ونعطيه السيطرة علينا، بسبب سكوتنا عليه وخضوعنا له.. ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ إن الطغاة والفاسدين المفسدين من جلاوزتهم يزعمون أبدا: أن وجودهم واستمرار سيطرتهم يضمن للمجتمع الأمن والازدهار، بينما لا يضمن الطغيان إلا الخراب والدمار، لأنه يكبت طاقات الناس، ويضعف إرادتهم، فلا هم قادرون على عمارة بلدهم لأن طاقاتهم مكبوتة، ولا هم قادرون على المحافظة على بلدهم لأنهم ضعفاء الإرادة.

لقد ثبت علميا: أن أبرز الأسباب المباشرة للتخلف هو: الاستبداد كما أن جيوش البلاد التي يسودها الظلم لم تقدر على الدفاع بمثل الجيوش الحرة. ولا شك إن الظالم أضعف من الناس العاديين لأنه يعتمد على قوة الناس في الدفاع عن شخصه، بحيث لو تركه الناس تهاوى وسقط، لذلك قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ فحتى أنفسهم لا يستطيعون الدفاع عنها، فكيف نعتمد عليها؟.

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٨١.

لماذا يدعون عبادا أمثالهم

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾.

هدى من الآيات:

إن الشركاء الذين يدعون من دون الله لا يرجى هدايتهم، لأنهم فاسدو الضمير، ولذلك يجب أن يتركوا، ثم لابد أن يتحرر الناس من عقدة الذل تجاه الشركاء (الطاغوت وأعوانه من علماء السوء والأغنياء والجنود) لابد أن يعرفوا أنهم عباد كما هم، لا فرق، وأنهم لا يستجيبون للناس، وأن أعضاءهم مشلولة، وانهم ضعفاء، دعهم يجتمعون فانهم لا يفعلون شيئا.

بينما الله ولي الصالحين من عباده، قد نزل الكتاب يهدي الناس، فكم هو الفرق بين من لا يهتدي وبين من يهدي الجميع؟!.

أما الذين يدعوهم الناس لا يقدرون على الانتصار لأنفسهم، فكيف ينصرونهم، وإن قلوبهم قد اسوّدت حتى أنهم لا يسمعون دعوة الإصلاح ولا يبصرون، بالرغم من استخدامهم لعيونهم ظاهراً.

بينات من الآيات:

آخر الدواء الكي

[١٩٣] إن أئمة الضلال الذين ينازعون الله سبحانه رداء الحاكمية إنهم قد هبطوا إلى الفساد إلى الحضيض، ولذلك فإن علينا مواجهتهم بشدة، وحين يزعم بعض من البسطاء أن الطغاة يمكن أن يهتدوا، فإن هذا الزعم تبرير لتكاسلهم وتقاعسهم عن التمرد عليهم، ولذلك فان القرآن الحكيم قد قضى على هذا التبرير السخيف بقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ﴾ فلا يجب أن تدعوهم إلى الهدى، فإذا لم يستجيبوا، وقفتم بوجههم كما فعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل يمكن أن يسبب ذلك في فشل خطط الرساليين.

[١٩٤] إن أئمة الضلال هم في واقع أمرهم بشر مثل الآخرين بل هم أقل. لأن الناس العاديين يتقبلون الهدى، بينما الطغاة لا يستجيبون للهدى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ أي أن كنتم صادقين في نسبة العقل والقدرة إلى هؤلاء الشركاء، ويحتمل أن يكون المراد من الآية الأصنام الحجرية التي لا تعقل وكذلك الآية التالية.

[١٩٥] إن هؤلاء أضعف من الناس العاديين لأنهم لا يقدرون على الاستفادة من أعضائهم بسبب تعودهم على استثمار الآخرين.. ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾ من الأصنام البشرية كالطغاة، أو الأصنام الحجرية.. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي ثم اعملوا جميعا ضدي وضد خططي ولا تمهلوني، وهذا تحد صارخ لها، ليعرف الجميع أنها أضعف من المقاومة فيتركونها، إن الناس يغترون بقوة الأصنام وبقدرتها على حمايتهم من مكاره الطبيعة، ومن مشكلات الحياة، فيلتجئون إلى الطغاة أو الأصنام، ولا يعرفون انهم أضعف منهم في المقاومة لو لا الإعلام المزيف والإرهاب.

من هو ولي الصالحين؟

[١٩٦] أما ولي الصالحين، ومعبودهم، وناصرهم، ومن هو أولى بهم، فهو الله الذي أنزل الكتاب وضمنه رسالة مفصلة تبلور عقولهم، وتربي أنفسهم، وتوضح مناهج الحياة، وتنذرهم وتبشرهم رهبة ورغبة.. ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ ولأنه نزل

الكتاب فمن عمل به وكان صالحاً فقد فاز بولاية الله عزوجل، بهدايته وقيادته ونصرته.

[١٩٧] وأما غير الله من سائر الأولياء لا ينصرون أحدا ولا حتى أنفسهم ينصرونها، بل هم بدورهم يحتاجون إلى النصرة ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ ومن دون أذنه.. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أما من أمر الله باتباعه كالرسل والأئمة عليهم السلام فإن المناهج التي يأخذون الناس عليها تنصر التابعين لها وهم الصالحون، ذلك أن ما ينصر البشر ضد شرور نفسه ومكاره الطبيعة، ليس قوة غيبية بعيدة عن إرادته، بل هو عمله الصالح الذي يباركه الرب العزيز الحكيم.

[١٩٨] وهؤلاء ليسوا فقط لا يهدون أحداً بل لا يهتدون أيضا لأن قلوبهم مغلقة ونفوسهم فاسدة ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فأدوات الإدراك عندهم مشلولة، فحتى نظرتهم ليست بقصد الاهتداء والتبصر والفهم بل بقصد النظر ذاته، ذلك لأن المتكبرين لا يهدفون من وراء الحياة شيئاً، بل اتخذوها ذاتها هدفاً مقدساً، ونهاية لرغباتهم وتطلعاتهم، ولذلك فليست نظرتهم للبصيرة ولا آذانهم للسماع.

وقد سبق أن الطغيان سبب مباشر للكفر، وهؤلاء قد بلغوا حضيض الطغيان فكيف يهتدون؟!.

كيف تتكامل شخصية الإنسان

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ (١) وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ (٢) فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ (٣) مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٤) ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ (٥) قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لكي تتكامل شخصية الإنسان عليه أن يأخذ العفو، ويأمر بالمعروف، وأن يعرض عن

---

(١) بالعرف: العرف ضد النكر، ومثله المعروف والعارفة وهو كل خصلة حميدة يُعرف صوابها العقول، وتطمئن إليها النفوس.

(٢) نزغ: النزغ الازعاج بالإغراء وأكثر ما يكون ذلك عند الغضب، وأصله الإزعاج بالحركة، والنزغ أدنى حركة تكون، ومن الشيطان أدنى وسوسة.

(٣) طائف: وسوسة ما.

(٤) لا يُقصرون: لا يكفون عن إغوائهم.

(٥) اجتبيتها: الاجتباء افتعال من الجباية، ونظيرها الاصطفاء وهو استخلاص الشيء للنفس، وأصله الاستخراج

الجاهلين، ولكن السؤال: كيف يمكن للإنسان أن يفعل ذلك والشيطان يفسد قلبه؟.

الجواب: عليه أن يستعيذ بالله ويتوكل عليه في مقاومة نزعات الشيطان، إن الله سميع عليم.

ذلك أن المتقين الذين ترسخ الإيمان في أنفسهم، إذا مسّهم من الشيطان شيء طائف، وخاطرة خاطفة فإنهم يتذكرون ربهم، وبعد التذكر يبصرون ويميزون خواطر الشيطان عن حقائق الإيمان.

بينما أخوان الشياطين يمدون أصحابهم ليستمروا في الغي، وهي لا يقصرون ولا يبخلون في دعم أصحابهم بالضلالة.

فمثلاً: كل الآيات لا يقبلونها، وإنما يطالبون الرسالة بآية معينة، ويتساءلون لماذا لم يصطفِ الرسول هذه الآية، بينما الرسول ليس هو الذي يختار الآيات، وإنما الله الذي أوحى بالكتاب، بصائر ورؤى وهدى، ورحمة للمؤمنين.

ولذلك على البشر أن يستمع إلى القرآن، وينصت إجلالاً له إذا تُليت آياته، وأن يذكر الله تضرعاً وخيفة، حتى يتأصل الإيمان في أنفسهم، وألا يكون غافلاً ولا مستكبراً عن عبادة الله، بل يسبح له ويسجد له..

بينات من الآيات:

ابعاد الحياة الاجتماعية

[١٩٩] ما هي رسالة الإسلام، التي لو اتبعها المجتمع حقق أهدافه، وأحرز المنعة التي يريد؟.

تلخص الآية الكريمة هذه الرسالة:

أولاً: أخذ العفو.

ثانياً: الأمر بالمعروف، الذي تتقبله فطرة الإنسان وتستسيغه، لأن الإسلام دين الوجدان النقي والعقل النير البعيد عن مؤثرات الهوى.

ثالثاً: الإعراض عن الجاهلين، وعدم إتباع بعضهم الفاسد، وعدم الخوض معهم فيما يخوضون ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ إن الأدوار الثلاثة تلخص الحياة

الاجتماعية في ثلاثة أبعاد:

- البعد الاقتصادي.

- البعد القانوني.

- البعد الأخلاقي.

ففي البعد الاقتصادي: يجب أخذ الأنفال الإضافية التي لا يحتاج إليها الفرد، لتجعل للخدمة الاجتماعية.

وفي البعد القانوني: يجب تنظيم الحياة الاجتماعية وفقا لافضل ما يراه العقل السليم، في الظرف الخاص، مما يعطي التشريع مرونة كافية لاحتواء تطورات الحياة.

أما في البعد الأخلاقي: فيجب رفع الجهل والجهالة، وتكتل المؤمنين الصالحين لقيادة الحياة.

ماذا نحتاج للتطبيق؟

[٢٠٠] ولكن هذه التعاليم بحاجة إلى قلب سليم، وعقل نير، وشخصية متكاملة، وذلك كله لا يمكن توفيره إلا بتخلص البشر من نزغ الشيطان وفساده، وعلاج ذلك يكون بالتوكل على الله، والاستعاذة به من الشيطان الرجيم.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يسمع نجواك، ويعلم ما في ضميرك، فإذا قلت ظاهرا وأضمرت واقعا فانه سوف ينصرك على الشيطان.

[٢٠١] الذين تكرست في أنفسهم ملكة الالتزام بالتعاليم الإلهية، وأصبح الدين بالنسبة إليهم عادة بسبب المزيد من العمل فإنهم إذا انزلقوا بسبب ضغط الشهوات فإنهم سرعان ما يتذكرون ويلتزمون بالواجبات مرة ثانية.. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ حين يعودون إلى الله ترتفع عن أنفسهم غشاوة الشهوات، فيبصرون حقيقة الذنب فيجتنبونه.

[٢٠٢] بينما الكفار وأخوان الشياطين الذين لا يملكون حصانة التقوى فإنهم ليس فقط لا يعطيهم الشيطان حصانة، بل يمدهم الشيطان في غيهم، ويبرر لهم سيئاتهم غرورا ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾.

من الفكر التبريري

[٢٠٣] من تلك الأفكار التبريرية التي يمد بها الشيطان إخوانه، ويكرس بها سلبياتهم هي: أن كل آية كانت تنزل عليهم كانوا يكفرون بها، ويطالبون بآية أخرى، ويزعمون أن الآيات تنزل عليهم بطلب الرسول.

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ والقرآن بصائر يرى المرء بسببها ومن خلالها الحياة فمثلا: القرآن يميز للبشر بين العقل والجهل، الشهوة والغضب، حتى يلامس وجدان كل واحد حقيقة نفسه وما بها من عقل وشهوة، أو عقل وغضب، والقرآن يذكر البشر بربه عن طريق إثارة الوجدان، وبلورة عقله، ثم يربط بين الإيمان بالله وبين ما يرى في الكون من آثار عظمة وجمال، ومن نقاط ضعف وعجز، ويربط بعدئذ بين كل ذلك وبين ضرورة التسليم لله ولرسالاته، كل تلك بصيرة يرى المرء من خلالها الحياة رؤية واضحة.

وإذا تعذر على المرء رؤية الحياة بسبب أو بآخر، فان الله هو الذي يعطيه الهدى بصورة مجملة أو مفصلة، فيكشف له طبيعة الدنيا والآخرة وما فيهما من عوامل تقدم أو تخلف، حضارة أو دمار.

والبصائر والهدى تعطي البشر رفاها وسعادة هي: الرحمة التي ينزلها الله للمؤمنين باتباع البصائر والهدى ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

تعظيم القرآن

[٢٠٤] لأن القرآن بصائر وهدى فعلى البشر أن يكبره ويعظمه، فإذا قرأ القرآن فعلى الجميع أن يتركوا كلامهم ويستمعوا إلى آيات الذكر ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي تنالون السعادة والرفاه بالاستماع إلى آيات الذكر الحكيم.

كيف نقاوم الانسلاخ عن القرآن

[٢٠٥] ولكي يقاوم البشر عوامل الانسلاخ من آيات الله، ولكي لا يصبح مثل الذين: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾، وبالتالي لكي لا ينسلخ البشر من إنسانيته، فإن عليه أن يداوم قراءة القرآن، وأن يتذكر آيات الله وأسمائه، ولكن ذكر الله له شروط معينة هي:

أولاً: أن يكون التذكر في نفس البشر، لكي لا يكون الذكر رياءً أو نفاقا أو قشريا لا يغور في العمق.

ثانياً: أن يكون الذكر تضرعا وتذللا، ومعرفة من الفرد بأنه عبد ذليل لله، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرا.

ثالثاً: أن يخاف الفرد ربه وما يترتب على معصيته له من عذاب شديد.

رابعاً: ألا يكون ذكر الله جهرا بما يزيد احتمالات الرياء، ولا يجعل الفرد يتعمق فيما يقول.

خامساً: أن يكون الذكر بالغدو والآصال، صباحا ومساءً، كل ذلك يرفع الغفلة عن الإنسان.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.

قاوم التكبر في نفسك

[٢٠٦] وعلى الإنسان أن يقاوم روح الاستكبار في ذاته، ويطيع الله إطاعة كاملة، وأن يسبح الله وينزهه من آثار النقص والعجز الموجود في خلقه، وأن يسجد لله رمزا لتلك الطاعة والعبادة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ من الملائكة المقربين، والأنبياء، والشهداء، والصالحين الذين يتحسسون حضورهم أمام الله وهيمنة الله عليهم، وأنه سميع بصير، وأنه أقرب إليهم من حبل الوريد، إن هؤلاء الذين يعتبرون قدوة صالحة لكل واحد منا.. إنهم: ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ وعندما يشعر الفرد أنه عند الله، وأن ربه حاضر عنده، آنئذ يشعر بجلالة الله ومدى عظمته، فيخضع لله وينزع عن نفسه الاستكبار الزائف، وعندئذ يعرف الله ويزداد إيمانا بعظمته، فيسبحه وينزهه عن النقص، وعندئذ تظهر علامات الخشوع عليه فيسجد لله، وهذه قمة الإنسانية التي كانت سورة الاعراف تهدف إيصال البشر إليها.. جعلنا الله سبحانه ممن يتطلع للوصول إليها بالتوكل عليه.

سُورَةُ الأنفَال

* مدنية.

* عدد آياتها: ٧٥.

* ترتيبها النزولي: ٨٨.

* ترتيبها في المصحف: ٨.

* نزلت بعد سورة البقرة.

فضل السورة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنْفَالِ وبَرَاءَةَ فَأَنَا شَفِيعٌ لَهُ وشَاهِدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ وأُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ مُنَافِقٍ ومُنَافِقَةٍ فِي دَارِ الدُّنْيَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ ومُحِيَ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ ورُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ وكَانَ الْعَرْشُ وحَمَلَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا»

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤٠).

***

عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ جَدْعُ الْأُنُوفِ».

(تفسير العياشي: ج٢ ص٤٦)

***

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَنْفَالِ وَبَرَاءَةَ فِي كُلِّ شَهْرٍ لَمْ يَدْخُلْهُ نِفَاقٌ أَبَداً وَكَانَ مِنْ شِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام حَقّاً وَيَأْكُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ مَوَائِدِ الْجَنَّةِ مَعَهُمْ حَتَّى يَفْرُغَ النَّاسُ مِنَ الْحِسَابِ».

(بحار الأنوار: ج٩٤ ص١٣٣)

الاطار العام

الهجرة وآفاق الجهاد

سميت السورة الثامنة من القرآن بالأنفال، لأن الحديث الأول فيها عن الغنائم الإضافية التي تسمى بـ(النفل) وهو: «كل زيادة تعطى». وفي الحديث الصحيح: «**إِنَّ الْأَنْفَالَ كُلُّ مَا أُخِذَ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَكُلُّ أَرْضٍ انْجَلَى أَهْلُهَا عَنْهَا بِغَيْرِ قِتَالٍ (ويسميها الفقهاء فيئاً) وَمِيرَاثُ مَنْ لَا وَارِثَ لَهُ، وَقَطَائِعُ الْمُلُوكِ إِذَا كَانَتْ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ غَيْرِ غَصْبٍ وَالْآجَامُ وَبُطُونُ الْأَوْدِيَةِ وَ الْأَرَضُونَ الْمَوَاتُ**»[1].

ويمكننا أن نوجز الأنفال في عبارة؛ هي: كل شيء يتحرر من الملكية الخاصة، فيعود إلى الملكية العامة، فتصبح بيد إمام الأمة، وفي عهد رسول الله ﷺ يكون بالطبع في يده ﷺ.

جاءت الآية الأولى في الأنفال، والآية (٤١) في خُمس الغنائم، والآية (٦٦) في حليّة أكل الغنائم، وهذه الآيات الثلاث تشكل حكماً واحداً، حيث يجب تقسيم الغنائم التي يحصل عليه الجيش المجاهد بين المقاتلين، بعد إخراج خمسها لبيت المال. أما ما وراء الغنائم من الأنفال، فهي لبيت المال - الدولة.

أما الآيات الأخرى في السورة؛ فهي تدور حول صفات المؤمنين الصادقين، والتي منها تصديقهم بالغيب، إذ يستجيبون للرسالة حتى ولو كانت مخالفة لأهوائهم أو نظراتهم الضيقة، حيث أخرج الله نبيه بالحق بالرغم من كراهة طائفة من المؤمنين، والهدف كان كسب القتال، وقد أمد الله جيش الإسلام بالملائكة ليكونوا بشرى للقلوب.

وتستمر (الآيات: ١٥-٢٩) تتحدث عن الجهاد وعوامل هزيمة الكفار وأسباب انتصار المسلمين التي يأمرنا ربنا بها، ومنها الثبات وإرادة مرضاة الله تعالى، وطاعة القيادة،

---

(١) بحار الأنوار: ج١٩ ص٢١٠.

والاستجابة لدعوة الرسول ﷺ، وتجنب الفتنة، والتحرر من جاذبية الأهل والأموال، والتقوى والبصيرة.

أما مكر الكفار ودعاياتهم التي تتحدث عنها (الآيات: ٣٠-٣٨) فإنها رائلة مثل قولهم: إنهم قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن، أو التحدي باستعجال العذاب، أو الصلاة عند البيت مكاءً وتصدية، أو إنفاق أموالهم التي من نتائجها تعبئة الكفار، لكي يكون القضاء عليهم مرة واحدة.

ويبين القرآن ضرورة القتال الشديد ضد الكفار بهدف اقتلاع جذور الفتنة، وعدم الخوف. لأن نصر الله قريب. إذ أن الله سبحانه يقضي بالحرب برغم تهاون فريق من المسلمين عنها خوفاً، لكي يقضي أمراً كان مفعولاً. ولكن للنصر شروطاً؛ منها الثبات الطاعة وعدم النزاع، والصبر وعدم البطر، وتجنب الرياء، وأن يكون الهدف هو مرضاة الله. أما أولئك الذين استهدفوا الصد عن سبيل الله فإن الشيطان غرّهم ثم تركهم، أما المؤمنون فإن الدين يشجعهم على الجهاد، وليس هذا غروراً، وإذا لم تقتلع الحرب جذر الفساد فإن سنة الله في الحياة هي التي تقضي بنهاية المفسدين كما فعل ربنا بآل فرعون الظالمين (الآيات: ٣٩-٥٦).

ويعرج القرآن إلى ذكر استراتيجية القتال كما جاء في (الآيات: ٥٧-٦٩) فيأمر بإلقاء الرعب؛ ليس فقط فيمن هو في جبهة القتال فحسب، بل بكل الأعداء، وضرورة الاستعداد للقتال سلفاً، وضرورة قبول السلم والتوكل على الله فيه، والاعتماد على الله في ألاّ يكون سلمهم خداعاً، وضرورة الوحدة والتحريض على القتال، والاستعداد النفسي لقبول التضحيات، وفي مقابل التضحيات يحصل المسلمون على الغنائم الحلال.

أما الأسرى؛ فلو كانت نياتهم صافية فإن جزاءهم على الله تعالى، ويجب أن يحسن معاملتهم دون خوف من خيانتهم (الآيات: ٧٠-٧١).

وفي نهاية السورة (الآيات: ٧٢-٧٥) يلخص القرآن موضوع السورة ويأمر بالهجرة والجهاد بالمال والنفس، ويبين أن من يفعل ذلك يكون وليًّا لمن يأوي المهاجرين وينصر الرسالة، بينما الكفار هم فئة واحدة، والمؤمنون المجاهدون - مهاجرون وأنصار- هم صفوة المؤمنين وأولو الأرحام بعضهم أولياء بعض.

وهكذا تدور آيات سورة الأنفال في مسائل الجهاد والهجرة من أجل الله تعالى

وصايا في أملاك الأمة العامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ(١) قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ(٢) قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

هدى من الآيات:

من يملك حق التصرف في الأملاك العامة الإمام أم الدولة؟.

إنها لله ولرسوله ﷺ، وعلى أبناء الأمة التزام الوحدة والانضباط، لأن الإيمان هو الذي يوقر في القلب وينعكس على العمل، فالمؤمنون هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم واهتزت خوفاً وطمعاً ومحبة، وازداد إيمانهم كلما ذكرت لهم آيات الله الناطقة وغيرها، ولم يشعروا بضعة أمام شيء أو شخص لأنهم يتوكلون على الله ربهم ومدبر أمورهم، وينعكس هذا الإيمان القلبي الراسخ على سلوكهم، فإذا هم يقيمون الصلاة، وينفقون من كل ما رزقهم الله. أما جراء هؤلاء المؤمنين الصادقين فهو درجات عالية عند ربهم كل حسب أعماله، ومغفرة عما سبق من ذنوبهم، ورزق كريم في الحياة الدنيا والآخرة.

---

(١) الأنفال: جمع نفل والنفل من الزيادة.

(٢) وجلت: خافت وفزعت.

بينات من الآيات:

ماهي الانفال؟ ولمن؟

[١] بعد حرب بدر طرح هذا السؤال: لمن هي صفوة الغنائم والبقية الباقية من غنائم الحرب بعد تقسيمها على المجاهدين؟.

ويطرح هذا السؤال ابداً كلما بقيت ممتلكات مطلقة غير مختصة بهذا أو ذاك ولذلك جاء التعبير القرآني عاماً، وجاء الجواب شاملاً لكل الأملاك العامة، أو لكل شيء لا يمتلك من قبل شخص معين، ذلك لأن كلمة الأنفال تدل على كل زيادة، لذلك وسع الفقهاء مفهومها حتى أصبحت مقارنة لكلمة الملكيّة العامة في تعابيرنا الدراجة والذي يتصرف فيها هو الرسول الذي يمثل القيادة الشرعية ومن بعده خلفاؤه، أما موارد التصرف فلابد أن تتخذ حسب قيم التوحيد، وبالتالي في سبيل الله وهو كل عمل يحقق أهداف الرسالة ابتداء من الضمان الاجتماعي للفقراء والمساكين ومروراً بتكفل موظفي الدولة، وخدمة الأمة، وانتهاء بنشر الرسالة في الآفاق. لذلك ذكر القرآن أن الأنفال هي لله أولاً، ثم لرسوله ﷺ باعتبار أن رضوان الله هو هدف التصرف في هذه الاملاك، والرسول أو القيادة الرسالية هي القائمة عمليًا بتحقيق هذا الهدف ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فإذا كان المال هو سبب فساد العلاقات الاجتماعية فإن الإنضباط بما يقرر الإمام الشرعي هو أساس تنظيم العلاقات وفض النزاعات.

التقوى في القضايا المالية

وتقوى الله هنا تتحقق باداء الواجبات المالية، وعدم الاعتداء على أموال الدولة التي هي لله وللرسول، وايضا بالتزام الوحدة وعدم الخلاف في القضايا، حيث يطمع كل فريق أن يكون نصيبه الأكبر من أموال الدولة. لذلك أمر الله بإصلاح العلاقات الاجتماعية التي تربط الناس بعضهم ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وإصلاح ذات البين لا يتم إلاّ برصد ما يفسد في هذه العلاقات، والسعي وراء إصلاحها بصفة مستمرة ودون كلل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإذا كان المال هو سبب فساد العلاقات الاجتماعية فإن الانضباط بما يقرره الإمام الشرعي هو أساس تنظيم العلاقات وفض النزاعات.

الصفات النفسية للمؤمنين

[٢] هناك ثلاث صفات رئيسية للمؤمنين لو لم توجد في شخص فعليه أن يشك في إيمانه:

ألف: أن تبلغ معرفته بالله حدا يخافه، كلما ذكر عنده لأنه يعرف عظمته وقدرته واحاطته به علماً وسمعاً وبصراً، فلماذا لا يخاف منه وقد استخدم القرآن الحكيم هنا كلمة الوجل ونسبها إلى القلب فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

فماذا يعني الوجل؟.

ربما معناه التحرك حيث ان نسبة الخوف إلى القلب تعطي معنى يختلف عما إذا نسب إلى الفرد ذاته وهو المعنى الحقيقي لكلمة الوجل التي قد تكون الاهتزاز والتأثر والله العالم.

بـــاء: لأن قلوب المؤمنين تتأثر بذكر الله فإنها تستوعب الآيات، فإذا ذكروا بآيات الله يزدادون ايماناً، لأن استماعهم إلى الآيات يتم من دون حجاب الكفر والجحود، أو حجاب الفجور والفسوق.

بينما يزداد المنافق باستماع الآيات كفرا وجحودا لأنه يفسرها عكسيا، ويتحصن ضدها كلما تكررت عليه باعتباره معقد تجاهها، ومصمم سلفا على عدم قبولها.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ والآيات قد تكون الناطقة وهي القرآن، وقد تكون آيات الحياة، فكل تطور في الطبيعة يتم وفق نظام دقيق يدل على تدبير الله، وكل نعمة تتجدد أو نعمة تذهب أو كارثة تكاد تقع فيدفعها الله.

كل ذلك يزيد المؤمنين معرفة بالله وتسليماً لقضائه سبحانه وتعالى.

جيم: وكلما زاد إيمان الفرد زاد اطمئنانه برحمة الله، وبحسن تدبيره، وبالتالي ازداد ثقة بأن ربه سبحانه لا يقطع به الحبل في منتصف الطريق، وإنه لو التزم بالمنهج السليم الذي أمر به الله فإن سنن الحياة وقوانين الطبيعة والتأييد الغيبي سوف تساعده في شؤونه.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ إن الشخص الجاهلي والمتخلف يخشى الطبيعة فلا يسخرها لنفسه، ويخشى الناس فلا يستخدم عقله بل يتبع أهواءهم، ويخشى العطب فلا ينشط، بينما المؤمن العارف يخشى الله تعالى، ويتحدى الطبيعة، ويخاف الله فيتبع عقله وهداه، ولا يستسلم لأهواء الناس، ويعرف مواهب الله له، الآن ومستقبلاً، فلا يخشى العطب والتعب فيمتلىء

حيوية واندفاعاً، وهذا بعض معاني التوكل على الله التي تدل أيضاً على ثقة الشخص بما وهب الله له من قدرات وطاقات دون إنتظار أو نظر لما في أيدي الآخرين.

تلك كانت الصفات النفسية للمؤمنين والتي تنعكس على السلوك العيني في صورة الصلاة التي تعبر عن الوجل من الله.. رجاءً وخشية، وفي صورة الأنفال التي تعبر عن التوكل على الله دون خوف من انتهاء نعمه عليهم ونفاد مواهبه لهم.

[٣] ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ إن ذلك مقياس أكيد للإيمان الذي فيه فوائد كثيرة أهمها: تكامل شخصية الفرد حسب درجات إيمانه، وهذا التكامل ليس بمقياس الناس بل بقيم الله سبحانه، فلا يضر المؤمن المتكامل الشخصية ألا يعرف به الناس.

[٤] ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وبالإيمان يطهر القلب الفرد عن الأدران والأمراض، عن الكبر والعجب والغرور والانانية، عن الحسد والحقد والظن والبغضاء، عن الجهل والجهالة واتباع غير الحق.

وحين يطهر القلب، يزكى العمل، ويحصل الفرد على المكاسب التي تأتيه بكرامة وعزة وليست المكاسب التي يحصل عليها الفرد بإيمانه كالتي يحصل عليها المنافقون والكفار حيث تمحق كرامتهم البشرية.

التسليم والتوكل حقيقة الإيمان

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ[1] تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

هدى من الآيات:

حين يبلغ الإيمان مستوى النضج والكمال، يسلم صاحبه نفسه للحق، ويتوكل على الله، ويترفع عن الحياة درجات، ويضرب الله مثلا واقعيا على ذلك حيث هيء سبحانه الأمور لخروج نبيه ﷺ وأنصاره من المدينة في غزوة بدر بينما كان فريق من المؤمنين كارهين وهم يجادلون في جدوى الخروج حتى بعد أن تبين لهم صدق الرسالة وسلامة اوامر الرسول ﷺ، ووعدهم الله أن تكون لهم إحدى الطائفتين إما القافلة التجارية التي كانت لقريش وإما الجنود المسلحون.

ومن الطبيعي أن يكون المسلمون يفضلون القافلة التجارية، بينما الله كان قد قضى لهم بمواجهة الجيش المعادي لأن الله يريد تحقيق واقع الرسالة الجديدة وليس فقط حصول المسلمين على حطام الدنيا، كما يزيد ربنا إرغام المجرمين بإحقاق الحق وإبطال الباطل حتى لا يفكروا مستقبلاً بمقاومة الرسالة.. وهذا كله مثل إيمان وتوكل المؤمنين وعاقبته المتمثلة في الدرجات الرفيعة.

(١) ذات الشوكة: ذات السلاح والقوة وهي النفير.

بينات من الآيات:

واذ يعدكم الله احدى الطائفتين

[٥] في الحياة انظمة يوحي بها الله عبر الرسالة، وينفذ الله هذه الانظمة إما بيد الناس وإما بصورة غيبية، وهذه الانظمة حق يتبعها المسلمون ويثق بها المؤمنون، ويتوكلون على الله اطمئناناً بها، ويتجاوزون كل عقبة في طريقهم، والمثال الظاهر لذلك هي قصة حرب بدر، حيث أخبر المسلمون بتحرك عير قريش قريباً من المدينة، وبما أن المسلمين كانوا ينتظرون فرصة للثأر من اعدائهم الذين حاصروهم اقتصاديًّا ونهبوا ثرواتهم آنئذ بادر المسلمون للخروج، إما للقتال وإما للغنائم، وهكذا أخرج الله المسلمين من بيوت الأمن، ودفعهم إلى الحرب بينما كان فريق منهم كارهين ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ وكراهتهم إنما كانت بسبب عدم إيمانهم بالله وبالحق والمسقبل.

[٦] وهذا الفريق كانوا يجادلون في الحق، في الوقت الذي تبين لهم الحق في الرسالة الجديدة التي آمنوا بها وبصدقها وانها تتحدث عن الله.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ والحق واضح، وقد يكون شخص غير مقتنع به بسبب نقص فيه، وليس في دلائل الحق ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ وحيث أنهم لا يعرفون طبيعة الحق، وأن عاقبته خير ورفاه، لذلك لا ينشطون في طريقه بل يعتبرون كل تحرك نحوه كأنه تحرك نحو الموت الظاهر.

ذات الشوكة

[٧] وكان ينتظر المسلمون العير فجاءهم النفير، ولكن كانت في ذلك حكمة بالغة حيث أراد الله تحطيم شوكة الكفار وإشاعة الرعب في نفوسهم وتحول المسلمون إلى قوة عسكرية معترف بها في الجزيرة.

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ أي أنكم سوف تغلبون الاعداء بالتأكيد. فتحصلون إما على قافلتهم التجارية التي كانت تمر قريباً منكم، أو تهزمون جيشهم الذي يأتي لمحاربتكم، ومع وعد الله لهم بالنصر فإنهم كانوا يحلمون بالعير ويخافون النفير.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ وذلك خوفا من مواجهة العدو عسكريًّا والله عزوجل يريد غير ما يريده الناس.. الناس يريدون عاجل المكاسب والله يريد

تحقيق الأهداف البعيدة للأمة وذلك بدعم جانب الرسالة الحقة، واستئصال شأفة الكفار، حتى لا يبقى لهم كيان يعتمدون عليه.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ حيث أن أوامر الله بالخروج لا تهدف حصول المسلمين على بعض الغنائم، بل تهدف إقامة حكم الله في الأرض وتصفية الطواغيت ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

[٨] وهناك حكمة أخرى لربنا هي كسر شوكة المجرمين حتى لا يقدروا على مقاومة الرسالة ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

الامداد الغيبي متى وكيف؟

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ [١] (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا [٢] اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)﴾.

هدى من الآيات:

المؤمنون يتوكلون على ربهم فيجتازون المشاكل بتأييد غيبي، وتقدير رشيد من الله لهم، وإليك مثلا من معركة بدر كيف استغاث المسلمون بربهم بعد أن قرروا خوض المعركة صادقين، وعوضوا ضعفهم المادي بالتوجه إلى ربهم لينصرهم فاستجاب الله لهم، وأمدهم بألف ملك شكلوا خلفية الجيش الإسلامي ودعماً له، ولم يكن الهدف من ارسالهم سوى تقوية نفسيات المسلمين، وليكونوا مبعثاً لأطمئنان قلوبهم، بينما لم يكن النصر النهائي إلاّ من الله، وربما من غير طريق الملائكة لأن الله قوي قاهر وقادر على نصر من يشاء، ولكنه لا ينصر إلاّ

(١) بنان. البنان الأطراف من اليدين والرجلين والواحد بنانه ويقال للاصبع بنانه وأصله اللزوم.
(٢) شاقوا: الشقاق العصيان وأصله الانفصال.

من يستحق النصر.

وبالرغم من هول المواجهة فإن الإيمان الذي ازداد بالمواجهة والتوكل برد افئدة المسلمين، فاستولى عليهم النعاس، وجاء ماء السماء يلطف الهواء، ويطهر الأجواء والأبدان، ويبشر القلوب بالرحمة فيذهب عنها وساوس الشيطان، ويعقد المسلمون

العزم على الحرب، فثبتت أقدامهم في المواجهة، وإذا بالملائكة يثبتون بوحي من ربهم الذين آمنوا، وإذا بربنا الحكيم يبعث في قلوب الأعداء الخوف، ويتفوق المسلمون على أعدائهم نفسيًّا، فيضربون فوق الأعناق رؤوسهم ويضربون أيديهم، ولكن لماذا تحيز ربنا ضد الكفار؟، أو ليسوا عبيده؟ نعم ولكنهم شاقوا الله وعارضوا رسوله، والله شديد العقاب ليس في الدنيا فحسب بل في الآخرة يعذبهم عذاباً شديداً.

بينات من الآيات:

التوكل سر الانتصار

[٩] لو تذكر الإنسان حالاته السابقة، وكيف احتاج إلى رحمة ربه فدعاه بحقيقة الإيمان، فاسعفه وانقذه من المشاكل، ولو تبصر الإنسان أوضاع الاخرين، وكيف تدخلت قوة الغيب في تأييد طائفة ضد أخرى إذن لعرف أن التوكل على الله سر التغلب على الصعاب. ويذكر القرآن الأمة الإسلامية بماضيها، وأبرز المعارك الحاسمة فيه، والتي تتكرر مثيلاتها أبداً. مثلاً في معركة بدر حيث استغاث المسلمون فأمدهم ربهم بألف من الملائكة..

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ والإستغاثة -كأي دعاء آخر- تكشف عن إرادة النجاح التي لا تقهرها حتى المشاكل المادية الظاهرة، كما أنها تكشف عن إيمان قوي بوجود المواهب الكبيرة عند الفرد ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي يؤيدونكم من ورائكم.

[١٠] ولكن لا يعني نزول الملائكة أنهم سوف يحاربون بديلاً عنكم، كما لا يعني وجود دعم غيبي للمؤمنين إن هذا الدعم يغنيهم عن العمل الجاد كلا.. بل يعني العكس وهو ضرورة العمل الجدي حتى تحقيق الهدف بالإعتماد على الدعم السماوي ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أما النصر فهو من عند الله يقضيه لمن تتوفر فيه شرائط النصر وعوامله ومنها بالطبع إرادة النصر، والعمى من أجله، وتذويب الأنانيات من أجله. ذلك لأن ربنا إلى جانب قوته وقهره فهو حكيم لايهب النصر لمن لا يستحقه ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

[١١] والملائكة إحدى وسائل النصر وهناك وسائل أخرى يوفرها ربنا إذا شاء، مثلاً في حرب بدر كانت الأعصاب متوترة، والنفوس ملتهبة هلعاً والأجسام تثقل بالأوساخ، فبرد الإيمان والتوكل افئدة المسلمين، حتى مالت إلى الراحة والنعاس فاستراحت الأعصاب، واستعدت لمعركة حاسمة في اليوم التالي.. ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ حين يتوكل العبد على ربه يستريح في ظلال الثقة به وبتقديره فلا يحرق أعصابه بل يعيش في كنف أمان ربه.

والمؤمنون حقاً هم الذين يزدادون إيماناً في ساعة العسرة لأن تلك الساعات تكشف جوهر البشر وطبيعته الكامنة.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ ذلك لأن كثيراً من الجراثيم التي يتلوث بها الجو وتنتقل عبر الهواء والماء من شخص لآخر تموت بعد المطر، فيرتاح منها الجيش الذي تكثر فيه احتمالات الخطر.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ وحين يتلطف الجو بماء السماء يسعد الناس ببركات الله، فتطمئن قلوبهم ويذهب عنها الخوف والتردد، كما يذهب بالمطر النجاسة المادية التي تؤثر في النفس أيضاً وذلك عن طريق الوضوء والعمل.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ فحين يرى المسلمون السماء تمطر عليهم يعرفون أن هذا المطر من نعم الله، فآنئذ يزدادون إيماناً برحمة الله، وأن بيده بركات السماء والأرض وبذلك تطمئن نفوسهم، وينعكس ذلك على ممارساتهم الحياتية بالإستقامة والثبات.

تثبيت الله تعالى

[١٢] في ساعات الشدة تكاد إرادة المسلمين تنهار أمام ضغوط الحياة لولا الإيمان الذي يمده الله عن طريق الملائكة المتواجدين في الافئدة بالثبات والإستقامة.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ ﴾ ولأن الله مع الملائكة، ويؤيد الملائكة بقوته التي لا تقهر فإنهم أقوى من قوى الكفر المادية ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ وبما أن الرعب يسبب في تضخيم حجم الأشياء، وحسبما جاء في المثل المروي: للخوف عيون واسعة، فإن الكفار أخذوا يرون قوة المؤمنين أكبر من حجمها

أضعافاً، بينما كان الثبات الذي أعطاه الله بملائكته للمؤمنين سبباً في الإستهانة بقوة الكفار، والإندفاع نحو تحطيمها. كذلك تفوق المسلمون على أعدائهم في ساحة القلوب، وكان ذلك طريقاً لانتصارهم في ساحة الحرب ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ فجاءت الضربات مسددة في الأماكن الحساسة في الرؤوس والأيدي فلم تذهب سدى، بينما ذهبت ضربات العدو هباء في الأطراف، لأن قلوبهم كانت مشتته وغير ثابتة، وهكذا يؤثر الثبات النفسي في الانتصار.

[١٣] لماذا شتت الله قلوب الكفار، فألحق بهم الهزيمة؟، لأنهم تمردوا على الله، وانحرفوا عن خطه المستقيم في الحياة. ذلك الخط الذي سيفرض نفسه بالتالي على البشر طوعا أو كرها، وإنما يملك الناس فرصة محددة من الحرية وأجلا محدوداً ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ حتى المؤمنون الذين نصرهم الله اليوم لو انحرفوا عن طريق ربهم، فإن عقاب الله شديد عليهم أيضاً.

[١٤] ولا يكتفي الله عزوجل فقط بعذاب الدنيا بل في الآخرة أيضاً ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

الاستقامة على القتال بالتوكل

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا(١) فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

انتصار الله سبحانه للمؤمنين كما ذكر به الدرس السابق لا يعني أبداً تحللهم عن مسؤوليتهم القتالية الخطيرة التي يعددها الله في هذا الدرس وهي:

أولاً: الثبات في المواجهة وعدم الفرار تحت أي ضغط كان، اللهم إلاّ تراجعاً تكتيكيّاً للعودة إلى الحرب في وضع أفضل ومع جماعة أكبر، وفي غير هذه الصورة فإن غضب الله في الدنيا قد يتمثل في الهزيمة، وغضبه في الآخرة سيكون جزاءاً عادلاً.

ثانياً: الإتكال على الله والإعتقاد بأن النصر من عنده، وأنه حتى الرمي الذي يرميه الشخص إنما هو من عند الله، وأن المعركة ما هي إلاّ ابتلاء من الله للمؤمنين ليرفع درجتهم

(١) رحفاً: الزحف الدنو قليلًا قليلًا والتزاحف التداني.

وينمي مواهبهم. والله سميع عليم، يعلم من ينجح في الامتحان، ولمن يعطي الدرجات الرفيعة.

ثالثاً: أن الله يكشف خطط العدو، ويوهن كيدهم، ويبعث في استراتيجية العدو الثغرات. ولا تغني كثرة العدو عنهم شيئاً، وأن الله تعالى مع المؤمنين.

بينات من الآيات:

الثبات في المواجهة

[١٥] أيدي المؤمنين القوية هي الإداة الطيعة. هي إرادة السماء، فالله قد يجعل المؤمنين سيفه الصارم لذلك يأمرهم بالثبات عند مواجهة العدو، وعدم الفرار أبداً ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾.

[١٦] وهناك استثناء واحد لترك المعركة هو أن يكون للعودة إليها بقوة أكبر أما عن طريق اختيار موقع أفضل مثل ترك السهل إلى الجبل وترك الساحة إلى الخندق، أو عن طريق اختيار جماعة يتعاون معهم ضد العدو ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ ويبدو أن القرآن يذكرنا بأهمية أختيار الموقع المناسب والجماعة المناسبة لمتابعة القتال، وعدم الإعتماد على نصر الله فقط ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وغضب الله قد يتمثل في مضاعفة الخسائر، أو حتى الهزيمة غير المنتظرة. ذلك أن الإقدام يُعجل النصر ويقلل الخسائر ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الاتكال على الله تعالى

[١٧] الرمي من المؤمن ولكن الذي يسدد الرمية ويعطيها أثرها في القلوب هو الله، لذلك كان علينا القيام بعملنا وهو الرمي والقتال، وبذل كل جهد ممكن في ساحة الحرب دون أن نكتفي بذلك او نغتر به أو نعتمد عليه، بل نكتفي بالله ونتوكل عليه ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾.

ويبقى السؤال: إذا كان ربنا هو الذي يرمي فلماذا يتعب عباده ويأمرهم بالجهاد؟.

إنما ذلك لكي يفجر مواهب المؤمنين، ويستخرج كنوز شخصياتهم الكامنة. وينمي كفاءة كل واحد منهم لأن المواجهة تدفع الفرد نحو بذل قصارى جهده لتجنب الفشل والهزيمة. والطاقة التي يكتشفها المؤمنون في انفسهم في ساحات المعارك ينتفعون بها أيضاً في

سائر حقول الحياة ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع عن قرب ما يجري من الحوادث، ويعلم خلفياتها. لذلك حين يختبر المؤمنين بالحرب ثم يحكم عليهم لا يحكم غيابيًا أو عبثاً -سبحانه- بل بسمع وعلم، وبإحاطة واسعة ومباشرة للحوادث.

الوهن والانتصار

[١٨] كما يسدد ربنا رمية المؤمنين فأنه يوهن كيد الكافرين، وذلك بالقاء الرعب في نفوسهم حتى لا ينفذ كل واحد كل المهام الموكلة به، فتفشل الخطة الموضوعة عندهم لمحاربة المسلمين، وتنهار إرادتهم وتنهزم نفوسهم.

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي أن هذه الحقيقة التي يجب أن نؤمن بها ونعترف بها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ من هنا كان علينا ألا نخشى خطط العدو، ولا نستهين بقدراتنا، نثق بها وبأن الله يسددها، ولكن دون أن ندخر قدرة كامنة في أنفسها إلا ونفجرها ونوجهها للمعركة.

[١٩] ويخاطب ربنا الكفار ويذكرهم بالفتح الذي أعطاه للمؤمنين عليهم ويقول: هذا الفتح كان بسبب اختيار الكفار للحرب ومبادرتهم للقتال وكأنهم هم الذين طلبوه.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ وقيل إن بعض المشركين طلبوا من الله في يوم بدر أن ينصر من كان دينه أحب إليه سبحانه فاستجاب دعاءهم ونصر المسلمين.

﴿وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي أن تتركوا القتال لأن الحرب التي سوف تنتهي بهزيمتكم لا خير فيها ﴿وَإِن تَعُودُوا﴾ للحرب والقتال ﴿نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

الاستجابة لله حياة فاضلة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ[1] عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾.

هدى من الآيات:

استمرارا لحديث الآيات السابقة التي بينت ضرورة العمل والتوكل. يُبين لنا هذا الدرس أهم شروط الإنتصار وهو الطاعة الواعية للقيادة الرشيدة، فأمر القرآن بضرورة الطاعة لله وللرسول وعدم ترك الرسول بوعي وصدق وسبق تصميم، والوعي من عمل الإنسان فعلى المؤمنين أن ينتفعوا بعقولهم فيسمعوا حقيقة كلام الرسول، ولا يكونوا كالمنافقين الذين يسمعون في الظاهر فقط ذلك لأن شر الأحياء التي تمشي على الأرض هم البشر الذين لا ينتفعون بأدوات العلم التي وهبها الله لهم، ولأنهم لم يكن فيهم خير لذلك تركهم الله وفي هذه الحالة لو هداهم الله لم يستجيبوا لهداه.

والرسول يدعو الناس إلى الحياة وعليهم الإستجابة له ظاهراً وواقعاً لأن الله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، فيعلم ما ينويه حتى قبل أن يستقر رأيه عليه، ثم يحشر الناس جميعاً إليه فيجازيهم بما عملوا.

---

(١) الدواب: جمع دابة وهي ما دب على وجه الأرض إلا أنه تختص في العرف بالخيل.

بينات من الآيات:

طاعة القيادة

[٢٠] مخالفة القيادة الرسالية بوعي وإصرار من كبائر الذنوب، ومن أبرز عوامل الهزيمة، والطاعة الواعية للرسول هي قمة الإيمان والتسليم لله وللرسالة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أي في حالة سماع الآيات ومعرفة صدق الرسالة وبلاغ واجبات الدين للإنسان فإن مخالفة الرسول من أشد المحرمات، بل هو فسوق وكفر.

[٢١] ولكن هل يقدر أحد تبرير مخالفته للرسول بعدم السماع الواعي؟ كلا، لأن الله تعالى قد زود البشر بأدوات الوعي، فعليه أن يستفيد منها ويستخدمها في توعية ذاته وتثقيف نفسه ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أي لا تكونوا مثل المنافقين تكتفون بظاهر الإستماع دون التعمق في واقع الوعي.

شر الدواب عند الله

[٢٢] والسماع الحقيقي هو التفكر والإنتفاع بالعقل، وأن شر الدواب التي تتحرك على الأرض هم الذين زودهم الله بنور العقل فلم يستفيدوا منه، فأصبحوا أشر من الأنعام التي لا تملك عقلا ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إنهم يملكون السمع والألسنة ولكنهم لا ينتفعون بهما في الخير، فهم شر عملاً وأضل سبيلاً من الدابة التي لم ينعم عليها البارىء بالسمع واللسان.

[٢٣] حين تكون الفطرة البشرية سليمة تنفعها دعوة الحق، لأنها كماء المطر يهبط على أرض صالحة مباركة. أما إذا مسخت الفطرة، وحجبت الشهوات والأحقاد وهج البصيرة فإن الدعوة ليست لا تنفع فقط، بل تزيد الفرد كفرا وجحودا.

لذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ الخير هو ذلك الاستعداد الفطري الذي وهبه الله للبشر حين زوده بالسمع والبصر والفؤاد، وألهمه فجوره وتقواه ولكن لم يبق في هؤلاء الذين غدوا أضل من الدواب ذلك الخير بسوء اعمالهم. لذلك لا يسمعهم الله، ولا يوفر لهم فرص الهداية. إذ أنه لو أسمعهم الآن وفي وقت افتقادهم حالة الاستعداد للإستجابة إذن لتولوا عن الرسالة ظاهراً وباطناً ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

رسالة الله دعوة إلى الحياة

[٢٤] ما هي الحياة التي نعشقها ونسعى وراء استمرارها أو ليست هي القدرة والنشاط وتسخير الطبيعة فلماذا -إذن- نختار الموت في بعض الاحيان على الحياة.. نختار الضلالة على الهداية، والجهل على العلم، والتخلف والكسل على التقدم والعمل.. أو ليست الهداية والعلم يجعلانا نحيط بالأشياء ونسخرها.. أو ليس العمل والحركة أبرز مظاهر الحياة وفوائدها؟!.

إن رسالة الله هي دعوة صادقة إلى الحياة بما فيها من علم وعمل، من هدى وحركة، ومن تسخير الطبيعة لصالح البشر والقرآن يذكرنا بأن الإستجابة لهذه الرسالة تتناسب وفطرة البشر وأعمق مشاعر المحبة للحياة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ ليس المهم أن تعيش سبعين عاماً، بل أن تعيش حيا بالعلم والحرية والنشاط. إن المؤمن المتحرر من قيود الشهوات والثائر ضد أغلال المجتمع والذي يسخر الطبيعة لصالحه وصالح الناس بالعلم والقدرة إنه يعيش كل يوم عاماً، أما الكافر الذي يصبح جزءاً من الطبيعة ومن النظام الحاكم عليها، ويستسلم للآخرين فهو ميت، ولو نبض قلبه بالدم.

والله يدعونا إلى الحياة الحقيقية في الدنيا التي تستمر إلى الحيوان في الآخرة حيث تكون الحياة فيها للشهداء والصديقين.

وقلب البشر يبقى يعشق الحياة ويحب الإستجابة لدعوة الحياة برغم كل الحجب والعقد النفسية، ذلك لأن: ﴿ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، فلا يدع شعلة الهداية تنطفىء في قلب البشر حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً. كلا.. إنه يبقى يميز بين الحق والباطل وعلى أساس هذا التمييز يحاسبه الله غداً حين يحشر الناس إليه جميعاً: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾.

وجاء في الحديث المأثور عن الصادق عليه السلام: «**لا يَسْتَيْقِنُ الْقَلْبُ أَنَّ الْحَقَّ بَاطِلٌ أَبداً وَلَا يَسْتَيْقِنُ أَنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ أَبَداً**»[1].

---

(١) تفسير العياشي: ج٢ ص٥٣، بحار الأنوار: ج٦٧، ص٥٨.

طاعة الرسول حبل النجاة من الفتنة

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾.

هدى من الآيات:

طاعة الرسول ﷺ والتسليم القلبي لأوامره القيادية تعطي الأمة حياة جديدة.. أما التفرق عنه والاختلاف فإنه فتنة تعم نارها كل أبناء المجتمع وأن عقاب الله شديد. وعلينا أن نتذكر أبداً مدى أهمية القيادة الرسالية حتى لا يدب إلى قلوبنا الوهن في اتباعها.

إن كل مكاسب الأمة كانت بالقيادة فحين كنا قليلا مستضعفين نخشى الناس أن ياخذونا مثل أيام مكة، ألم تكن طاعتنا للرسول هي التي وفرت لنا الأمن والنصر والرفاه؟، أو ليس من الواجب الآن أن نشكر النعمة بالمزيد من الطاعة؟، والطريق الوحيد للخروج من الخلافات الداخلية هو تقوى الله، وإتباع مناهجه حيث يعطي الفرد هدى ونوراً وقدرة على معرفة الحق وأهله والباطل وأهله، كما يسبب غفران الله والمزيد من فضله.

إن تعاليم هذا الدرس تتصل بما سبق ويأتي الحديث في الدروس الأخرى حول تكريس واقع القيادة الرسالية في الأمة.

بينات من الآيات:

مسؤولية الأمة عند الخلافات

[٢٥] الخلافات الاجتماعية هي من الذنوب التي يلقي كل فريق مسؤوليتها على الآخرين، لأن كل جانب يرى أن عمله إنما هو رد فعل للآخرين، لذلك يكون على الجميع تجنب هذه الذنوب دون إنتظار ترك الجانب الآخر لها. ذلك لأن بليتها إذا جاءت عمت.. وعموماً المعاصي لا يمكن حصر آثارها السلبية في أولئك الذين يرتكبونها، وهي كالنار إذا اشتعلت في الهشيم تنتشر إلى كل مكان ولذلك يقول تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ أي لا تصيب الذين هم في الجهة المباشرة للظلم، بل تعم الجميع هم والساكتين عن الظلم، وكذلك الذين قابلوا الظلم برد فعل غير مناسب، فمثلاً إذا تجاوز فريق من المجتمع على فريق آخر فإن واجب الفريق المظلوم هو إنتظار أمر القيادة دون المبادرة بالإعتداء عليهم قصاصا لأن ذلك يضعف القيادة وينشر الفوضى، ويعم أثرها السلبي بالنتيجة كلا الفريقين، وربما تدل الفتنة على الخلافات الاجتماعية اكثر من الامتحانات الفردية لذلك جاء في الحديث المروي عن الزبير بن العوام: «لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها نخالفها حتى أصابتنا خاصة»[1].

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وإنه يعاقب بشدة اولئك الذين ينفذون الفتنة، أو الذين لا يقفون ضد انتشارها في الحياة الدنيا بالتخلف والهزيمة والفوضى والإقتتال وفي الآخرة يجزى الساكت الذي لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر والذي تمرد على القيادة الرشيدة.

العبرة بالماضي ضمان للمستقبل

[٢٦] من المهم جداً أن يتذكر الإنسان بعد الإنتصار أيام ضعفه لكي لا ينسى عوامل النصر، فيتعهدها ويحافظ عليها ليبقى النصر ومكاسبه، ولينتقل من نصرٍ إلى نصر، ولا يقف في مسيرة الزمان الصاعدة.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ إنهم كانوا قليلا من الناحية الكمية. مستضعفين من الناحية الاجتماعية وليست هناك قوة تحميهم من الناحية الامنية حتى إنهم كانوا يخشون من أخذهم بسرعة، ولكن الله بدل كل هذه النواحي

(١) تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي: ج٤ ص٥٣٤، بحار الأنوار: ج٥ ص٢٨١.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ ومنح لكم محلا آمنا.. وهو أبرز شروط الرفاه ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ فبدل الضعف قوة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فبدل الفقر والإستضعاف إلى غنى ورفاه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ربكم على هذه النعم، ومعنى الشكر هو المحافظة على تلك العوامل التي غيرت واقعكم الفاسد ومن أبرزها الوحدة وتجنب الفتنة عن طريق طاعة القيادة الرسالية التي تدعوكم أبداً إلى ما فيه حياتكم، كما ذكرت في الآية السابقة.

التجسس لصالح العدو خيانة

[٢٧] إن التهاون في طاعة الرسول ﷺ يعتبر خيانة بعهدهم مع الرسول وبأمانة البيعة التي في اعناقهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ومن أبرز مظاهر الخيانة التجسس لصالح العدو، ونقل المعلومات الهامة إلى مناهضي الرسالة كما فعل أبو لبابة في عصر الرسول ﷺ: «حيث بعثه الرسول ﷺ إلى يهود بني قريضة وقد كانوا خانوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، فأمرهم الرسول ﷺ بالنزول على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة. وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا له: يا أبا لبابة أتنزل على حكم سعد بن معاذ؟». فأشار أبو لبابة إلى حلقه (إنه الذبح فلا تفعلوا)، فأتاه جبرئيل -يعني رسول الله ﷺ- فأخبره بذلك. قال أبو لبابة: فو الله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت إني خنت الله ورسوله. فنزلت الآية فيه. فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي. وهكذا بقي على ذلك سبعة أيام حتى تاب الله عليه فحلله رسول الله ﷺ»[1].

[٢٨] إن أبرز أسباب الخيانة بالدولة الإسلامية وبالقيادة الرشيدة هو: حب المال والولد كما حدث لأبي لبابة في القصة الأنفة الذكر، ولذلك يحذر ربنا من عاملي الفساد عند البشر (المال والبنون) ويقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ والفتنة هي كل ظاهرة يمتحن بها البشر، ولكن إذا تجاوز الفرد عقبة الفتنة، فإن الله يعوضه عما خسره في لحظات الفتنة ويزيده عليه كثيراً.

(١) ، بحار الأنوار: ج٢٢، ص٣٦.

التقوى بصيرة ونجاة من ضلال الكفر

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ (١) أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾.

هدى من الآيات:

بعد الحديث عن ضرورة الإستجابة للرسول والإعتصام بحبله من أجل الوحدة وتجنب الفتنة، بين لنا القرآن أن التقوى تعطي البصيرة الاجتماعية التي يفرق بها المؤمن بين الحق والباطل، والصالح عن الطالح. كما يكفر الله بالتقوى السيئات، ويزيل رواسبها، ويزيد من نعمه على المتقين.

ومثل ظاهر لمنافع التقوى، إن الذين كفروا مكروا بالرسول ليخرجوه أو ليقتلوه ولكن الله دفع مكرهم وكان من مكرهم الاشاعات الباطلة التي أذاعوها بين الناس لكي يمنعوا الناس عن الإستجابة للرسول، أو التحريض الكاذب لكلام الرسول، واستعجالهم العذاب لو

(١) ليثبتوك. الإثبات الحبس يقال رماه فأثبته أي حبسه مكانه وأثبته في الحرب إذا جرحه جراحة مثقلة.

كان الرسول محقا، بينما العذاب يأتي حين يتوغل البشر في الكفر، ولا يشعر بالندم والتوبة، ولا يستغفر ربه منها، ولكن العذاب بالتالي سيصيبهم بسبب صدهم عن المسجد الحرام، واعتبار أنفسهم أصحابه بينما أصحابه هم المتقون فقط.

بينات من الآيات:

آثار التقوى

[٢٩] بين العقل والهوى يعيش قلب البشر، بين الظلمات والجهل والفوضى، وبين النور والهدى والالتزام، وبقدر ما يحجب الهوى العقل فإن مقاومة الهوى تزيد القلب نوراً وهدى. إنك حين تتحكم في علاقاتك وعواطفك وحساسياتك فهل تستطيع أن تميز الفرد الصالح عن الطالح؟! وإذا كانت الشهوات والحالات النفسية المتناقضة كالنشاط والكسل والأمل واليأس تحكم فيك أيضاً، فهل تتمكن من معرفة العمل الصالح؟.

بلى، حين تتعهد بتطبيق برامج الله، ومقاومة ضغوط العواطف والشهوات والحالات النفسية فان عقلك يكمل، وتصبح قادرا على تمييز الحق عن الباطل، ويحصل لديك فرقان وميزان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ التقوى هي الإلتزام برسالة الله، وتحسس المسؤولية تجاهها وهي تعطينا الفرقان الذي يميز لنا الصواب عن الخطأ، والصالح عن المفسد، والهدى عن الشبهات، والجادة عن المزالق.

كما وأن للتقوى أثراً رجعيًا فيما مضى من عمل البشر حيث يكفر الله السيئات، ويسترها حتى لا تظهر آثارها السلبية، بل ويغفر الذنوب ويمحي آثارها عن النفس، ذلك لأن للذنب أثراً سلبيًا على الحياة، وأثراً سلبيًا على نفسية مرتكبه في شكل عادة سيئة وموقف خاطيء.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وبفضله العظيم يسبغ النعم الكبيرة والآلاء العظيمة على المتقين في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

السبيل إلى تأييد الله

[٣٠] إن تقوى الله، والاستجابة للرسول، وتجنب الفتن الاجتماعية كل ذلك شروط تمهيدية للنصر على الأعداء، وإن ربنا يتفضل على المؤمنين بالتأييد بعد أن يوجدوا في واقعهم

هذه الشروط. ودليل تأييد الله نصره المؤمنين في بدر الذي سبق الحديث عنه، وهذا دليل آخر يبينه الله حين خطط الكفار لإلقاء القبض على الرسول ﷺ أو إعدامه أو لا أقل نفيه، ولكن مكر الله وخططه الحكيمة سبقتهم وأفشل خططهم الماكرة، حيث أمر الله رسوله بالهجرة إلى المدينة. فلما جاء الكفار وجدوا عليًا عليه السلام قد افتداه بنفسه وبات مكان قائده الرسول ﷺ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ إذا نفذ المؤمنون خطط ربهم الرشيدة فهم الأعلون لأن أهم بنود الخطة الرشيدة في الصراعات الاجتماعية هو النشاط والتعاون والاستعداد للتضحية، والذوبان في بوتقة الخطة بعيداً عن الذاتيات والمحاور الخلافية. وكل هذه البنود توفرها التربية الإيمانية، كما أن الإيمان يعطيك الفرقان والرؤية الصافية إلى الأحداث، ويزكي قلبك عن الأهواء والشهوات وردود الفعل التي تغشي رؤية المرء وتدفعه إلى إتخاذ مواقف خاطئة وهكذا، وبفضل الله يصبح مكر المؤمنين أنفذ من مكر أعدائهم.

[٣١] وكان من مكر الكفار الفاشل وخطتهم الغبية، إنهم بثوا اشاعات ساذجة فقالوا: إن آيات القرآن ليست بتلك الدرجة من البلاغة والعلم، فلقد سمعناها ووعيناها ولو شئنا لقلنا مثلها. ولكننا أناس تقدميون، وهذه أفكار رجعية يتشبث بها الأولون المعتقدون بالخرافات ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

[٣٢] وكان من خطط حربهم الاعلامية تظاهرهم بالتحدي والمباهلة فقالوا: يا رب لو كان كلام الرسول حقا فعجل بالعذاب علينا كان تمطر السماء حجارة ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

موعد العذاب

[٣٣] ولكن هل الله يبعث العذاب حسب طلب الناس، أم وفق الحكمة البالغة التي عنده؟ إنه لا يعذب قوماً حتى يستنفذوا كل فرص الهداية عندهم، وحتى لا يبقى فيهم أثر من الإيمان. ودليل ذلك إنه ما دام الفرد يشعر بالندامة بعد الذنب ويستغفر الله، فانه لا يعذب حتى ولو طلبه من ربه. وعدم نزول العذاب عليه ليس دليلاً على صحة كل أعماله أو مجمل طريقته كلا بل هو دليل على وجود جوانب إيمانية في واقعه، هي التي تمنع العذاب عنه ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ تدعوهم إلى الهدى وربما يستمعون اليك، ووجود نبي الرحمة وسيد الخلق كما وجود الصالحين في الأمة سوف يمنع عنها العذاب لحين خروج أولئك

عنهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وفي آيات قرآنية أخرى دلالة على أن عذاب الله إنما يهبط من السماء بعد فراغ قلوب المجتمع تماماً عن الإيمان، وبعد خروج أو إنعدام الصالحين فيه تماماً.

لقد كان هذا جانباً من مكر الكفار الذي إنتهى إلى إنتشار الرسالة أكثر فأكثر والحمد لله رب العالمين.

انفاق الكفارمآله الحسرة والهزيمة

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث القرآني حول مكر الكفار وإشاعاتهم الباطلة التي بينها الدرس السابق. يذكرنا الله ببعض أعمال الكفار التي تكشف من جهة عن زيف ادعاءاتهم، وتبين من جهة ثانية فلسفة النضال ضدهم. إن عذاب الله قد يأتي بطريق غيبي كصاعقة عاد وثمود أو على أيدي المؤمنين. والقرآن يبين أن الله سوف يعذب الكفار لأنهم يمنعون الناس عن المسجد الحرام دون أن يكون لهم الحق لأن المسجد الحرام إنما هو مقام عباده، ويجب أن يكون المشرف عليه أكثر الناس عبادة وعبدوية وتقوى لله، وليس هؤلاء الجهلة الذين اتخذوا صلاتهم عند البيت هزوا. فبدل الصلاة والضراعة اخذوا يصفرون ويصفقون كفرا بالله وبرسالاته، أما أموالهم فإنهم ينفقونها ليس في سبيل الإصلاح ونصرة المظلومين وإغاثة المحرومين، بل للصد عن سبيل الله، وسوف يكون هذا الإنفاق حسرة عليهم حين يحشرون إلى جهنم، وفلسفة هذا الصراع القائم

بين الناس والذي يجسده إنفاق المشركين أموالهم للصد عن سبيل الله إنها امتحان الناس، وتمييز صفوف الطيبين عن الخبثاء. ليجعل الله جزاء الخبثاء جهنم وساءت مستقرا.

بينات من الآيات:

سنة العذاب

[٣٤] ربنا الحكيم لا يعذب أحداً حين يشتهي العذاب أو يتحدى قدرة الله أو رسالته، بل عندما يستوجب العقاب بعمل قبيح مثل صد الناس عن المسجد الحرام. وما هو المسجد الحرام؟ إنه بقعة خصها الله لنفسه لتكون دار سلام وأمن وحرية، يقيم الناس فيها شعائرهم الدينية، ويعبرون عن مشاعرهم الحقيقية ولكن حين يأتي فريق من المتجبرين ويفرضون قيادتهم على المسجد الحرام ويمنعون المؤمنين عن إقامة الشعائر فيه فسوف يستحقون العذاب لأنهم ليسوا بقيادة المسجد وولاته.. إن أولياء المسجد هم أولياء الله. لأن المساجد لله ولا يجوز أن يرفع عليها إلا راية الله، والحق والذين بيدهم راية الحق هم المتقون، وحين تطهر مساجد الله عن الدعوة لغير الله ،وعن الأصنام الحجرية، وعن تبليغ رسالة الشيطان، والدعاية لسلطان متجبرا أو حزب ملحد، أو سلطة قاهرة، فإن الناس سيجدون مصابيح يهتدون بها، ومحاور قوة يلتفون حولها، وبالتالي مراكز قدرة يلتجئون إليها في مقاومة شياطن الجن والانس ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا يعرفون فلسفة المساجد ودورها الحاسم في هداية الجماهير وتأييدهم ضد الظالمين.

[٣٥] أما هؤلاء الذين اتخذوا من المساجد مراكز لهو واستهزاء بالقيم فكانت صلاتهم عند البيت الحرام (وهو أقدس مكان على وجه الأرض) التصفير والتصفيق ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ أي صفيراً وتصفيقاً، وعذاب الله الذي أنزل عليهم بيد المؤمنين كان بهذا السبب.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وجاء في الحديث عن ابن عباس: «كَانَتْ قُرَيْشٌ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ عُرَاةً يُصَفِّرُونَ وَيُصَفِّقُونَ»[١]، وروي أن النبي ﷺ كان إذا صلى في المسجد الحرام: «فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ عَبْدِ الدَّارِ عَنْ يَمِينِهِ يَصْفِرَانِ وَرَجُلَانِ عَنْ يَسَارِهِ يُصَفِّقَانِ بِأَيْدِيهِمَا فَيُخَلِّطَانِ عَلَيْهِ صَلَاتَهُ فَقَتَلَهُمُ اللهُ جَمِيعاً بِبَدْرٍ..»[٢]. ولهم يقول ولبقية بني عبد الدار

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص٩٧.
(٢) المصدر السابق: ص٩٧.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾.

وكلمة أخيرة: إن هذه الآية والتي قبلها تدلان بوضوح إن على السلطات التي تصد عن المساجد، وتعتدي على حرية الناس فيها، وتتجاوز على حرماتها، وتريد تحويل المساجد إلى مراكز للفساد والمنكر يقام فيها الشعائر دون لبابها إنها سلطات جائرة يجب مقاومتها حتى يعذبها الله بأيدي المؤمنين.

[٣٦] كان ذلك صورة عن الممارسة السياسية لهذه الفئة. أما الممارسة الاقتصادية فإنها خاطئة أيضاً، إذ أنها تخدم أهداف الطغاة وتصد عن سبيل الله، وعن إقامة العدل واشاعة الرفاه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ينفقونها من أجل طبع الكتب الضالة، وتمويل الصحف المسبحة للطاغوت، وإشباع أدعياء العلم والدين من خدم السلطات المتجبرة، أو ينفقونها لتمويل الحروب ضد المؤمنين أو قمعهم.

بيد أن هذا الإنفاق سيكون حسرة عليهم إذ لا ينفعهم شيئا، بل يضرهم كثيرا وسينتهون الى جهنم جميعا ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

[٣٧] ولكن كيف يسبب انفاق هؤلاء للصد عن سبيل الله غلبة المؤمنين عليهم؟.

يجيب القرآن على هذا السؤال:

أولاً: لأن هذا المال يفصل الطيب عن الخبيث في واقع المجتمع، فالطيب لا تخدعه الثروة فيزداد طيبا. بينما الخبيث الذي كان يتظاهر بالإيمان يظهر أمره ويكتشف عند المجتمع.

ثانياً: إن العناصر الخبيثة يجد بعضها بعضاً فيتكتلون، فحين تثور الجماهير ضدهم لا ينقذون أنفسهم منهم جميعاً ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

كيف نواجه الكفار

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لقد أبلغنا الدّرس السابق عن ممارسات الكفار السياسية الاقتصادية الخاطئة، والتي تدل على كذب أقوالهم التبريرية التي تشبثوا بها لكفرهم، ثم يأتي هذا الدرس ليبين لنا الموقف منهم المتمثل في تهديدهم: بأن سنة الله مضت في الأولين، على أن الكفر لا يدوم، وعليهم المبادرة إلى التوبة، ووضع حد لممارساتهم الخاطئة حتى يغفر الله ماقد سلف منهم، وبعد هذا التهديد يأتي التهديد بالقتال تجنبا للفتنة والفساد في الأرض ولأقامة حكم الله فقط، فإذا استسلموا بالقتال فسوف يعلم الله هل هم يحسنون صنعا ام ينافقون، أما إذا استمروا فإن المسلمين يستمرون بدورهم في الحرب إعتماداً على مولاهم الله نعم المولى ونعم النصير.

بينات من الآيات:

سنة الانتصار

[٣٨] ليس من العقل أن يختم على القديم بطابع الرجعية والأسطورة والخرافة، كما قال الجاهليون آنفاً، ففي القديم دروس وعبر وقوانين اجتماعية، علينا الإنتفاع بها لحاضرنا ومنها سنة الله في الإنتصار للحق وسحق الكفر والضلال، وعلى الكفار أن يراجعوا التاريخ

ليفهموا هذه السنة ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾، وسنة الله لا تتحول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

الحكمة من القتال

[٣٩] والحرب الإسلامية لا تهدف تسلط فريق مكان فريق آخر، بل إقامة حكم الله ومنع الفتنة.. فما هي الفتنة؟ هل هي الشرك بالله، أم هي الفساد في الأرض وظلم الناس بعضهم لبعض؟ أم هي تسلط فريق من الناس باسم أو بآخر على رقاب الناس، واستعبادهم واستثمارهم وفرض ثقافة معينة عليهم؟.

يبدو أن الفتنة في لغة القرآن هي التسلط اللامشروع، كما أن الدين هو السلطة الشرعية المستمدة من الإيمان بالله وبالحق، وبحرية الإنسان، وأبرز معاني الشرك هذا التسلط اللامشروع أو الخضوع لمثل هذا التسلط فالقتال مشروع من أجل المحافظة على الدين، وعلى حرمة قبول الحق، وعلى عدم إكراه الناس على الكفر ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ يعلم هل هم صادقون أم منافقون، ولا يجوز الإستمرار في قتالهم بحجة أنهم لا يزالون كفاراً في الواقع برغم إيمانهم أو استسلامهم الظاهر.

[٤٠] أما إذا تولوا، واستمروا في القتال وإشاعة الفساد، فعليكم بالإستمرار أيضاً من دون حزن أو وهن. لأنكم بالتالي منتصرون عليهم، ولأن الله مولاكم وقائدكم، وأوامره ومناهجه وتعاليمه خير لكم، كما أنه ينصركم بقوته التي لا تقهر ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

الخمس وقضاء المواجهة

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)﴾.

هدى من الآيات:

الإعداد للحرب أهم من القتال في الساحة، والمال يقوم بدور فعّال في الإعداد، وتعرض أحد الدروس السابقة إلى دور المال السلبي حين ينفقه الذين كفروا للصد عن سبيل الله، أما في هذا الدرس فيفرض علينا القرآن قدراً مقدوراً من المال من أجل القضية وذلك هو خمس ما يغنمه ويستفيده المرء، ولأهمية الانفاق وللصعوبات التي أنزلت يوم التقى الجمعان، حين نصر الله المؤمنين بفضل تلك الرسالة، بالرغم من بعض المفارقات مثل: إنكم كنتم في أسفل الوادي وهم في أعلاه.. وأنكم مختلفون في مواعيدكم، ولكن الله عزوجل قدر أن يتم حجته على خلقه،

يبعث برسالاته اليهم بينه وحجة، ولولا تقدير الله ذلك الذي أراد أن يحطم السد الذي صنعه الكفار أمام إنتشار الرسالة، إذن لما وقعت الحرب إذ أن ربنا قلل كل فريق في عين الفريق الثاني حتى استهان كل بصاحبه فتحاربا فانتصرت الرسالة.

بينات من الآيات:

الكيان المالي للإسلام

[٤١] من دون وجود كيان مالي للمجتمع الإسلامي يفقد المجتمع توازنه وقدرته على الإستقامة والتصدي للأعداء، والخمس واحد من المصادر المالية، وحين نقول المجتمع المسلم نقصد بذلك الكيان الذي يقوم في حالة غياب الدولة، أو ذلك الكيان الذي يفرض نفسه على الدولة فيحدد شكلها ومسيرتها.

وهكذا فالمجتمع المسلم يمتلك كيانا مستقلا قائما بذاته أقوى من الدولة، حتى وإن كانت إسلامية، هذا الكيان المستقل يعتمد على الشعائر الدينية كالجماعة والجمعة والحج في تقوية صلات أفرادها مع بعضهم، ويعتمد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة وإرشاد الجاهل في تحصنه أمام التيارات الدخيلة، ويعتمد فريضة العلم وضرورة نشره، وانفصال علماء الدين عن تبعية السلطات في الحقل الثقافي، ويعتمد على الخمس والزكاة والصدقات في الجانب الاقتصادي.

وبالرغم من أن الخمس يدفع للإمام الذي ينوب الرسول ﷺ في قيادة الأمة، ولكن لا يعني ذلك أبداً إنه يدفع للدولة إلا إذا كان رئيس الدولة هو الإمام ذاته أو نائبه، هنالك يدفع إليه بدافع الإيمان به، وإنه يمثل الكيان الاجتماعي لا بصفته رئيس الدولة. وإنما يدفع الخمس من يشعر بإيمان واقعي بضرورته ووجوبه.

موارد الخمس

في أي شيء يفرض الخمس؟.

ظاهر الآية أن الخمس مفروض على الغنائم، وبالرغم من أن الكلمة تطلق اليوم على غنائم دار الحرب بيد أن المعنى اللغوي لكلمة الغنيمة لا يختص ما يحصل عليه المحاربون في ساحة القتال، وفي عصر نزول القرآن لم تكن هذه الكلمة قد أصبحت خاصة بهذا المعنى بالذات لذلك قال الراغب: «الغَنَمْ معروف. قال تعالى-: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا

عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ والغُنْمُ: إصابته والظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى وغيرهم ، قال -تعالى-: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ﴾، وقال: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ والمغنم ما يغنم وجمعه مغانم ، قال : ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾»[1].

من هنا وجب الخمس على كل ما يكتسبه ويغنمه الفرد، وهو ضرورة دفاعية، وبهذه المناسبة ذكر القرآن هذه الفريضة ضمن آيات القتال، كما ذكر ربنا الإنفاق في سبيل الله والجهاد بالمال ضمن الحديث عن الحرب والجهاد بالنفس ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

وجوه صرف الخمس

حينما ينسب شيء إلى الله فإن معناه تحرره عن امتلاك الناس، أما امتلاك الرسول وذوي قرباه فلا يعني امتلاكهم للمال بصفتهم أشخاصاً، بل لأنهم يمثلون قيادة المجتمع، أما اليتيم فهو الذي مات أبوه ولم يبلغ الحلم، والمسكين المحتاج الذي أسكنه الفقر عن ضرورات حياته، أما إبن السبيل فهو عابر السبيل الذي انقطعت به الطريق فلابد من توفير ما يبلغه محله. وجاء في الحديث المأثور عن العبد الصالح عليه السلام أنه قال: «**الْخُمُسُ مِنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْغَوْصِ وَمِنَ الْكُنُوزِ وَمِنَ الْمَعَادِنِ وَالْمَلَّاحَةِ يُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الصُّنُوفِ الْخُمُسُ. فَيُجْعَلُ لِمَنْ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ وَيُقْسَمُ الْأَرْبَعَةُ الْأَخْمَاسِ بَيْنَ مَنْ قَاتَلَ عَلَيْهِ وَوَلِيَ ذَلِكَ وَيُقْسَمُ بَيْنَهُمُ الْخُمُسُ عَلَى سِتَّةِ أَسْهُمٍ سَهْمٌ للهِ وَسَهْمٌ لِرَسُولِ اللهِ وَسَهْمٌ لِذِي الْقُرْبَى وَسَهْمٌ لِلْيَتَامَى وَسَهْمٌ لِلْمَسَاكِينِ وَسَهْمٌ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ فَسَهْمُ اللهِ وَسَهْمُ رَسُولِ اللهِ لِأُولِي الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِرَاثَةً فَلَهُ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ سَهْمَانِ وِرَاثَةً وَسَهْمٌ مَقْسُومٌ لَهُ مِنَ اللهِ وَلَهُ نِصْفُ الْخُمُسِ كَمَلًا وَنِصْفُ الْخُمُسِ الْبَاقِي بَيْنَ أَهْلِ بَيْتِهِ فَسَهْمٌ لِيَتَامَاهُمْ وَسَهْمٌ لِمَسَاكِينِهِمْ وَسَهْمٌ لِأَبْنَاءِ سَبِيلِهِمْ يُقْسَمُ بَيْنَهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا يَسْتَغْنُونَ بِهِ فِي سَنَتِهِمْ فَإِنْ فَضَلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ فَهُوَ لِلْوَالِي وَإِنْ عَجَزَ أَوْ نَقَصَ عَنِ اسْتِغْنَائِهِمْ كَانَ عَلَى الْوَالِي أَنْ يُنْفِقَ مِنْ عِنْدِهِ بِقَدْرِ مَا يَسْتَغْنُونَ بِهِ وَإِنَّمَا صَارَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُونَهُمْ لِأَنَّ لَهُ مَا فَضَلَ عَنْهُمْ وَإِنَّمَا جَعَلَ اللهُ هَذَا الْخُمُسَ خَاصَّةً لَهُمْ دُونَ مَسَاكِينِ النَّاسِ وَأَبْنَاءِ سَبِيلِهِمْ عِوَضاً لَهُمْ مِنْ صَدَقَاتِ النَّاسِ تَنْزِيهاً مِنَ اللهِ لَهُمْ لِقَرَابَتِهِمْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَكَرَامَةً مِنَ اللهِ لَهُمْ عَنْ أَوْسَاخِ النَّاسِ فَجَعَلَ لَهُمْ خَاصَّةً مِنْ عِنْدِهِ مَا يُغْنِيهِمْ بِهِ عَنْ أَنْ يُصَيِّرَهُمْ فِي مَوْضِعِ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَلَا بَأْسَ بِصَدَقَاتِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ**»[2].

---

(١) مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٣٦٦

(٢) الكافي: ج١ ص٥٣٩.

جاء في (الدر المنثور) عن ابن المنذر عن عبد الرحمن بن أبي ليل، قال: سألت عليًا عليه السلام فقلت: «يا أمير المؤمنين أخبرني كيف كان صنع أبو بكر وعمر في الخمس نصيبكم؟». فقال: **أَمَّا أَبو بَكْرٍ فَلَمْ يَكُنْ فِي وِلَايَتِهِ أَخْمَاسٌ وَمَا كَانَ فَقَدْ أَوْفَاهُ، وَأَمَّا عُمَرُ فَلَمْ يَزَلْ يَدْفَعُهُ إِلَيَّ فِي كُلِّ خُمْسٍ حَتَّى كَانَ خُمْسُ السوسِ وَجُنْدِ نِيسَابُورَ، فَقَالَ وَأَنَا عِنْدَهُ: هَذَا نَصِيبُكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنَ الخُمْسِ. وَقَدْ أَحلَّ بِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ وَأَشْتَدَّتْ حَاجَتُهُمْ، فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَوَثَبَ العَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَلِبِ فقال لا تعرض فِي الَّذِي لَنَا، فَقُلْتُ: أَلَسْنَا أَحَقُّ مَنْ أَرْفَقَ الْمُسْلِمِينَ، وَشَفعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَبَضَهُ، فَوَاللهِ مَا قَضَاهُ، وَلَا قَدِرْتُ عَلَيْهِ فِي وِلَايَةِ عُثْمَانَ»**[1].

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي ادفعوا الخمس ان كنتم آمنتم بالله وبرسالاته التي أنزلت على عبده ورسوله محمد ﷺ يوم تميز الطيب عن الخبيث بالحرب. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع الإيمان وجمع الكفر، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر لنصرة المؤمنين برسالته على أعدائهم. وحين تنتصر الرسالة فذلك يكون دليلا واضحا على صدق براهجها وصوابها، وكل فكرة يجب أن تقاس بالعقل وبالمكاسب الواقعية التي تحققها.

القضاء والقدر

[٤٢] بالرغم من أن المؤمنين كانوا في مواقع أسوأ من موقع أعدائهم إذ كانوا أسفل الوادي بينما أعداؤهم في اعلاه ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ العدوة شفير الوادي، وللوادي شفيران أدنى وأقصى، بينما العير الذي كان يحمل تجارة قريش كان أسفل من الجمعين، حيث كان على بعد ثلاثة أيام من أرض المعركة أي على شاطيء البحر الاحمر.

لقد كانت الحرب مفاجئة بالنسبة إلى المسلمين في بدر، حيث كان الهدف الاصلي للحملة فك الحصار الذي فرضه الكفار على المسلمين، ولو أن المسلمين كانوا يعلمون أنه بدل القافلة المحملة بأنواع السلع الضرورية لمجتمع محاصر سوف يلقون ألف محارب مجهز وهم زهاء ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً لم يكتمل تجهيزهم للمعركة، لو كانوا يعلمون ذلك إذن تخلفوا عن المعركة. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ ولكن الله هو الذي قدر الحرب لحكمة بالغة. ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ بين القضاء والقدر فرق هو ان القدر: هو ما يسنه الله للكون من أنظمة، بينما القضاء هو تنفيذ تلك السنن أو تدخل مباشر للغيب

---

(١) الدر المنثور: ج٣ ص١٨٦.

لتغيير مجرى الأقدار. وكانت هزيمة الكفار من قضاء الله في تلك الفترة، بينما قدر الله كان يقضي بهذه الهزيمة بالتالي ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ بعد الانتصار الساحق للأمة على أعدائها في حرب بدر، تحقق انتشار الرسالة بسببين:

الأول: إن الرسالة قد حققت صدق نبوءتها.

الثاني: إن عقبة الخوف والدعايات الباطلة والتسلط الجاهلي قد ارتفعت عن طريق الرسالة، فالآن بإمكان الجميع أن يستجيب للرسالة من دون عقبة، فإذا آمن فإنما آمن بعقله، وإذا كفر فسوف يلقى حقه بعد وضوح الحجة عليه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

تدبير الله

[٤٣] وكان من تدبير ربنا الحكيم إنه أرى رسوله ﷺ العدو قليلاً تشجيعاً على محاربته، بينما قلل المسلمين في أعين العدو حتى استهانوا بقوة الإيمان وسلامة البرامج العسكرية وحكمة القيادة الرشيدة التي يملكونها ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي إذا ذهب ما عندكم من عزيمة وهمة عندئذ يشتد الخلاف بينكم شأنه شأن كل مجتمع يفقد اندفاعه نحو هدف مشترك ومقدس ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ وأعطى للمؤمنين السلامة والأمن ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنه محيط بما لا يزال في قلوب المؤمنين من عوامل الخوف والهلع.

[٤٤] وحتى في بداية المعركة أرى الله المسلمين جمع الكفار قليلاً بالرغم من كثرتهم الظاهرية، فاستعد المسلمون للنزال بقلوب شجاعة، أما العدو فقد أراه الله عزوجل المسلمين قلة، ولم يستعد للمواجهة الحاسمة أو لم يستعد خوفاً بل استهانوا بهم، كل ذلك لكي تتم المعركة بهزيمة العدو. فانتشار الرسالة ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ بالرغم من أنهم زهاء ألف ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فهو الذي يقضي فيها بحكمة الرشيد بالرغم من السنن والأقدار الظاهرة إلا أن هناك عوامل خفية بعضها نفسية وبعضها طبيعية تلعب دوراً حاسماً في اللحظات الهامة. لأن نهايات الأمور بيد الله ومصير الأمور ومرجعها هي الإرادة الأسمى لربنا الحكيم.

بين شروط الانتصار وعوامل الهزيمة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (١) وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا (٢) وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ (٣) ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ (٤) عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾.

هدى من الآيات:

الله ينصر المؤمنين ولكن الله حكيم لا ينصر إلا من وفر في نفسه عوامل الإنتصار الظاهرية والخفية.. وفي هذا الدرس يوصينا الله ببعض تلك العوامل.

أولاً: الثبات وعقد العزم على الإستقامة.

---

(١) تذهب ريحكم: تتلاشى قوتكم ودولتكم.

(٢) بطراً: البطر الخروج من موجب النعمة من شكرها وأصل البطر الشق.

(٣) تراءت: التقت

(٤) نكص على عقبيه: ولى مدبراً.

ثانياً: ذكر الله كثيراً.
ثالثاً: الطاعة التامة لله وللقيادة الرسالية.
رابعاً: تجنب الخلافات الجانبية، لأنها تسبب فشل القلب وتوانيه وذهاب الهمة والتطلع عنه.
خامساً: الصبر وتحمل الصعاب لأن الله مع الصابرين.

أما عوامل الهزيمة التي يذكرنا الله بها فهي:

١ - الخروج إلى المعركة بطرا مغرورين بالنعم، غير مفكرين بعواقب الأمور، وكذلك الخروج رياء.
٢ - أن يكون هدف المعركة خبيثاً مثل الصد عن سبيل الله، والتسلط على رقاب الناس، غفلة عن أن الله محيط بهم.
٣- الخداع الذاتي، والزعم بأن كل عمل يصدر منهم فهو صحيح.
٤ - الغرور بالقوة التي لديهم.
٥ - الإعتماد على الشيطان وأهوائه.

وهكذا أعتمد الكفار على خداع الشيطان فانهزموا، إذ أن الشيطان خدعهم وتركهم في ساحة الحرب يواجهون السيوف والحراب وحدهم وتبرأ منهم وقال: إني أخاف الله رب العالمين.

وفرق بين الغرور وبين التوكل على الله. والمنافقون لا يعرفون هذا الفرق فيزعمون أن الاعتماد على الدين الصحيح وعلى الله، كالاعتماد على الخرافات وأقوال الشيطان. كلا.. إن الله عزيز حكيم، بعزته يكسر شوكة الكفار، وبحكمته ينصر المؤمنين عليهم.

بينات من الآيات:

شروط الانتصار

[٤٥] أول شروط الإنتصار، هو عقد العزم على الإستقامة والثبات مهما كلف الامر.. كما قال الإمام علي عليه السلام لإبنه محمد بن الحنفيه لما أعطاه الراية يوم الجمل: «**تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلْ عَضَّ عَلَى نَاجِذِكَ أَعِرِ اللهَ جُمْجُمَتَكَ تِدْ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ وَارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ وَغُضَّ بَصَرَكَ وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ**»[١].

ولكن العزم على الثبات بحاجة إلى تنمية الإرادة وشحذ العزم وذلك عن طريق تحقيق

(١) نهج البلاغة: خطبة١١.

الشرط الثاني للإنتصار.. وهو ذكر الله ذكراً كثيراً، لأن ذكر الله يوجه المرء إلى أوامره الرشيده، وإلى وعده ووعيده بالثواب أو بالعقاب، وإلى آلائه التي تشكر، ورضوانه الذي يرجى وحبه الذي يتطلع المؤمن إلى الشهادة من أجله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الفلاح يأتي بالنتيجة بعد شرطي الثبات عند اللقاء، وذكر الله كثيراً.

[٤٦] أما ثالث شروط النصر. فهو الطاعة لله بتنفيذ برامجه والطاعة للرسول وللقيادة الرسالية التي تحكم بأسم الله من اجل تنفيذ أوامره اليومية.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ومن أبرز فوائد الطاعة الوحدة، ونبذ الخلافات، ورد كل الخلافات إلى حكم الله ورسوله ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ ولكن لماذا يجب تجنب النزاع؟.

أولاً: لأنه يضعف الإرادة ويبعث الوهن في النفس.

ثانياً: لأنه يذهب بالكرامة والعزة والتطلع، وبالتالي يدمر كل فريق شخصية الفريق الثاني، ومن تحطمت شخصيته وهانت نفسه عليه فإنه لا يحارب عدوه، ولا يرى نفسه كفوءا للصراع مع منافسيه.

﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ من هنا نعرف أن القيادة التي يعيش المجتمع تحت ضلالها الصراعات ليست بقيادة حقيقية كما عرفنا أن من عوامل النصر غير المنظورة هي اعطاء الثقة والكرامة للمحاربين، وعدم الإستهانة بهم أبداً.

أما الشرط الآخر للنصر بعد الطاعة فهو الصبر، وتحمل الصعاب بانتظار المستقبل المشرق ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يؤيد ويسدد خطاهم. وحيث يكون الصبر تكون الإستراتيجية الطويلة الأمد، والإستمرار في تنفيذ الخطة، وتحمل الجراح والجد والنشاط في العمل، أملاً في المستقبل، وربما هذه المنافع وغيرها بعض ما يعنيه أن يكون الله مع الصابرين.

[٤٧] حين يكون هدف القتال مقدسا، تخدم الطبيعة والصدفة المحاربين ويسدد الله خطاهم أما إذا فسدت نية المحارب فقاتل من أجل الفخر والرغبة في ذكر اسمه في الأندية، أو حارب لأجل اعتقاده بإنه أسمى من غيره لما رزقه الله من نعم الحياة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ حين يشعر الفرد بالإستغناء واكتمال حياته المادية، يأخذه الغرور فيخرج من بيته لاستغلال الآخرين والتسلط عليهم وإثبات قوته وسطوته.

وجاء في التفاسير عن ابن عباس: لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش أن

ارجعوا فقال أبو جهل: «والله لا نرجع حتى نرد بدرا (و كانت بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام) فنقيم بها ثلاثا وتفرق علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا وناحت عليهم النوائح»[1].

إن هذه الواقعة التاريخية واحدة من مصاديق الحرب التي تشعلها نزوة شخص واحد يريد أن يصبح من ورائها بطلا معروفا.

وهناك حرب قذرة أخرى تشعلها مجموعة منظمة تهدف إيقاف توسع الرسالة كما الحروب المنظمة التي قادتها الجاهلية ضد رسالة الإسلام، وكما الحروب المنظمة التي تقودها القوى الجاهلية الحديثة ضد الإسلام والمسلمين ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾.

دوافع القتال عند الكفار

[٤٨] ثلاثة عوامل نفسية تدفع الكفار إلى خوض غمار الحرب الطاحنة لهم:

الأول: بسبب سلبيات أعمالهم. فمع كل عمل سيء تنمو صفة شاذة في النفس، فالظلم البسيط يبسط ضباباً قاتماً على القلب وكلما يكبر الظلم يتكثف الضباب فيصبح سحاباً، فسحاباً داكناً فمتراكماً فحجاباً من الظلمات، يرين على القلب، وهكذا تتكرس عادة الظلم عند مرتكبه حتى يرى الظلم أصلاً ثابتاً من الحياة بينما العدالة شذوذاً وجريمة، ذلك لأن تراكم سلبيات العمل السيء على قلبه جعلت الأعمال حسنة في عينه ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

الثاني: الغرور، والإعتقاد بأن قوتهم أكبر من القوى الأخرى، وربما تنشأ هذه الحالة النفسية من الاعتقاد المضخم بالذات.. لذلك حكي ربنا سبحانه عنهم وقال: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

الثالث: يخيل إلى قلب الكفار أن هناك بعض الناس يؤيدونهم وذلك بسبب بعض المواعيد الفارغة لذلك قال الشيطان: ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾

ساعة المواجهة!

أما هذه الدوافع النفسية ما هي إلا سراب سرعان ما تتكشف حقيقته ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ

(١) بحار الأنوار: ج١٩ ص٢٣٦.

شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ في ساعة المواجهة الحقيقية يعرف الكفار أن أعمالهم خبيثة وباطلة، وأن كيدهم ضعيف، وأن أنصارهم المزعومين قد تبخروا وتلاشوا.

الشيطان تولى يوم المواجهة، وتبرأ حتى من أقواله ومزاعمه السابقة، وخشي من الله، وخاف العاقبة السوء التي تنتظر فريقه. وإذا حدث هذا في بدر بصورة مجسدة كما جاء في حديث مأثور، فإن ذلك إنما هو مثل ظاهر لواقع الكفار مع من يخدعهم من شياطين الجن والانس، والنكوس على العقب هو العودة قهقري.

وقد يكون الشيطان الغاوي أولئك الضعفاء المنهزمون نفسيا، الذين يتزلفون إلى قادة العدو للحصول على المكاسب، وعادة ما يكون هؤلاء أشد تطرفاً من غيرهم في طرح الشعارات والتهديدات، ولكنهم أول المنهزمين الذين يبررون هزيمتهم بمعرفتهم بأمور لا يراها الآخرون.

[٤٩] في الجانب الإسلامي توجد أيضاً عناصر ضعيفة مثل المنافقين الذين يرون مبادرة المؤمنين بالقتال نوعاً من الغرور الذي يدفعهم إليه دينهم الجديد، وإيمانهم بفكرة الرسالة ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ والمرض قد يكون النفاق وقد يكون الخوف والرهبة من العدو.

ونسي هؤلاء أن الكفار يفقدون قدرة التوكل على الله ومدى ما في التوكل من بعث الروح الرسالية المندفعة ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

الكفار يصنعون جزاءهم بأيديهم

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن أوضحت آيات الدرس السابق عوامل النصر والهزيمة، تشجعنا آيات هذا الدرس على الحرب ضد الكفار.. دون لين أو هوادة، لأنهم منبوذون عند الله بكفرهم، وتعاملهم ملائكة العذاب بقوة، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم بشماتة ذوقوا عذاب الحريق.. فهل غضب الله عليهم عبثاً؟ أم بسبب استحقاقهم للعذاب لما قدمت أيديهم وصنعته أفعالهم لأن الله ليس بظلام للعبيد سبحانه؟ مثلاً قوم فرعون والذين كفروا بآيات الله إنما أخذهم الله بذنوبهم لكفرهم، لأنه لا يمر الكفر بدون عقاب لأن الله قوي شديد العقاب. وعموماً إرادة البشر تصنع حياته ومستقبله ولا يغير الله نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من طيب في القلب وصلاح في العمل، فتفسد نياتهم وتسوء أفعالهم. هذا قوم فرعون

إنما أخذهم الله بذنوبهم واغرقهم حين كذبوا بآيات الله وكانوا ظالمين. إن الله لا يحب الكفار، ويعتبر هم شر الأحياء التي تدب وتتحرك فوق الأرض، فالكفار هم الذين ينقضون عهدهم، ولا يتقون ربهم لذلك يمقتهم الله ويأمر بقتالهم كما يأتي في الدرس القادم.

بينات من الآيات:

القيم فوق كل شيء

[٥٠] المهم عند الله القيم التي يستهدفها المرء بعمله، فهي دون لون البشر وأسلوب التحدث والطول والعرض. والغنى والفقر، فهي المقياس لذلك فإن الله لا يعبأ بالبشر الذين كفروا بآياته، وإنها ظاهرة غريبة! إن الله الذي أسبغ نعمه ظاهرة وباطنة على الإنسان ولكنه يعامل الكفار بهذه الطريقة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ وخلفهم وهم يقولون ازدراء بهم ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾.

[٥١] فلماذا يأخذ الله الكفار بهذه الشدة؟ يجيب ربنا ويقول: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ اليد أبرز عضو في جسد البشر. وحين يقول ربنا: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يتبين أن إرادة البشر وأقرب أعضائه إليه يده التي صنعت هذا الواقع مقدما، ولو لم يكن ذلك لكان ينسب إلى ربنا أنه ﴿ظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أي كثير الظلم. فم بينها الصفة المعروفة لنا عن ربنا إنه رحيم ودود بسبب مزيد نعمه التي لا تحصى. إذا فعمل الإنسان وليس شيء آخر هو سبب العذاب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فهم عبيده فلماذا يظلمهم؟ هل يتلذذ بظلمهم (حاشاه) وهو الغني الحميد، أم يخشى منهم سبحانه وهو القوي العزيز.

[٥٢] وكمثل ظاهر من واقع التاريخ هذا، قوم فرعون هل ظلمهم الله أم أخذهم الواقع الفاسد الذي صنعته ايديهم؟.

إن ذنوبهم التي أحاطت بهم فأخذهم الله بها أي جعلها تلتف حول أعناقهم ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي كالعادة التي جرت في آل فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فلا يتهاون في معاقبة من يستحق العقاب ضعفاً ماديًّا أو معنويًّا سبحانه.

[٥٣] ذلك فيما يتصل بسنة الله في الآخرة، أما سنته الأظهر لنا فيما نراها من تطور المجتمعات فما دام الناس مستقيمين على القيم السماوية والعمل الصالح، فإن نعم الله تشملهم

وبركاته تترى عليهم، وإذا غيروا قيمهم وسلوكهم غير الله عادة الإحسان إلى النكبة والدمار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ حتى يغيروا تلك العوامل التي أنعم الله الحكيم بسببها تلك النعمة عليهم، لقد أنعم الله على مجتمع ما بنعمة الحرية بسبب توحيدهم ورفضهم للاستسلام أمام ضغوط الجبت والطاغوت، وأنعم عليهم الصحة بسبب استقامتهم على الفطرة الاولية التي خلقهم بها، وأنعم عليهم بنعمة الراحة النفسية بسبب مكارم الاخلاق وسلامة السلوك والتربية.

﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي يبدلوا صفات الخير المتعلقة بأنفسهم إلى صفات السوء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ما في ظاهر المجتمعات، ويعلم ما في صدورهم.

[٥٤] مثلاً: سنة الله في آل فرعون كيف أن ربنا أنعم عليهم بالأمن والرفاه وجنات تجري من تحتها الأنهار، حتى طغوا وبدلوا صفة وعلاقة التعاون بينهم إلى علاقة الإستغلال، وصفة النشاط في عمل الصالح إلى صفة التواني أو المبادرة في عمل الفساد وهكذا فبدل الله نعمه وأرسل عليهم الطوفان فدمر مدنيتهم، وأرسل عليهم القمل والدم والضفادع، بدل الثمرات والأرزاق وأرسل عليهم رياح الثورة فاقتلعت جذورهم ورماهم ربهم في البحر.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي بحجج الله وبيناته ورسالاته البليغة التي وضحت لهم برنامج الحياة السعيدة ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ومن دون الظلم الذاتي وقيامهم بما يستوجب العقاب إذا لم يكن ربنا الودود يأخذهم بهذه العقوبة الشديدة، يبدو من كلمة ﴿وَكُلٌّ﴾ أن جميع المغرقين كانوا ظالمين لانفسهم.

[٥٥] ويستخلص السياق القرآني الفكرة الاصيلة لهذا الدرس وهي: ان مقياس الصلاح والفساد عند الله في البشر هو الإيمان والكفر، وليس أي شيء آخر، وأنه أسوأ الناس بل شر الأحياء الكفار ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فالكافر الذي تاب إلى ربه وآمن ليس شر ما يدب ويتحرك على الأرض، بل الذي بقي مستمراً على كفره وضلاله برغم وجود نور في قلبه يهديه إلى الحق.

[٥٦] ولكن يبقى سؤال: لماذا يهبط الكافر إلى هذا الحضيض الأسفل عند الله تعالى؟.

الجواب:

أولاً: لأن الكافر لا عهد له، فهو لا يحترم نفسه ولا الآخرين، ويلغي بذلك دوره في

الحياة ويصبح كأنه لا وجود له ولا حضور في المجتمع، فتراه يعاهدك ثم ينقض عهده معك، ثم يعود يعاهدك فيخالف عهده مرة أخرى.

ثانياً: أنه لا يلتزم ببرنامج الرسالة، بل لا يتعهد بمسؤولية ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

الإستراتيجية العسكرية..
الردع، السلام الكريم، الإعداد

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ(١) فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم(٢) مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً(٣) فَانبِذْ(٤) إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ(٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ(٦) فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾.

---

(١) تثقفنهم: الثقف الظفر والإدراك بسرعة.

(٢) فشرد بهم: التشريد التفريق على اضطراب.

(٣) خيانة: الخيانة نقض العهد فيما أوتمن عليه.

(٤) فانبذ: النبذ القاء الخبر إلى من لا يعلمه.

(٥) سواء: السواء العدل.

(٦) يخدعوك: الخدع والخديعة اظهار المحبوب في الأمر مع المكروه.

هدى من الآيات:

بعد أن بين الدرس السابق طبيعة الكفار وضرورة قتالهم، أمر الله في هذا الدرس بالحرب الرادعة التي تلقي الرعب في افئدة الأعداء خلف المعركة عن طريق إنزال الضربات القوية بمن هم في الجبهة. وإذا خشي المسلمون خيانة من العدو فعليهم أن ينذروهم ويهددوهم بإلغاء المعاهدة.

وليعلم المسلمون أن الكفار ليسوا بسابقين، وأنهم لا يستطيعون تعجيز المسلمين ولكن على المسلمين أن يعدو كل قوة ممكنة لردعهم وردع القوى الحليفة لهم من المنافقين الذين لا يعلم بهم سوى الله عزوجل، وفي سبيل دعم القوى المسلحة لابد من بذل المال الذي لا يذهب هدراً ولا يؤخذ زيادة.

وإذا مال العدو إلى الصلح فعلى المسلمين ألا يخشوا من الصلح بل يتوكلوا على الله، ويقبلوا بالصلح، والله سميع عليم، ذلك لأن العدو لا يستطيع تحقيق أحلامه، وعلينا أن نعتمد على نصر الله الذي أيد رسوله والمؤمنين بنصره، ومن آيات نصره أنه سبحانه ألف بين قلوبهم وأن الله عزيز حكيم.

بينات من الآيات:

الإجراءات الهجومية في العسكرية الإسلامية

[٥٧] ما هو الهدف القريب للعسكرية الإسلامية؟.

الهدف هو الهجوم الصاعق والماحق على العدو بغية تحطيمه عسكريا والحاق الهزيمة بمعنويات حلفائه من أجل أن يتركوا طغيانهم ويعودوا إلى العقل.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ ﴾ أي إذا أدركتهم في ساحة الحرب ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي العدو الذي يدعمهم من خلف ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يعودوا إلى رشدهم.

الخيانة ونقض العهد

[٥٨] وحين تخاف من قوم خيانة بالعهود والمواثيق، فلابد أن تعلمهم بخيانتهم وتهددهم بالحرب، وأن الله لا يحب الخائنين.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ أي

عاملهم في قضية العهد كما هم يعاملونك دون أن تتجاوز ذلك ويدعوك نقضهم للعهد إلى الإعتداء عليهم لأن الله تعالى لا يحب الخائنين. وأما هم فإن خيانتهم سوف تسبب لهم ضرراً أو لأن الله لا يحب الخائنين.

[٥٩] والذين كفروا يزعمون أنهم أقوى وأحق بالحكم، لأنهم السابقون وأن بإمكانهم -بسبب هذا السبق والتقدم الزمني- أن يقضوا على قوة المسلمين ويعجزوهم ولكن كلا.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ إن السبق الزمني مع الكفر لا يعني شيئاً فالكفر يعمي البصر ويغلق القلب ويشوش الرؤية.

[٦٠] ولكن متى لا ينفع السبق؟.

حين يكون هناك سعي دائب من أجل الحصول على القوة الذاتية. وهذا السعي يعني عدة أمور:

الاول: الإستعداد للمستقبل، وألا يكون العمل في لحظة الحاجة فقط.

الثاني: أن يكون هذا الإستعداد بالنشاط المكثف الذي لا يدع إمكانية ولا مقدرة ولا جهداً ولا فرصة إلا وتستغل من أجل بناء القوة الذاتية.

الثالث: أن يكون الهدف هو التغلب على كل نقاط الضعف وكل الثغرات الأمنية والاجتماعية.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ وهكذا يأمرنا ربنا بتقوية أنفسنا بما نملك من استطاعة أي تحويل طاقاتنا الكامنة في أنفسنا إلى كيان واقعي.. يجب أن يتحول الفكر والعقل إلى علم وخبرة، والخبرة إلى عمارة حضارية وفنادق، وكذلك المقدرة الجسدية يجب أن تتحول إلى أسلحة وأدوات وصناعات مختلفة.

كما أن البرامج الفكرية إسلامية يجب أن تتحول إلى قوة اجتماعية متماسكة، أما المعادن والذخائر فيجب أن تتحول إلى قوة اقتصادية وثروة مالية.

ولكن القوة يجب ألا تكون فقط في تعبئة القوى البشرية والمادية في صناعة الأسلحة، بل يجب أن يبلغ حد الإستعداد لخوض القتال مباشرة لذلك أكد ربنا سبحانه على هده الجهة قائلاً: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ أما الهدف الأبعد للإستعداد فليس مجرد القدرة على الدفاع، بل القدرة على الهجوم فيما لو اختار العدو الإعتداء على المسلمين حتى يلقي في أفئدته الرعب.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ كما أن بناء القوة الذاتية الرادعة تمتن الجبهة الداخلية ولا تدع ضعاف النفوس يرتبطون بالأجنبي إبتغاء العزة والقوة.

﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وبناء القوة الذاتية بحاجة إلى العطاء، وهذا العطاء سوف لايذهب عبثا بل يعود إلى المجتمع وزيادة ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي يعود اليكم وافياً غير منقوص ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

[٦١] والإستعداد للقتال لا يعني انبعاث روح البطش والإعتداء في الأمة، بل من الضروري أن يكون انضباط الأمة بمستوى قوتها، وأن يهتموا بالسلم أكثر من اهتمامهم بالحرب ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ وقرار السلم يجب أن تتخذه القيادة، ويجب ألا يدفع الخوف من إعتداء العدو علينا، لا يدفعنا نحو المبادرة بالهجوم بل لمقاومة هذا الضعف النفسي وهذا الخوف يجب أن نتوكل على الله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أسباب الحروب

[٦٢] إن الدافع الأساس لكثير من الحروب الدامية، هو الخوف المتبادل من هجوم الطرف الآخر، وإذا كان عند أحد الطرفين اطمئنان كاف بالقدرة، فإنه لا يهاجم خوفاً من الطرف الآخر ولا يستجيب لاستفزازاته.. لذلك يؤكد ربنا سبحانه على ضرورة التوكل على الله تعالى والثقة بنصره، وعدم الإستجابة لهاجس الخوف من العدو للقيام بحرب وقائية ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[٦٣] وكان من أبرز آيات نصره لك هو توحيد جبهتك الداخلية، حيث أن الله هو الذي ألف بين قلوب المؤمنين ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وتأليف القلوب يبدو في الظاهر عملية بسيطة بينما هو مستحيل من دون تأييد الله ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ حين هداهم إلى توحيده وزكاهم عن الذاتيات، وبعث إليهم كتاباً ورسولاً يعتصمون بحبله عن طريق تطبيق برامج كتاب الوحدة وتنفيذ أوامر الرسول القائد ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

عناصر الريادة لقيادة الأمة:
الثقة، التحريض، اقتحام الصعاب

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ[1] اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا[2] وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) ﴾.

هدى من الآيات:

ولا يزال السياق يحرض على القتال، ويبين بعض الجوانب الأساسية من الحرب وأبرزها: الإعتماد على الجيش الإسلامي المسلح بالإيمان، ذلك لأنه مع عشرين مؤمناً صابراً ينتصر الجيش الإسلامي على مائتين، أي عشرة أضعافهم، ومع مائة ينتصرون على ألف جندي كافر، ذلك لأنهم لا يفقهون.

والرأي السديد يكسب الحرب قبل اليد الشجاعة، وإذا ضعف المسلمون -كما حدث بعدئذ فإن جيشهم يغلب ضعف عدوه فالمائة الصابرة تغلب مائتين والألف الصابرة تغلب

(١) خفف: التخفيف رفع المشقة بالخفة.

(٢) عرض الدنيا: متاع الدنيا.

ألفين لأهمية الصبر، وأن الله مع الصابرين.

ومرة أخرى يذكرنا القرآن بأمرين:

الأول: إن تأييد الله لا يعني أن يتوقف المسلمون عن التضحية، فمن دون وجود مقاومة مسلحة لا يكون للرسول أسرى.

الثاني: يجب ألا يكون هدف الحرب الحصول على مغانم مادية، ولولا أن تقدير الله كان انتصاركم على العدو بالرغم من وجود ثغرات في أنفسكم، مثل الرغبة في عرض الدنيا إذا مسكم عذاب عظيم بسبب اخذكم المغانم.

ثم جاء الأمر القرآني بحليّة المغانم، ولكنه أمر بالتقوى وعدم تجاوز الحد في أخذ أو صرف المغانم.

بينات من الآيات:

دور القائد في الحرب

[٦٤] أن يثق القائد بجيشه ولا يستضعفه: إنه شرط أساسي للنصر، لذلك أمر الله نبيه الإكتفاء بما يملكه من الجيش ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

[٦٥] ولكن على القائد أن يرفع أبدا معنويات جيشه، فإن النقص المادي في الجيش الرسالي سوف يعوض بالمعنويات المرتفعة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ أي إدفعهم نحو القتال.

مظاهر قوة المؤمنين

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ﴾ أي عشرة أضعاف العدو، والقرآن لم يقل إن يكن واحد يغلب عشرة، أو كل فرد يساوي عشرة أفراد، ربما لأن العشرين بما لديهم من انسجام وتعاون وتلاحم يقابل المائتين بما فيهم من اختلاف وتناقض ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يعرفون أهمية الإيمان والصبر، والتضحية ابتغاء الجنة ورضوان الله عز وجل وسائر القوى المعنوية.

إن المعرفة تشبه كياناً متكاملاً، فإذا انهار ركن أساسي منه فتحت ثغرات واسعة في كيان المعرفة.. والإيمان بالله وبالقيم ركن شديد في بناء العلم أو ليست القيم والمعنويات جزء هام من العالم، والذي

يكفر بها لا يعرف العلم على حقيقته. أرأيت الأطفال الذين لا يحسنون التلفظ ببعض الأحرف كالدال واللام والراء والسين إنهم يشتبهون في أكثر الكلمات، لأن كثيراً من الكلمات تحتوي على هذه الأحرف فالذي يكفر بالله لا يفقه حقيقة العلم لأن جزء من حقيقة العلم لا أقل هو العبودية والخضوع لله.

[٦٦] حين تكون الأمة في بداية انطلاقها يكون أبناؤها صفوة المجتمع الذين بادروا إلى الرسالة الجديدة بوعي كاف، وبإرادة حديدية تتحدى الضغوط المحتملة، بل الواقعية من قبل الأباء والأقارب والمجتمع والسلطة. لذلك فقدرتهم على الدفاع كبيرة، بالإضافة إلى أن التوجيه مركز بالنسبة إليهم والإرادة منضبطة. لذلك فإن العشرين منهم يعادلون مائتين، أما بعدئذ فالوضع مختلف إذ يكون الواحد يعادل إثنين فقط وذلك بسبب الضعف.

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ﴾ ولم يكلفكم بالهجوم ما دام عددكم أقل من نصف العدو.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ من الناحية المعنوية.

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فإن انتصاركم آنئذ ليس حتمياً، بل إنما هو بإذن الله، ومع تطبيق واجبات الشريعة ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

[٦٧] ولا يمكن أن ننتظر الغنائم والمكاسب من دون تقديم تضحيات، فلا نبي يحصل على أسرى حتى يُثخِن الأرض بالقتلى والمجروحين ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والثخن والغلظ والكثافة بمعنى واحد لأن المغانم والأسرى قبل الحرب هي تحول في الأهداف أو عبء في المعركة ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي أنكم تريدون المكاسب السريعة بينما الله يريد الآخرة. وربما كانت تطلعات بعض المسلمين نحو قافلة قريش ومغانمها.

[٦٨] ولولا كتاب ربنا سبق بنصر المؤمنين، إذا لكانوا يستوجبون عذاباً شديداً بسبب تهافتهم على المغانم، بينما المفروض عليهم وهم أمة رسالية أن يفكروا في تبليغ الرسالة وكسر شوكة الكفار المترصدين لهم لا في المكاسب المادية، وربما المراد من العذاب العظيم هو الهزيمة ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

[٦٩] ولكن حرمة التفكير في المكاسب المادية من وراء الحرب لا تتعارض مع عدالة التشريع الإسلامي فيما يخص غنائم الحرب إذ يجوز الأكل مما غنمه المسلمون -بعد الحرب والإثخان في بدر- حلالاً طيباً ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ﴾ والأكل غير الامتلاك ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فلا تتجاوزوا حدود العرف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

المسلمون أمة واحدة

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا[1] وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم[2] مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾.

هدى من الآيات:

بمناسبة الحديث عن الحرب، يوجه القرآن الكريم خطابه إلى الأسرى ويسليهم بشرط أن تكون نيتهم حسنة، ويحذرهم إذا كانوا خونة، ويأمر الرسول بالا يخشاهم.

(١) آووا: الإيواء ضم الإنسان غيره إليه بإنزاله عنده وتقريبه له.
(٢) ولايتهم: الولاية عقد النصرة للموافقة في الديانة.

ويعود القرآن إلى المقاتلين في سبيل الله ويقول: إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا هم والذين أووا هؤلاء ونصروهم يشكلون أمة واحدة بعضهم أولياء بعض، أما الذين لم يهاجروا ولم يلتحقوا بدار الإسلام فإنهم لا ولاية لهم.. اللهم إلا في حالة واحدة وهي حالة استنصاركم ففي تلك الحالة يجب عليكم نصرتهم إلا إذا كان حربهم مع جماعة تربطكم بهم معاهدة.

وكما أن المؤمنين أمة واحدة، فالكفار أيضاً أمة واحدة، بعضهم أولياء بعض، ومن دون القبول بهذه الفكرة فإن الأرض تعمها فتنة وفساد كبيرة.

المؤمنون حقاً هم الذين هاجروا والذين نصروا، أما الذين هاجروا من بعد قوة الإسلام فإنهم يحسبون أيضاً منكم، وكل هذه العلاقات والروابط الجهادية والرسالية لا تمنع من وجود علاقات أخرى هي علاقات الرحم التي يجب أن تلاحظ هي الأخرى لأن الله بكل شيء عليم.

بينات من الآيات:

كيف يوصي الإسلام بالأسرى؟

[٧٠] من أجل إعادة الشخصية المفقودة لدى الأسير الكافر عند المسلمين ويعطيه أملا في المستقبل، ولكي يصلح ضميره دون ظاهره يخاطب ربنا نبيه ﷺ قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ فقد أخذ منكم عرض الدنيا بينما يعطيكم الحياة الحقيقية في الآخرة ثم إن الإيمان الصادق والعمل الصالح في ظل الإسلام سوف يوفر لهم تقدماً مادية ومعنويًا كاملاً ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك فخير لكم إصلاح نفوسكم، وعدم الإكتفاء بالتظاهر بالإيمان.

[٧١] أما إذا لم تصلحوا أنفسكم وتنافقون، فإن الله عليم حكيم، أما الرسول فعليه ألا يضيق عليهم خشية الخيانة لأن الله أوسع علماً وحكمة منهم، وهو ينصرك عليهم وعلى خياناتهم ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فلا يجوز الهلع من الأسرى لأن الله الذي أمكن الرسول ﷺ منهم وأخضعهم للرسالة، إنه سبحانه قادر على أن يمكنك منهم في المستقبل أيضاً.

صفات المجتمع الواحد

[٧٢] المسلمون أمة واحدة لا فرق بين قريبهم وبعيدهم مواطنهم وغريبهم، فالمهاجرون

والأنصار أخوة متحابين.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وكان أبرز مصاديق هؤلاء أولئك المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، ويصدق أيضاً على سائر المجاهدين الرساليين الذين يهاجرون من بلادهم التي يسود عليها الطاغوت ليجاهدوا في سبيل الله وينقذوا عباد الله من شر الجور والظلم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ ﴾ مثل الأنصار من أهل المدينة وسائر المؤمنين الذين يستقبلون المجاهدين ويبذلون لهم كلما يملكون من مال وجاه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ تربطهم صلة الإيمان وتجمعهم كلمة التوحيد وتجعل منهم أمة واحدة من دون تأثير الفوارق أبداً، يتعاونون فيما بينهم على البر والتقوى، ويتكافلون في حل مشاكلهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ أي في تحقيق واجبات الدين وقيمة من إقامة الشعائر والتحرر والرفاه ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ لهم، لأن نصرة المؤمن المستضعف هي من أبرز واجبات الأمة أو الحركة الرسالية، وهنا يبرز سؤال عريض وملح: كيف إذا تعارضت مصلحة الدولة الرسالية الناشئة ومصلحة الجماعات المسلمة غير المهاجرة والمجاهدة؟ وتعرض كيان هذه الدولة إلى الخطر إذا هبت لمساعدة اولئك المسلمين مثلاً: مصلحة الجماعة الإسلامية في مرحلة صلح الحديبية ألا تثير عداوة قريش وتحتفظ بمعاهدة السلم التي بينهم وبينها، بينما مصلحة مسلمي مكة غير المهاجرين نقض هذه المعاهدة كيف الحكم في ذلك؟ يقول القرآن: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ ذلك لأن كرامة الدولة والجماعة الناشئة أعظم وأهم من سلامة المسلمين المتواجدين في البلاد الأخرى.

وقد يستنبط من هذه الآية: إن مصلحة الدولة الإسلامية أهم من مصلحة النهضة العالمية للمسلمين، إذ الميثاق الذي تبرمه الدولة الإسلامية يجسد مصالحها قبل كل شيء، وعقلانيًا من دون وجود ركيزة للنهضة للثورة العالمية وهي الدولة الإسلامية كيف يمكن الإمتداد هنا وهناك وصنع النهضة العالمية؟! ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فعليكم تقييم الأمور بدقة متناهية لموازنة الأمور بموضوعية ترتكز على القيم.

الكفر أمة واحدة

[٧٣] كما أن المؤمنين أمة واحدة بالرغم من اختلاف أقاليمهم ولغاتهم وطموحاتهم، كذلك الكفار يجب النظر اليهم كأمة واحدة، وعدم التلاحم والتعاون مع جهة منها ضد جهة

أخرى، لأن حبال الإرتباط بين هذه الجهة وتلك أمتن من الصلة بيننا وبين أحد الطرفين، وفي ساعة المواجهة يتفق الجميع ضدنا ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ وإذا اختلطت الأوراق وتعاون المسلمون مع طائفة من الكفار ضد طائفة أخرى باعتبارهم أهون عداء من الطائفة الأخرى، فإن ذلك يسبب فتنة وفساداً ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ الفتنة هنا -حسبما يبدو لي- النفاق والضلالة، وتشويش الرؤية وافتقاد البصيرة الرسالية، مثل تبدل الثقافة الأصيلة والنقية بثقافات متناقضة مختلطة ذات أصول أجنبية، تماماً مثل ثقافة بعض الأحزاب السياسية في بلادنا الذين يأخذون افكارا من الفلسفات غير الدينية، وأفكاراً من الدين والتقاليد ويمزجونها ببعضها ليصنعوا منها ثقافة غريبة غير متجانسة.

وبسبب الصلات الوثيقة التي تربط أبناء الأمة الإسلامية بهذا الجانب الكافر أو ذاك، تنتشر بينها مثل هذه الثقافة الباطلة، التي تبعد عن الله عزوجل وعن الحق، والتي يسميها القرآن بـ (الفتنة).

وهذه الفتنة تنعكس على الواقع الخارجي للأمة فتسبب الخلافات الحادة بين أبناء الأمة المحتفظين بخط الدين الأصيل وبين أولئك الذين تأثروا بالأفكار الأجنبية المستوردة، وفي بعض الأوقات بين المتأثرين بالأجنبي مع بعضهم البعض، وهذا أحد مظاهر الفساد الكبير، ومن مظاهره عدم القدرة على اتخاذ القرار.

[٧٤] ويجب أن يسعى المسلمون نحو إيجاد علاقة الإيمان الحقيقية ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

[٧٥] المؤمنون حقاً هم المهاجرون، أما الذين يهاجرون بعدئذ فهم يعتبرون من المؤمنين أيضاً بشرط الجهاد في سبيل الله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ﴾ ووجود علاقة الإيمان لا تلغي دور القرابة والعلاقات الطبيعية التي يهتم بها الإسلام ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

* مدنية.

* عدد آياتها: ١٢٩.

* ترتيبها النزولي: ١١٤.

* ترتيبها في المصحف: ٩.

* نزلت بعد سورة المائدة.

فضل السّورة

قال رسول الله محمد ﷺ: «مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْقُرْآنِ إِلَّا آيَةً وحَرْفاً حَرْفاً خَلَا سُورَةُ الْبَرَاءَة وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ فَإِنَّهُمَا نَزَلَتَا عَلَيَّ وَمَعَهُمَا سَبْعُونَ أَلْفِ صَفٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ كُلٌّ يَقُولُ: «يَا مُحَمَّدُ اسْتَوْصِ بِنِسْبَةِ الله خَيْراً».

(مجمع البيان: ج٥ ص٦)

لماذا تركت التسمية في أولها قراءة وكتابة؟

للعلماء والمفسرين في ذلك أقوال:

١- أنها ضُمت إلى الأنفال بالمقاربة فصارتا كسورة واحدة إذ الأولى في ذكر العهود والثانية في رفع العهود (عن أبي بن كعب).

٢- إنه لم ينزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس سورة البراءة لأن بسم الله للأمان والرحمة ونزلت براءة لرفع الأمان بالسيف.

٣- ما روي عن ابن عباس إنه قال: قلت لعثمان بن عفان: «ما حملكم على أن عمدتم إلى براءة وهي من المئين وإلى الأنفال وهي من المثاني فجعلتموهما في السبع الطوال ولم تكتبوا بينهما -بسم الله الرحمن الرحيم-، فقال: «كان النبي ﷺ تنزل عليه الآيات فيدعو بعض من يكتب له فيقول له: «**ضَعْ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرَ فِيهَا كَذَا وَكَذَا**»، وكانت الأنفال من أول ما نزل من القرآن بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننا أنها منها، وقُبِض رسول الله ﷺ ولم يُبين أنها منها فوضعناهما في السبع الطوال ولم نكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وكانتا تُدعيان القرينتين»[1].

(١) راجع مجمع البيان: ج٥ ص٦.

الإطار العام

الجهاد سبيل البراءة من المشركين

بالرغم من أن الطابع العام للسورة هو الإنذار الصاعق للمشركين، فإن وجود آيات التوبة خصوصاً في بداية السورة تفتح باباً عريضاً للرحمة في جو الغضب الرهيب. لذلك سميت بسورة التوبة، إشارة إلى أن المخرج من الوضع الحرج هو الذي يجب أن يركز الضوء عليه، وقد تسمى هذه السورة بالبراءة إشارة إلى الجو العام لها، والذي لا يختلف كثيراً عن إطار سورة الأنفال. حتى أن بعضهم رأى أن سورة التوبة امتداد لسورة الأنفال، ذلك أن السياق يتحدث عن ضرورة هدم كيان الشرك من الأساس، وبناء الكيان التوحيدي، واستخدام العنف كآخر وسيلة لحسم الموقف.

ولكي يتقبل المجتمع الجهاد بما فيه من عنف وتضحيات، فإنه بحاجة:

أولاً: إلى انفصال نفسي بينه وبين العدو.

ثانياً: إلى الإستعداد للتضحية، وجعل التضحية والشهادة في سبيل الهدف القيمة الأعلى.

ثالثاً: إلى تهيئة الوسائل المساعدة للجهاد (الآيات: ١-٥).

وبالرغم من إعلان الحرب ضد الشرك، فإن ذلك لا يعني السماح بالغدر بالمشركين، بل إذا استجار بالرسول أحد منهم، فإن الإسلام يعطيه الأمان، لفترة البحث عن صحة الإسلام، ثم إذا لم يقتنع يُعاد إلى مأمنه سالماً، وذلك لأن الإسلام يفي بالعهد مع المشركين ماداموا ملتزمين به (الآيات: ٦-٧).

أما الموقف الإسلامي منهم إذا نقضوا العهد وخانوا أيمانهم، فهو القتال الموجه ضد قيادتهم غير الملتزمة بأواصر الإنسانية. فالله يعذب الكفار، ولكن بأيدي المسلمين وحين يكافح المؤمنون أعداءهم، فإن الله ينصرهم ويخزي الكافرين (الآيات: ٨-١٦).

ثم يُبين الله أن الجهاد مدرسة لتربية الإنسان المسلم، وأن المظاهر الدينية التي يتوسل بها الكفار مثل عمارة المسجد غير مقبولة عند الله عزوجل، على اعتبار أن العمل الصالح جوهر لا مظهر، ولأن الهوية الإسلامية لا تتحقق إلا بإخلاص الولاء لله وللقيادة الرسالية والمجتمع المسلم (الآيات: ١٧-٢٢).

ولكي تستعد الأمة للجهاد، لابد أن يخلص انتماء أبنائها إليها، باعتبارها تجمعاً مبدئيًّا، وألاّ يتخذوا أقاربهم أولياء إن فضلوا الكفرعلى الإيمان، ذلك لأن أي خلل في الإنتماء يبعث خللاً في الإيمان، وكمثل على هذا الخلل وأثره السلبي على الصراع ما جرى في حنين إذ اعتمد الجيش على الكثرة لا على الإيمان، فانهزم الجيش وضاقت عليهم الأرض..(الآيات: ٢٣-٢٧).

ولهذا؛ فإن (الآيات: ٢٨-٣١) تحرض المسلمين على قتال المشركين وطردهم من المسجد الحرام بالإضافة إلى قتال الكفار من أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً حقيقياً ينعكس على ثقافتهم وسلوكهم، كما أنهم لا يلتزمون بشرائع الله وأوامر الرسول وسيادة الدين والنظام الحق، فهؤلاء يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية خضوعاً للحق وهم صاغرون.

ولا يزال السياق القرآني (الآيات: ٣٢-٣٥) يبين الفساد الذي تسرب إلى اليهود والنصارى من خلال تقليدهم الأعمى للأحبار والرهبان ومخالفة النور الإلهي.

وبعد الحديث عن الكفار من أهل الكتاب، عاد القرآن مرة أخرى للحديث عن المشركين، وبيّن أن الالتزام بالأشهر الحرم من مظاهر الدين القيّم. أما التلاعب بأحكام الله وتغيير الأشهر حسب الأهواء، فإنه زيادة في الكفر وضلالة(الآيات: ٣٦-٤٠).

ويخاطب القرآن المؤمنين: لماذا لا يخفّون إلى القتال حين يؤمرون به؟ وهل التثاقل بسبب الرضا بالدنيا والاستغناء عن الآخرة؟.

وتعلن (الآيات: ٤١-٤٥) وجوب الجهاد بأيّة صورة ممكنة. بيد أن البعض يزعم بأن الجهاد كما السفرة السياحية أوالمكاسب العاجلة، وحينما يكتشف مشاقه ومتاعبه يوليه الدبر مبرراً ذلك بالعجز.. ولكن هذا البعض لا يضرّ إلا نفسه.. وعلى القيادة الإسلامية اتخاذ الجهاد وسيلة من وسائل كشف العناصر الضعيفة والمنافقة، فلا تأذن لم يستأذنها في ترك الجهاد. ذلك لأن المؤمنين لا يستأذنون القيادة لأنهم يتطلعون نحو الجهاد بأنفسهم وأموالهم إيماناً منهم بالله واليوم الآخر، والله عليم بهم.

إنما الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر حقاً ويرتابون في ذلك هم وحدهم الذين يستأذنون.

و(الآيات: ٤٦-٥٢) تزيد من كشف المنافقين وتحديد مقاييس تمييزهم، ومنها:

١- أنهم يرفضون الجهاد أساساً.

٢- أنهم لا يمارسون عملية الجهاد وإن خرجوا له.

٣- أنهم يثيرون الفتن ويفسدون علاقات المؤمنين بإثارة النعرات الجهاهلية.

٤- أنهم يمارسون عمليات التجسس لصالح الكفار.

٥- أنهم يفرحون بهزيمة المسلمين ويحزنون لانتصارهم.

وحيث يتحدث القرآن عن سلوك المنافقين في الحرب، يعرج على موقفهم من المال، وحرصهم الشديد على أن لا ينفقوا في سبيل الله إلا رياءً. فتتحول أموالهم وأولادهم إلى عذاب لهم في الدنيا، وغرور يدفعهم نحو الاستمرار في الكفر (الآيات: ٥٣-٥٥).

ثم إن علاقة المنافقين بالمؤمنين تحددها مصالحهم الخاصة، فإذا وجدوا مغانم ومكاسب بادروا إلى تسجيل أسمائهم مع المؤمنين، وإلاّ تهربوا من المجتمع المسلم وذهبوا إلى شياطينهم، ولكن مع كل ذلك تراهم يحلفون بالله أبداً أنهم من جماعتكم، والواقع إنهم مع مصالحهم، ولذلك تراهم كل يوم مع جماعة (الآيات: ٥٦-٥٧).

ويتحدث السياق في (الآيات: ٥٨-٦٠) عن الصدقات لعلاقتها بالجهاد، ثم يتحدث عن المنافقين ودورهم التخريبي في الصراع.. (الآيات: ٦١-٦٨)، وعن المؤمنين ووحدتهم وصفاتهم المثلى.. (الآيات: ٧١-٧٢).

ثم يتحدث عن قتال المنافقين والكفار، وعن النفاق بعد الإيمان الذي يتعرض له بعض الناس وما يؤول إليه مصيرهم من النفاق الأبدي (الآيات: ٧٣-٧٨)، وكما يتحدث عن الذين يمنعون الصدقات من المنافقين.. (الآيات: ٧٩-٨٠).

ويتحدث عن الذين يتقاعسون ويبين صفات المنافقين من التقاعس عن الجهاد وسائر صفاتهم الشادة، ويمنع الرسول من الصلاة على المنافقين، ثم يشيد بالرسول وبالمؤمنين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وبما أعد الله لهم من الخلود في الجنة (الآيات: ٨١ ٨٧).

ويتحدث السياق عن أعذار المنافقين في الجهاد وعن استثناءات الجهاد (الآيات: ٩٠-٩٦).

كما يتحدث عن الأعراب، المنافقين منهم والمؤمنين.. (الآيات: ٩٧-٩٩)، وعن

السابقين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه (الآية: ١٠٠).

وعن أهل المدينة، وأن في الأعراب منافقين غير معروفين.. (الآية: ١٠١).

وأن هناك طائفة اعترفوا بذنوبهم ويجب أن تؤخذ من أموالهم الصدقات.. زكاةً، وطهارةً لهم، وقبولاً لتوبتهم..(الآيات: ١٠٢-١٠٤).

وبعد الحث على العمل يحدثنا السياق عن الذين اتخذوا مسجداً ضراراً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وضرورة مقاطعة هذا المسجد، والاستبدال عنه بمسجد التقوى.. (الآيات: ١٠٥-١١٠).

ولقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة.. (الآيات: ١١١-١١٢).

ويبين القرآن أنه ليس بين الكفار والمؤمنين ولاء حتى بالاستغفار، وأن الله يتم حجته على عباده، وأن الله يتوب على من ختم أمره بالجهاد أو بالتوبة.. (الآيات: ١١٣-١١٨).

من هنا؛ يجب على المؤمنين القتال وليعرفوا أن أعمالهم الصالحة جميعاً محسوبة ومجزية خيراً.. (الآيات: ١١٩-١٢١).

كما يأمر ربنا سبحانه بأن لا بد أن ينفر طائفة للتفقه في الدين والإنذار (الآية: ١٢٢).

ووجوب البدء في القتال بأقرب الكفار.. (الآية: ١٢٣).

ويبين أن من صفات المنافقين أنهم يستهزؤون إذا نزلت سورة تأمرهم بالجهاد (الآيات: ١٢٤-١٢٧).

وفي الآيتين الأخيرتين: (١٢٨و ١٢٩) يذكّرنا السياق بأن الرسول قادم من صميم قومه الذين أُرسل إليهم، فهو من أنفسهم، وأنه يتأثّر ويحزن إذا وجد مكروهاً يصيب قومه، وأنه يحرص على سلامتهم، وأنه رؤوف رحيم بالمؤمنين.

ولكن لا يعني ذلك أن رسول الله ﷺ يعتمد على قومه ويتأثر بسلبياتهم، كلا.. بل يصمد أمامها إعتماداً على الله تعالى، فإن تولوا فإن حسبه الله يتوكل عليه، وهو رب العرش العظيم.

الإنذار الأخير لأعداء الرسالة

﴿بَرَآءَةٌ(١) مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟(٢) فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ(٣) مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًۭٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟(٤) عَلَيْكُمْ أَحَدًۭا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ(٥) ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۢ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌۭ رَّحِيمٌۭ ۝٥﴾.

هدى من الآيات:

لكي يبني الإسلام سوراً عاليًا حول المجتمع المسلم يحصنه من الشرك والكفر، ومن آثار الصلالة نفسيًا وثقافيا واجتماعيا، وتأتي آيات الدرس الأول في هذه السورة صاعقة حاسمة،

---

(١) براءة. البراءة انقطاع العصمة.

(٢) فسيحو: السيح هو السير على مهل.

(٣) وأذان: الاعلام وقيل أن أصله من النداء الذي يسمع بالأذن.

(٤) ولم يظاهروا: أي لم ينضموا إلى أعدائهم حتى يكونوا ظهراً (عوناً) لهم عليكم.

(٥) انسلخ الانسلاخ خروج الشيء مما لابسه وأصله من سلخ الشاة وهو نزع الجلد عنها.

براءة من الله ورسوله من المشركين، وإعلان عام يصدر في موسم الحج الأكبر حيث يتوافد إلى بيت الله الناس من كلّ مكان إن الله بريء من المشركين، وكذلك رسوله إلّا أن يتوبوا.

فالمشركين الذين لا عهد لهم فإن الأشهر الحرم -التي تنتهي مع بدء شهر صفر- مدتهم، فالأرض ستُطَّهر منهم إلّا أن يتوبوا و يؤمنوا و يسلموا لواجبات الدين، فان الله غفور رحيم.

أما الذين سكت الإسلام عنهم سابقا بسبب معاهدة سابقة غير محددة بزمن. أما الآن؛ فعليهم الاختيار بين الحرب والإسلام بعد أربعة أشهر من يوم إعلان البراءة، وليعلموا إن قوتهم المادية لا تقف أمام قوة الله وإن الخزي يلاحقهم بكفرهم.

وأما الذين عاهدهم المسلمون من المشركين عهداً مؤقتاً بمدة فإن الإسلام يفي بعهده ما داموا وافين به.

بينات من الآيات:

لماذا ألغيت المعاهدات

[١] بعد أن هيمن الإسلام على شبه الجزيرة بفتح عاصمتها مكة، والإنتصار على كبرى القبائل فيها كالهوازن، بقيت القبائل الصغيرة التي آمنها الإسلام ولكنها بطبيعة كفرها وشركها كانت تشكل جيوب المقاومة، وتعرقل وحدة الجزيرة الإدارية، وكان من الواجب إنهاء الصراع معها استعدادا للإنتقال إلى العالم، (خارج الجزيرة) لذلك جاءت البراءة، وإلغاء المعاهدات بين المسلمين والمشركين، ولكن أعطيت لهم مهلة أربعة أشهر يستعدون خلالها أما للتسليم أو للحرب -إن شاؤوا- ولكن القرآن حذرهم، أن المقاومة لا تجديهم نفعا ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

[٢] ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ فلا تستطيعون تعجيز الله وسلبه قدرته المطلقة سبحانه، ولكم الحق في التجول الحر في ارض الجزيرة لمدة أربعة أشهر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يفشل خططهم، ويسلب منهم إرادتهم، ولا يبلغهم اهدافهم. جاء في الحديث المأثور عن أبي جعفر عليه السلام قال: «خَطَبَ عَلِيٌّ عليه السلام النَّاسَ وَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَقَالَ: لَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ وَلَا يَحُجَّنَّ بِالْبَيْتِ مُشْرِكٌ وَلَا مُشْرِكَةٌ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ مُدَّةٌ فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُدَّةٌ فَمُدَّتُهُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ. وَكَانَ خَطَبَ يَوْمَ النَّحْرِ وَكَانَتْ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ وَصَفَرَ وَشَهْرَ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ وَعَشْراً مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْآخِرِ وَقَالَ يَوْمُ النَّحْرِ يَوْمُ الْحَجِّ

الْأَكْبَرِ»[1]. ويبدو من هذا الحديث: أن القرآن إنما ألغى العهود التي كانت مطلقة وقابلة للإلغاء وكانت تلك شريعة المتعاهدين من العرب. أما العهود التي كانت لها مدة معينة، فإنها لم تلغ بهذا القرار.

ومن جهة اخرى.. في تلك السنة جرت بدعة النسيء وتأخير أشهر الحرم عن موعدها المحدد، والتي يتحدث عنها القرآن في آية اخرى ولذلك حدد القرآن العهود إلى أربعة أشهر وفي آية قادمة ربط الموضوع بانتهاء الأشهر الحرم.. بينما كان الإعلان في موسم الحج الأكبر والذي كان في أيام الإجتماع الكبير بمنى.

[٣] وكرر القرآن إعلانه العام لكل المشركين الذين تربطهم أو لا تربطهم مع الجبهة الإسلامية معاهدة ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ويكرر كلمة الرسول هنا لانه منفذ تعاليم الله، وللإشارة إلى أن القضية ليست وصية دينية فقط، بل هي أيضاً حقيقة سياسية جديدة.

﴿إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ يوم الإجتماع العظيم في مكة، بمناسبة الحج في ذي الحجة الحرام. وقد كانت هناك مواسم أخرى أقل اجتماعاً من الحج الأكبر، وقيل أن المراد بالحج الأكبر هو الموسم الذي اجتمع فيه المؤمنون والمشركون معاً، لأنه بعد تلك السنة لم يحج المشركون أبداً ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ ومقاومتكم لا تجديكم شيئا ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في الآخرة، كما في الدنيا.

[٤] إلغاء العهود والأحلاف التي كانت بين المسلمين والمشركين كان محددا بما يلي:

ألف: إما إلغائها بسبب نقض المشركين لروح المعاهدة أو لبنودها.

بـاء: وإما لأنتهاء مدة المعاهدة.

جيم: وإما لأن المعاهدة كانت أساساً مطلقة ويجوز لأحد الطرفين إلغاؤها بشرط إعطاء مهلة كافية للطرف الثاني.. ويبدو أن أكثر المعاهدات التي كانت تعقد بين العرب كانت من هذا النوع، ولذلك جاء في هذه الآية تأكيد على الوفاء بالمعاهدات المحددة بمدة معينة، والتي لم ينقضها الطرف الآخر ولم يخالف روحها ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا ﴾ أي لم يخالفوا بنودها ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ﴾ فلم يخالفوا روح المعاهدة ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ أي إلى انتهاء مدتهم كما فعل الرسول بقوم من بني كنانة، وبني

(١) بحار الأنوار، ٣٥، ص٢٩٦.

ضمرة، كان قد بقي من اجلهم تسعة أشهر فأمر بإتمامها لهم لأنهم لم يظاهروا على المؤمنين ولم ينقضوا عهد رسول الله ﷺ.

وكما فعل مع أهل هجر، وأهل البحرين وايله ودومة الجندل، حيث وفى بعهده معهم إلى نهاية حياته ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يلتزمون بالعهود والمواثيق مع المسلم والكافر والبر والفاجر.

لا لتجديد العهود مع المتربصين

[٥] بعد أشهر الحُرم التي يحترمها الإسلام إذا احترمها الأعداء، بعدئذ يجب قتل المشركين الذين بدرت منهم العداوة (والذين لا عهد لهم مع المسلمين) أينما وجدوا ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ والأشهر هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وبعدها يأتي شهر صفر الذي كان آخر مهلة للكفار ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أي ضعوهم في محاصرة قواتكم لكسر شوكتهم وهزيمتهم معنويًا، للتقليل من نسبة القتلى ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي انشروا حول مواقعهم مراكز الرصد والرقابة حتى تعرفوا تحركاتهم ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ دون أن تحققوا في مدى صحة ادعائهم بإنهم اسلاميون ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع شدة الأمر وعظم المصيبة التي أمر الله سبحانه بإنزالها بالمشركين.. يوضح السياق إن باباً عريضا قد فتح أمامهم وهو باب التوبة، وان الله غفور رحيم بكل من يقبل بولاية الإسلام ويسلم تسليماً.

وما ذلك البلاغ الصارم.. -إما الإسلام أو الحرب-، ما هو إلا رحمة للناس أرادها الله لهم.

خيانة المشركين وراء إلغاء المعاهدة

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)﴾.

هدى من الآيات:

بالرغم من إعلان الحرب ضد الشرك، فإن ذلك لا يعني الغدر بهم بل إذا استجار بالرسول أحد منهم، فإن الإسلام يعطيه الأمان، لفترة البحث عن صحة الإسلام، ثم إذا لم يقتنع يعاد إلى مأمنه سالماً. وعموماً الإسلام يفي بعهده مع المشركين ماداموا ملتزمين به، ومن دون عهد يشن عليهم حرباً وقائية لانهم بمجرد ازدياد قوتهم يقاومون الإسلام بكل جهدهم دون أن يردعهم قسم سابق أو عهد، يقولون كلاماً حلوا وقلوبهم مليئة بالرفض ولا يلتزمون بقيمة.

أو ليسوا هم الذين باعوا دينهم بثمن بخس، ومنعوا سبيل الخير، وعملوا كل عمل

سوء. أو ليسوا هم الذين سحقوا حقوق المؤمنين دون أن يردعهم عهد او حلف، واعتدوا عليهم.

أجل لو أنهم تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإن الصراع ليس شخصيًّا معهم ولا عنصريًّا فلذلك سوف يصبحون إخوانا للمؤمنين.

إن هذا الدرس والذي يأتي يرسم خريطة التعامل مع المشركين كما يكشف خلفيات أنفسهم وسلوكهم.

بينات من الآيات:

إبلاغ الرسالة

[٦] الهدف الاساسي للصراع مع المشركين هو إبلاغ الرسالة اليهم، والطلب الوحيد منهم هو استماعهم لها من دون حجاب او عقدة مسبقة. لذلك لو طلب احد من المشركين الأمان حتى يأتي إلى الديار الإسلامية ويستمع من قرب إلى تعاليم الرسالة، فإن الإسلام يؤمن له طلبه، لأن كثيرا منهم يحارب الإسلام من دون وعي ولا يعلم بحقيقة الرسالة، ثم إن لم يقتنع لا يغدر به بل يبلغه مأمنه بكل اعتزاز ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي طلب الحماية، وكانت تلك عادة عربية عريقة، أن الواحد منهم يطلب من رئيس القبيلة المنيعة الجانب الحماية، فتعطى له ويحفظ خلال فترة الإستجارة ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ لماذا يعطى للمشرك الحماية بالرغم من حربه مع الإسلام؟ لأن المشركين لا يعلمون الحقيقية.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهكذا ترى الإسلام لا ينسى رسالته في زحمة الصراع السياسي، كما يؤكد على دور الإعلام الأمين في الصراع. إن علينا ألا نعتبر الأعداء كتلة صخرية لا تتفتت بل هم بشر وجهلة، يؤثر فيهم الحديث ويبلغ قلوبهم الهدى المبين ويقلل الاعلام من حجم الخسارة.

[٧] ما هي خلفية سلوك المشركين عموما؟.

إنهم لا يلتزمون بقيمة سامية لذلك لا عهد لهم ولا ذمة، إلا أولئك الذين عاهدهم المسلمون فيلتزمون بذلك العهد، مادام المشركون يلتزمون بشروطهم ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ وفي الآية التالية يبين القرآن سبب هذا الحكم، وهو اسقاط احترام المشركين، اما هنا فهو يستثني المعاهدين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الذين

يلتزمون بمواثيقهم وعهودهم مع الناس، حتى ولو لم يكونوا مسلمين، وتدل الآية على أن من شروط التقوى الوفاء بالعهد مع المسلم والكافر.

المشركون المعاهدون

[٨] إذا امتلك المشركون القوة، وغلبوا المسلمين فهل سيراعون لهم عهداً أو حلفاً، وهل يحترمون دماءهم وأموالهم؟ كلا..

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ أي حلفاً ولاعهداً، أما الآن فهم يتظاهرون بالتمسك بحسن المعاملة واحترام حقوق الآخرين ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بكلماتهم الفارغة التي لا تتعدى اللسان ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ وترفض نفوسهم الإلتزام بما وراء هذه الكلمات ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ غير ملتزمين أساساً بعهد أو قيمة.

[٩] وهل يتمسك بالقيمة من يبيع دينه بثمن بخس ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ومهما يكن الثمن الذي يعطى في مقابل الإلتزام بالقيمة المعنوية فإنه قليل، إذ أن شخصية الإنسان وكرامته وحتى مدنيته إنما هي بمعنوياته، وبمدى التزامه بقيمه في الحياة، انظر كيف إنهم حين باعوا دينهم أخذوا يصدون عن سبيل الله، ويمنعون كل عمل الخير! ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

[١٠] إنهم لا يعتنون بحقوق الناس وخصوصا المؤمنين ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ وأما معاملة المسلمين معهم فهي رد الاعتداء، كما هو الحال اليوم بين الأمة الإسلامية المطالبة بحقوقها المهتضمة، وبين الطواغيت في الأرض، الذين يطالبون أبداً باحترام القوانين الجائرة المفروضة علينا، بينما هم لا يعتنون بأبسط حقوقنا ويعتدون علينا، ولذلك فنحن لا ننظر إلى كل واقعة.. واقعة مجردة عن التسلسل التاريخي للأحداث، بل علينا أن نحدد سياستنا معهم على ضوء مجمل معاملتهم معنا، ونوع العلاقة القائمة التي تحكمنا وإياهم.

التوبة باب الرحم الالهية

[١١] أمام هؤلاء المشركين باب عريض من التوبة وإصلاح أنفسهم، وآنئذ يصبحون اخوة لنا.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ ﴾ لا فرق بينكم

وبينهم أبداً، لأن الإسلام يرفض الفوارق العرقية والعشائرية أو الاقليمية، وكذلك لا يعترف بالأسبقية الإيمانية، بمعنى سيطرة السابقين من المؤمنين قديماً على اللاحقين جديدي الإيمان، بل يعترف بالأسبقية في حدود ضيقة يعطيهم أولوية الثقة والإحترام فقط.. وفيما وراء ذلك فهم إخوة متساوون أمام الله والشريعة ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويفهمون الفرق بين الأحكام التي شرعت للموضوعات المختلفة.

حكم الذين ينكثون أيمانهم

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

ما هو الموقف الإسلامي من المشركين الذين نقضوا العهد، وخانوا إيمانهم؟.

الموقف هو القتال الموجه ضد قياداتهم التي لا تلتزم بعهد ولا يمين وذلك بهدف إيقافهم عند حدهم، وأسباب القتال هي:

أولاً: نكث اليمين، وعدم الإلتزام به.

ثانياً: محاولة إخراج الرسول.

ثالثاً: إنهم البادون بالإعتداء، وعلينا ألا نخشى بطشهم، بل نخاف الله ونخشى عقابه ما دمنا مؤمنين به.

والله يعذب الكفار، ولكن بأيدي المسلمين، وحين يكافح المسلمون أعداءهم فالله ينصرهم ويخزي الكافرين، ويزكي قلوب المؤمنين، ويدخل فيها الفرح والبشاشة؛ وقد كانت

سابقاً مليئة بالغضب والغيظ، والذين اكتسبوا إثماً أو ذنباً، تكون الحرب مطهرة لهم، لأن الله يتوب على من يشاء من عباده.

وتدخل هذه الآيات ضمن إطار السورة في التحريض على قتال المشركين وبيان سبب القتال واهدافه.

بينات من الآيات:

فقاتلوا أئمة الكفر

[١٢] الناكثة هي الفرقة الضالة، التي تقاوم الرسالة بعد التعهد بالتسليم لها، وعدم الإعتداء عليها، وقد تكون هذه الفرقة من المشركين أو من المسلمين ظاهراً، والقرآن يأمرنا بقتالهم بصراحة بالغة ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ اليمين الذي يعطيه فريق من أنفسهم لفريق آخر يعتبر نوعا من العهد الاجتماعي، أو بالأحرى يعتبر تأكيداً دينيًّا على عهدٍ اجتماعي لذلك نجد القرآن يمزج بين اليمين والعهد ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ لكي يبرر هذا الفريق نقضهم للعهد يطعنون في الدين وتعاليمه وبنوده، ويعتبرون تلك التعاليم مخالفة لمصالحهم أو لحريتهم وكرامتهم ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ عادة يكون الفريق الناكث ملتفا حول قيادة شيطانية، ذات خطط ماكرة، لا تكشف عن نفسها، لذلك يجب على الأمة البحث عن تلك القيادات ومحاربتها وإلا فإن إراقة دماء أتباعهم تزيد تلك القيادات قوة اجتماعية، ويكرس سيطرتهم الباطلة على اتباعهم المضللين.

والواقع إن تلك القيادات لا يمكن انتظار الوفاء منها لأنها بنت حركتها على ضرب القيم السائدة ومقاومة المقاييس الاجتماعية، ولذلك تجدها تكثر من الحلف وإعطاء العهد مع عزم مسبق على مخالفتها.

﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ ولكن يجب ألا يتحول قتال الناكثين من أجل اشباع شهوة الإنتقام، فيصبح اعتداء محرما على كرامتهم البشرية، بل يكون فقط بهدف إيقافهم عند حدهم، وإعادتهم إلى شرعية القيم الإسلامية حتى يصبحوا كما غيرهم من الناس لهم حريتهم وكرامتهم وحقوقهم، لذلك أكد ربنا سبحانه على هذه الحقيقة قائلاً: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ أي يمسكون أيديهم عن نقض العهد والطعن في الدين.

[١٣] وأما العوامل التي تدفعنا إلى قتال الناكثين فتتجسد في:

أولاً: نكثهم لليمين، ونقضهم لعهدهم السياسي مع المجتمع المسلم، وبالتالي مخالفتهم

للنظام الاجتماعي، ذلك العهد الذي يقدمه المواطن المسلم عن طريق البيعة ويقدمه الذمي (كاليهود في المدينة) في صيغة معاهدات ثنائية بينهم وبين القيادة، وإذا نكث فريق عهدهم فإن المجتمع المسلم يفقد حصانته، وبالتالي يخشى أن يتحلل الآخرون من عهودهم والتزاماتهم فينهار المجتمع تماما لذلك قال ربنا: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ ﴾

ثانياً: مقاومتهم للنظام السياسي ومحاولتهم إسقاط حكومة الإسلام عن طريق محاربتهم للقيادة الشرعية المتمثلة في الرسول أو الإمام ﴿وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ ﴾.

ثالثاً: إنهم المعتدون أولاً، والبادي بالظلم أظلم.

﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وعادة يتوجس الناس الخوف من الناكثين، ولكن الله يحرض عليهم ويقول: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ اذا ترك الإنسان مبادئه وقيمه، وتساهل في عهوده مع الناس، فأي شيء يبقى له بعدئذ حتى يحسب مؤمنا؟!.

[١٤] إن نتيجة القتال معروفة عند الله تعالى سلفا، وهي:

أولاً: إن الله سوف يعذب الكفار بأيدي المؤمنين.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ وهذا يعني إن بعضاً من أقدار الله يجريها عن طريق المسلمين، فعليهم أن يسعوا، والله يسدد خطاهم ويوفقهم، ولا يجوز لهم التواكل والكسل بأسم التوكل على الله.

ثانياً: إن عزتهم بالإثم وغرورهم وكبرياءهم سوف تتحطم على صخرة الإستقامة الإسلامية.

﴿وَيُخْزِهِمْ ﴾ وبالنسبة إلى الناكثين يعتبر كسر شوكتهم الاجتماعية ضربة قاضية لهم، وإنهاء لمشكلتهم.

ثالثاً: إن الله ينصر المؤمنين عليهم ويثلج قلوبهم بالنصر.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وهم الأكثر حماساً للقيم، أو الأكثر تضرراً من خروج الناكثين على الدولة.

[١٥] **رابعاً**: إن القتال يحل العقد النفسية التي تتراكم في قلوب المؤمنين بسبب خروج الناكثين عن الدولة.

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ فيستعدون للبناء والتقدم الحضاري، ومحاربة أعدائهم التقليديين.

خامساً. إن بعض المسلمين يتأثرون بدعايات الناكثين، أو يتكاسلون في البدء عن مقاومتهم. فيصلحون بالقتال والنصر، كما إن البعض منهم قد احتملوا ذنوبا كبيرة وصغيرة وبسبب الجهاد في سبيل الله يغفر الله لهم ذنوبهم.

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ولذلك لا يمكن أن يتكل أحد على الجهاد في سبيل الله فقط ويقول لنفسه إنني أذنب ثم أجاهد فيغفر الله لي، كلا فالله عليم حكيم، لا يغفر لكل مذنب إنما الذين يعملون الذنب بجهالة ثم يستغفرون.

المجاهدون أعظم درجة عند الله

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الحديث القرآني حول الجهاد المقدس من اجل تحقيق القيم السامية يبين هذا الدرس جوانب من خلفية الجهاد النفسية:

أولاً: الجهاد مدرسة لتربية المسلم، وتمييز المؤمن الصادق عن الضعيف والمنافق.

ثانياً: المظاهر الدينية التي يتوسل بها الكفار مثل عمارة المساجد غير مقبولة عند الله وهي

تحبط ولاتنفعهم شيئاً في الآخرة. حيث يخلدون في النار، وأن العمارة الحقيقية للمساجد، إنما هي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وخشية الله، وليس سواء القيام ببعض الأعمال الظاهرية، والتي قد يداخلها الرياء أو طلب السمعة مثل عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، ليس سواء ذلك والإيمان الحقيقي بالله وبرسالاته، وعند الله الإيمان والجهاد في سبيله بالمال والنفس أعظم ثواباً من بناء المساجد؛ والله عزوجل يبشر المؤمنين الصادقين برحمة منه في الدنيا، ورضوان في الآخرة، وجنات فيها نعيم مقيم.

بينات من الآيات:

الإيمان الصادق

[١٦] الإيمان ليس بالتمني، ولكنه بصدق العمل وتحدي الصعاب في سبيل الحق، والذي يجعل الإيمان ذا مصداق واقعي هو الجهاد، وبذل منتهى الوسع في سبيل تحقيق أهداف الإيمان.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ والله سبحانه سوف يبتلي المؤمنين بصعوبات ويأمرهم بتحديها بالجهاد، وهناك شرط اخر لصدق الإيمان يتحقق بالولاء الخالص لجبهة الحق، وعدم السقوط في ولاءات باطلة ومتداخلة.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أي وسيلة ودخيلة، وبالتالي إنتماء ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

العمل الصالح جوهر لا مظهر

[١٧] ولأن الهوية الإسلامية لا تتحقق إلا بإخلاص الولاء لله وللقيادة الرسالية وللمجتمع المسلم، فإن هذا هو المعيار الذي يحدد المؤمن والكافر أما الأعمال الظاهرية مثل عمارة المساجد، فإنها ليس لا تنفعهم فقط بل وتضرهم أيضاً، اذ تصبح شاهدة عليهم.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ لأن المسحد هو محراب المؤمن الذي يحدد هوية المجتمع المسلم وقيادة المتمثلة في الرسول وأوليائه، لا أولياء الشيطان من أنصار الطاغوت، وعبدة الأصنام الحجرية والبشرية.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ لأن العمل الذي لا يستند إلى قاعدة صلبة من الرؤية

السليمة والإيمان المهيمن، إنه يسقط كما شجرة بلا جذور، وكما بناء بلا أساس ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾

[١٨] عمارة المسجد لا تتم بوضع حجر فوق حجر، بل بتنفيذ كل الواجبات الدينية التي تجعل المسجد المبني معموراً حقيقة، وذلك بالإيمان بالله واليوم الآخر، وبالصلاة لله وإيتاء الزكاة، وبمقاومة الضغوط التي تأتي من القوى السياسية والاجتماعية وتحاول تركيع البشر ودفعه باتجاه التسليم للطاغوت ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فالخشية من غير الله تدفع البشر نحو التسليم له عمليًا وهو الشرك.

وإذا توفرت هذه الشروط كاملة فإن جوهر الصلاح والفلاح وهو الوصول إلى الحقيقة يتحقق.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وربما كان تعبير القرآن بـ ﴿عَسَىٰ﴾ هنا أو بـ ﴿لَعَلَّ﴾ في موضع آخر، للدلالة على عدم الركون إلى مظاهر الأمور، والسكون عند حد معين من العمل، أو من تحقيق شروط الهداية بل يجب العمل بجد ومثابرة والخشية من ألا يكون مقدار العمل كافياً لتحقيق الهدف المنشود كما الإنسان الذي يخشى موت ابنه من المرض، كيف يوفر كل الوسائل، ولكنه يظل يبحث عن المزيد من وسائل العلاج خشية الا يكون ما هيأه كافيا.

والعمل الصالح يزيد الهدى والعكس صحيح، إذ أن الظلم يحجب العقل، ويمنع البشر من الهداية كما يأتي في الآية القادمة.

[١٩] الأعمال الظاهرية ليست كالأعمال الجذرية.. فليست سقاية الحاج وتعمير المسجد الحرام كالإيمان بالله واليوم الآخر، والجهاد في سبيل الله لأن الكافر والمنافق والفاجر قد يقوم بمثل هذه الأعمال الظاهرية التي قد يتستر وراءها للقيام بالأعمال الشاذة ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾.

وقد جاء في الحديث: قيل: إن عليًا قال للعباس: «ياعمّ ألا تهاجر، ألا تلحق برسول الله؟!. فقال: ألست في أعظم من الهجرة، اعمر المسجد الحرام، وأسقي حاج بيت الله. فنزل: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾»[١].

(١) تفسير نور الثقلين: ج٢ ص١٩٤، شواهد التنزيل: ج١ ص٣٢٣ عن ابن سيرين، العمدة: ص١٩٤.

﴿وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ إن الجهاد هو ذلك المقياس الذي لا يخطأ إذا كان في إطار الإيمان لأنه تحد للشهوات والأهواء ومقاومة للطاغوت، وبلورة للإرادة.

إن كثير من أولئك الذين يبررون تقاعسهم عن الإيمان والجهاد وعما يتطلبه الجهاد من مساع وتضحيات.، يبررونه ببعض الأعمال الظاهرية ذات اللافتة العريضة، والخواء الواقعي، مثل طبع نسخ المصحف الشريف وتفاسيره وكتب التراث، وإجراء الحدود على المستضعفين فقط.

وكلما خالفت السلطات الطاغوتية نصوص الدين في منح الحرية والرفاه وتوفير العدالة للناس، كلما أكثرت من ترديد الشعارات البراقة، وتسمية الشوارع والمدارس باسم الحرية والرفاه والعدالة، وتزيد من رواتب علماء الدين المرتبطين بها وبناء المعاهد الدينية الفاقدة لروح الرسالة، فكلما تخالف تعاليم الإسلام في التحرر والاستقلال تزيد التمسك من ظواهر الأمور وتحارب المصلحين باسم المفسدين أو الإرهاب.

وكما يصنعه الطاغوت، يفعله التجار الكبار الذين يتحالفون مع الحكام الظلمة، ويمتصون دماء المحرومين، ولكن يقدمون فتات موائدهم للفقراء، ويبنون مستشفى أو مستوصفاً أو يُعبّدون طريقاً، أو ما شابه، في الوقت الذي يتركون الناس وحدهم في مواجهة الظالمين والمستكبرين.

وكلمة اخيرة: إن كل واحد منا يمكن أن يصبح طاغوتاً أو متحالفاً مع الطاغوت، ويبتلى بخداع ذاتي لا يغفره الله ولا الضمير ولا التاريخ، فعلينا أن نتمسك بمقياس دقيق لكي نمنع عن أنفسنا مرض الخداع الذاتي، ذلك المقياس هو الجهاد، ففي اللحظة التي تشعر أنك تسترخي وتترك مقاومة الإنحراف فقد استسلمت وخارت إرادتك، ويمكن أن تنتهي واقعيًا ودون أن تشعر بذلك لأن الهداية تتأثر بعمل الإنسان وتصميمه ومشيئته، فالظالم لا يهتدي، لذلك أكد القرآن في نهاية الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالظالمون قد تورطوا في الضلالة وهم يحسبون أنهم مهتدون، والله يدعهم لأنفسهم ويتركهم لشأنهم.

[٢٠] في المقياس الإسلامي يعطى الجهاد الأولوية، ثم تترتب سائر الأعمال الخيرية مثل: عمارة المساجد، وبناء المدن، لأن أهم شيء عند الإنسان هو تحرره عن التسلط السياسي والاستغلال الاقتصادي، وبناء المؤسسة الاجتماعية الصالحة وبعدئذ يأتي دور الإعمار.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ من أجل إقامة حكومة الله في الأرض، حكومة الحرية والعدالة والاستقلال، هؤلاء: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾

من سائر من يقومون بالخدمات الاجتماعية، أعظم من الباحثين في المختبرات، والاساتذة في الجامعات والعمال في المصانع والفلاحين في الحقول، والوعاظ في المساجد لأن النظام السياسي والاقتصادي الفاسد يذهب بخيرات كل أولئك، وربما يستغل كل تلك المكاسب من أجل تدعيم نفوذه، وتكريس ظلمه وفساده.

إذن أولئك المجاهدون الذين يهدفون تغيير النظام الفاسد، وتحرير الإنسان من عبودية المال أو التسلط؛ أولئك أعظم درجة عند الله من سائر الناس ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

[٢١-٢٢] ولأهمية هذا العمل، ولخطورته البالغة على حياتهم ولتضحياتهم الكبيرة في هذا السبيل فإنه لا يقدم عليه إلاّ المخلصون حقاً الذين لايحسبون لأنفسهم حساباً وإنما يهدفون فقط خدمة الناس، وإبتغاء مرضاة ربهم لذلك كان جزاؤهم عظيماً ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ ومن مظاهر الرحمة إسقاط الطاغوت واستخلافه، والوصول إلى سدة الحكم من أجل القيام بخدمات أكبر مما سبق.

أما الرضوان فهو تيسير أمورهم من عند الله، وبلوغ حالة الطمأنينة والسكينة، هذا في الدنيا ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم ولا يخشى زواله ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

سنام الإسلام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢٣) قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا (١) وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ (٢) حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (٢٤) لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ (٣) ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٢٧) ﴾.

هدى من الآيات:

لكي تستعد الأمة للصراع، لأبد أن يخلص انتماء أبنائها إليها باعتبارها تجمعاً مبدئيًا،

---

(١) اقترفتموها: الاقتراف اقتطاع الشيء من مكانه إلى غيره من قرفت القرحة إذا قشرتها والقرف هو القشر

(٢) فتربصوا: التربص التشبه في الشيء حتى يجيء وقته.

(٣) رحبت: الرحب السعة في المكان.

وألا يتخدوا أقاربهم أولياء إن فضلوا الكفر على الإيمان. ذلك لأن أي خلل في الإنتماء يبعث خللا في الإيمان، فلو كان الأب أو الأخ أو الزوج أو العشيرة أو المال والتجارة أو المسكن أحب إلى الفرد من إيمانه بالله ورسوله، ومن جهاده في سبيل الله، فلا بد أن ينتظر أمر الله الذي لا يحمل بالتأكيد في طية الهداية والفلاح للظالمين والفاسقين.

وكمثل على هذا الخلل وأثره السلبي على الصراع ما جرى في يوم حنين، إذ كان اعتماد الجيش على كثرتهم التي غرتهم لا على الإيمان، فلم تغنى عنهم من الله شيئًا، إذ انهزم الجيش وضاقت عليهم الأرض على سعتها، ولكن الله انزل سكينته على الرسول والمؤمنين فاطمأنت قلوبهم، وأنزل جنوداً من عنده فهزموا الكفار وعذبوا عذابا شديدا.

بيد أن الهزيمة كانت تجربة صاغت نفسية المسلمين فتاب بعضهم، فتاب الله عليهم، وكان الله غفوراً رحيماً.

إن هذا الدرس يحدد بعض الشروط الاجتماعية للجهاد بينما حدد الدرس السابق بعضاً من شروطه النفسية والثقافية.

بينات من الآيات:

المجاهد يتحدى الضغوط الاجتماعية

[٢٣] الولاء في المجتمع المسلم يجب أن يكون للعقيدة قبل أي شيء آخر، فحتى الولاء العائلي الذي يحبه الإسلام ويعتبر الأسرة الوحدة الاجتماعية الضرورية، يجب أن يكون في إطار الولاء الإيماني لا منافساً له ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ وقد كان هذا الإنتماء الرسالي الخالص سبباً في انتصار الرسالة في عصر الرسول، يقول الامام علي عليه السلام: «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وأَبْنَاءَنَا وإِخْوَانَنَا وأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلا إِيمَاناً وتَسْلِيماً ومُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وجِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ولَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا والآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ومَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِياً جِرَانَهُ ومُتَبَوِّئاً أَوْطَانَهُ ولَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ولا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ وايْمُ الله لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَماً ولَتُتْبِعُنَّهَا نَدَماً»[1].

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٥٦.

وإذا عرفنا مدى أهمية الأسرة في الحياة العربية قبل الإسلام، تعرف مدى الخلوص الرسالي الذي بلغه المسلمون ذلك اليوم حتى حققوا الانتصار الكبير.

وقد عبر الامام أبو جعفر عليه السلام، عن هذا الخلوص الرسالي، بقوله: «لا تتّخذوا من دون الله وليجة[1] فلا تكونوا مؤمنين فإنّ كلّ سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة منقطع إلاّ ما أثبته القرآن»[2].

إن كل ولاء يجب أن يكون في إطار قيم الإسلام، وإلا فإن الإنتماء الإسلامي يكون ضعيفاً أو مرفوضاً ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

[٢٤] ليس الولاء الأسري فقط حاجزاً دون الولاء الرسالي، بل كل صلة تقف حاجزاً أمام العلاقة الإسلامية يجب فكها وجعلها صلة ثانوية ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي من الولاء الخالص لله وللقيادة الرسالية المتمثلة بالرسول في عهده، وبخلفائه من بعده، وهذا الولاء يتجسد عمليًّا في الجهاد وهو بذل كلما يستطيعه المرء في سبيل تحقيق أهداف الرسالة، لذلك خصصه القرآن بالذكر قائلا: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا فإن هذا المجتمع الراكع للضغوط ليس أبداً مجتمعاً رساليًّا، بل ولا مجتمع مسلم حقاً، ولذلك لابد من إنتظار الكارثة.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقد تكون الكارثة المتمثلة في الخلافات الداخلية التي تنتهي إلى الصراعات الجانبية المنطلقة من المحوريات الذاتية التي تمنع تكون المجتمع الموحد، ومن الحزبيات الضيقة التي تفتت الوحدة السياسية الرصينة، ومن الوطنيات الزائفة التي تحطم كيان الأمة الواحدة، ذات القيادة الرسالية.

وكلما ضعفت الأمة كلما خسرت معاركها الحضارية مع التخلف أو مع الأمم المنافسة كما نرى اليوم في الأمة الإسلامية التي بالرغم من ان عدد ابنائها يتجاوز الألف مليون، فان المحوريات الذاتية تمنع من تكون الوحدة التنظيمية الرسالية، وبالتالي من تكون الوحدات السياسية الفعالة.

والآن نجد الأمة الإسلامية موزعة في أكثر من خمسة وسبعين دولة أو دويلة، وكل يبني جيشه وثقافته على أساس تعميق التجزئة، وتكريس الإنفصال، لذلك يسهل على الأجنبي أن

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: ١٦].
(٢) الكافي: ج١ ص٥٩.

يبتلعها لقمة لقمة، ويسهل على غول التخلف الاقتصادي أن يلتهم سعادتهم ورفاههم.

إن مصادر الطاقة والمعادن والأراضي الزراعية، والموقع الإستراتيجي في وسط العالم، والتراث الحضاري والألف مليون إنسان كل هذه القوى لم تكن قادرة على بناء حضارتنا في العصر الحاضر، ونخشى أن يبقى الوضع هكذا في المستقبل. لماذا؟.

لأن الإنتماء إلى الذات أشد من الإنتماء إلى الرسالة، وحين يكون الإنتماء إلى الرسالة ضعيفاً فإن الرؤية تكون محدودة ومسجونة في جدران الذاتية المغلقة، ولذلك أكدت الآية الكريمة على أن الإنتماء إلى الذات وإلى المصالح الذاتية سيكون سبباً للضلالة لأنه فسق.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وحين يكون إنتماء الفرد إلى ذاته ومصالح ذاته، فإن ممارسته ستكون أيضاً خاطئة ويكون فاسقاً، وحينئذ يرى العالم بنظارة ذاته فلا يراه على حقيقته فتنزل عليه الكارثة.

دروس من حنين

[٢٥] وكمثل على هذه الحالة الشاذة يقص علينا ربنا قصة المسلمين في حنين، حيث توكل المسلمون على كثرة عددهم لا على ربهم وتضحياتهم فانهزموا ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ مثلا في يوم بدر، حيث كان المسلم يقتل أباه وأبنه لأن التجمع الرسالي كان أمتن من الولاءات الأسرية أو الذاتية، وجاء في الحديث أن أبو الحسن الجواد عليه السلام قال: «**إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ فَعَدَدْنَا تِلْكَ الْمَوَاطِنَ فَكَانَتْ ثَمَانِينَ**»(١).

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ لأن الكثرة غير المتماسكة لا تغني شيئاً، إذ كل فرد يفقد إرادته وعزيمته وخلوصه، اعتماداً على الكثرة، وكل فرد أو فئة أو حزب أو طائفة أو عشيرة تفكر في مصالحها تفكر في أن تكون التضحيات من غيرها وتكون المكاسب لها.

وهكذا كانت الكثرة العددية للمسلمين اليوم غير نافعة لأنها كثرة كمية فقط، وفاقدة للوحدة الحقيقية، وهكذا تجد الأرض المقدسة في فلسطين بيد الأعداء برغم اهتمام الجميع بتحريرها

---

(١) الكافي: ج٧ ص٤٦٣.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ فبالرغم من الكثرة العددية تجد الجميع مغلولين مكبلين لأن فاعلية كل جهة موجهة ضد فاعلية الجهة الثانية، فهي كثرة متنافرة يزاحم بعضها بعضاً ويفت بعضها في عضد الآخر ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ وانهزموا بفعل اختلافهم أمام عدوهم الأكثر تماسكا منهم، كما انهزم المسلمون اليوم أمام الصهاينة، وهكذا تخسر الأمة المفتتة معاركها الحضارية مع اعدائها.

[٢٦] ولكن بقيت مجموعة متماسكة ذات قيادة رسالية، بقيت صامدة في إطار هذه الكثرة المنهزمة فأنزل الله سكينته عليهم ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فسكنت نفوسهم برحمة الله، واطمأنت إلى نصره، وهكذا كانت الرسالة هي خشبة الخلاص في زحمة أمواج الهزيمة ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وكان من أبرز واجبات هؤلاء الجنود الذين كانوا من الملائكة.. تثبيت قلوب المؤمنين، وإعادة الثقة والبشارة إلى انفسهم كما في حرب بدر.

جاء في حديث ماثور عن الإمام الرضا عليه السلام انه قال: «**السَّكِينَةُ رِيحٌ مِنَ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ طَيِّبَةً لَهَا صُورَةٌ كَصُورَةِ وَجْهِ الْإِنْسَانِ فَتَكُونُ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ**»[1]. وقد تكون الملائكة المنزلين هي السكينة أو هم حملة السكينة ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ فالله لا يتدخل في الصراعات الاجتماعية عبثاً، بل إنما في الوقت الذي يكفر جانب ويؤمن ويصمد جانب آخر، فيجازي الكافر بكفره.

[٢٧] ولكن الهزيمة ليست نهاية أمة بل هي تجربة قد تصقل نفوسهم وتحدد أسباب ضعفهم، ويتوبون إلى الله من ذنوبهم فيتوب الله عليهم وينتصرون ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج٢١، ص١٤٧.

هكذا قضى الرب بنجاسة المشركين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٢٨) قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ[1] قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ (٣٠) ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ (٣١) ﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق بين القرآن بعض الشروط الضرورية للإنتصار، وفي هذا الدرس يحرض المسلمين على قتال المشركين والكفار، وعلى طردهم من المسجد الحرام دون خوف من فقر لأن الله هو الرزاق، وأمر الله بقتال أولئك الكفار من أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بالله

(١) يضاهئون: يشابهون.

ولا باليوم الآخر إيماناً حقيقيًّا ينعكس على ثقافتهم وسلوكهم، كما أنهم لا يلتزمون بشرائع الله وأوامر الرسول ﷺ، ولا يلتزمون بسيادة الدين الحق والنظام الحق، هؤلاء يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية خضوعا للحق (لا رشوة فيه) وهم صاغرون.

لقد قالت اليهود عزير ابن الله، كما قالت النصارى المسيح ابن الله، قالوا هذا الإفك بلا حجة أو إيمان راسخ، وذلك تشبها بقول الكفار والله يعلن عليهم الحرب بسبب هذه الضلالة التي وقعوا فيها. ذلك لأن هذه الضلالة وأمثالها جرتهم إلى التسليم لأوامر الأحبار والرهبان واتخاذهم أرباباً من دون الله. بينما أمرهم الله بعبادة إله واحد لا شريك له فسبحان الله عما يشركون.

بينات من الآيات:

إنما المشركون نجس

[٢٨] ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾: بهذه الكلمة فصل القرآن بين الفريقين الرئيسيين الذين يقسم الإسلام البشرية على أساسه، فريق الهدى وفريق الضلالة.. حزب الله وحزب الشيطان.. المواطنون في الدولة الإسلامية والأجانب، فما هي النجاسة التي جاءت في الآية؟.

جاء في بعض التفاسير:

اختلف في نجاسة الكافر فقال قوم من الفقهاء: «إن الكافر نجس العين وظاهر الآية يدل على ذلك، وروي عن عمر بن عبد العزيز، أنه كتب: امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، واتبع نهيه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ...﴾ الآية». وعن الحسن قال: «لَاتُصَافِحُوا الْمُشْرِكِينَ فَمِنْ صَافَحَهُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ» وهذا يوافق ما ذهب إليه اصحابنا من أن من صافح الكافر ويده رطبة وجب أن يغسل يده، وإن كانت أيديهما يابستين مسحهما بالحائط.

وقال آخرون: «إنما سماهم الله نجساً لخبث اعتقادهم وأفعالهم وأقوالهم، وأجازوا للذمي دخول المساجد»، قالوا: «إنما يمنعون من دخول مكة للحج». قال قتادة: «سماهم نجساً لأنهم يجنبون ولا يغتسلون ويحدثون ولا يتوضؤون، فمنعوا من دخول المساجد لأن الجنب لا يجوز له دخول المسجد»[1].

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٣٠.

ومن الناحية اللغوية النجس كل شيء مستقذر ويبدو أن للكلمة ثلاثة أبعاد:

الأول: إن الشرك عقيدة باطلة، والثقافة التي تبنى على أساس الشرك ثقافة فاسدة، وعلى المسلمين أن ينفصلوا عن المشركين جسديا حتى لا يتأثروا سلبيًّا بأفكارهم الفاسدة.

الثاني: إن المشركين لا يلتزمون بالنظام والشرائع الإسلامية خصوصا في حقل النظافة الجسدية، والوقاية الصحية، فعليهم ألا يدخلوا البلاد الإسلامية ذات الأنظمة الخاصة في الحياة، وبالذات في حقلي النظافة والصحة والخمر والخنزير والبول والدم أشياء نجسة تحمل معها الأمراض الخطيرة والمعدية، ومن يباشر هذه الاشياء يطرد من البلد الإسلامي مادام لا يلتزم بالشروط الصحية للبلد.

الثالث: البلد الإسلامي مستقل اقتصاديًّا ولذلك يجب أن يسعى نحو التكامل الاقتصادي والاكتفاء الذاتي، فلا يتعامل مع الأجانب، خصوصاً في حقل الأطعمة.

وفي الآية هذه إشارة إلى هذه الأبعاد دعنا نتدبر فيها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ والخطاب دليل على الهدف من الحكم التالي ببناء المجتمع المؤمن لا بيان الحقيقة العلمية فقط.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ فباعتبار المسجد الحرام مركز التوجيه الإسلامي فيجب تنظيفه من آثار العقيدة والثقافة المنحرفة الفاسدة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أي فقراً ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فباعتبار الاقتصاد الإسلامي يتعرض موقتاً لمشاكل بسبب المقاطعة الاقتصادية والإعتزال لذلك وعد الله سبحانه عباده المؤمنين بالتعويض وهكذا نجد أن المسلمين حين منعوا حج المشركين الذين كانوا يحملون معهم إلى البيت الحرام الطعام والملابس ليقايضوا به مع بعضهم أو مع سلع المسلمين، حينئذ عوضهم الله سبحانه بإسلام أهل نجد وصنعاء وجرش من اليمن، وحملوا الطعام إلى مكة على ظهور الأبل والدواب وكفى الله تعالى المسلمين ما كانوا يتخوفون.

من هم المشركون، وما واجبنا؟

[٢٩] وكما يجب محاربة المشركين عبدة الأوثان كذلك يجب مقاتلة أولئك الذين يتظاهرون بالدين وهم مشركون واقعاً كبعض أهل الكتاب الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر وهم الذين يتصفون بما يلي:

الأول: عدم الإيمان الحقيقي.

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾.

الثاني: عدم قبول الشريعة الإسلامية كمظهر بارز من مظاهر الإيمان الحقيقي وهم في دائرة الدولة الإسلامية.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فكيف يعتبر مؤمنا من لا يخضع لشرائع الله، وسياتي في آية تالية: أن التسليم لتشريعات الأحبار والرهبان يسلبهم الإيمان بالله ويجعلهم من عبدة الأصنام البشرية.

الثالث: رفض التسليم للنظام الإسلامي والدولة الإسلامية.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ الدين هو التسليم النفسي والخضوع القلبي لنظام أو شريعة، إن هذا الفريق إذا كانوا من عبدة الأوثان فيجب قتالهم حتى النهاية، ولكن إذا كانوا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ كاليهود والنصارى والمجوس، فإن قتالهم ينتهي إذا دفعوا الجزية ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ أي حتى يعطوا الجزية صاغرين استسلاماً لقوة الإسلام وقهر الدولة الإسلامية، إذ أن مجرد إعطاء المال للمسلمين لا يدل على سيطرة المسلمين على الساحة كما تدفع -مثلا- الدولة الغنية اليوم مساعدات مالية للدول الإسلامية الفقيرة بهدف استمالتها.

مظاهر الشرك

[٣٠] عقائد اليهود والنصارى في الإيمان كانت فاسدة، ومتأثرة بوثنيات المشركين من قبلهم ذلك لأن الفلسفة اليونانية التي كانت متأثرة بالشرك من الناحية الثقافية، وبالطبقية والعنصرية من الناحية الاجتماعية، وبالسياسية الطاغوتية من ناحية نظام الحكم، هذه الفلسفة وجدت طريقها إلى الديانات بسبب ضعف العلماء ومحاولتهم تبليغ الدين بكل وسيلة ممكنة، حتى ولو عن طريق تقديم تنازلات للأفكار والأوضاع الفاسدة، لذلك تجد آثار الأفلاطوبية الحديثة عند علماء هذه الديانات المنحرفة ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ربما لم يكن عامة اليهود والنصارى يزعمون هذا الزعم الباطل ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ فلم تكن فكرة منسجمة مع سائر أفكارهم وعقائدهم، بل كانت بسبب تأثرهم بالثقافة الغربية عنهم، وتسليمهم للضغوط الفكرية والاجتماعية ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

[٣١] تلك كانت في حقل الثقافة، أما في حقل التشريع والسياسة فإن اليهود والنصارى استسلموا للأحبار والرهبان وقبلوا تشريعاتهم دون أن يخضعوا لله ويعملوا بشرائعه

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ ﴾ الحبر: هو العالم الذي يقوم ببيان العلم وهو عالم النصارى واليهود ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ ﴾ الراهب: هو الذي يخشى الله، ويلبس مسوح العبادة، وهو عند اليهود والنصارى المتفرغ للعبادة الزاهد في الدنيا.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ فتركوا تعاليم الدين ونصوصه الواضحة، إلى اجتهادات الأحبار والرهبان التي تاثرت باهوائهم وظروفهم، كما تركوا عقلهم وفطرتهم ونصوص دينهم إلى الإستشهاد بسيرة المسيح بن مريم عليه السلام التي كانت مناسبة للظروف الموضوعية السائدة في عصره.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ لقد أمرهم الله في كتابه بتوحيده في العبادة والتشريع، وان يعتبروه وحده مصدر النور والتشريع، وان يتصلوا به مباشرة، وإن أخذ التعاليم من الأحبار والرهبان حتى ولو كانت متناقضة مع إلهام الفطرة والعقل والنصوص الصريحة من الدين يعتبر شركاً مهلكاً يبعد الناس عن حقيقة الدين وجوهره شيئاً فشيئا، ويجعل الدين دين البشر أي الأحبار والرهبان الخاضعين للجهل والجهالة، وضغوط الظروف. بينما الإتصال المباشر بمصادر الوحي يمنع هذه المشكلة إذ يصبح المؤمنون جميعاً شاهدين على الرسالة أوصياء عليها، وأعين لنصوصها ومنتفعين من عقولهم وفطرتهم في فهم تلك النصوص.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ الله منزه عما يشرك الناس به، فوحيه ورسالته وشرائعه لا تخضع للظروف او للأهواء بل هي كاشفة لحقائق الحياة، متناسبة مع السنن التي لا تتغير، ولذلك يجب على الناس الإستلهام مباشرة منها دون الإستسلام للاوصياء عليها من الأحبار والرهبان باسم الدين وترك حبل الرسالة على غارب رجال معينين.

وقد جاء في الأحاديث المأثورة عن عدي بن حاتم، أنه قال: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ. قَالَ: فَطَرَحْتُهُ وَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ صلى الله عليه وآله وَهُوَ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾-: حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ. فَقَالَ صلى الله عليه وآله: أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ. قَالَ فَقُلْتُ: بَلَى. قَالَ صلى الله عليه وآله: فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(١).

(١) بحار الأنوار، ٩، ص٩٨.

وروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام، إنهما قالا: «**وَالله مَا صَامُوا لَهُمْ ولَا صَلَّوْا لَهُمْ ولَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمْ حَرَاماً وحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالًا فَاتَّبَعُوهُمْ**»[1]. عن أبي بصير قال سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿ **ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ فقال عليه السلام: «**أَمَا وَالله مَا دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ دَعَوْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ أَنْفُسِهِمْ مَا أَجَابُوهُمْ وَلَكِنْ أَحَلُّوا لَهُمْ حَرَاماً وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمْ حَلَالًا فَعَبَدُوهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**»[2].

واليوم نجد الكثير من أبناء أمتنا الإسلامية تركوا نصوص الدين وإلهام العقل واستسلموا كليًّا لبعض أدعياء العلم والدين بالرغم من علمهم بأن هؤلاء يحرمون ويحللون حسب أفكارهم وأهوائهم، والضغوط الاجتماعية التي يتعرضون لها، أو يتبعون أحزاباً ومنظمات إتباعاً أعمى، ولكن هل يعذرهم الله وهم يهملون أكبر نعمة أسبغها الله عليهم وهي نعمة العقل والتفكير، ويحولون أنفسهم إلى أنعام ضالة وقد خلقهم الله بشراً سويًّا، هل يعذر الله والضمير رجلاً بصيراً، يغمض عينيه ويمشي مكباً على وجهه، حتى يقع في الحفرة.

إن أكبر المآسي البشرية في حقل السياسة والتشريع آتية بسبب التقليد الأعمى لذوي السلطة والشهرة.

---

(١) الكافي: ج١ ص٥٣.

(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص٩٨.

إنحراف أهل الكتاب عن رسالات الله

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٣٢) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٣٣) ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾.

هدى من الآيات:

لا يزال السياق يبين الفساد الذي تسرب إلى اليهود والنصارى من خلال تقليدهم الأعمى للأحبار والرهبان. ومخالفة الرسالة التي هي نور الله واحدة من مظاهر الفساد، ولكن هذه المخالفة الضعيفة لا تستطيع أن توقف انتشار النور، والله يتم نوره بالرغم منهم.

إن الله أرسل رسوله بكلمتين:

- الهدى: أي تكامل البشر عقليًا ونفسيًا.
- دين الحق: أي سلطة الحق والعدل لا منطق القوة وفي النهاية سوف ينتصر الحق على كل سلطة بالرغم من المشركين.

ويبقى سؤال: لماذا لا يجوز تقليد الأحبار والرهبان، في تعاليم دينهم؟.

والجواب: لأن كثيراً منهم خونة غير أمناء في الأموال فكيف يؤمنون على الرسالة؟ إنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ومجمل سلوكهم ليس في مصلحة المحرومين، بل بالعكس تراهم يصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله عزوجل.

فما هو جزاء من يكنز الذهب والفضة؟ إنه عذاب أليم في يوم القيامة حيث يحمى عليها حتى تلتهب في نار جهنم الحامية الشديدة التوقد ثم توضع على جباههم وجنوبهم وظهورهم حتى تكوى بها، ويقال لهم: هذا عاقبة الأموال المكنوزة.. أصبحت ضرراً عظيماً عليكم، بينما أردتم أن تصبح خيراً، فذوقوا ما كنتم تكنزون.

بينات من الآيات:

المؤامرات على الرسالة

[٣٢] الأحبار والرهبان وكل علماء السوء الذين اتخذوا الدين مطية لشهواتهم. ينصبون من أنفسهم حماة التقاليد الأصيلة والأفكار الرجعية، ويقاومون كل حركة تقدمية، وكل رسالة جديدة، وهذه رسالة الله عزوجل التي انزلت على خاتم الأنبياء لتكون مبعث ضياء عظيم في العالم يقف حولها هؤلاء وينفخون عليها كأنهم يريدون إطفاءها بأفواههم الحقيرة، فهل يقدرون؟.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ وحين يضيء الله نوراً لا يستطيع البشر أن يوقف إنتشاره، لأن الله القوي العزيز ينشره ويبلغه آماده وأبعاده حتى يحقق أهدافه.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي يمنع الله كل عقبة تعترض طريق انتشار الرسالة حتى تتم الرسالة وتبلغ اهدافها.

إن هدف علماء السوء دائماً هو إبقاء الناس في الضلالة وتجهيلهم، وسلب ثقتهم بعقولهم حتى لا يفكروا ولا يعرفوا شيئاً، ولكن الله الذي زود البشر بالعقل وبلور وأكمل العقول بالرسالة لا يسمح لإنسان أن يفقد بشراً قدرته على الفهم بل ينبهه، ويوقظ عقله، ويذكره بشتى الوسائل حتى يتم حجته عليه، وآنئذ تكون له الحرية في أن يرفض الاستغلال ويتحدى التقليد الأعمى ولا يستسلم أو يخاف أو يرضى بالخنوع والذل. ولعل الآية تشير إلى هذه الحقيقة أيضاً.

أهداف الرسالة

[٣٣] الله الذي أرسل الرسالة على يد الرسول، هو الذي يؤيد الرسالة في تحقيق الهدفين الأساسيين لها وهما:

ألف: توفير فرصة الهداية للناس حتى يتم الحجة عليهم، والهدف هو الوصول إلى الحقيقة ولا يصل البشر إلى الحقيقة إلا بالعلم بها والتسليم القلبي لها، ذلك لأن العلم الذي لا يشفعه الإيمان لا يكفي إذ يبقى الجحود والغفلة حاجزا بين البشر وبين الحقيقة، إنما عن طريق الإيمان، أو بتعبير آخر تسليم القلب للعلم الذي يكتشفه العقل يهتدي البشر، والرسالة ليست علما فقط بل وقبل ذلك هي تزكية للنفس وتنظيف للقلب عن الحواجز والحجب حتى يتقبل العلم، فهي إذا هدى وهذا واحد من هدفي الرسالة.

باء: أما الهدف الثاني فهو: إقامة سلطة الحق. سلطة العدالة والقانون، سلطة القيم والمبادىء، وذلك في مقابل سلطة القوة التي هي شريعة الغاب، ومنطق الجبارين ومن الواضح إن المجتمع إما تسوده شريعة الغاب أو شريعة الله. شريعة الحق و... ولأن الله الذي خلق الحياة منح قدرا من الحرية للناس إلا أن العاقبة هي للحق ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾.

الممارسات العملية للأحبار والرهبان

[٣٤] لماذا يجوز للإنسان أن يسمع كلام الطبيب والمهندس والخبير العسكري، ويتبع أوامرهم دون تحقق أو بحث بينما لا يجوز له أن يتبع الحِبر أو الراهب اتباعاً مطلقاً، أوليس العالم بالدين يشبه الخبير في سائر الحقول؟.

للإجابة، على هذا السؤال: الذي كان مطروحاً عند اليهود والنصارى أيضاً نستطيع أن نقول استلهاماً من القرآن: إن مراجعة الخبير.. أي خبير بحاجة إلى أمرين:

الأول: الثقة بأنه خبير فعلاً، فإنك لا تراجع طبيبًا تشك في معرفته بالطب.

الثاني: الثقة بأمانته وأنه لا يخونك. فرئيس الدولة لا يستقدم طبيبًا من الحزب المعادي وقائد الجيش لا يتبع نصيحة ضابط يشك في ولائه.

وكلما كانت القضية التي تراجع فيها أخطر كلما تحتاج إلى ثقة أكبر في علم الخبير وأمانته، ولكن قد يكون البشر غير عارف بأهمية قضيته فيراجع خبيراً من دون ثقة كافية كما كانت الحالة عند اليهود حيث أنهم لم يعطوا الرسالة أهمية كافية فإذا بهم يراجعون فيها الأحبار، والرهبان من دون ثقة كافية، بل مع علمهم بالمخالفات التي يحكم العقل والفطرة بأنها تتنافى والقبول بهم، لذلك يذكر القرآن هؤلاء بتلك المخالفات الدينية التي تسقط الأحبار والرهبان من صلاحية الإتباع والتقليد ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ

لِيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ إن أكل مال أحد بغير حق أبسط مخالفة يعرفها الجميع فطريًّا ودون حاجة إلى معلومات دينية مسبقة، والأعظم من ذلك أنهم كانوا يصدون عن سبيل الله، وسبيل الله هو كل خير، مثل الدفاع عن المظلومين والمستضعفين واعانة الفقراء والمساكين، والعمل من أجل بناء الوطن، وهكذا... إن هؤلاء كانوا يصدون عن سبيل الله بدل العمل في هذا السبيل.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وأيضاً تراهم يؤيدون التجار الذين يكنزون الذهب والفضة، بل هم أيضاً قد يصبحون تجاراً من هذا النوع.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ومن يكون عند الله معذبا هل يمكن تقليده واتباع أوامره ؟.

[٣٥] أما عذاب الله الذي ينتظر هذا الفريق من الناس فهو: إن ربنا سبحانه سوف يحمي هذه النقود حتى تلتهب، ثم يضعها على جوانبهم ليحرقوا بها ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ فبدلا من تحقيق هدفهم من الكنز، وهو الإنتفاع به أضرهم وأصبح نارا لاهبة تكوي أطرافهم ﴿فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾.

ما هو الكنز؟

سؤال: أي قدر من المال المخزون يعتبره الإسلام كنزاً، هل هو الزيادة على حاجة الفرد؟ أم هو أكثر من أربعة الاف دينار، أم هو المال الذي لا ينفقه الفرد في سبيل الله، ولا في بناء المجتمع -صناعيًّا أو عمرانيًّا أو زراعيًّا أو تجاريًّا- ولا يدخره لحاجة شخصية محتملة مثل مرض أو عالة. أم ماذا؟.

قد يكون الكنز بالذات حراماً للفلسفة المالية التي جاءت في سورة (الأنفال) فإن المال قيام للمجتمع، فتخزينه من دون فائدة إضاعة لجهود الناس، وتوقيف للحركة الاقتصادية، أما من يعتبر تخزين المال كنزاً مضراً بالمجتمع، فإن ذلك ومقدار الكنز يحدده القانون حسب الظروف المتطورة، وربما كان اختلاف الظروف سببًا في اختلاف الأحاديث المأثورة في حرمة الكنز، مما نذكر طيا بعضها للأهمية البالغة لهذا الموضوع الحساس في ظروف يتحالف فيها أدعياء الدين مع مستغلي الشعوب المحرومة ومصاصي دمائهم وذلك تحت غطاء حق الملكية الفردية التي يقرها الإسلام، ولكن في حدود المصلحة الاجتماعية، أما الأحاديث فهي التالية:

ألف: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَالٍ يُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وإِنْ كَانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرَضِينَ وكُلُّ مَالٍ لَا يُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ وإِنْ كَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ**»(١).

باء: روي عن علي عليه السلام: «**مَا زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَهُوَ كَنْزٌ أُدِّيَ زَكَاتُهُ أَوْ لَمْ تُؤَدَّ وَ مَا دُونَهَا فَهُوَ نَفَقَةٌ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**»(٢).

جيم: عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي تَفْسِيرِهِ، فِي سِيَاقِ قِصَّةِ أَبِي ذَرٍّ مَعَ عُثْمَانَ إِلَى أَنْ قَالَ: فَنَظَرَ عُثْمَانُ إِلَى كَعْبِ الْأَحْبَارِ فَقَالَ: «يَا أَبَا إِسْحَاقَ مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَدَّى زَكَاةَ مَالِهِ الْمَفْرُوضَةَ هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ فِيهِ شَيْءٌ؟». فَقَالَ: «لَوِ اتَّخَذَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ شَيْءٌ».

فَرَفَعَ أَبُو ذَرٍّ عَصَاهُ فَضَرَبَ بِهِ رَأْسَ كَعْبٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «يَا ابْنَ الْيَهُودِيَّةِ الْكَافِرَةِ مَا أَنْتَ وَالنَّظَرَ فِي أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ قَوْلُ الله أَصْدَقُ مِنْ قَوْلِكَ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾»(٣).

دال: فِي رِوَايَةِ أَبِي الْجَارُودِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ: **﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فَإِنَّ الله حَرَّمَ كَنْزَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَمَرَ بِإِنْفَاقِهِ فِي سَبِيلِ الله**»(٤).

مادام القانون يحدد المصلحة العامة فإن إختلاف الأحاديث يدل على الظروف المختلفة.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٩ ص٣٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٨ ص٢٤٣.
(٣) مستدرك الوسائل، ج٧، ص٣٦.
(٤) بحار الأنوار، ج٧٠، ص١٣٨.

النسيء عقدة الجاهلية، والاستنفار ضرورة جهادية

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا[1] عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾.

---

(١) ليواطئوا: المواطأة.. الموافقة.

هدى من الآيات:

بعد الحديث عن الكفار من أهل الكتاب، عاد القرآن مرة أخرى للحديث عن المشركين وضرب لنا مثلاً من انحراف الشرك ومسبقاً بين حكم الأشهر الإثني عشر التي يعتبر أربعة منها حرما، وبين أن الالتزام بهذه الاشهر هو الدين القيم، فيجب ألا يظلموا أنفسهم فيها وبعدئذ أمر المسلمين بقتالهم بلا استثناء، ووعدهم النصر اذا التزموا بالتقوى.

أما التلاعب باحكام الله، وتغيير الاشهر -حسب الأهواء- فإنه زيادة في الكفر، وضلالة يقع فيها الكفار حيث يحلون الشهر ذاته في عام بينما يحرمونه في عام آخر، ليكون المجموع بقدر العدد الذي جعله الله وهكذا يخالفون تعاليم الله عزوجل من دون وازع نفسي، بل زين لهم سوء عملهم لكفرهم المسبق ولأن الكفر يحجب الضمير، والله لا يهدي القوم الكافرين.

ويخاطب القرآن المؤمنين: لماذا لا يخفون إلى القتال حين يؤمرون به؟ هل من أجل الإكتفاء بالدنيا والرضا بها، بينما قيمة الدنيا في حسابات الآخرة قليل جدا؟.

بينات من الآيات:

الأشهر الحرم والاهواء الجاهلية

[٣٦] الشهور في السنة إثنا عشر شهراً، فالقمر يبدأ هلالاً وينتهي إلى بدر،ثم يتناقص حتى يغيب قبل أن يظهر مرة أخرى هلالا، كل ذلك خلال ثلاثين نهارا، ويتكرر هذا الامر كل شهر إثنا عشرة مرة، وعلينا -نحن البشر- أن نوافق أعمالنا حسب سنن الطبيعة لا حسب أهوائنا، وسنن الطبيعة هي الحق التي خلق الله السماوات والأرض عليها، ومن مظاهر الجاهلية العمل حسب الأهواء العاجلة دون تفكير في ظروف الطبيعة أو حتى دون معرفة بها والقرآن خالف ذلك قائلاً ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ففي كتاب الطبيعة كما كتاب التشريع، ومنذ أن أوجد الله الكون جعله جارياً على نظام ثابت متين وعلينا اكتشاف هذا النظام فنسعد بالتوفيق معه، وإلا فإن ذلك يسبب لنا متاعب كثيرة ينهانا الله عنها وينصحنا بعدم التورط فيها ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ والمشركون هم الذين يخالفون هذه الحقائق الكونية، وعلينا قتالهم لتصحيح مسارهم؛ كما أنهم يعتبرون عقبة في هذا السبيل بطبيعة جهلهم وفساد نظامهم ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾

إذن السبيل مختلف ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الملتزمين بمناهج الإسلام التي هي حالة مخالفة للعمل بالاهواء.

ما هو النسيء؟

[٣٧] إن تغيير أحكام الله مثل حكم الأشهر. وسائر الأحكام وذلك حسب مشتهيات هذا الحاكم أو ذاك، وشيخ هذه العشيرة ورئيس تلك الجماعة، فانه زيادة في الكفر.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ والنسيء بمعنى التأخير يقال: نسأت الإبل في ظمأها يوما أو يومين أو اكثر من ذلك والمصدر النسيء، وجاء في التفسير: «كانت العرب تحرم الشهور الأربعة وذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام وهم كانوا أصحاب غارات وحروب، فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى الصفر فيحرمونه ويستحلون المحرم فيمكثون بذلك زماناً ثم يزول التحريم إلى المحرم ولا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة»[1].

النسيء زيادة في الكفر

ويبقى سؤال: لماذا يعتبر ذلك زيادة في الكفر؟.

ربما لأن الاعتداء الذي كان الجاهليون يغيرون الأشهر من أجله هذا الإعتداء حرام بذاته فإذا غيروا حكماً شرعيًا وعقداً اجتماعيًا توافقوا عليه من أجل الإعتداء فإن ذلك يعني تجاوز كل القيم والمقدسات دون تغييرها، ومع الإعتراف بان الحرب فيها خطأ يرتكبونه، ولكن لماذا كان الجاهليون يغيرون الأشهر الحرم للقيام بالأعتداء على بعضهم؟.

لأنهم كانوا يحاولون التخلص من وخز الضمير، ولومة المؤمنين بالشرائع. تماماً كما يفعل الطغاة دائماً حيث يلبسون جرائمهم ثوب الشرعية فيلاحقون المطالبين بحرياتهم وحقوقهم تحت شعار المحافظة على الأمن، وربما بإسم الدين أيضاً، أو يضعون قوانين ما أنزل الله بها من سلطان ثم يحاكمون الناس على أساسها في الوقت الذي لا يملكون حق إصدار مثل هذه القوانين بل هذا بذاته أكبر الجرائم بحق الشعب.

وهكذا يصبح التبرير الذي يتذرع به المجرمون دافعا لهم نحو المزيد من الجريمة، والتخلص من روادع الجريمة النفسية والاجتماعية باسم ذلك التبرير، ولذلك أكد القرآن

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٤٠.

هنا: أن النسيء ليس زيادة في الكفر فقط بل هو سبب للضلالة والانحراف ايضا: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إنهم كانوا يحلون ذات الشهر مثلاً: (شهر ذي الحجة) في هكذا العام بينما يحرمونه في العام الآخر حسب خططهم الحربية، وهكذا كانوا يتلاعبون بالشرائع والقوانين.

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليجعلوا الأشهر الحرم أربعة كما قال الله تعالى، ولكن بعد تغيير محتواه حسب أهوائهم.

﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾ زين لهم الإعتداء، حتى غيروا أحكام الله من أجله، وهكذا لو جعل الفرد هدفه غير مرضاة الله وغير أحكام الله للوصول اليه وبرر فعلته الإجرامية، بأن الغاية تبرر الوسيلة.

بيد أن العملية كلها تسبب الضلالة والجحود لأن القلب البشري الذي يستهدف الوصول إلى مطامع ذاتية لا يبحث عن الحقيقة، فلا يهتدي اليها ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ذلك لأن الكفر -وهو هنا المخالفة العملية للواجبات- يؤثر على العقل فيسلب منه نور المعرفة.

[٣٨] قلنا أن أهم شيء يحدد فكر البشر وسلوكه هو هدفه الذي زين له فعشق الوصول إليه فإذا كان هدفه الله واليوم الآخر فإنه كما السائق الرشيد يقود سائر العجلات والأجهزة في سيارة الحياة على الطريق السليم وإلا فان كل العجلات تسير في طريق الإنحراف والهلاك. وهكذا ضل الكافرون ضلالاً، وهكذا يضل المؤمنون إذا لم يحذروا ويتقوا ويخلصوا أهدافهم، فلو كان هدف الفرد المتعة في اللحياة الدنيا لترك الجهاد في سبيل الله خوف الموت، وتثاقل عن تنفيذ أوامر الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي تثاقلتم وتباطأتم، وبررتم بتبريرات هدفها تأخير الحرب، مرة تقولون: الآن وقت الحر القائض، أفلا ننتظر حتى يعتدل الجو، ومرة تقولون: البرد شديد فلننتظر قليلا حتى تخف وطأته، ومرة تبررون بعدم الإستعداد الكافي للمعركة.

والنفور والتحرك في سبيل الله لا يختص بالحروب. اذ كل سعي نفر كما جاء. «النفر: الخروج إلى الشيء لأمر هيج عليه. ومنه نفور الدابة»[١].

ومما يؤسف له أن الكثير منا يبطىء العمل في سبيل الله بحجة أو بأخرى، والحجج كلها باطلة والسبب الحقيقي كامن في حب الدنيا.

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٤١.

﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ إن المؤمن الواعي يجب ان يكون مقتلعا من الأرض، متحرراً من جاذبية المادة، مندفعا في الإتجاه السليم الذي يأمر به الله لأن المتعة البسيطة في الدنيا لا تعادل أبداً راحة الآخرة. إن الدنيا زائلة قصيرة والمتعة فيها مشوبة بالصعاب بينما الآخرة باقية خالدة ومتعتها خالصة لا يشوبها خوف أو حزن.

سنة التحرك في الحياة:

[٣٩] التيار الرسالي يندفع في الحياة، كما سيل جارف يرعاه رب السماء، وتحركه كل سنن الحياة وأنظمتها، فإذا تركت أنا الجهاد فإنما أشذ عن حركة عظيمة وأهلكت نفسي.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فالراحة المنشودة من وراء ترك السعي والتحرك تتبدل بعذاب اتجرع ألمه ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ والتعزز والأنفة يسببان الاستغناء عني وعزلي عن شرف المسؤولية ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ وإذا فكرت في الانتقام فلا استطيع أن أنتقم من الحق أبداً ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إذ هو القادر على أن يسلب مني كل قوة أوتيتها فلم أستخدمها في سبيل تنفيذ أوامره فماذا يبقى لي غير خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

قصة الهجرة والانتصار

[٤٠] هل انتصرت الرسالة بي، فحين كنت بعيداً عنها سادراً في الغفلة والجهل من الذي نصر الرسالة أو ليس الله؟! فلماذا التعزز عليها؟!.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة المكرمة، زاعمين: أن هذا الاخراج يؤثر في مسيرة الرسالة التصاعدية ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ وهو أبو بكر حيث خرج معه للهجرة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ مطلع علينا محيط علمه وقدرته ولطفه بنا فلماذا الحزن ولماذا القلق.

جاء في التفاسير: قال الزهري: «لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله زوجاً من الحمام حتى باضا في أسفل الثقب، والعنكبوت حتى تنسج بيتاً، فلما جاء سراقة بن مالك في طلبهما ورأى بيض الحمام وبيت العنكبوت قال: لو دخله أحد لا نكسر البيض وتفسخ بيت

العنكبوت فانصرف»[1].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ على رسول الله ﷺ الذي تحمل ثقل الرسالة، وهكذا من يحمل الرسالة ويثبت فإن الله يبعث في قلبه الإطمئنان والدعة حتى لا تهزه الحوادث المتغيرة أو المشاكل الطارئة ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ هي جنود الملائكة في الغزوات، كما أنها جنود الحق المجندة في هذا الكون الرحيب، والتي لا يراها البصر العادي. إن سنن الحياة وأنظمة الكون كلها تدعم رسالة الحق وصاحب هذه الرسالة ولكن لا يشعر بها أحد ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰ﴾ لأنها لا تعتمد على قاعدة صلبة، أو أساس متين إنها تعتمد على الكفر بالحقائق وجحودها، فكيف تثبت؟ ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ لقد خلقت كلمة الله هكذا.. إنها هي العليا، وهي المنتصرة أخيراً ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فبعزته يجعل كلمة الكافرين السفلى بعد أن منح لهم الحرية لبعض الوقت حتى يبتليهم ويمتحن قدرة المؤمنين على الإستقامة، وبحكمته يدبر أمور الكون.

---

(١) مجمع البيان، ج٥ ص٤٤.

التعبئة العامة وتبريرات المنافقين

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا(١) قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)﴾.

هدى من الآيات:

يجب الجهاد بأية صورة ممكنة بالنفس والمال، بيد أن البعض يزعم أن الجهاد سفرة سياحية أو مكسب عاجل، وحين يكتشف أن الجهاد يتطلب طي مسافات متباعدة يتركه ويحلف بالله عزوجل إنه لا يقدر عليه، وأنه لو استطاع الجهاد ما تركه، بيد أنهم لا يضرون إلاّ بأنفسهم، وعلى القيادة الإسلامية أن تتخذ الجهاد وسيلة لكشف العناصر الضعيفة والمنافقة فلا تأذن لمن يستأذنها في ترك الجهاد. ذلك لأن المؤمنين لايستأذنون القيادة لأنهم يتطلعون نحو الجهاد بأنفسهم وأموالهم إيماناً منهم بالله واليوم الآخر، والله عليم بهم.

---

(١) عرضاً: العرض الشيء الزائل.

والكفار الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر أو يرتابون في ذلك هم وحدهم الذين يستأذنون.

بينات من الآيات:

الاستنفار والجهاد

[٤١] يجب النفر على الجميع بقدر استطاعتهم فقد يكون شاباً نشيطاً غنيًّا ليست لديه علاقة عائلية أو اجتماعية أو اقتصادية، أو يكون شيخا أو ضعيفا أو فقيرا ذا عائلة كبيرة وعلاقات اجتماعية واقتصادية تثقله عن الخروج.

والتحرك من أجل الله قد يكون جهادا أو عمرانا أو تمهيدا للجهاد، لذلك اكد القرآن على الخروج بصفة عامة وبصورة خاصة.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي سواء شق عليكم النفر أو لا، وقد يفسر النفر الخفيف بالسرايا المتحركة ذات المجموعات الصغيرة، بينما النفر الثقيل هو تحريك الجيش باسلحته الثقيلة، وإذا صح هذا التفسير فإنه يعني أن الجهاد أو العمران أو أي تحرك جماعي من أجل الإسلام ليس من مسؤوليات الدولة فقط وإنما كل مجموعة قادرة على القيام بمهمة رسالية فإن عليها أن تبادر من أجل تحقيقها.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والجهاد بالمال يعني بذل كل فائض مالي يمكن أن يبقى عند المسلم بعد الإنفاق على نفسه حسب القناعة والزهد، فالعامل الذي يقدر على الإكتفاء بثلثي أجره يحتفظ بالثلث الآخر ليجاهد به في سبيل الله، والموظف القادر على الإكتفاء بنصف راتبه يصرف النصف الآخر في سبيل الله، والمدير الذي يتمكن أن يعيش بثلث مدخوله يصرف الثلثين الباقيين في سبيل الله، وهكذا يعتبر الجهاد بالمال زيادة على مجرد إنفاق الضرائب المفروضة على كل مسلم وفي الظروف العادية كالزكاة والخمس، إنه إجهاد النفس في الاقتصاد وذلك بهدف الإدخار من أجل الهدف المقدس.

وقد نقوم بالجهاد المالي بطريقة أخرى وهي أن يتطوع الواحد منا بعمل ثلاث ساعات إضافية في اليوم لمصلحة الإسلام.

أما الجهاد بالنفس فليس فقط بالشهادة في سبيل الله عزوجل في لحظة المواجهة، بل وأيضاً بالعمل الجاد في سبيل الله، عملاً يستنفذ الجهد، وحتى لو كان عن طريق التطوع بيوم

عمل كل اسبوع لتحقيق هدف عمراني مثل بناء الجسور وتمهيد الطرق، واصلاح الأسلحة وصنع الوسائل الحربية والعمرانية.

والجهاد بالمال والنفس يكون في مرحلة الاعداد للمعارك، ولذلك قدم هنا الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس لأن الرأسمال ضرورة أولية لأي إعداد حربي.

والأمة التي تجاهد في سبيل الله تبني مستقبلها، وتشيد صرح استقلالها، وتحقق أحلامها في المدنية والرفاه. بينما المجتمع الأناني الذي يعمل كل فرد من أجل ذاته ومصالحه الخاصة، يتحطم في أول مواجهة مع عدوه أو ينهار عند نزول الكوارث الطبيعية، ويذوب إستقلالها في غمرة الصراع الحضاري. من هنا كان الجهاد خيراً للأمة من التقاعس، ويحتاج الناس إلى العلم بحقيقة الجهاد وإنه يعود عليهم بالنفع لأنه يحفظ استقلالهم ويبني حضارتهم. إن هذا العلم يدفعهم للمزيد من التضحية والجهاد لذلك قال ربنا: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

موقف المنافقين

[٤٢] بيد أن الجاهلين يريدون الجهاد سفرة قريبة أو غنيمة حاضرة ولو كان كذلك لكانوا أول المبارزين، ولكن الجهاد عمل شاق ولا يريدونه ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ القاصد هو السبيل الذي يقصد لقربه وسهولته. بينما الشقة هي المسافة البعيدة أو الوعرة التي من الصعب تجاوزها والسير فيها. يتعلل المنافقون على ذلك بأنهم لا يقدرون القيام بالأسفار البعيدة.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وهكذا كل كسول يزعم إنه لا يقدر على القيام بأي شيء ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بسبب كسلهم وتقاعسهم عن الجهاد. إذ أن الكسل عن العمل يفقد صاحبه قدراته ومهاراته، كما يفقده فوائد العمل ومكاسب الجهد الخارجية.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وعلى البشر أن يسعى حتى لا يكون ممن يعلم الله عزوجل كذبه ولا يكون ذلك إلا بالاخلاص في العمل، وزيادة الجهد والعمل قدر المستطاع.

تعرية الطبقات الفاسدة في المجتمع

[٤٣] من فوائد الجهاد والأعمال الصعبة التي يكلف بها المؤمنون فرز العناصر الكسولة

المتجمعة حول الرسالة طمعاً في الجاه والمال. ذلك لأن تواجد هؤلاء في مجتمع الرسالة يربك القيادة، ويضعف المجتمع فلا تستطيع القيادة إعطاء أوامر حاسمة لعدم إيمانها بتنفيذها، كما لا يستطيع المجتمع تنفيذ الخطط الطموحة، وغالباً ما يكوّن هذه العناصر المتملقون الذين يشغلون المناصب الحاسمة في المجتمع، فعن طريق تكليفهم بالواجبات الصعبه وعدم قيامهم بها يتم تعريتهم ومن ثم تصفيتهم. لذلك يعاتب الله رسوله على إعطاء هؤلاء إذنا بعدم الإشتراك في الجهاد حيث كان ذلك الإذن غطاء لعدم كشفهم على واقعهم أمام المجتمع.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وكأن الرسول ﷺ أراد حكمة: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [التوبة: ٤٧] وكأن هذه الآية تحقق الحكمة الأخرى بتعرية المنافقين، وهكذا تتحقق الحكمتين فهو عتاب ظاهر لإلفات نظر المؤمنين إلى حقائق المنافقين.

[٤٤] ذلك لأن المؤمنين لا يتركون الجهاد فيعرف المنافقون التاركون للجهاد تحت غطاء الإستئذان ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين يخشون الله تعالى لا يتركون الجهاد إلا بعذر حقيقي.

[٤٥] ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ففي كثير من الأحيان يزعم الإنسان إنه مؤمن بينما قلبه مرتاب يشك في الله واليوم الاخر.

والأعمال الصعبة كفيلة بكشف هذا الإنسان لنفسه وللآخرين، والريب ينعكس في عدم القدرة على اتخاذ القرار الحاسم والتردد في الامور ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي يقلبون الأمور ويذهبون ويعودون.

هكذا تقاعس المنافقون عن الجهاد

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) ﴾.

هدى من الآيات:

لايزال الدرس هذا يُبين لنا صفات المنافقين وتصرفاتهم إزاء الجهاد، ويعطينا عدة مقاييس لتمييرهم وكشف كذبهم:

ألف: إن المنافقين لا يريدون الجهاد بدليل أنهم لم يعدوا له عدة، ولو أرادوا الخروج

للحرب لهيأوا وسائله سلفاً، لذلك ثبطهم الله عزوجل وسلبهم عزيمتهم وجعلهم يقعدون مع الدين لا يملكون قدرة الخروج.

بـاء: ولو تحاملوا وخرجوا للحرب فلا يهدفون فعلا الجهاد، بل كانوا كلا وعناء للمسلمين.

جيم: وفي أرض المعركة يثيرون الفتنة ويفسدون علاقة المؤمنين ببعضهم بإثارة النعرات الجاهلية، والحساسيات الباطلة.

دال: وهم بالتالي جواسيس وعيون للأعداء على المؤمنين، والله يعلمهم ويعلم طبيعتهم الظالمة والدليل على هذه الحقائق تأريخهم السابق حيث كانوا من قبل يحاولون إثارة هذه النعرات، وتغيير مسار الأحداث بإتجاه مضاد للرسالة، ولكن الله اظهر أمره باذنه وهم كارهون.

ومن المنافقين من يقول للرسول: أعطني إذناً بالتخلف عن المعركة حتى لا أضطر إلى ترك أمرك وعصيانك بينما هذا الإستئذان ذاته عصيان وتخلف عن الواجب: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]، فسواء خرجوا أو تخلفوا فإنهم في النار لأنهم أساساً من الكافرين. والكافر لا يصلح عملاً ولا يفلح مصيراً.

هـاء: ومن علامات المنافقين أنهم يفرحون كلما ينهزم المسلمون ويحزنون كلما ينتصرون. ويزعمون أن انفصالهم عن ركب الرسالة دليل على كمال عقلهم وحذرهم حيث لن يصيبهم ما أصاب المؤمنين، ويقول ربنا إن المصائب مكتوبة على الإنسان ومقدرة من قبل الله سبحانه، والمؤمنون لا يخشون المستقبل لأنهم يتوكلون على ربهم، ونهاية ما يمكن ان يصيب المؤمنين هو القتل في سبيل الله وهو احدى الحسنين، أما الإنتصار فهو عاقبة حسنى معروفة، بينما المنافقون إما يموتون فيعذبون عند الله او يبقون فيعذبون على يد المؤمنين. إذا الوقت في صالح المؤمنين والنهاية لهم على أية حال.

بينات من الآيات:

ما هو الجهاد؟

[٤٦] هناك جدل كبير في علم أصول الفقه حول هذا السؤال: هل يجب تهيئة الوسائل الضرورية لتنفيذ الواجبات أم لا؟ بيد ان العقل يحكم بأنك حين تريد الوصول إلى القمة فعليك أن تتسلق الجبل، ولا معنى أساساً لقرارك هذا إلاّ الإندفاع في الطريق الذي يوصلك إلى هدفك وهو بلوغ القمة، وهل يعني ضرورة وجود المسكن إلا القيام عمليّاً ببناء البيت أو شرائه.. هل

يعني الحصول على الشهادة العليًا إلا الدراسة المستمرة في الجامعة؟!.

إن الواجب ليس نهاية السعي، بل أن الواجب هو السعي ذاته الذي ينتهي بالطبع إلى النهاية أو يعذرك إذا لم تصل إلى النهاية بسبب خارج عن إرادتك.

ويذكرنا القرآن بهذه الحقيقة الواضحة عقليًا ويقول: إن الجهاد لا يعني إلا توفير وسائله فالجهاد ليس فرضاً موهوماً أو تصوراً جامداً. الجهاد هو مجموعة اجراءات عملية متدرجة ينبعث نحوها المؤمن يوماً، وفيما يلي نذكر بعض هذه الاجراءات:

ألف: الجهاد يعني الاستقلال عن الآخرين وعدم الخضوع لأوامرهم أو لضغوطهم، وبالتالي إعلان الصراع معهم.

باء: ويعني توفير فائض من الجهد ليدخره المجتمع من أجل إدارة الصراع، والقيام بضروراته، ذلك لأن الاستقلال يعني المحاصرة الاقتصادية والضغوط السياسية، ونقص الثمرات وعدم التبادل التجاري مع أطراف أخرى غير الأعداء وذلك بسبب عدم أمن الطرقات، ويعني الاستقلال وبالتالي الإكتفاء الذاتي في كثير من الحقول. وهذا لا يكون إلا بجهد إضافي.

كما يعني الجهاد إدخار المؤن، وصنع السلاح والذخيرة، وتموين الجيش، وتمويل المؤسسات العسكرية، وكل ذلك بحاجة إلى فائض من الجهد.

جيم: الجهاد يعني في بعض المراحل تطوير الاقتصاد لكي يكون اقتصاد حرب يستخدم كل شيء من أجل المعركة باستثناء الضرورات الحياتية.

دال: والجهاد يعني: التدريب المتواصل لكل القادرين على حمل السلاح أو لا أقل للجيش المحارب، والتدريب بدوره قد يطول سنيناً وأعواماً من تدريب القادة والضباط وإلى تدريب الفرق الخاصة وحتى تدريب الجنود العاديين.

هاء: والجهاد بحاجة إلى تقوية الروح المعنوية، وشحذ العزائم، وإعداد النفوس لتحمل الصعاب.

وهكذا يكون شكل المجتمع المحارب مختلفا كليًا عن شكل المجتمع السادر في غياهب الاستسلام والتخلف، لذلك اكد القرآن على هذه الحقيقة بالنسبة إلى المنافقين الذين يتشدقون بالمعركة دون أن يصدقوا لعدم القيام بالإعداد لها.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ والدليل على صدق النية، وسلامة العزيمة الإندفاع نحو الهدف ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ أي اندفاعهم وتحريك الارادة لهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي أفقدهم إرادتهم وأقعدهم الأرض ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ الذين لا حول لهم ولا قوة، ولا فرق بين العاجز عن التحرك، والمثبط الذي لا يملك ارادة التحرك.

وهكذا نجد اليوم العالم الإسلامي يتحدث عن الاستقلال دون أن يهيء وسائله أو يتحدث عن مقاتلة الأعداء الحربيين دون أن يعد نفسه جديًا لهذه الحرب.

الطابور الخامس

[٤٧] المنافقون لا يخرجون للحرب، أما لو خرجوا فليس للحرب ضد العدو، بل ضد المسلمين وذلك بطرق:

أولاً: إنهم سوف يطالبون القيادة أبداً بالسلاح والوسائل الرفاهية حتى يتعبوا القيادة ويكونوا زيادة عناء فوق عناء الحرب.

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم ﴾ أي في صفوفكم ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أي عناء، يقول العرب: هو خبال على أهله، أي كل عليهم، وكل عناء يفسد ولا يصلح لأنه يمتص الجهود دون أن يقدم شيئا لذلك فسر الخبال هنا بالفساد والعجز.

ثانياً: إنهم مسارعون إلى الفتنة، والفرقة بين المسلمين، بل إنهم يسارعون بين الصفوف ينقلون لهذا كلاماً ضد ذاك، فإذا غضب وبدرت منه كلمة ضخموها وحملوها إلى الآخرين.

إنهم بالتالي يقومون بدور الطابور الخامس للعدو ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾ الكلمة مأخوذة من الإيضاع يقال: أوضع الإبل في سيره أي أسرع والخلال يعني في صفوفكم. أي أنهم يسرعون بين الصفوف بهدف الفتنة ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ أي يريدونكم أن تتحولوا إلى قطعة من الخلافات الداخلية والبرود عن المعركة.

ثالثاً: إن هؤلاء جواسيس للأعداء عليكم ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وكل ظالم ينتهي مصيره إلى هذه العاقبة، وهكذا علينا ألا ننظر إلى ظواهر الاشخاص، بل نفكر في تأريخهم وسلوكهم السابق وكيف أنهم كانوا يعملون سابقا فإنهم يعملون ذلك مستقبلاً.

مراجعة السوابق

[٤٨] يذكرنا القرآن بماضي المنافقين الاسود، وكيف أنهم كانوا في أيام السلم يقلبون الأمور لرسول الله ﷺ، ويصورونها تصويراً مقلوباً ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾.

جاء في التفاسير وقلبوا لك الأمور: «أي صرفوها من أمر إلى أمر، ودبروا لك الحيل والمكائد، ومنه قول العرب حول قلب، إذا كان دائراً حول المكائد والحيل يدير الرأي فيها ويتدبره»[1].

وجاء: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾: «أي احتالوا في توهين أمرك وايقاع الاختلاف بين المؤمنين وفي قتلك بكل ما أمكنهم فلم يقدروا عليه، وقيل: إنهم كانوا يريدون في كيده وجها من التدبير فإذا لم يتم ذلك فيه تركوه وطلبوا المكيدة في غيره فهذا تقليب الأمور عن أبي مسلم»[2].

وأتصور أن تقليب الأمور للرسول ﷺ (ولم يأت عليه) يعني: تبيانها بصورة غير صورتها الحقيقية وذلك للإشارة إلى مدى كذب هؤلاء على الرسول ﷺ وتمرسهم في الإشاعات الباطلة والله العالم.

ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل فهذا الدين قد ظهر، وذابت تلك الاشاعات في حرارة الإنتصار وتحقق الرسالة ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ كانوا يحاولون أبداً تحوير الحقائق بأفواههم وإطفاء نور الله بما يخرج من أفواههم من ألفاظ فارغة لا تعني شيئاً.

واقع المنافقين

[٤٩] إن بعض المنافقين يريدون تطويع الدين لشهواتهم وأهوائهم ويطالبون القيادة الدينية بأن تسمح لهم بارتكاب بعض المحرمات. زعما منهم أن لهم الحق في ذلك ويهددون القيادة بأنها لو لم تأذن لهم بمثل ذلك لتركوا الدين ولخالفوا أوامر الله، وتكون الخطيئة على عاتق القيادة التي استصعبت عليهم الأمور، فهل هذا صحيح؟، كلا: إذ أن الدين هو المهيمن

(١) فتح القدير: ج٣ ص٣٦٧.
(٢) مجمع البيان: ج٥ ص٤٩.

على تصرفات البشر، والقائد لمسيرته لا العكس كما يريده المنافقون، وبالتالي يجب أن يتبع الدين لا أن يتبع، ومن جهة أخرى محاولة المنافقين بتطويع الدين لشهواتهم ومطالبتهم بالإذن لمخالفة تعاليم الدين، هذه المطالبة ذاتها خروج عن الدين وكفر به. إذ ليس بدين ذلك الدين الذي يتخذ مطية لأهواء المنافقين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي لا تمتحني وتجبرني على ترك واجب الجهاد، بل إئذن لي بتركه حتى يكون تركي للجهاد مسموحاً شرعيًّا.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ وأي فتنة أكبر من الاستئذان بترك الجهاد.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فإن سيئات أعمالهم وما كسبته قلوبهم وانفسهم من الرذائل والخطايا هي بذاتها نيران كامنة في صورة نيران ملتهبة، أو عقارب وحيات في يوم القيامة وما دام البشر قد اختار طريقاً منحرفاً فإن كل أعماله ستكون وبالا عليه. كما إذا اتخذ قائد الجيش خطة خاطئة فإن أساليبه وعلمياته ستكون كلها باطلة وغير نافعة.

معرفة المنافقين بعد الإنتصار

[٥٠] بسبب كفر المنافقين وعدم إيمانهم بالله وبالرسالة يرون أنفسهم منفصلين عن المجتمع الرسالي، فإذا غنم المسلمون شيئا حزنوا لأنهم لم يكونوا معهم حتى يغنموا مثلهم، وإن خسر المسلمون المعركة وانهزموا فرحوا زاعمين أن تخلفهم عن المعركة كان بسبب صحة مواقفهم وسلامة عقولهم، وازدادوا بذلك ابتعاداً عن الجبهة الإسلامية.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي كنا عارفين بالعاقبة، وقد اتخذنا الإحتياطات اللازمة لمواجهة الموقف وذلك بعدم الإشتراك في الجبهة ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ لأنهم في زعمهم لم يخسروا شيئاً.

وهكذا يعمل المؤمن ويجلس المنافق يراقب الموقف ليعلق على النتائج.

كيف نتصرف عند المصائب؟

[٥١] ولكن هل الخسائر التي تلحق الرساليين في ساحة المعركة كلها خسائر. أم أنها أقدار كتبها الله عليهم لحكمة بالغة، فدماء الشهداء تكرس في المجتمع القيم الرسالية وإذا لم يقتل الشهداء فإنهم لا يخلدون في الحياة بل كانوا يموتون بسبب أو بآخر ولكن حين استشهدوا

وأريقت دمائهم من أجل الرسالة جرت تلك الدماء الزكية في عروق الآخرين لتتحول إلى عزيمة راسخة وصلابة واستقامة.

وهكذا الخسائر المادية زكاة لأموال المسلمين، والجهود المبذولة زكاة لأبدانهم تطهرهم وتؤهلهم لمسؤولياتهم القيادية، لذلك قال ربنا: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ فلا حزن مما كتب الله.

ثم إن الله الذي قدر علينا المصيبة هو صاحب النعمة التي سلبها فليس علينا أن نناقش ربنا فيما يكتبه ويقدره ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لذلك فهم لا ينهزمون نفسيًّا مما يقدر الله عليهم من الهزائم، بل يعلمون إن الهزيمة خطوة إلى الوراء، وخطوتان إلى الأمام بإذن الله، وبفضل التوكل عليه.

النصر أو الشهادة

[٥٢] وأسوأ الإحتمالات عند المنافقين يعتبر عند المؤمنين أحسن الإحتمالات، أو ليس الموت آخر ما يخشاه المنافقون، ولكنه أفضل ما يتمناه المؤمنون أما النصر فهو أمل الجميع وقد يبلغه المؤمنون.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ أما النصر أو الشهادة في سبيل الله.

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ وننتظر لكم واحداً من عذابين فأما العذاب في الدنيا بهزيمتكم، وأما العذاب في الآخرة وذلك بالنصر الظاهر لكم في الدنيا وزيادة ذنوبكم وتحولها إلى عقاب شديد في الآخرة.

﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ فالجميع ينتظر العاقبة، والفارق إن الرساليين سيربحون الموقف أما الكفار والمنافقون فإنهم سوف يخسرونه لا محالة بإذن الله تعالى.

المنافقون والتظاهر بالدين

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (١) (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٢) (٥٧) ﴾.

هدى من الآيات:

استمراراً للحديث عن سلوك المنافقين في الحرب، يُبين هذا الدرس موقف المنافقين من المال وكيف أنهم لا ينسون أنفسهم كما يفعل المؤمنون، بل لا يزالون حريصين على المال فلا ينفقون منه ولا يتقبل الله منهم نفقاتهم، لأنهم يعطونها رياء، وأما أموالهم وأولادهم فهي عذاب لهم في الدنيا وغرور يدفعهم نحو الإستمرار في الكفر.

إن علاقة المنافقين بالمؤمنين تحددها مصالحهم الخاصة، فإذا وجدوا مغانم ومكاسب بادروا إلى تسجيل أسمائهم مع المؤمنين وإلا تهربوا من المجتمع المسلم وذهبوا إلى شياطينهم ولكن مع كل ذلك تراهم يحلفون بالله أبداً إنهم من جماعتكم، والواقع إنهم مع مصالحهم ولذلك تراهم كل يوم مع جماعة.

---

(١) يفرقون: الفرق ارعاج النفس بتوقع وأصله من مفارقة الأموال حال الانزعاج.

(٢) يجمحون: الجماح مُضي المار مسرعاً.

بينات من الآيات:

إنفاق المنافقين رياء أو خوفا

[٥٣] جاء في بعض الأحاديث، إن إبليس قال لربه بعد أن أمره بالسجود لآدم: اعفني عن ذلك وساقوم بسحدة لك طولها أربعة الآف عام. قال له الله: اني أريد الطاعة ولا أريد العبادة.

وهكذا أحكام الشريعة ليست مطلوبة بذاتها بل إنها في حدود الأوامر التي تفرضها فمثلا لو تركت صلاة الصبح وهي ركعتان عمداً، ثم صليت بدلا عنها عشر ركعات في غير وقت الصبح فإن ذلك لن يقبل منك وتكون آنئذ مثل من لا يحمل جواز السفر عند مروره على الحدود الخارجية للبلد ولكنه يظهره عند شراء الحاجيات من المحلات التجارية فهل ينفعه ذلك؟!.

والمنافقون لا يطيعون الأوامر القيادية ثم يقومون ببعض العبادات التي لا تؤثر على مواقفهم فلا يقبل ذلك منهم، فهم يتمردون على أمر القيادة بالجهاد، ولكنهم يريدون تعويض بالإنفاق مكان حضورهم في الجبهة فإن الله لا يتقبله.

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ فالفاسق الذي يرفض الإنقياد لأوامر السلطة الشرعية لا تقبل منه نفقاته لأن هذه النفقات ليست لله بل لتعزيز مكانته، أو تزلفاً للسلطة، لئلا تضرب مصالحه، ومثل هؤلاء في بلادنا مثل بعض كبار أصحاب الثروة الذين التزلف للمؤسسات الدينية بدفع بعض المال تحت غطاء الانفاق في سبيل الله، وما هي إلاّ رياة أو لمآرب أخرى!. وإن على تلك الجهات أن ترفض تلك التبرعات أو تقبلها دون أن تتقبلها بل تبقى في عدائها المستمر للإستغلال والإبتزاز.

إن بعض الدول الغنية تقوم ظاهرا بدفع مبالغ لهذه الجهة أو تلك باسم خدمة الإنسانية، ولكنها تستغل الناس وثروات بلدها لمصلحة شياطين الدنيا.

إن على كل الجهات الدينية، والجماعات الرسالية الناشطة ان تتفهم دوافع الإنفاق الذي يبذله البعض وتتحذر من شرك الرشوة والفساد.

[٥٤] ويفصل القرآن دوافع المنافقين من الإنفاق والسبب الذي يرفض الله تقبل إنفاقهم من أجله ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ﴾ فلم يطبقوا واجبات التسليم للسلطة الشرعية ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ فلم يتجذر الإيمان في نفوسهم وإنما يُصلّون للعادة أو للرياء ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾ إنفاقهم إنما هو بسبب خوفهم من السلطة أو لمصالح يتبعونها، فحتى لو كان الإنفاق طوعاً فإن

دافعه ليس الإيمان بل الخوف، فهو مثل من يخاف من الإقامة في بلد فيبيع بيته ليهرب بنفسه فالبيع ظاهرة طوعية. إذ أنه يقدم عليها بلا إجبار ويتوسل بالناس أن يشتروا منه بيته ويفرح لو وجد من يشتريه منه بأي ثمن، ولكن مجمل العملية يكون بالإكراه لأن الدافع الأساس للبيع هو الخوف.

وربما كان في الآية الأولى دلالة على أن الدولة الإسلامية تجبر المنافقين على دفع الضرائب وخلافها، ولكن الله لا يثيبهم عليها.

لماذا أعداء الرسالة متنعمون؟

[٥٥] قد يستهوي ظاهر المنافقين طائفة من المؤمنين والرساليين فيفكرون في كسبهم لاستقطاب إمكاناتهم المادية لمصلحة الرسالة وبذلك يقدمون تنازلات لهذه الطائفة الفاسدة، والقرآن يحذر من ذلك بشدة ويبين أن إمكانات هذه الطائفة لا تنفع الرسالة لأنها متصلة بسلوك فاسد وضمائر فاسدة وهي بالتالي نتيجة وضع فاسد، وإفراز لوضع فاسد فهي تضر ولا تنفع.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ إن الثروة التي جمعت من الإبتزاز والسرقة والإستغلال سحت وفساد وهي لا تصلح ان تكون في خدمة الرسالة كذلك الولد الناشيء في بيت الدلال والميوعة وبالتربية الفاسدة لا ينفع كسبه شيئاً.

ولكن لماذا أعطاهم الله عزوجل المال والولد؟.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فالمال السحت والولد الفاسد ليس نعمة بل نقمة يعذب بها صاحبها ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ فالغنى والشرف الاجتماعي يعطيان الفرد غرور العظمة؛ فيكفر بالله ولا ينتبه لواقعه الضعيف البائس إلا بعد الموت.

[٥٦] والمنافقون ليسوا من المجتمع المسلم، لأنهم لا يشاطرون الأمة مصاعبها ومصائبها ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ فمن شدة خوفهم تراهم يتظاهرون بانهم منكم، ولكنهم قوم يفرقون أي يخافون لا أكثر ولا أقل.

[٥٧] ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ والدليل على أن تظاهرهم بالدين إنما هو من خوفهم: إنهم لو وجدوا أي وجه للفرار منكم لاسرعوا إليه، كما لو وجدوا قوماً يلجأون اليهم. أو وجدوا كهوفاً في الجبال ومغارات. أو حتى أنفاقا وأسرابا في الأرض لرأيتهم يتجهون إليها. وهم يسرعون من دون أن يمنعهم وفاء بالعهد، أو بقية ذمة او ضمير.

كيف تصرف الصدقات؟

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

الإنتماء إلى القيادة الرسالية عند المنافقين إنما هو إنتماء مصلحي، فإن أعطوا من الصدقات وبيت المال شيئاً رضوا وإلا فإنهم سوف يسخطون، وهم يشيرون إلى ذلك من خلال كلماتهم وتصرفاتهم!

بينما الإنتماء السليم: هو الإنتماء الإيماني الذي يسلم الفرد نفسه لله وللرسول وللقيادة الرسالية ويطمئن نفسيًا بأوامر القيادة إنتظاراً لفضل الله الكبير المتمثل في الرخاء والرفاه لكل أبناء المجتمع، وذلك لا يكون إلا بعد الرغبة إلى الله.

أما الصدقات وأموال بيت المال فهي ليست لمن أراد، إنما هي للضعفاء من أبناء المجتمع -الفقراء والمساكين والموظفين العاملين على الصدقات والجنود- الذين يؤلف قلوبهم من سائر الاديان ليحاربوا إلى جانب الدولة الإسلامية والعبيد المديونين الغارمين. وفي سبيل المصالح العامة، ومنها الذين ينقطع بهم الطريق وتنتهي نفقاتهم وزادهم... هذه هي مصارف الصدقات والله عليم بالحاجات الحقيقية حكيم يأمر بها فيه المصلحة.

بينات من الآيات:

الانتماء المصلحي

[٥٨] الفرق بين تركيبة المجتمع المسلم الرسالي وبين المجتمعات الأخرى. أن الحبل الرابط بين أبناء المجتمع الرسالي هو المبدأ فالإيمان بالإسلام هو الذي يجعل مجموعة من البشر المختلفين (ثقافيًا، طبقيًا، عنصريًا، ولونًا، ولغةً، وقوميًا) يذوبون في بوتقة الأمة الواحدة ذات القيادة القويمة القوية.

وكل فردٍ يسلم عمليًا ونفسيًا لهذه القيادة ويجعل إنتماءه إليها مشروطاً بمدى تجسيد القيادة للقيم الرسالية وتنفيذها للواجبات الدينية.

لذلك ترى القيادة هنا متحررة من الضغط والاغلال فلا تخشى إنهيار صرح قيادتها لو خالفتها طبقةً أو سحقت امتيازاً أو ألغت عادة عشائرية شاذة.

الإنتماء إلى القيادة ليس على أساس المصالح المادية حتى إذا فقدت القيادة الثروة ضعفت أو انهارت، ولا هي قائمة على أساس عشائري أو قومي حتى تكون قائمة على ظلم سائر العشائر والقوميات، واعطاء المزيد من الامتيازات لهذا أو ذاك، كلما شعرت بالضعف.

أما المنافقون فإنهم يريدون القيادة بقرة حلوب يحبونها مادامت تعطيهم لبناً سائغاً، وإلا فهم ينقلبون عليها ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ أي يتصرف بطريقة توحي باستعطائك من الصدقات.

والصدقات - حسبما يبدو لي - كل الأموال التي ينفقها المؤمنون بوازع إيماني ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ على القيادة ويعارضونها.

[٥٩] بيد أن تشجيع العمل الصالح في المجتمع. إنما يتم بتكافؤ الفرص الذي يضمنه القانون الإسلامي وتطبقه القيادة العادلة النابعة من إيمان الجماهير بالإسلام، وتسليمهم النفسي للقيادة. إن هذا القانون هو الذي يدفع الجميع إلى العمل البناء ويوفر الأمن والتقدم للجميع.

وهو بالتالي أنفع من أصحاب الامتيازات الباطلة الذين يحاولون تحريف المجتمع باتجاهها ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ فحين تلغى الإمتيازات يتقدم الجميع بسبب العمل البناء الذي ينعكس على كل حقول الحياة الاجتماعية والاقتصادية ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ فحتى لو لم أحصل

شحصيا على مكسب في الدنيا، فإن الجزاء في الآخرة سوف يتضاعف.

أين تصرف الصدقات؟

[٦٠] أما مصارف الصدقات فتكون في الطائفة الضعيفة وليس لأصحاب الإمتيازات ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ الفقراء هم الطبقات المحرومة التي لا يفي دخلها بمصارفها حسب المستوى الاجتماعي في ذلك العرف، أما المساكين فهم المعدمون الذين أسكنهم الفقر والعجز عن الإكتساب ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أي القائمون على الصدقات من الموظفين ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ من الجنود الذين لم يدفعهم الإيمان إلى الانخراط في هذا السلك، بل العوز وهم غالباً يكونون من غير المؤمنين ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ وهم العبيد الذين يعتقون من بيت المال ليعاد لهم حريتهم السليبة بسبب الأسر ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ ﴾ الذين لا يقدرون على الوفاء بديونهم ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي في كل مصلحة أمر بها الله من بناء الجسور، وتعبيد الطرق، وإقامة المشاريع الإنمائية، والخدمات الصحية.. وما أشبه ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر الذي انقطع عن أهله ولا يملك ما يوصله اليهم، فيدفع إليه زادا ونفقة كافية ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وبتحديد مصارف الأموال العامة خصوصا بعد ذكر كلمة الحصر ﴿إِنَّمَا ﴾ ينقطع أمل المنافقين من الطفيليين وأصحاب الإمتيازات، فلا يطمعون في إبتزاز القيادة الإسلامية.

وإننا نجد في سلوك الإمام علي عليه السلام مع أخيه عقيل رضي الله عنه، أو مع أصحاب الامتيازات الباطلة الذين ساوموه على بعض الاقطاعات فرفض عليه السلام فكان منهم أن حاربوه، ما يجعلنا نفهم بعمق طبيعة القيادة الرسالية.

لقد جاء عقيل رضي الله عنه إلى علي عليه السلام وهو أمير المؤمنين يطالبه بزيادة في العطاء -وقد أملق إملاقا- فحمى علي عليه السلام حديدة وقربها إلى يده وكان عقيل ضريراً وكريماً ينفق ما عنده، وكانت له عائلة كبيرة، فمد يده ليأخذ المال بزعمه فإذا به يحس بحرارة الحديدة فقال له عليه السلام: **«ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ وتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظَى»؟!**[1].

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٢٤٤.

المنافقون يحاددون الرسول ويخادعون المؤمنين

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

بسبب تمرد المنافقين على القيادة الرسالية المتجسدة في شخص النبي ﷺ كان الناس ينظرون إليهم شزراً، فكان المنافقون يحاولون تبرير مواقفهم.

أولاً: بالإدعاء الكاذب أن الرسول لا بأس به ولكن يحيط به رجال يغذونه بالأخبار والمواقف المضادة بنا، ولهذا فنحن نخالفه لا لأنه -لا سمح الله- يكذب أو يتخذ مواقف باطلة، وفضحهم القرآن بأن الرسول ﷺ يستمع فقط الاخبار التي هي في مصلحة المؤمنين ويعمل لهذه المصلحة، وبالتالي فإن موقفه من الناس لا يحدده الخبر، بل قيمته المتحسدة في الإيمان، فلو كنتم مؤمنين لا ستطعتم أن تفوزوا برحمة الرسول.

ثانياً: كانوا يحلفون بالله لتبرير نفاقهم، ويدعون بأن مخالفتهم لا تعني مخالفة المجتمع المسلم، ويردهم القرآن بأن الله أحق أن يرضوه بصدق النية وإخلاص العمل، وكذلك الرسول بالتسليم والطاعة.

ويبين القرآن أن من يتجاوز حدود الله والرسول، ويخالف أوامر الله فإن جزاءه المعد له نار جهنم خالداً فيها.

بينات من الآيات:

القنوات الخبرية في الإسلام

[٦١] كثيراً ما نجد المستكبرين الذين يخالفون القيادات الرسالية بسبب أو بآخر لا يجرؤون على النيل من شخصية القائد، ولو فعلوا لم يستمع إليهم أحد، لذلك تراهم يتعرضون لمن حول القائد، ويشككون في اجهزته وقنواته الخبرية، ويدعون بان القائد بسيط وساذج أو انه إنسان طيب يثق بكل الناس، وأن من حوله يستغلون طيبه في املاء المواقف الباطلة عليه، وهكذا قال المنافقون عن الرسول، ولكن نعلم سلفا ان هدف هؤلاء هو شخص القائد وأنهم يحاربونه نفسيًّا، ويتعمدون إيذاءه عن طريق مثل هذه الإشاعات حوله.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي أنه يسمع كل من يتحدث إليه، ويقبل كلام الناس دون تمحيص أو نقد ولكن هل هذا صحيح؟ كلا.. ولعدة أسباب منها:

- إن أي قائد هو مسؤول عمن حوله وعن أجهزته، والقائد الرسالي يختار أجهزته من بين أنقى الناس، وحتى لو صادف أن بعضهم ليسوا كذلك، فهو ﷺ لا يسلم نفسه لمن حوله إن كانوا انتهازيين، وهكذا كان حول الرسول رجال صادقون اختارهم بدقة، أما غيرهم فلم يكن يتأثر بكلامهم الرسول ﷺ.

- إن هدف الرسالي هو تحقيق مصلحة الأمة، ولذلك فهو لا يسمع الاخبار المسيئة بشخصية هذا او ذاك، ولا يتأثر بالصراعات القائمة داخل المجتمع المسلم والتي يحاول كل طرف منها تجيير شخصية القائد لحسابه، ولذلك فهو هدف مسبق.

- إن هدف الرسول وكل قائد رسالي هو إشاعة الرحمة والبركة لكل أبناء المجتمع القريب والبعيد، وأشارت الآية الكريمة إلى هذه الحقائق قائلة: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ فهو لا يسمع الشائعات المضادة لمصلحة الناس ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالإيمان بالله يجعل القائد بعيداً عن التأثر بالأقوال الكاذبة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ فهو رحمة للجميع ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

كيف يثبت المنافقون انتماءهم؟

[٦٢] ثم إن المنافقين يحاولون شق عصا المؤمنين وبناء جدار بين القيادة الرسالية

والمجتمع. لذلك.. ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن كانوا جزءاً من أبناء المجتمع المسلم فإن عليهم أن يرضوا الله والقيادة الرسالية، ومن يقاوم القيادة الرسالية فإنه لا يمكنه الإدعاء بأنه ليس بعدو للمجتمع المؤمن بالقيم، والقائم على أساسها.

[٦٣] والذين يحاربون الله ورسوله والقيادة الرسالية، ويحاولون تجاوز حدود الله فإن الجزاء المعد لهم جهنم ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أن تنتهي حياة البشر التي هي الفرصة الوحيدة بنارٍ خالداً فيها، أو ليس ذلك خزي وذل عظيم.

المنافقون يستهزئون بالرسالة

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨) ﴾.

هدى من الآيات:

يذكرنا السياق القرآني ببعض مواصفات المنافقين الذين يشكلون الطابور الخامس للعدو وأبرزها حذرهم من الفضيحة، وفي ذات الوقت إستهزاءهم بالرسالة، واتخاذ مجمل الحياة لعبا ولهوا، ولكن هل يمكن اللعب بالحقيقة؟.

إن أولئك الذين حولوا الاستهزاء إلى مرحلة العمل الإجرامي، إنهم سوف ينتظرهم العذاب. أما غيرهم فقد يغفر لهم. بيد أن هذا لا يعني تقسيم هذه الطائفة إذ النفاق صفة مشتركة فيهم، ولذلك بعضهم من بعض، وبعضهم يؤثر سلبيًا في البعض عن طريق الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وإثارة السلبيات. إن هؤلاء نسوا الله وغفلوا عن أنه فعال لما

يريد وهو الذي يدبر حياة الناس. وأنه سبحانه تسيهم لفسقهم وسوء أعمالهم، ووعدهم هم والكفار نار جهنم خالدين فيها وهي تكفيهم عذاباً وجزاءً، وأبعدهم عن نعمه ولهم عذاب مقيم في الدنيا.

بينات من الآيات:

خوف المنافقين من الفضيحة

[٦٤] بالرغم من يقين المنافقين بأن الوحي حق، وخشيته من إفتضاح أمره عن طريق نزول سورة قرآنية تكشف خططهم وربما أسمائهم بالرغم من ذلك فهم يستهزؤون ولا يتخذون الرسالة أمراً جديًّا لخور عزيمتهم وضعف إرادتهم وعصف الشهوات بنفوسهم المنهارة، ولكن الله سوف يخرج ما في قلوبهم وما يحذرون من نشره ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ من الاستخفاف بالرسالة واتخاذها هزوا ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾.

[٦٥] ولكن لماذا يستهزئ هؤلاء بالرسالة أولا يؤمنون بأنها حق، بلى، ولكنهم يتخذون الحياة لعبا ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فليست هذه الحقائق قابلة للإستهزاء لأنها حقائق حاسمة ذات خطوة كبيرة بالنسبة لمستقبل البشر.

متى يتحول المنافق إلى مجرم؟

[٦٦] وحين يأتي عذاب الله وتنتقم هذه الحقائق من المنافقين يشرعون بالإعتذار ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ والمعذرة إنما تنفع الغافل أو الجاهل، أما الذي استسلم لضغط الشهوات وكفر بالله بعد إيمانه فإن ذلك لا ينفعه ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ لصدق توبتهم وخفة جرمهم، ولكن الطائفة الثانية المجرمة حقا لابد أن تنال جزاءها العادل ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾.

[٦٧] ولكن لا يعني هذا أن النفاق ذاته ليس جرماً، كلا.. إذ مجرد ظهور النفاق عند أحد يدخله في قائمة المنافقين، ويجعله شريكاً لتصرفاتهم لطبيعة التفاعل بين أعضاء الكتلة الواحدة فبعضهم يشجع البعض على الإستمرار في الطريق المنحرف ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾

فلا يقومون بعمل إيجابي في سبيل تقدم الأمة وصلاحها، وهذا وحده يكفي ظلماً لحقوق الأمة ومخالفة لواجبات الإسلام ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

كيف ينسى البشر ربه؟.

إنه يلاحظ فقط ظواهر الأمور ولا يتعمق فيما وراء الظواهر من سنن وأنظمة وتقديرات، وأن الله سبحانه هو الذي يجري أمور الحياة حسب علمه وحكمته، وهكذا أغفلوا دور التدبير الإلهي ومن ثم الرسالة الالهية في حياتهم فتجاوزهم التدبير الإلهي فلم يحفل بهم وبتطلعاتهم وكرامتهم وصدقهم، والسبب أن نسيان الله وإغفال تدبيره للحياة يشجع المنافق على ارتكاب المعاصي والفسق، وعاقبة الفسق معروفة.

عاقبة النفاق النار

[٦٨] إن عاقبة الفسق هي عاقبة النفاق عموماً وعاقبة الكفر بصورة أعم.. فما هي؟.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾

ولكن بالرغم من أن نار جهنم تكفيهم جزاءً وألماً، فإن لهم أيضاً جزاءً آخر هو: إبعادهم عن رحمة الله في الدنيا، وأيضاً العذاب الدائم الذي يقيمون فيه أبداً وهو العذاب النفسي وتناقضهم مع تيار المجتمع ومع انظمة الحياة ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

عاقبة المستهزئين

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

النفاق تيار اجتماعي وليس عملاً فرديًا أو سلوكاً منفصلاً عن سلوك الآخرين وهو في ذات الوقت تيار تاريخي علينا أن ندرك علاقته من خلال عاقبة مثيلاته في الماضي، فقد كان من قبل هؤلاء المنافقين من هو أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً عدة وعدداً ولكنهم استهلكوا

ما كانت لديهم من قوة ومتع، وهؤلاء المنافقون يسيرون على ذات الخط وكانت عاقبة أولئك حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة، وخسارة فرصهم في الحياة الدنيا.

ومثل هؤلاء يتجسد في قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وكذلك المؤتفكات الذين ظلموا أنفسهم وأهلكهم الله بعد أن انذرهم بالرسل والبينات.

وكما أن المنافقين تيار اجتماعي تاريخي فكذلك المؤمنون بعضهم أولياء بعض، وهم يتفاعلون مع بعضهم في القيم السامية حيث يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة كفرائض اجتماعية اقتصادية، ويخضعون للقيادة الرسالية حيث يطيعون الله ورسوله، وأولئك سيرحمهم الله، وينزل عليهم الرخاء إن الله عزيز حكيم، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد وعدهم الله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وأكبر من ذلك هو الفوز العظيم.

بينات من الآيات:

دروس من التاريخ

[٦٩] لكي يرتفع البشر عن حدود المؤثرات العاجلة في سلوكه فعليه أن يتمتع برؤية تأريخية، وينظر إلى حياته من خلال بصائر الماضي وسننه، والمنافق إذا نظر إلى نظرائه في التاريخ وكيف كانت عاقبتهم إذا لتراجع عن نفاقه، ولذلك يذكّر ربنا المنافقين بمن سبق من أسلافهم ويقول: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ وهكذا اكتملت فيهم أسباب القوة وأغتروا بها فاستخدموا قوتهم في تحقيق مطامحهم الخاصة من دون اهتمام بواجباتهم الدينية ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي أنهم استفادوا من نصيبهم في الحصول على المتعة كما تفعلون أنتم، فعليكم أن تقيسوا أنفسكم بهم وتنظرون كيف كان مصيرهم ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي كما أنهم خاضوا في غمرات الشهوات دون أن يحددوا شهواتهم بالعقول، أو يستلهموا في أعمالهم من الوحي، فأنتم كذلك خضتم اتباعاً وتقليداً لهم. فما كانت عاقبة اولئك؟.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي خسرت أعمالهم الإيجابية التي عملوها من أجل الدنيا أو من أجل الآخرة وذلك بسبب أفعالهم السيئة ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

[٧٠] المنافق والكافر يشتركان في مصير واحد، لأنهما يشتركان في اتباع الشهوات،

ومصير الكافرين في التاريخ عبرة كافية للمنافقين أيضاً ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ أي قوم شعيب الذين أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ أي المنقلبات وهي مدن قوم لوط ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ظلموا أنفسهم بترك البينات، والكفر بالرسل.

صفات المؤمنين

[٧١] وفي مقابل التيار المنافق نجد التيار المؤمن الذي يتماسك أبناؤه بآصرة الولاء الواحد، والثقافة المشتركة حيث يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ كما أن الشعائر الواحدة تزيد ترابطهم كالصلاة التي يقيمونها فهي كما عمود مستطيل يرفع خيمتهم فهي ليست عبادة فقط، بل وأيضاً ظاهرة اجتماعية سياسية خصوصاً حينما تقام جماعة أو في الأعياد والجمعات.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ والزكاة بدورها فريضة إلهية تقيم المجتمع، وتحافظ على تماسكه، وانتشار روح العدالة والمساواة، والمجتمع المسلم ذو قيادة مشتركة ومتجذرة في نفوسهم.

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي أن رحمة الله تتنزل على المجتمع والله قوي شاهد في أحداث المجتمع ويعامل الناس بحكمته فيعطي الناس حسب أفعالهم وجهودهم ونياتهم.

[٧٢] والله سبحانه وعد أبناء هذا التيار المؤمن حياة سعيدة في الآخرة كما منعهم ذلك في الدنيا ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ ليس لها خريف أو شتاء أو زوال، ولكن أكبر من ذلك رضا الله ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وهذا الرضوان دليل توافق أعمالهم في الدنيا مع تعاليم الشريعة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

هكذا امتحنهم الله بالثروة

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾.

هدى من الآيات:

لايزال السياق القرآني في سورة التوبة المباركة يُحدثنا عن صفات المنافقين، فبعد أن يأمر الله ورسوله الأكرم ﷺ بأن يبدأ جهاداً دائماً وصعباً مع الكفار والمنافقين وأن يُغلظ عليهم لأن نهايتهم ليست إلا النار التي ساءت مصيرا، بعدئذ يُبين لنا القرآن الحكيم صفات المنافقين ومن أبرزها: حالة الازدواجية عندهم، فهم يحلفون بالله بأنهم لم يقولوا كلمة الكفر بينما في الحقيقة إنهم قالوا هذه الكلمة منذ زمان، حيث أنهم كفروا واقعاً بعد أن أسلموا ظاهراً، كفروا حينما راوا أن مسؤوليات الإسلام كبيرة وأنهم دونها.

وأمامهم الآن أحد الخيارين الرئيسيين: فإما العودة إلى أحضان الإسلام، وإما انتظار عذاب اليم في الدنيا والآخرة، من دون أن يكون لهم نصير أو ظهير في الأرض أو في السماء.

ومن المنافقين أولئك الذين يبحثون عن فرصة في الحياة ويدعون بأنهم لو جاءتهم هذه الفرصة تراهم يعطون كل ما يملكون من أجل الله، وأنهم يستغلون الفرصة هذه استغلالاً حسناً. ولكن حينما يعطيهم الله ويوفر لهم هذه الفرصة تراهم بعكس ذلك تماماً، إنما يحاربون الله ورسوله ويقاومون الرسالة، وهكذا لا يسلب منهم الله تلك الفرصة فحسب، وإنما أيضاً يزرع في قلوبهم حالة من النفاق تستمر معهم إلى النهاية، لأنهم لم يستغلوا فرصتهم الحسنة بل قاوموا وغيروا دين الله.

بينات من الآيات:

جاهد الكفار والمنافقين

[٧٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أولاً: يربط القرآن بين فئتي الكفار والمنافقين ويأمر الرسول بجهادهم جهاداً مستمراً وأن يغلظ عليهم، وأن لا تأخذه بهم في الله رأفة.

لأن مصير المنافقين النار ومن يكون مصيره إلى نار جهنم لا يمكن أن يرحمه العباد أو يرحمه من يجسد إرادة الله في الأرض وهو الرسول والقيادة الرسالية.

ثم يُبين أبرز صفات المنافين وهي: الإزدواجية التي يقول عنها ربنا في هذه الآية: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾.

ثانياً: أنهم حاولوا تغيير نظام الحكم عن طريق قتل الرسول أو إخراجه أو إفساد الوضع السياسي.

ثالثاً: لم يشكروا نعمة الأمن والرخاء التي وفرها الإسلام لهم، وهؤلاء المنافقون إن تابوا إلى الله قبلت توبتهم، وإلا فإن عذاباً أليماً ينتظرهم في الدنيا والآخرة، ولا أحد يواليهم أو ينصرهم.

رابعاً: النفاق صفة كامنة في النفس تظهرها النعمة، فمن الناس من يتمنى الغنى ويتعهد

مع الله، أن لو أغناه الله لأعطى حق النعمة فتصدق وعمل عملاً صالحاً، ولكن حين أتاه الله من فضله أمسى بخيلاً بالنعمة، وعمل عملاً سيئاً مما كرس في ذاته حالة النفاق إلى يوم القيامة، ذلك بسبب حلفهم لوعدهم ونكثهم لعهدهم مع الله، ولكن ذلك الوعد كان كاذباً منذ الأساس، وكان الله عالماً بقلوبهم، كما أن تبريراتهم الجديدة كاذبة هي الأخرى، مثل تسويف الإنفاق ليوم الحصاد أو ربح التجارة.

من صفات المنافقين

[٧٤] إن من صفات المنافقين، الحلف الكاذب بالله ذلك لأنهم يعرفون أنهم متهمون.

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ وقد يكون هؤلاء قد قالوا كلمة ضد السلطة الإسلامية وقيادة الرسول، واعتبرها القرآن كلمة الكفر، بينما اعتبروها كلمة عادية. وهكذا المنافقون في كل يوم يزعمون أن الكفر ينحصر فقط في سب الله تعالى، وانكار وجوده سبحانه، بينما ليس الأمر كذلك، بل مناهضة سلطة الإسلام أو مخالفة جهاد المؤمنين الصادقين ضد الطاغوت هي الأخرى كفر. لذلك أكد القرآن على أن كل ذلك يعتبر كفراً بعد إسلام.

﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ والإسلام هنا -كما يبدو- هو التسليم لله وللرسول والخضوع للقيادة الرسالية، لذلك جاء في بعض التفاسير: «نزلت -هذه الآية- في عبد الله بن أبي بن سلول حين قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]»(١).

فبالرغم من أن هذه ليست سب لله أو الرسول، ولكنها كلمة كفر لأنها تمرد على الإسلام لله وللرسول، وفي الكلمة التالية إشارة إلى هذه الحقيقة:

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ فلقد هموا باخراج الرسول، وافساد الناس ليقاوموا سلطة الرسالة عن طريق بث الإشاعات الباطلة مثل قول أحد المنافقين واسمه جلاس قال بعد خطاب الرسول وهو يثير رفاقه ضد الرسول: «والله لئن كان محمد صادقاً فيما يقول فنحن شر من الحمير»(٢).

ولقد حاول بعضهم قتل الرسول في قصة معروفة عرفت بليلة العقبة حيث أرادوا تنفير ناقة الرسول عند وصولها قريباً من العقبة وهي منعطف خطير في الجبل، وبالطبع إذا

---

(١) راجع تفسير التبيان: ج٥ ص٢٦٠، مجمع البيان: ج٥، ص٩٠.
(٢) بحار الأنوار: ج١٧، ص١٨٢.

نفرت الناقة في ذلك المكان بالذات أوقعت الرسول ﷺ في الوادي. كما حاول البعض اخراج الرسول ﷺ مثل عبد الله بن أبي. كما قام بعضهم بالفساد والتخريب.

أن كل هذه المحاولات كانت تهدف بالتالي شيئاً واحداً هو تغيير نظام الحكم، والتسلط على رقاب الناس ولكن لم يوفقوا ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾.

لماذا نافق هؤلاء، ومتى؟.

السبب أن بعض الناس يكونون أشداء ضد من يحسبون أنهم ضعفاء، وضعفاء أمام الأقوياء، ولهذا حينما كان المنافقون في أوضاع شاذة، يلفهم الفقر والتخلف والعذاب، ويتحكم في رقابهم حفنة من أصحاب السلطة باسم القبلية، أو حفنة من التجار اليهود، لم يحاولوا انقاذ انفسهم من براثن السلطة الفاسدة، لأنهم حينذاك كانوا مشغولين عن كل ذلك بملاحقة لقمة الخبز ومعالجة آثار الفقر والمرض، أما اليوم وقد أغناهم الله من فضله وأراحهم من شغلهم (بمطاردة لقمة العيش) جاؤوا ينافسون السلطة الرسالية التي أنقذتهم.

فهل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان، هل جزاء الرسول الذي حررهم من جاهليتهم إلا الشكر له، والتسليم لسلطته المباركة أم جزاؤه النقمة عليه، والتخريب ضده؟!.

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ وسوف يعودون في الدنيا إلى سلطة الطغاة وما تعنيه هذه السلطة من فقر وعذاب، أما في الآخرة فإن الله الذي وفر لهم الهداية سوف يأخذهم بأشد العذاب.

والجدير بالذكر: إن الطائفة من المنافقين الذين حسبوا أن دولة الإسلام ضعيفة وفكروا في مقاومتها سوف يتوبون حينما يكتشفون قوة النظام وصلابته، وحينما يكتشفون أنه لا أحد ينصرهم أو يدخل في حزبهم حينما يتعرضون للهجوم المضاد من قبل أنصار الرسالة ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

الغنى سُلّم الكفر

[٧٥] تتجلى هذه الحالة النفاقية مرة أخرى عندما ترى بعض الفقراء يتمنون الغنى ويزعمون أنهم سوف يوفون بعهدهم مع الله عزوجل، ويتصدقون بفضل أموالهم ويعملون بها صالحاً، بيد أنهم بعد الغنى يعملون العكس تماما، لماذا؟.

لأن تظاهرهم بالإيمان والهدى إنما كان حين لم يتعرضوا للتجربة، أما الآن فإن حب المال

وشح النفس وقضية العودة إلى حالة الفقر تضغط عليهم باتجاه البخل وتغريهم بالفساد.

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ إن فضل الله ينبغي أن يدفع الفرد باتجاه الصدقة والصلاح، لأن الذي أعطى يقدر على أن يسلب العطاء، ويعيد حالة الفقر. بيد أن ذوي النفوس الضعيفة والإرادات المهترئة تراهم يغترون بنعمة الله وفضله.

[٧٦] وقد يكون المنافق واحداً منا دون أن نشعر لأنه قد يستطيع الواحد أن يقاوم ضغط الفقر، ولكنه ينهار أمام إغراء المال، أو حتى يقاوم هذا الإغراء ولكنه ينهار أمام إغراء السلطة والجاه، وهكذا على الإنسان أن يتزود بالإيمان ويتسلح بالإرادة الصلبة والتوكل على الله حتى لا يصبح مثل الذين يقول عنهم القرآن: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي أنهم بالإضافة إلى عدم وفائهم بالعهد السابق الذي ألزموا أنفسهم به من الصدقة، بالإضافة إلى ذلك تجدهم يقاومون شريعة الله وأوامر الرسول.

وجاء في التفاسير[1] قصة طريفة بطلها شخص باسم ثعلبة فقالوا: «إِنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ الأَنْصَارِيَّ أَتَى رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أُدْعُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالاً. فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: **وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ اذْهَبْ واقْنَعْ بِمَا عِنْدَكَ فَإِنَّ الشَّاكِرَ أَحْسَنُ مِمَّنْ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لا يَشْكُرُهُ.**

فَذَهَبَ ورَجَعَ بَعْدَ أَيَّامٍ وقَالَ: يَارَسُولَ اللهِ أُدْعُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعْطِيَنِي مَالاً. فَقَالَ الرَّسُولُ: **أَ لَيْسَ لَكَ بِي أُسْوَةٌ فَإِنِّي بِعِزَّةِ عَرْشِ اللهِ لَوْ شِئْتُ لَصَارَتْ جِبَالُ الأَرْضِ لِي ذَهَباً وفِضَّةً.**

فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: يَارَسُولَ اللهِ سَلِ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُعْطِيَنِي مَالاً فَإِنِّي أُؤَدِّي حَقَّ اللهِ وأُؤَدِّي حُقُوقاً وأَصِلُ بِهِ الرَّحِمَ. فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: **اللَّهُمَّ أَعْطِ ثَعْلَبَةَ مَالاً.**

وكَانَ لِثَعْلَبَةَ غُنَيْمَاتٌ فَبَارَكَ اللهُ فِيهَا حَتَّى تَتَزَايَدَ كَمَا تَزَايَدُ النَّمْلُ، فَلَمَّا كَثُرَ مَالُهُ كَانَ يَتَعَاهَدُهُ بِنَفْسِهِ وكَانَ قَبْلَهُ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فِي المَسْجِدِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، فَبَنَى مَكَاناً خَارِجَ المَدِينَةِ لِأَغْنَامِهِ فَصَارَ يُصَلِّي الظُّهْرَ والعَصْرَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، وصَلَاةَ الصُّبْحِ والمَغْرِبِ والعِشَاءِ فِي ذَلِكَ المَكَانِ، ثُمَّ زَادَتِ الأَغْنَامُ فَخَرَجَ إِلَى دَارٍ كَبِيرٍ بَعِيدٍ عَنِ المَدِينة فَبَنَى مَكَاناً فَذَهَبَ مِنْهُ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ والصَّلَاةُ فِي المَسْجِدِ والجَمَاعَةُ والاقْتِدَاءُ بِالرَّسُولِ ﷺ، وكَانَ يَأْتِي المَسْجِدَ يَوْمَ الجُمُعَةِ لِصَلَاةِ الجُمُعَةِ فَلَمَّا كَثُرَ مَالُهُ ذَهَبَ مِنْهُ صَلَاةُ الجُمُعَةِ، فَكَانَ يَسْأَلُ عَنْ أَحْوَالِ المَدِينَةِ مِمَّنْ يَمُرُّ عَلَيْهِ. فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: **مَا صَنَعَ ثَعْلَبَةُ.** قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لَهُ أَغْنَاماً لا يَسَعُهَا وَادٍ فَذَهَبَ إِلَى الوَادِي الفُلَانِيِّ وبَنَى فِيهِ مَنْزِلاً وأَقَامَ فِيهِ. فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ. **يَا وَيْحَ**

(١) تفسير جوامع الجامع: ج٢ ص٨٢، تفسير الصافي: ج٢ ص٣٦١، تفسير القرطبي: ج٨ ص٢٠٩.

ثَعْلَبَةَ يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ -ثَلاثاً » وأنزل الله الآيات[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في قول له: «مَنْ مَلَكَ اسْتَأْثَرَ»[2]. وهكذا نجد كيف أن كل واحد منا قد يصبح منافقاً في ظروف معينة.

[٧٧] ولكن ما هي عاقبة هذه الفعلة؟.

يقول القرآن إن عاقبة ذلك تكريس حالة النفاق إلى حين الموت، والجزاء: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ منذ البدء، ويزعمون أنهم مؤمنون صادقون، وأنهم سوف يقومون بعهد الله خير قيام.

[٧٨] ولكن على الإنسان أن يخلص نيته، ويشهد الله على مافي قلبه ولا يقول ولا يتعهد إلا بالحق الذي يعتقد به ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾.

(١) مستدرك الوسائل: ج ١٣، ص ٢٥٧.
(٢) نهج البلاغة: حكمة: ١٦٠.

ويسخرون من المؤمنين

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لأن المنافقين لا يؤمنون حقا بالله والقيم، فإنهم لا يمكنهم تصور إيمان الناس وتضحياتهم السخية بدافع الإيمان، ولذلك تجدهم يفسرون صدقات المطوعين بأنها رياء ليسقطوهم من أعين الناس، كما يعيبون على الفقراء قلة ذات يدهم، والله يسخر من المنافقين ويعذبهم عذاباً أليماً وسواء: أستغفر الرسول لهم أم لم يستغفر فإن كفرهم بالله والرسول الناشىء من فسقهم لا يدع مجالا لغفران الله ورضا المحرومين.

ويزعم المنافقون: إن تقاعسهم عن الجهاد خير لهم ولذلك فرحوا به وكرهوا الجهاد،

ونهوا الآخرين عنه. ولكن ما هي عاقبة ذلك.. أو ليس نار جهنم خالدين فيها، ولكنهم لا يفقهون حقائق الأمور!.

وبسبب سوء اختيارهم سوف يلفهم العذاب النفسي والاجتماعي مما يجعلهم يضحكون قليلاً، ولكنهم يبكون بعدئذ كثيرا بسبب أعمالهم التي اكتسبوها.

وبعد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة وانتهاء محنته الرسالية، يحاول بعض المنافقين التقرب إليه، ويستأذنون منه ليخرجوا معه إلى الجهاد ولكن على الرسول ألا يسمح لهم ثانية، ولا يأخذهم معه إلى القتال، لأنهم رضوا بالقعود في أيام الشدة، فعليهم أن يبقوا مع الفئة الضالة وهم المنافقون مفضوحين أمام الناس ومحرومين من العمل السياسي.

بينات من الآيات:

كل يرى الناس بعين طبعه

[٧٩] كما الأعمى لا يفقه واقع النور، فكيف يمشي على هداه البصير، وكما الجاهل لا يحيط بواقع العلم، فكيف يضيء درب السالكين، وكذلك المنافق لا يصدق بواقع الإيمان الذي يعمر قلوب الصادقين، فكيف يدفعهم على القيام بالأعمال الكبيرة دون أن يريدوا جزاء أو شكورا.

إن المنافقين يفسرون أبداً أعمال الصالحين بمقاييسهم، ويزعمون أن وراء كل عمل صالح مصلحة مادية عاجلة، لا يظهرا صاحبه كما هو، لا يفعلون الخير الا رياء وطلباً للأجر العاجل، لذلك تجدهم يعيبون على الذين يعملون وينفقون تطوعاً لله وتصديقاً بوعده دون أن يخالطهم رياء أو سمعة ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ فيتهمون هذه الطائفة بالرياء، أما الطائفة الفقيرة من المؤمنين فترى هؤلاء المنافقين كيف يسخرون منهم لفقرهم، وقلة عطائهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم فقراء لا يملكون إلا قوة البدن وعمل اليد فيرتزقون عليها -واذا فقدوا العمل- فقدوا الرزق كما العمال والفلاحين فيسخر المنافقون الذين غالباً ما يكونون من الطبقة المترفة منهم ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ حين يرون نتائج أعمالهم فتلك سخرية واقعية، وهذه سخريتهم لفظية كلامية لا أثر لها، وعلينا ألا تنهزم أمام سخرية المنافقين، ولا يفقد المؤمن إحساسه بشخصيته أمام سخرية المنافق حتى ولو كان الأخير أغنى منه وأقدر، كما يجب ألا يستقل المؤمن عطاءه في الله، إن لم يكن يملك غيره لأن الله لا ينظر إلى قدر العطاء بل إلى قدر

المعطي وسلامة نيته. من هنا سُئِلَ الصَّادِقُ عليه السلام «أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: جُهْدُ الْمُقِلِّ»(١).

هل يجوز أن نستغفر للمنافق؟

[٨٠] لأن المنافقين يلمزون ويسخرون من المؤمنين، فإن غناهم أو جاههم الظاهر يجب ألا يدعونا إلى احترامهم، أو طلب الخير لهم، فما داموا كافرين فكريًّا وفاسقين عمليًّا، فإن حدود الإيمان تفصلهم عنا، فهم أمة ونحن أمة برغم الاختلاط والقرابة بيننا وبينهم.

وقد يستبد بالمؤمن الحنان البشري والعطف فيحاول هداية المنافقين، فيدعوه ذلك إلى التقرب منهم بدل منابذتهم العداء، والقرآن ينهى عن ذلك ويقول: حتى لو فعلتم مثل ذلك فإن الله قد اتخذ منهم موقفاً شديداً بسبب كفرهم وفسقهم ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ إن الإستغفار هو قمة العطف الإيماني لشخص ما، ولكن ذلك منهي عنه بالنسبة إلى المنافقين لأن علينا أن نبني بيننا وبينهم حجاباً ظاهره النور والإيمان، ووراءه ظلمات وجهالة.

وقد كان إستغفار الرسول صلى الله عليه وآله معلقاً في الواقع على شرط التوبة، وفي الظاهر هو تأليف للقلوب، وفي هذه الآية تخيير للنبي صلى الله عليه وآله وقطع أمل المنافقين بفائدة الإستغفار لهم لعدم توبتهم، ثم ورد النهي بعد ذلك.

التخلف عن سوح الجهاد

[٨١] حين تتقاعس طائفة من أبناء المجتمع عن الجهاد والتضحية، ويشيعون حولهم الأفكار السلبية. يخشى أن يتأثر الآخرون بهم لولا إعطاء الناس رؤية واضحة تجاه هذه الطائفة المصلحية التي يجسدها المنافقون في المجتمعات المؤمنة التي كانت ترضى بالقعود برغم أن القائد الرسالي كان يقود المعركة ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن قعود هؤلاء في الوقت الذي خرج رسول الله دليل على أنهم لا يريدون الجهاد، وأن تبريرهم ببعض الأقوال لم يكن سوى غطاء لقعودهم ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ ولكن السؤال: هل يستطيع المسلم أن يدرأ عن نفسه نار جهنم من دون اقتحام ساحات الجهاد؟ ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾.

(١) الكافي: ج ٤ ص ١٩.

[٨٢] حتى مصاعب الدنيا لن تزول من دون تحمل بعض الصعاب، فإذا هاجمك العدو في أيام الحر أو البرد فهل تستطيع أن تقول له انتظر إلى أيام الربيع أو الخريف، أم أن ذلك مجرد حلم؟!.

إن الذين يهربون من المشاكل سوف تتضاعف عليهم المصائب والويلات، وعليهم أن ينتظروا أياماً حالكة فيبكوا كثيراً بعد أن ضحكوا قليلاً ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ إن المؤمنين الصادقين يبادرون في أيام رخائهم وقدرتهم بالإعداد والعمل الجاد ليوم الشدة، وأنهم مستعدون لخوض غمار المعركة في أشد الأيام لذلك فإن أعداءهم يرهبون جانبهم وفي ظل القوة يستمرون في حياة آمنة كريمة.

الموقف الرسالي من المتخلفين

[٨٣] وبعض المنافقين يحاولون العودة إلى أحضان العالم الإسلامي لا ليكونوا مواطنين صالحين وصادقين، بل ليستفيدوا من المكاسب بعد أن نصر الله عباده المجاهدين، وليستغلوا نفوذهم المادي، ويتسلطوا على رقاب المؤمنين ولكن باسم الدين هذه المرة كما فعلت بنو أمية في التاريخ الإسلامي، ولكن القرآن يحذر من ذلك وحكمته في ذلك قد تكون: إن أيام الشدة امتحنت النفوس المؤمنة فعلا وفرزتهم عن الجماعات الوصولية التي تميل مع القوة أينما مالت، وتحاول أن تستفيد من كل وضع بما يتناسب وشعارات ذلك الوضع، وأساسا فلسفة الجهاد في الإسلام هي: إنقاذ الجماهير غير الواعية من شر هذه الجماعات الطفيلية النفعية، لذلك يجب ان تكون القيادة الرسالية حذرة جداً فلا تسمح لهؤلاء بالعودة إلى الساحة السياسية أبداً.

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ فالمهم هو المواقف الأولى في أيام المحنة، أما أيام الرخاء فهي ليست دليلاً على صدق النية بل نحسب هؤلاء ضمن المنافقين الأوائل.

لا للقيم المادية نعم للجهاد

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لكي يكرس الإسلام قيم السماء في المجتمع، ويحدد موقف الناس من الأفراد حسب مواقفهم من الرسالة، ولكي يحطم الغنى كأساس لتقييم الناس منع الرسول ﷺ من الصلاة على منافق أو تكريمه بالقيام على قبره مادام الرجل قد كفر بالله تعالى ورسوله ﷺ ومات فاسقاً دون النظر إلى غناه أو كثرة عشيرته، لأن الثروة والأنصار فتن يبتلي الله تعالى بها البشر، فإذا استخدمها في الصلاح فهما خير، وإلا فهما عذاب في الدنيا وسبب الكفر والعذاب في الآخرة.

إن الأغنياء من المنافقين يتمردون على فريضة الجهاد، ويستأذنون الرسول ﷺ بأن يمنح لهم إجازة البقاء مع ذوي الأعذار كالنساء والصبيان والمرضى دون أن يفقهوا إن ذلك

إهانة بشأنهم، وإخراج لهم من الساحة الاجتماعية.

أما الرسول ﷺ والمؤمنون من أصحابه فإنهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، و يحصلون على الخيرات التي يخسرها القاعدون، كما أنهم يفلحون في الدنيا بالنصر والرفاه وفي الآخرة بجنات أعدها الله تعالى لهم تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك هو الفوز العظيم

وهكذا يكرس هذا الدرس قيمة الإيمان والجهاد ويضرب عرض الجدار القيم المادية الجاهلية التي تقوم على أساس الغنى والأنصار.

بينات من الآيات:

سحب الشرعية عن المنافقين

[٨٤] صحيح أن الفرد الذي يموت يستقطب العطف والشفقة، ولكن المنافق حين يموت يجب ألا يحترم، لأن في ذلك تكريماً لسيرته ولأعماله الفاسدة التي ارتكبها، وبالتالي لخطه التحريفي، لذلك نهى القرآن رسوله ﷺ عن إعطاء الشرعية لخط النفاق التحريفي في الأمة عبر تكريمه للمنافقين بعد موتهم ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ أي لا تجري عليه السنة التي كان الرسول ﷺ يجريها على قبور عموم المسلمين حيث يقف على قبر أمواتهم ساعة يستغفر لهم، وعندما جاء هذا الأمر الحاسم «لم يصل النبي ﷺ على قبر منافق أبداً حتى قبض»[1].

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي أنهم منحرفون فكريا بالله ورسوله، وعمليًّا حيث أنهم فاسقون لا يطبقون أحكام الشريعة.

والصلاة والدعاء لمثل هؤلاء قد تعطي شرعية للكفر والفسق داخل المجتمع الإسلامي مما يعرض أساس هذا المجتمع لخطر كبير، إن وجود مثل هؤلاء داخل المجتمع قضية قد تفرضها واقعيات الحياة، ولكن علينا ألا نساوي بينهم وبين المؤمنين الصالحين.

لا شرعية للعدة والعدد

[٨٥] قد يستهوي القائد الإسلامي الذي يستهدف تجميع القوى داخل مجتمعه، وتعبئة الطاقات من أجل بناء دولة الإسلام بعض المنافقين بما يملكونه من ثروة عريضة ومن مؤيدين.

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٧٥.

ولكن القرآن الحكيم يحذر من ذلك ويعطينا رؤية واضحة تجاه المال والأولاد (العدد والعدة) هي إن كل ما في الحياة وسيلة الإنسان وأداته لتحقيق قيمه وأهدافه، فإن كانت أهدافه وقيمه صالحة فأن الوسيلة سوف تصبح صالحة ونافعة وإلا فهي وبال عليه ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ فالمال والولد، وبتعبير آخر: العدة والعدد إذا لم يكونا وسيلتي خير وصلاح فهما عذاب وخبال ليس لصاحبهما فقط بل وأيضاً لمن يتقرب إليه بسببهما، فالذي يعجبه مال الأغنياء أو الأولاد والأنصار الأقوياء ولا ينظر إلى أعمالهم وأهدافهم. فسوف يجر إلى نفسه الويلات لأنه سوف يخضع لهم وسيرضيهم ويتنازل عن قيمه من اجلهم، وإذا كان الحاكم الإسلامي هكذا وأراد مثلاً استرضاء الأثرياء والأقوياء فعلى حساب من سيكون هذا الإسترضاء. أو ليس على حساب الفقراء والمستضعفين، أو ليس يستدرجه الأغنياء والأقوياء إلى التحيز لهم وإعطائهم امتيازات غير قانونية؟!، وبالتالي يجر المجتمع إلى ذات العذاب الذي تورط فيه الأغنياء والأقوياء غير المؤمنين منهم بسبب المال والأنصار من غرور وفساد بسبب وجود الثروة والقوة من دون وجود قيم محددة وموجهة لهما.

ثم إن الثروة والقوة تكونان سببًا لاستمرار الكفر حتى الموت، وبالتالي للعذاب ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

مواقف المجتمع من الجهاد

١ - المنافقون:

[٨٦] موقف هؤلاء الأغنياء من الجهاد وتحمل مسؤولياتهم كأعضاء في المجتمع الإسلامي، إنما هو موقف اللامبالاة والميوعة، فهم من جهة يريدون ميزات هذا المجتمع، ولكنهم من جهة أخرى يرفضون أي عمل إيجابي من أجل هذا المجتمع. خصوصاً في أيام الشدة ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ فأغنياء المنافقين -أصحاب الطول (وهو المال والقوة)-، يحاولون إصفاء صفة الشرعية على تقاعسهم عن الجهاد وبذلك يحاولون أخذ الإجازة من الرسول حتى يحسبهم الرسول من ذوي الأعذار، والقاعدين عن الجهاد، وهذا نوع من الإمتياز الذي يطالب به أصحاب المال والقوة في المجتمع، ولكن هل يمنحهم الإسلام ذلك؟ كلا.

[٨٧] قبل كل شيء يرفع الإسلام من قيمة الجهاد ويجعلها فوق قيمة الغنى والقوة، ويذكرنا بأن الذين يتقاعسون عن الجهاد لا يفقهون ما الذي يعملون بانفسهم، إنهم يهبطون

بأنفسهم إلى مستوى الخوالف من النساء والضعفاء الذين أسقطوا من حساب المجتمع بسبب ضعفهم وعجزهم، فكيف يريد هؤلاء الإنتماء إلى طائفة العجزة والضعفاء؟!.

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ قال الزجاج: «الخوالف: النساء لتخلفهن عن الجهاد ويجوز أن يكون جمع خالفة في الرجال والخوالف والخالفة الذي هو غير نجيب»[1].

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلا يعرفون قدرهم الحقيقي، وأنه مع الجهاد وتحمل المسؤولية يرتفع الفرد داخل المجتمع المسلم.

٢- المؤمنون:

[٨٨] وفي الطرف الآخر من الصورة نجد المؤمنين الذين يجاهدون بكل ما يملكون في سبيل الله، وبذلك يرتفع شأنهم عند الله وعند الرسول ﷺ والناس في الدنيا والاخرة.

﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فلهم المكاسب المادية التي ليست عذابا كما كانت عند المنافقين بل هي فلاح وسعادة ذلك لأن هذه الخيرات اكتسبت عن طريق عمل الخير، وسوف تصرف في سبيل المعروف والصلاح.

وبهذه الكلمة تكتمل رؤية الإسلام التي تحدث عنها القرآن في الآية السابقة حول المال والأنصار، وهي إنهما إن كانا قد اكتسبا بعمل صالح ووظفا من اجل اهداف صالحة فهما صالحان ويكونان سبباً للسعادة والفلاح، فالإسلام إذا لا يعطي حكماً مطلقاً وواحداً للثروة والقوة، فلا يمجدهما مطلقا ولا يرفضهما مطلقا، كما لا يصدر حكماً كاسحاً وواحداً على جميع الأغنياء والفقراء، بل يربط حكمه على الثروة والقوة وأصحابها بالإطار الذي وضعا فيه. فالحكم إيجابي إذا كانا نضيفين، وإلا فهما عند الإسلام وبال وعذاب.

[٨٩] هكذا يرفع الإسلام قيمة العمل الصالح، الذي يعتبر الجهاد القمة السامقة له داخل المجتمع المسلم ويربط سائر الظواهر به، ويكمل الصورة ببيان عاقبة العمل الصالح في الآخرة ويقول: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فعلينا أن نبحث عن الفوز العظيم في الجهاد والعمل الصالح لا في المال والأولاد.

---

(١) مجمع البيان: ج٥ ص٧٦.

المُعَذرون والمعتذرون

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾.

هدى من الآيات:

كما اعتذر أولوا الطول كذلك بعض الأعراب حاولوا انتحال العذر ليؤذن لهم فلا يخرجوا، بينما قعد آخرون من دون أي انتحال للعذر، والواقع أن الكافرين عمليًّا بقيادة الرسول ﷺ لهم عذاب اليم، وهنا يبين القرآن الحكيم الأعذار الواقعية التي ليست كتلك الأعذار التي جاء بها المنافقون والتي منها: الضعف المعجز عن الإشتراك في المعركة، والمرض المقعد، والفقر المعجز، ولكن هؤلاء بدورهم ينبغي أن ينصحوا لله ولرسوله ﷺ فلا يخالطوا أعمالهم خيانة أو غشاً وكذباً، وإنما سقط الخروج عن هذه الفئات لأنهم محسنون وما على المحسنين من سبيل.

وهكذا لا يؤاخذ أولئك الذين قدموا إلى الرسول ﷺ ليأخذهم معه الحرب فلم يجد الرسول ﷺ ما يكفيهم لمؤنة الخروج فعادوا وقد فاضت عيونهم من الدمع حزنا على عدم مشاركتهم في الجهاد، وأنهم لا يملكون نفقة الجهاد، إن هذا مثل واحد لنصح لله وللرسول.

بينات من الآيات:

المعذرون من الأعراب

[٩٠] وفي سياق بيان القرآن لطوائف المنافقين أخذ يعدد الأعراب الذين لما يدخل الإيمان في قلوبهم، والذين يعرفون ظاهراً من الدين، وهؤلاء جاؤوا إلى الرسول ﷺ ليأذن لهم بالانصراف عن الحرب بعد ان انتحلوا عذرا، ولم يكن الهدف من بيان عذرهم ألا الفرار من الجهاد لذلك عبر القرآن الحكيم عنهم: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ ويبدو من معنى كلمة (المعذر) إنه الذي يتكلف عذراً ويختلقه، والهدف من مجيئهم كان الإذن للإنصراف لا الإستفهام الحقيقي عن واجبهم الديني.

وفسر بعض المفسرين هذه الآية بطريقة أخرى فقال: «الظاهر أن المراد بالمعذرين هم أهل العذر كالذي لا يجد نفقة ولا سلاحا بدليل قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟...﴾ الآية، والسياق يدل على ان في الكلام قياسا لإحدى الطائفتين إلى الأخرى ليظهر به لؤم المنافقين وخستهم وفساد قلوبهم وشقاء نفوسهم حيث أن فريضة الجهاد الدينية والنصرة لله ورسوله هيج لذلك المعذرين من الأعراب حيث جاؤوا إلى النبي ﷺ يستأذنونه، ولم يؤثر في هؤلاء الكاذبين شيئاً»[1].

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هؤلاء قعدوا عن الحرب دون استئذان وذلك بسبب كذبهم على الله ورسوله ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن هؤلاء قد يكونون ممن تكامل شخصيته ويضحي مسلماً حقيقيًا بعد أن كان اعرابيًا جاهلاً وكاذباً يتشرد من الواجبات مع أو بدون انتحال عذر، فحسابه على الله تعالى، وقد يكشف عن جهله وكفره في المستقبل فيكون له عذاب أليم.

ويبدو لي من ظاهر هذه الآية: أن الأعراب نوع خاص من المنافقين وهم الذين ينافقون بسبب جهلهم وعدم رسوخ الإيمان في قلوبهم لحداثة عهدهم بالإسلام، ولتراكم الرواسب الجاهلية على قلوبهم، ويرجى لهؤلاء الهداية ولذلك خص القرآن العذاب ببعض الأعراب وهم الذين كفروا منهم (دون جميعهم).

من يجوز له التخلف؟

[٩١] ولكن من هو صاحب العذر الحقيقي، الذي يجوز له التخلف عن واجب الجهاد؟.

(١) تفسير الميزان: ج٩، ص٣٦١ ٣٦٢.

في الآيتين التاليتين توضيح لذلك:

ألف: ليس على الضعفاء الذين لا يتحملون جسديا مشاق الجهاد واجب الجهاد. وهؤلاء مثل المعوقين والمبتلين بالضعف العام، والذين يبلغ ضعف بصرهم أو ضعف سمعهم أو ضعف أعصابهم أو ضعف قلبهم أو ما أشبه يبلغ حدا يمنعهم من الخروج للحرب فيجعلهم افراد غير صالحين للقتال أبداً.

بـاء: وكذلك يسقط الجهاد عن المريض بأمراض خطيرة أو طويلة أو معدية، أو مما يسبب منعاً للخروج.

جيم: وكذلك يسقط الجهاد عن الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم أو على عوائلهم المفروض عليهم إعالتهم.

دال: كذلك يسقط الجهاد عمن لا تقدر الدولة الإسلامية تحمل نفقات خروجهم.

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ أي لا يكلفون فوق طاقتهم، أو ما يسبب لهم الأذى والمشقة التي لا تحتمل.

جهاد المعذورين

من هذه الكلمة يتبين: إن سقوط الجهاد عن الضعيف والمريض والفقير ليس مطلقاً إنما في صورة وجود الحرج والمشقة البالغة التي تختلف حسب اختلاف الظروف، وحسب الأشخاص. من هنا كان الواجب أن يذكر القرآن المؤمنين بأن الواجب النصيحة لله ولرسوله ﷺ حتى يكون كل فرد حسيب نفسه ورقيبها فيما يرتبط بوجود أو عدم وجود الحرج فربما يدعي الشخص أنه مريض وحتى يبرهن على ذلك للناس ولكنه يعلم فيما بينه وبين الله أنه ليس بمريض مرضاً يمنعه عن الخروج لذلك أكد ربنا على هذه الحقيقة وقال: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ والنصيحة هي: خلوص النية والعمل الجدي، وعلى الإنسان أن يخلص نيته لله فلا يدعي كذباً أنه معدور وهو ليس بمعذور. كما عليه أن يخلص عمله لله، فإذا كان معذوراً وقعد عن القتال فلابد أن يقوم بدور معين من أجل المعركة، ولو كان ذلك الدور هو الإعداد الحربي أو بث روح المقاومة في المجتمع أو محاربة إعلام المرجفين مثل الإشاعات أو الأنباء الكاذبة.

إنما الأعمال بالنيات

إذا كان مجمل سلوك الفرد سلبياً وحسناً فإن إشتراكه المباشر في المعركة أو تخلفه عنها

بسبب عذر شرعي لا ينافي إيمانه وتقواه ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي ليس على من كان محسناً وأراد فعل الخير فلم يقدر على القيام بكل الواجب سبيل المؤاخذة والعقاب، والكلمة مطلقة ونستوحي منها: إن كل من أراد الخير وتحرك نحوه فسواء أصاب أو أخطأ. سدد في عمله أو لم يسدد. بلغ هدفه أو لم يبلغ فإنه مجزي عند الله تعالى وليس عليه عقاب.

ومن هنا جاء في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا دَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَأَقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِيهِ، قَالُوا يَا رَسُولَ الله وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟، قَالَ ﷺ: نَعَمْ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[1].

وإنما أكد القرآن على هذه الحقيقة: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ لأنه من الممكن أن يتكبر المقاتلون على العاجزين والمرضى فيؤذونهم بألسنتهم، أو يحاولون منع بعض حقوقهم بحجة أنهم لم يساهموا في المعركة، فأكد القرآن على أن هؤلاء محسنون، لأنهم أرادوا المشاركة فلم يقدروا، ولذلك لا سبيل عليهم، ولا تفوق أو استعلاء.

وقد يستبد بالمؤمنين ذوي الأعذار وسواس الشيطان فيوقعون أنفسهم في الحرج الشديد، لأنهم يخافون مثلاً ألا يكون الحرج قد بلغ حداً واقعاً يمنعهم من الخروج، وفي هذه الحالة لا سبيل على المحسنين ذوي النيات الصالحة، والسلوك الإجمالي الصالح، وأضاف سبحانه قائلا: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فحتى ولو كان هناك بعض التقصير فإن غفران الله تعالى يجبره ويعوض المؤمن عن تقصيره.

[٩٢] كذلك لا حرج على من يريد الخروج ويسجل اسمه في قائمة المتطوعين للحرب ولكن الدولة الإسلامية لا تجد وسائل الحرب له من سلاح أو ذخيرة أو حتى وسائل المواصلات ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ إنك تجد في هؤلاء مثلاً رائعاً لذوي الأعذار الناصحين لله تعالى ولرسوله والمحسنين الذين تحدثت عنهم الآية السابقة. إنهم ممتلؤون إندفاعاً نحو المعركة إلى درجة أنهم يتفجرون بكاء حين لا يقدرون على المشاركة فيها.

وقد جاء في التفسير «نزلت هذه السورة في البكائين وهم سبعة[2] جاؤوا إلى رسول الله

---

(١) بحار الأنوار: ج٢١ ص٢٤٨.

(٢) عن الدر المنثور: ج ٣، ص ٢٦٨، والسبعة هم: «من بني عمر بن عوف سالم بن عمير، ومن بني واقف حرمي بن عمرو، ومن بني مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى، ومن بني المعلى سلمان بن صخر، ومن بني حارثة عبد الرحمن ابن زيد أبو عبلة، ومن بني سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمر والمزني».

فقالوا يا رسول الله احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه، فقال ﷺ: «**لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**».

وربما تدل هذه الآيات على أن المفروض على المسلم أن يكون مستعداً للجهاد بكل وسيلة ممكنة. فإن عجز فلا أقل بإستعداده النفسي، وقد جاء في حديث مروي عن النبي ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**»[1].

---

(١) مسند أحمد: ج٢ ص٣٧٤.

المنافقون بين ذل القعود وذلة الاعتذار

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن بين السياق ذوي الأعذار المشروعة عاد ليؤكد على العلاقة مع الأغنياء المتخلفين عن الجهاد الذين يستأذنون الرسول ﷺ بالرغم من غناهم وقدرتهم على الخروج وذلك بسبب جهلهم بأهمية الجهاد.

ويحاول هؤلاء تبرير مواقفهم أمام المسلمين العائدين من المعركة، وينهى الله من قبول أي عذر منهم لأن مستقبلهم سوف لا يكون أفضل من ماضيهم، ولذلك فإن الله سبحانه سيرى أعمالهم، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة ويجازيهم على أعمالهم لا أقوالهم وتبريراتهم.

وهم يتشبثون بالحلف الكاذب لتغطية جبنهم وخيانتهم، ولكي يتركهم المسلمون فلا يوبخونهم على تقاعسهم، والقرآن يأمر بتركهم، ولكن ليس بدافع الرضا عنهم، بل إنطلاقاً من

واقع رجسهم وصغر شأنهم، وان مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وحتى لو استطاع هؤلاء جلب رضا المسلمين عن طريق الحلف الكاذب، فإن الله تعالى لن يرضى عنهم، لأنهم قوم فاسقون، أعمالهم سيئة وقلوبهم فاسدة.

بينات من الآيات:

على من يقع الحرج؟

[٩٣] لتكريس قيم الرسالة التي تدور حول محور الإيمان والعمل الصالح، وضرب قيم الجاهلية التي تقدّس الثروة والأثرياء ففي القرآن الحكيم -في آيات سابقة- عفا الله عن الضعفاء وعن ابن السبيل، والمؤاخذة إنما هي على الأغنياء غير المساهمين في الجهاد.

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ ولكنهم يتهربون من القيام بمسؤولية الدفاع عن الرسالة.

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ أي النساء والصبيان والعاجزين عن الخروج.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فاختاروا لجهلهم الناشيء بدوره عن فسقهم البقاء مع العجزة -ويبدو لي-: إن البقاء مع العجزة أسقط قيمتهم الاجتماعية بل وألغى بعض حقوقهم المدنية.

النقمة الجماهيرية

[٩٤] لأنهم تخلفوا عن القتال وسقطوا عن أعين الناس تعرضوا لهجمات الجماهير المستضعفة، لذلك أخذوا يعتذرون إلى الناس حتى يعيدوا ماء وجههم الصفيق ولكن هيهات ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ ﴾ فماضيكم الذي عرفناه عن طريق الوحي مباشرة، أو بصورة بصائر ورؤى زودنا الوحي بها، فاستطعنا عن طريقها -كشف المنافقين وطبيعة تحركاتهم- كل ذلك الماضي دليل كذبكم ودجلكم، كما إن المستقبل هو الآخر دليل كذبكم في الإعتذار فمن يتوب بصدق إلى الله يصلح أعماله في المستقبل، أما أنتم فلستم تائبين حقاً ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ فيعلم الماضي والمستقبل ويعلم خفيات القلوب، وخلجات الصدور، وبالتالي يعلم ما وراء كل عمل من نية حسنة أو سيئة كما يعلم بالأعمال

الظاهرة، وهكذا لا تقدرون على تبرير أعمالكم الفاسدة والإعتذار منها ببعض الكلمات الفارغة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الرؤية الرسالية

وهذه الآية تدل على إن المؤمنين الصادقين يتسلحون برؤية رسالية تمكنهم من كشف طبيعة المنافقين. ومن مظاهر هذه الرؤية النظر إلى الفرد من خلال تاريخه الماضي، وأعماله الحالية، وقراراته المستقبلية، دون الإكتفاء فقط بأقواله وتبريراته.

وبما أن المنافق مجتث الجذور، متلون حسب المتغيرات، وأنه لا يريد الإستمرار في خطه مستقبلاً لذلك فهو يتستر تحت ستار كثيف من الكلمات الفارغة والأقوال الكاذبة المؤكّدة بالأيمان ليعوض عن عمله بقوله، وعن تصرفاته المتغيرة بتبريراته الواحدة المؤكدة، لذلك فإن كثيراً من البسطاء ينخدعون بأقواله وتبريراته. إنما المؤمن الصادق ينظر إلى عمل المنافق لا إلى قوله. فيتخلص من خطر عظيم هو الانخداع بالمنافق، ذلك الخطر الذي وقعت فيه -ومع الأسف- شعوبنا اليوم بالنسبة إلى الطغاة، والى جيش المنافقين من خدمهم وحشمهم الذين يبررون أبداً تصرفاتهم بشعارات عامة وأنيقة.

ولو تسلحت شعوبنا برؤية الإسلام وأخذت تقيم الأشخاص والحكومات بأعمالهم وتاريخ حياتهم وانتظرت حتى ترى إنجازاتهم الحقيقية إذن لرفضت الإستماع للوسائل الإعلامية المنافقة التي تطبل لكل طاغية وتخدع الناس بترديد شعارات فارغة لا أول لها ولا آخر.

[٩٥] وهكذا تجد المنافقين يتقنون صناعة الكلام لأنهم لا يحسنون عملاً، وكلامهم أبداً مؤكد بالأيمان لأنهم لا يريدون تأكيد كلامهم بالأعمال الواقعية.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾
إنهم يريدون السكوت عن جرائمهم، بتصغيرها وتقليل خطورتها في أعين الجماهير، ولكن على المؤمنين أن يعرضوا عنهم ويسكتوا عن جرائمهم لأنها لا تصلح بالكلام، ولأنهم قد سقطوا كليًا عن أعين الناس وانفصلوا عن الجماهير وأصبحوا رجساً قذراً نجساً ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

[٩٦] وأكد القرآن على أن هدف المنافقين من أيمانهم هو استرضاء الناس، وعلى الناس ألا يكونوا طيبين مع المنافقين الخبثاء فلا يرضوا عنهم، لأنهم لو رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم بسبب أعمالهم الإجرامية، واستمرارهم على نهجهم السابق.

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ نعم إذا غيروا واقعهم وتابوا عن فسقهم فإن الله تواب رحيم.

وكلمة أخيرة: المؤمن يرضى برضا الله تعالى ويسخط لسخطه. وإذا كان ربك غير راض عن المنافقين فهل يسمح لنا بالرضا عنهم؟.

مواقف الأعراب من الرسالة

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾.

هدى من الآيات:

لكي يعطي القرآن بصيرة واضحة تجاه سكان البادية، ويربط تقييم الناس لهم بمدى التزامهم بالقيم، بين السياق إن الحالة الأولية لسكان البادية تقتضي الكفر والنفاق لانهم بعيدون عن العلم، ولذلك فهم أشد كفراً ونفاقاً من غيرهم وأبعد عن فهم حقائق الدين، والإلتزام بشرائعه.

وأن هناك فريق من الأعراب يزعمون إن إنفاقهم في سبيل الله نوع من الخسارة التي تلحقهم وبذلك يثبتون جهلهم وبخلهم، وهم يتنظرون نزول البلاء عليكم مما يدل على نفسيتهم اللئيمة والمتخلفة بيد أن عليهم دائرة السوء بسبب لؤمهم وتخلفهم، والله سميع بما يقولون، عليم بما يضمرون.

بيد أن هناك فريقاً من الأعراب يؤمنون بالله ورسوله، ويتجاوزون حاجز البخل والجهل، فيدفعون أموالهم قربة إلى الله، ولكي يحصلوا على دعاء الرسول لهم بالخير، والله يوفر ذلك لهم، وأنه سيدخلهم في رحمته الواسعة والله غفور رحيم.

بينات الآيات:

من صفات الاعراب

[٩٧] كانت النظرة الجاهلية المتخلفة تمجد سكون البادية وركوب أهوالها وتحمل قساوتها وقال أحدهم[1]:

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا

وجاء الإسلام وأكد أهمية المدن والتحضر، وجاءت الآية الكريمة تحدد الموقف من سكان البادية، الذين يسمون بالأعراب (جمع إعرابي وهو ساكن البادية) وبين فيهم صفتين: الشدة في الكفر والنفاق، وربما لأن طبيعة البادية شديدة، أو أنهم جاهلون والجهل يورث الشدة.

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ والمسألة ليست مرتبطة بالجغرافيا والبيئة لذاتها وإنما إشارة لأهمية المدنية والوعي. فهم بطبيعة وجودهم في الصحراء بعيدون عن مراكز العلم، فهم أولى بالجهل بالأحكام الشرعية التي يسميها القرآن بالحدود في أكثر من مناسبة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بأحوالهم حكيم فيما يطلقه عليهم من نعوت.

[٩٨] ومن مظاهر كفرهم ونفاقهم، إنهم يزعمون أن الإنفاق في سبيل الله خسارة مما يعكس بخلهم وجهلهم معاً ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ ومن مظاهر جهلهم وخشيتهم إنهم ينتظرون نزول البلاء على المسلمين، فهذه دلالة على إنهم خبثاء كما يدل على تخلفهم الحضاري، فبدل أن يقوموا بعمل ضد من يحسبونه عدوا تراهم يجلسون وينتظرون.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ والدائرة هي النائبة، التي تحيط بجوانب الشخص، وتحاصره فلا يجد منها مخرجاً، ولكن اليس هذا الانتظار المتخلف واللئيم بذاته دائرة احاطت بهم أنفسهم؟! ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

[٩٩] ولكن هذه الطبيعة الأولية للأعراب التي يقتضيها جهلهم بالشريعة وشدتهم باستطاعة الإنسان أن يغيرها ويخرج من مقتضيات ظروفه البيئية والثقافية والاجتماعية عن طريق التوعية والتوجيه.

---

(١) ترتيب إصلاح المنطق، ابن السكيت الهواري، حرف (ب)، ص٧٥.

لذلك نجد طائفة من الأعراب تؤمن بالله واليوم الآخر إيماناً حقيقيًّا ولذلك فهي تنفق طوعاً وإيماناً منها بأن الإنفاق توبة إلى الله وإلى دعاء الرسول لها بالبركة ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إذا بالرغم من نظرة الإسلام السلبية إلى البقاء في البادية فإنه لا يحكم على أهلها جميعاً حكماً مطلقاً بل حسب إيمانهم وعملهم.

مواقف الناس من الجهاد

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾.

هدى من الآيات:

في مقابل المثل السيء للمنافقين، يُبين ربنا سبحانه واقع المؤمنين الصادقين السابقين إلى الرسالة كمثل أعلى للإنسان الكامل، فالسابقون أولاً إلى الإيمان سواء من اهل مكة أو من أهل المدينة، ومن ورائهم الذين اتبعوهم وتابعوا مسيرتهم رضي الله عنهم وعفى عن ما تقدم من ذنبهم، وأطمأنت نفوسهم إلى رسالة الله ومناهجه وقضائه وقدره، وقد أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وذلك أسمى تطلع يمكن أن يبلغه البشر -رضا ربه وجنات خلد-.

بينما هناك أعراب منافقون، وآخرون من أهل المدينة متوغلون في النفاق لا يعلمهم الرسول، ولا نعلمهم نحن ولكن الله يعرفهم، وفي الواقع إن معرفتنا أو عدم معرفتنا لا تؤثر شيئاً في جزاء هؤلاء، بل إن ربنا سبحانه سوف يعذبهم مرتين -مرة قبل أن يكشفوا ومرة

---

(١) مردوا: المرد أصله الملامسة ومنه صرح ممرد أي مملس والأمرد الذي لا شعر على وجهه وقيل أصله الظهور فيكون المعنى عتوا وخرجوا من الطاعة.

بعدئذ- أما بعد الموت فإن لهم عذاباً عظيماً.

وهناك فئة ثالثة متوسطة وهم ضعفاء الإيمان الذين يخلطون بين الأعمال الصالحة والسيئة، ولكن ليس بدافع الكفر أو النفاق بل بسبب ضعف إيمانهم، ورجاء رحمة الله، فعسى الله أن يتوب عليهم، إنَّ الله غفور رحيم.

بينات من الآيات:

طبقات المؤمنين

[١٠٠] السبق بذاته قد لا يكون قيمة أساسية في مقابل قيمة التقوى، ولكنه يكشف عادة عن التقوى تلك القيمة الأسمى عند الرسالات السماوية، والسابقون الأولون هم أفضل من غيرهم، لأنهم بادروا إلى قبول الرسالة بإرادة صلبة تتحدى الصعاب، ولا تستسلم لضغوط الطغاة ولا للإعلام الفاسد المضلل.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ لا فرق بينهم رغم بعض النعرات الإقليمية التي كانت تحاول زرع الخلافات بين أهل مكة المهاجرين وأهل المدينة الأنصار، ليس على أساس السبق إلى الهدى، بل على أساس الميزات المزعومة في المجتمع المكي أو المدني، ولكن الإسلام رفض بقوة هذه النظرة الجاهلية وربط بين الفرد وعمله لا بين الفرد واقليمه.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ فلم يتبعوهم بنفاق أو من أجل مصلحة خاصة بل لله سبحانه. إن هؤلاء هم الذين يكونون في صف السابقين الأولين.

وربما تدل كلمة (الإحسان) على حالة نفسية هي: حالة العطاء والإنفاق لا حالة الاستسلام والقبول المطلق ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

الصف المقابل للمؤمنين

[١٠١] لكي نعرف مدى تحلق السابقين في سماء الإنسانية والخروج عن جاذبية الشهوات والضغوط لابد أن نلقي نظرة إلى الطرف الآخر من الصورة لترى المنافقين كيف هبطوا إلى حضيض الميوعة ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ فليس لأنهم من أهل المدينة أو من أهل مكة يمكن التغاضي عن ذنوبهم ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ

نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ فعلم الله تعالى كاف لعذابهم، فإذا اختفى المنافق عن أنظار الناس وعن نظر القيادة فلا يغنيه ذلك شيئاً لأن الله سبحانه قد أحصى أعماله وهو الذي سوف يجازيهم فيعذبهم مرتين. مرة قبل انكشافهم وذلك بالعذاب الروحي، ومرة بعده بالعذاب المادي، وكذلك سوف يعذبهم بعد الموت عذاباً عظيماً.

ضعاف الإيمان

[١٠٢] وهناك فئة وسيطة يعترفون بذنوبهم وبذلك فهم أقرب درجة إلى الإيمان حيث إن له مرحلتين: فهم الحقيقة وتطبيقها، وإذا عرف البشر الحقيقة فربما لا يعمل بها اليوم ولكنه يعمل بها حين يمتلك قوة وإرادة كافية وهؤلاء ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الله يعاملهم مثلما هم يعاملون القيم، ولكن رحمة الله أوسع من ذنوبهم.

بين الصدقات والتطهير

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ[1] لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن بين لنا الدرس السابق إن فريقاً من الناس خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، جاء هذا الدرس ليبين لنا ما يصلح هذا الفريق، فبدأ الحديث ببيان أخذ الصدقات منهم لتطهير أموالهم ولتزكية نفوسهم، وأمر القرآن الرسول ﷺ بالصلاة عليهم لأنه تسكين لقلق نفوسهم المتورطة في الذنوب، والله سميع لما يصدر منهم من أصوات ظاهرة وعليم كذلك بخفاياهم.

وبما أن الله يقبل التوبة عن عباده فلابد ألا ييأس هؤلاء من روح الله، وليبادروا بإنفاق الصدقات لأنه يأخذها بفضله، وأنه هو التواب الرحيم.

ولا يعني التوبة وإعطاء الصدقات الإستغناء عن العمل. كلا.. بل عليهم بالعمل الدائب الذي سيتجسد ويراه الله ورسوله والمؤمنون، وسوف يجازيهم الله العالم بالظاهر والباطن والغيب والشهادة.

وهناك فريق من الناس أبعد من هؤلاء وحسابهم على الله، فأما يعذبهم أو يتوب عليهم

(١) مرجوون: مؤخرون موقوفون لما وا من أمر الله. موعدة: من الوعد.

حسب علمه بواقعهم وحكمته البالغة والمحددة بطبيعة الجزاء الذي يستحقونه.

بينات من الآيات:

متى تكون الصدقة قسرا؟

[١٠٣] الصدقة كل عمل يمارسه الفرد تقربا إلى الله وانبعاثا من إيمانه بالله واليوم الآخر، والصدقة المالية هي: الإنفاق المالي بدافع التقوى والإيمان، وهناك فريق من الناس لا يعطون الصدقات بل تؤخذ منهم أخذاً، وهؤلاء هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، والذين حدثنا القرآن عنهم في الآية السابقة ولذلك أمر الله رسوله ﷺ ومن ورائه (القيادة الإسلامية) بأخذ الصدقة من أموالهم حتى ولو وجدوا صعوبة نفسية من دفع الصدقات طوعاً ورغبة، ولكن لا يعني ذلك الإقتصاص منهم أو اعتبار ذلك كالجزية التي هدفها القهر والتصغير. لا.. إنما هدف أخذ الصدقة:

أولاً: تطهير أموالهم وتنظيف سمعتهم الاجتماعية.

وثانياً: تزكية نفوسهم وتربيتها على الكرم، والخروج من زنزانة البخل، ورفعهم إلى مستوى العطاء والإحساس بمسؤوليتهم الاجتماعية.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ولا يعني أخذ الصدقة الإستيلاء على أموالهم، بل أخذ قدر محدد منها مثل الخمس والزكاة أو سائر الحقوق الاجتماعية التي تحددها الظروف الاجتماعية.

ولكن هذا الأخذ يجب ألا يسبب لهم حرجاً نفسيًا يبعدهم عن طريق الحق، لذلك يجب الدعاء لهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ والدعاء لهؤلاء بالخير والبركة يعني أيضاً السعي وراء خيرهم ورفاههم في مقابل عطائهم كأي دعاء آخر حيث أنه ليس منفصلاً عن العمل من أجل ما يدعو له الفرد.

والدعاء بالصلاة لهؤلاء يسبب سكون نفوسهم واطمئنانهم إلى الله، وإلى المجتمع المسلم الذي تمثله القيادة الرسالية ذات الإهتمام بكل الناس ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع الدعاء، ويعلم بأهداف المصلي الذي يبتهل إليه سبحانه بالدعاء ولإخوانه.

قبول الله للصدقات

[١٠٤] علم الله تعالى بأحوال عباده يجعلنا نؤمن بأنه يقبل التوبة الصادرة عن عباده،

وأنه يأخذ الصدقات بالرغم من أن المبتهل إلى الله هو الرسول أو المؤمنون، فإن الله هو الذي يقبل التوبة لا الرسول فقط، وبالرغم من أن الرسول يأخذ الصدقة في الظاهر ولكن الله هو الذي يأخذها في الواقع ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

[١٠٥] لكي يطهر هذا الفريق الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ليطهروا انفسهم ويزكوها ويعطوها المزيد من الصلابة الإيمانية فإن عليهم أن يعملوا فالعمل يخلف أثرين في النفس برسوخ الإيمان فيها، وفي الواقع الخارجي بمكاسب يراها الله ويراها الرسول والمؤمنون ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ولذلك لا قلق أبداً على الإنسان العامل أن يضيع عمله في زحمة الأحداث، ولا خوف من عدم حصوله على نتائج عمله. عاجلاً أم آجلا هنا وعند الآخرة ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فالله سبحانه الذي يعلم الظاهر والباطن لا يكتفي بإعطاء الجزاء الوافي للعامل، بل وأيضاً يبين للعامل أن هذا الجزاء إنما هو لذلك العمل ليكون ألذ وأطيب وأدعى إلى الأعتزاز والفخر.

كل هذا علاج شاف للنفوس الضعيفة التي لا تمحض الإيمان، ولا تخلص العمل الصالح بل تخلطه بالعمل السيء.

وكلمة اخيرة: إن أكثر المسلمين هم من هذا الفريق، الذي لم تتكامل شخصيتهم الإيمانية فعليهم أن يستفيدوا من هذا العلاج لتعميق روح التقوى في نفوسهم.

المرجون لأمر الله

[١٠٦] هناك فريق آخر لا يصلحون أنفسهم ولا يستفيدون من هذا العلاج القرآني لضعف نفوسهم وخور عزائمهم لذلك يبقى هؤلاء مرددين بين النار والجنة ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ ربما حسب ظروفهم الاجتماعية فقد يكون الذنب بسبب ظروف صعبة لا يحتملها إيمان الفرد وإرادته، فرحمة الله تعالى واسعة، وقد يكون الذنب بسبب تحدي سلطان الله أو اللامبالاة بأوامر الله، أو الإسترسال التام مع الشهوات فالله شديد العقاب.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ومن هنا فعلى البشر ألا ييأس من روح الله ولا يسترسل مع الذنوب حتى ولو كانت ذنوبه كثيرة وكبيرة بل يقف فيها على حدود معينة تبعا لظروفه الضاغطة عليه باتجاه الذنوب ويحاول ابدا ان يدع علاقاته بالله باقية غير مقطوعة.

كما أن عليه ألا يعتمد كليًّا على رحمة الله، فربما يكتشف عند الموت إن نقمة الله تستقبله بدل رحمته بسبب ذنوبه الكبيرة.

علم الله بلطائف نيات البشر، ودقائق أعمالهم، وحكمته البالغة التي لا يسقط شيئاً من حسابه وتقديره كل ذلك يجعلنا حذرين أبداً حاسبين حساب كل شيء، عاملين حسب المستطاع من أجل الخلاص من عذاب الله، والوصول إلى رحمته الواسعة.

رسالة المسجد والمسجد الضرار

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

هدى من الآيات:

في معرض بيان للفئات الاجتماعية المختلفة في هذه السلسلة من الدروس يبين السياق حالة فئة منافقة تتستر بالدين، وتتخذ مسجداً للإضرار بالمسلمين وإفساد عقائدهم وبث التفرقة بين صفوفهم وتعبئة للقوى المعادية للرسالة. كل ذلك تحت شعارات براقة وبإدعاء إنهم إنما يريدون الخير والحسنى للناس بينما يشهد الله إنهم كاذبون.

وينهى الله ورسوله من القيام في هذا المسجد، لأن المسجد يجب أن يكون بناؤه على أساس التقوى وليس الإضرار والكفر والتفرقة، وبتعبير آخر على أساس النفع والإيمان والوحدة وبدل تجميع القوى المعادية، يجب أن يجمع المسجد رجالاً يحبون التطهر والصلاح: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾.

إن المسجد يجب أن يبنى على أساس التقوى ورضوان الله واتباع مناهجه، وإلا فهو من دون أساس ثابت بل مبني على طرف هاوية، وبالطبع سوف ينهار هذا البناء، وتكون عاقبة أهله نار جهنم. لأن أساسه منحرف، والله لا يهدي القوم الظالمين الذين انحرفوا فظلموا أنفسهم بالكفر والفساد.

وهذا البناء التحريفي لا أساس له حتى في نفوس بناته، لأنهم يشكون في سلامة خطتهم ويرتابون حتى تقطع قلوبهم وتشتت إرادتهم والله عليم بما يفعلون، وحكيم حينما يجازيهم على أفعالهم.

بينات من الآيات:

مسجد ضرار

[١٠٧] مرة أخرى يكشف لنا القرآن عن خطة شيطانية ماكرة هي تستر فئة من المنافقين بشعار الدين، وبناء المساجد للفساد، ويبين أن علينا أن نكون حذرين فلا تخدعنا المظاهر بل أن نتعمق أبداً إلى ما ورائها من أهداف، وكل عمل يقوم به شخص أو فئة يجب أن نجعله في سياقه التأريخي ونقيسه على أساس الغايات المتوخاة من ورائه.

فهؤلاء فئة من المنافقين اتخذوا مسجداً بهدف الإضرار بينما أساس المسجد هو النفع.. المسجد لله تعالى وقد اتخذ هؤلاء مسجدا للكفر بالله، لتكريس قيم الشيطان، مثلاً: لتفريق الناس على أساس عنصري أو قومي أو أقليمي أو عشائري ليقولوا: هذا من أهل المدينة وهذا من أهل مكة، ونحن نقبل الخزرج دون الأوس.

وهدف بناء المسجد تعبئة الطاقات الخيرة في المجتمع بينما هدف هؤلاء من بناء المسجد تجميع شذاذ الأرض، وإرصادهم ودفعهم نحو مقاومة الرسالة.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي للإضرار بالناس لا النفع، وربما أضحى المسجد ضرارا لأنه بني بأموال المستكبرين، مثل كبار الرأسماليين ورؤساء القبائل العنصريين ولذلك لم يكن من الممكن أن يهدف المسجد سوى الضرار واستغلال المستضعفين، والتسلط على رقاب الناس باسم الدين هذه المرة ﴿وَكُفْرًا﴾ ومحتوى ذلك المسجد من الناحية الفكرية والثقافية كان الكفر بالله وبالقيم الرسالية، بالرغم من إقامة الصلاة فيه، لأن الصلاة كانت ضد الصلاة الحقيقية، وتلك الشعائر التي تهدف إعادة حكومة المستكبرين ليست سوى الكفر والضلال.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان المسجد يميز بين الفقراء والمستضعفين والمهاجرين من أهل مكة، وبين الأغنياء ورؤساء القبائل وكبار المنافقين من أهل المدينة، بينما المسجد الرسالي يجمع الكل على صعيد المساواة.

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ فبينما ينبغي أن يكون المسجد منطلقا لتجميع الطاقات المؤمنة الصادقة مع المجتمع، ترى هذا المسجد يجمع كل منافق، ويعبؤهم لمحاربة الله ورسوله.

كل ذلك وأصحاب هذا المسجد يدعون بأنهم لا يهدفون شراً، بل هدفهم مقدس وهو تحقق أفضل حياة للإنسان، وحماية حقوق البشر، وصيانة الاستقلال والحرية ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أساس المسجد وأهدافه

[١٠٨] وينهى الله رسوله وبحزم بالغ ألا يقوم في هذا المسجد أبداً ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ﴾ فحتى لو كان البناء باسم المسجد فإنه لا يكتسب شرعية، لأنه مبني بهدف الفساد والكفر، وقيام الرسول أو القيادة الرسالية في مثل هذه المساجد التي بنيت لتكريس سلطة الطغاة أو لتحقيق قيم الجاهلية يعطي شرعية زائفة لها.

﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ والتقوى هنا تفسر بما سبق وهو: أن يكون هدف بناء المسجد النفع لجميع الناس من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، وإشاعة قيم الرسالة من الناحية التربوية وبث روح التحابب والتعاون من الناحية الخلقية والسياسية.

أما من يجتمع في هذا المسجد ويقود مسيرته، فهم أناس نظيفون هدفهم أولاً تزكية ذواتهم، ثم تربية الناس.

﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ فليس هدفهم استغلال الفقراء، ولا التسلط عليهم باسم الدين، ولا التعالي عليهم بإسم العلم والفضيلة، بل هم بدورهم يبحثون عن الطهارة، ويهدفون تكميل شخصياتهم، وبذلك يضربون مثلا حيا لمن يقوم في المسجد من الناس.

[١٠٩] إن أساس هذا المسجد مختلف عن مسجد الضرار الذي لا أساس له، إن بناء

هذا المسجد الرسالي قائم على أساس التقوى، والبحث عن رضا الله تعالى، وبالتالي تنفيذ مناهج الرسالة وتحقيق أهدافها بينما قام ذلك المسجد على أساس متزلزل، إنه قام من أجل الأهواء والمصالح التي لا تثبت على حال. بل تتبع رياح القوة والثروة، فإذا هبت الرياح جنوباً أو شرقاً تراهم من أفضل خدم الشرق وإذا هبت شمالاً أو غرباً تراهم من أفضل تلامذة الغرب وإذا حكم آل كذا! فعلى أهل المسجد التسبيح بحمد آل كذا!، وإذا حكم أعداؤهم فعليهم لعن آل كذا!.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ أي الطرف القريب من المنحدر ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾. إن على المسجد أن يكون له ثقل في الواقع الاجتماعي والسياسي يهتدي الناس به كما يهتدون بالنجوم الثابتة، ويطمئنون إليه ويسكنون في ظله كما يطمئن شتات المستضعفين إلى الإمام الهادي، وكما يسكن الخائفون إلى ركن شديد. إن المسجد يعبىء الطاقات المؤمنة بعد أن كانت متفرقة ويعطيها قوة التجمع بعد أن كانت مستضعفة، لذلك يجب ان يكون المسجد مستقلا عن متغيرات السياسة، ويجب أن يكون أئمة المساجد مستقلين عن السلطان، أما إذا كانوا أقماراً في فلك السياسة المتغيرة فإن الله لا يهديهم طريقاً لأنهم ظالمون لأنفسهم ولدورهم الرسالي ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

الشك والأهداف القصيرة

[١١٠] وهذا المسجد القائم على أساس الظلم يبقى من دون أساس حتى بناة المسجد لا يعتمدون عليه ولا يزالون يشكون فيه.

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ لأنهم لا يؤمنون فعلاً بالمسجد وبدوره الرائد في المجتمع، فهم إنما بنوه لغرض فإذا بلغوا هدفهم تركوا المسجد وكانوا كمن قال فيه الشاعر:

صلى المصلي لأمرٍ كان يطلبهُ ... لما انقضى الأمرَ لا صلى ولا صاما

صفات المجاهدين

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

في سياق استعراض فئات الناس حسب مواقفهم من الرسالة، يذكرنا القرآن بالمثل الأعلى للمؤمنين، وهم الفئة التي اشترى الله منهم كل مالديهم في الدنيا في مقابل الجنة في الآخرة، لذلك تراهم يقاتلون في سبيل الله ولا فرق عندهم بين أن يقتلوا أو يقتلوا، ولقد قطع الله معهم وعدا حقا ذكره في التوراة والإنجيل والقرآن، وهل هناك من يفي بوعده بالطريقة التي يفي بها ربنا العزيز الحكيم؟! تلك إذا صفقة رابحة يستبشر بها المؤمنون وهي فوز عظيم.

ومن صفات هذه الفئة التوبة (اصلاح الذات) والعبادة (التبتل إلى الله في الدعاء والصلاة) والحمد (الرضا بما يقسم الله، والإطمئنان إلى رحمته الواسعة) والسياحة (السير في الأرض اعتبارا او جهادا) والركوع والسجود، والتسليم لله والخضوع له، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصيانة حدود الله.

كل هذه الأعمال الكبيرة تجعلهم أعلى مثل للإنسان المسلم، ولذلك يجب أن نبشرهم ونهنيهم بها.

بينات من الآيات:

تجارة المؤمنين

[١١١] حين تدفع ألف دينار لتأخذ قطعة أرض من مالكها، كيف تتعامل مع الألف دينار؟ بالطبع سوف تقطع علاقتك الخاصة بها وتنتظر صاحب الأرض متى يطالبك بها لتدفعها اليه، كما أنه بدوره ينتظرك حتى يدفع اليك الأرض التي اشتريتها، وهكذا حين اشترى ربنا من المؤمنين ما هو لهم في الدنيا من مال ونفس، ووعدهم الجنة وعد الصدق، فإنك أنت المؤمن البائع لا ترى لنفسك الحق في التصرف في نفسك أو مالك، لأنك قد بعتها إلى الله نعم المشتري بأفضل ثمن وهو الجنة، ومن هنا يزداد شوقك إلى الجنة كل لحظة لأنك قد امتلكتها بفضل الله.

هل تشك في أن الله سوف يدفع اليك ما وعدك؟. كلا بل هو أوفى من وعد لأنه غني حميد. مالك الجنان الواسعة التي عرضها السماوات والأرض ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ ولذلك تجد نفسك مشتاقة إلى الجهاد لأنه طريقك إلى الشهادة، وهي سبيلك إلى الجنة، وإلى لقاء الله حبيب قلوب المؤمنين.

﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ وفي كل عصر تجد المؤمنين الصادقين يتسابقون إلى الجهاد، من أيام موسى عهد عيسى عليه السلام، إلى عصر محمد صلى الله عليه وآله ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وفاء الله بعهده ثابت لأنه صادق وقادر وعزيز، وهو أرحم الراحمين، يدفع اليك ما وعدك اضعافا مضاعفة ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

صفات المؤمنين

[١١٢] من مواصفات هذه الفئة إن كل جوانب حياتهم تتجلى بهذه الصفقة الرابحة، فهم من أهل الجنة الذين لا علاقة لهم بالدنيا وحطامها، لذلك نجدهم:

ألف: يتوبون إلى الله في كل لحظة، ومن كل ذنب يرتكبونه، غفلةً أو جهلاً أو جهالة، وهكذا يصلحون أنفسهم كلما أفسدتها عوامل الشهوة وضغوط الحياة.

بـاء: ويعبدون الله ويتبتلون إليه ويتضرعون ليل نهار، وبذلك يزدادون رسوخاً في الإيمان وصلابة في الجهاد.

جيم: ويحمدون الله سبحانه، فهم أبداً راضون بما يعطيهم ربهم سبحانه، وهكذا تكون شخصياتهم سليمة غير معقدة بتلك العقد التي تتراكم على قلوب أهل الدنيا بسبب الإحباطات النفسية التي يتعرضون لها، وهكذا يزدادون قدرة على العطاء وتحملاً للعناء وسلامةً في الجسم.

دال: ويسيحون في الأرض لينظروا ما فيها من عبر التاريخ، ويستخرجوا ما فيها من طاقات سخرت لعمارة الأرض، وليروا من فيها من بشر ينتظرون الهداية والبلاغ، وبالتالي ليرضوا أنفسهم على التعب من اجل الله.

هـاء: يركعون ويسجدون لأنهما مظهران من مظاهر العبادة الصادقة والتبتل إلى الله.

واو: ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لأنهم قد هيأوا أنفسهم لهذه المسؤولية الكبيرة.

زاء: ويعتبرون أنفسهم شهداء على تطبيق النظام الإسلامي، وحدود الشريعة المقدسة، لذلك فهم حافظون لحدود الله، سواء بأنفسهم فلا يعطون لأنفسهم الحق في تغيير حدود الشريعة باجتهادهم أو بسبب أنهم ثوار مجاهدون. كلا.. بل يلتزمون دائماً قبل الآخرين بتفاصيل المناهج التي بينها لهم ربهم سبحانه، ولذلك فإن الله يبشرهم برحمة واسعة منه ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الولاء للرسالة

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ[1] حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) ﴾.

هدى من الآيات:

لقد فصلت آيات الدرس السابق مواقف الفئات من الرسالة، وفي هذا الدرس والدروس القادمة يُبين السياق القرآني جوانب من علاقات هذه الفئات ببعضها، وبدأها بضرورة فصم الولاء بين المؤمنين والمشركين حتى ولو كانوا أقاربهم الأدنين.

فلا يجوز للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين، لأن ذلك نوع من العلاقة الايجابية المحظورة شرعا ولأن الإستغفار لا ينفع أحدا اذا أصر على الشرك والعناد.

ولم يكن استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو يعلم أنه مشرك إلا بسبب وعد بينهما، وربما كان يرجوا إبراهيم اهتداء أبيه، و لما علم أنه عدو لله تبرأ منه، وقد كان إبراهيم عليه السلام ممحضاً في التوحيد ومتبتلاً إلى الله، وكان في الوقت ذاته حليما.

(١) لأواه: الأواه من التأوه وهو التوجع.

ولقد هدى الله البشر بالفطرة، وأرسل اليهم رسلاً بينوا لهم شرائع الدين، فلما خالفوا تلك الشرائع -وليس قبل ذلك- أضلهم الله، والله بكل شيء عليم.

وهكذا ينهى الله سبحانه عن الإستغفار للمشركين لأنه هداهم فاستحبوا العمى فأضلهم وأبعدهم، والله ولي البشر لأن له ملك السماوات والأرض دون أسرة الإنسان وأقاربه.

بينات من الآيات:

شروط الاستغفار

[١١٣] بعض الناس يذنب ويتمنى لو أن الرسول أو أحد الأولياء يشفع له ذنبه بمجرد إنه ابن ذلك الولي أو تابع للرسول.

وقد يكون ذلك التمني معقولا ولكن بشروط ثلاث:

أولاً: الا يكون مجرد تمني بل يشفع بعمل وسعي، يقول القرآن الحكيم في آية كريمة: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [النجم: ٢٤-٢٥]، إلى قوله سبحانه: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، مما يدل على أن التمني لا يجدي نفعا لو بقي في حدود التمني.

ثانياً: أن تكون علاقته بالولي، أو بالرسول علاقة إيمان لا علاقة إعجاب عاطفي أو إنتماء نسبي، فالرسول ﷺ ليس أباً لأحد من الرجال بل هو قبل كل شيء رسول بعثه الله ليطاع بإذنه، فلو كانت العلاقة معه نابعة من الإيمان بالله فإنها تشفع له.

ثالثاً: ألا يكون الذنب هو الشرك بالله العظيم لأن الله يغفر كل الذنوب دون الشرك بالله تعالى.

ضمن هذه الشروط يقدر النبي أو الولي أن يشفع للمذنبين، ولكن لا تعني الشفاعة إنه يفرض على الله غفران ذنوبهم، بل إنه يدعو والله يستجيب دعاءه بفضله. وهكذا تكون الشفاعة والإستغفار بمعنى واحد لأن الإستغفار هو الدعاء بغفران ذنب المذنبين. والآية التالية تؤكد على الشرط الأخير الذي هو الأهم من هذه الشروط الثلاث للشفاعة فتقول ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فمادام الشخص مشركاً فهو من أصحاب النار لا محالة فلماذا طلب المغفرة له، ولماذا أساساً الارتباط النفسي به، إنه من أمة ونحن من أمة، إن صاحبه

النار وصاحب المؤمنين الجنة.

[١١٤] نعم إن الإستغفار يجوز للمشرك وذلك بطلب الهداية له من الله سبحانه، كما كان الرسول ﷺ يكرر هذه الكلمة في المواقف الحرجة من حياته الرسالية «اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[1]، وكما كان إبراهيم عليه السلام وعد أباه ان يستغفر له قال: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧-٤٨].

ذلك لأنه كان يسعى آنئذ نحو هداية قومه وإخراجهم من ضلالتهم، أما بعدئذ حينما تبين له أن أباه وقومه أعداء لله وأن شركهم ليس لجهلهم بل للعناد والتحدي، هجرهم وتبرأ منهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾.

[١١٥] والله كذلك لا يأمرنا بمقاطعة المشركين فورا ومن دون سابق تبشير وإنذار، إنما علينا أن ندعوهم إلى الهدى بكل وسيلة، ومنها الدعاء لهم بالهداية، فإذا عاندوا تركناهم وتبرأنا منهم، كما أنه سبحانه لن يضل الناس بعد أن هداهم، وكشف لهم تفاصيل الشريعة.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ إن هدايته إما تكون بالفطرة حيث خلق الله الناس وأركز في أنفسهم معرفته وزودهم بالعقل ليعرفوا الحق، أو تكون بالرسالة حيث بعث أنبياء ليهدوهم، فلما أهتدوا وأنعم الله عليهم بالرخاء طغوا ونسوا ما ذكروا به، هنالك يضلهم الله ويسلب منهم نعمة الهداية التي سبق وأنعم بها عليهم فلم يراعوها حق الرعاية، وأهملوا السنن التي بينها لهم، وأهملوا المحرمات التي أمرهم الله تعالى باتقائها واجتنابها ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي الذنوب التي يجب اجتنابها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليهم بأسباب شقاء الإنسان، وكيف يجب اتقائها، وعليم بواقع ذلك القوم الذي لم يجتنب الذنوب وارتكب أسباب الشقاء، لذلك فلما يضلهم، يضلهم بعلم سبحانه.

[١١٦] كذلك يجب ألا ينتمي الإنسان إلى قرابته بل إلى الله، فلا يستغفر للمشركين من أقاربه، لأن الله له ملك السماوات والأرض وأسرة الفرد لا تغني شيئا عن الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج١١ ص٢٩٨.

الطاعة في ساعة العسرة

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾.

هدى من الآيات:

إن الله تعالى يغفر الذنوب التي ارتكبها البشر تحت ضغط الظروف الصعبة مثل ساعة العسرة التي مر بها اصحاب الرسول ﷺ وكادت قلوبهم تصاب بالزيغ والإنحراف بل الضلال، فغفر الله لهم لأنه رؤوف رحيم بهم، ويعرف مدى ضعفهم، كما غفر الله لأولئك الذين تخلفوا عن المعركة ثم تابوا إلى الله وعرفوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، فآنئذ تاب الله عليهم، ليعودوا إليه وإلى مناهجه السماوية.

وهكذا يأتي هذا الدرس مكملاً لآيات الدرس السابق التي تُبين لنا أن الإستغفار إنما هو قبل بلوغ الذنب مستوى الشرك بالله، فإذا بلغه فإن الله لا يغفره أبداً، أما قبلئذ فإن الله سبحانه يغفر بعض الذنوب.

بينات من الآيات:

الشفاعة متى ولماذا؟

[١١٧] نعود -مرة أخرى- إلى الشفاعة، ومتى وكيف يشفع الرسول في أمته؟.

لنؤكد على حقيقتين:

الأولى: إن الشفاعة من عمل الإنسان وسعيه، وليست من تمنياته وأحلامه.

الثانية: إن الهدف من الشفاعة تعميق الصلة بين الرسول ﷺ وقومه، ونستوحي من الآية التالية كلتا الفكرتين: ولكن كيف؟.

دعنا نتدبر في الآية الكريمة: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ توبة الله على النبي تعني المزيد من بركاته عليه، ولكن بالنسبة إلى المهاجرين والأنصار قد تعني أيضاً غفران ذنوبهم ولكن بماذا وكيف غفرت ذنوبهم؟ بانهم اتبعوا الرسول في ساعات الشدة، ولأن ذلك كان عملاً كبيراً والله سبحانه يغفر بسبب الحسنات الكبيرة الذنوب الصغيرة لذلك أكدت الآية على هذه الحقيقة.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ فالصبر في ساعة العسرة عمل عظيم يغفر الله تعالى بسببه سائر الأعمال الصغيرة، ولكن أهم نقطة هي اتباع الرسول، وعدم الخلاف معه، وعدم الإسترسال مع حالة الزيغ، الذي يصيب البشر في مثل هذه الحالات الصعبة.

﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ وزيغ القلب هو انحرافه عن الإيمان بالله والرسول، وإذا اتبع المؤمن قيادته ولم يتشكك فيها بسبب الظروف الصعبة فإن ذلك يشفع له ذنوبه، لأن الرسول أو الولي الذي يمثل القيادة سوف يشفع له عند الله، ويصلي له ويسغفر له، وبهذا نعرف فلسفة الشفاعة فهي سبب لتمتين الإرتباط بالرسول ﷺ أو بالقيادة السليمة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

حين تضيق بنا الحياة!

[١١٨] وهناك حالة مفردة غفرها الله سبحانه وهي: أن ثلاثة من أصحاب الرسول تخلفوا عن الجهاد فغضب الله عليهم وأمر الرسول ﷺ ألا يكلمهم المسلمون، فشعروا بضيق كبير حتى ضاقت عليهم الأرض بالرغم من سعتها ورحبها.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ ضيق الأرض بسبب مقاطعة المجتمع لهم، وضيق أنفسهم بسبب شعورهم بالذنب لذلك توجهوا إلى الله.

﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي تصوروا هذه الحقيقة ماثلة أمامهم كانهم يرونها بالرغم من إيمانهم المسبق بهذه الحقيقة وهي أن الكهف الحقيقي لإيوائهم في زحمة المشاكل هو حصن الله الحصين ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

خطوات المجاهدين عمل صالح

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ[1] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ[2] ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا[3] إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢١) ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾.

هدى من الآيات:

من أجل تحريض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، أكد القرآن الحكيم على ضرورة التقوى والإنسجام مع المؤمنين الصادقين، وفي طليعتهم رسول الله ﷺ الذي لا ينبغي التخلف عنه أو تفضيل حياتهم وراحتهم على حياته وراحته لأنه لا يصيب أحداً من الأعراب أو من أهل المدينة شيء من الأذى إلا كتب له بقدره عمل صالح يجازي به سواء كان ذلك الأذى عطشاً

---

(١) مخمصة: المخمصة المجاعة وأصله ضمور البطن للمجاعة يقال للرجل خميص البطن.

(٢) يغيظ: الغيظ انتقاض الطبع بما يرى مما يسوؤه يقال غاظه يغيظه.

(٣) نيلاً: النيل الأمر ونيلاً: أمراً.

أو تعبا أو مجاعة، ولا يعملون عملاً إلا سجل بحسابهم سواء كان صغيراً أو كبيراً، ومقياس العمل هو التحرك في سبيل الله، أو مقاومة أعدائه، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

كما أن أيّ جُهدٍ صغيراً أو كبيراً محسوبٌ عند الله، وكذلك قطع المسافات هو الآخر محسوب بقدر الجهد والعناء الذي يصيبهم بذلك، والله سبحانه سوف يجاريهم خيرا عليه

وعلى المؤمنين المنتشرين في أقطار الأرض أن تختار كل فرقة منهم طائفة لينفروا إلى (المدينة) مركز القيادة الإسلامية لكي يكونوا قريبين من الأحداث، ويعرفوا تعاليم الدين، ويتعمقوا في فهم الرسالة ليقوموا بعد عودتهم بواجب الإنذار لقومهم بهدف تزكية وتعليم قومهم، وإعادتهم إلى الصراط المستقيم.

بينات من الآيات:

واجبات وأولويات المؤمن

[١١٩] ثلاث واجبات متكاملة ينبغي أن يعقد المسلم عزمه على تحقيقها:

أولاً: الإيمان المستقر في قلبه.

ثانياً: التقوى وتنفيذ سائر الواجبات الإسلامية.

ثالثاً: أن يكون مع الصادقين وهم التجمع الرسالي.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وأي واحد من هذه الواجبات الثلاث لا يكتمل من دون سائر الواجبات، وبالذات الإنتماء إلى تجمع الصادقين، والتفاعل معهم ثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، ومشاركتهم الهموم والآمال، ذلك لأن هذا التجمع حصن الإيمان والتقوى ولأن ضغط الحياة وتحدياتها كبيرة ولا يستطيع المؤمن أن يواجهها وحده.

صفات المجتمع الرسالي

[١٢٠] المجتمع المستقر الراكد ليس مجتمعاً رساليًا ولا مسلماً، لأن الإسلام الحقيقي هو الاهتمام بشؤون الآخرين، والدفاع عن حقوق المستضعفين إلى درجة الجهاد من أجلهم، والمجتمع الإسلامي لا يجمد في حدود اقليمية ضيقة، ولا يقول بناء الوطن أولاً، ثم الإنطلاق لإصلاح الآخرين لأنه لا وطن للفضيلة والخير، ولا حدود للعدالة والرفاه.

وهكذا كان الرسول ﷺ نذيراً للعالمين، وهكذا كان يجب على أهل المدينة وهم أبناء المجتمع الإسلامي الأول، أن يتبعوا الرسول ﷺ في حمل رسالته بلاغاً وتنفيذاً، قولاً وعملاً.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ فيقعدوا في بلدهم ويطبقوا الإسلام ويقولوا علينا بإصلاح بلدنا وحده. كلا.. كان عليهم أن يسيروا في الأرض كما كان يسير رسول الله ﷺ، ويحملوا على أكتافهم مشعل الرسالة إلى كل مكان، أو كانت نفوسهم أعز من نفس رسول الله ﷺ، من يدعوا نفس رسول الله ﷺ تتعرض للمصاعب والأخطار بينما نفوسهم آمنة في المدينة؟.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وبالتالي لا يصيبهم مكروه إلا وهو مسجل عند الله تعالى ويوفيهم جزاءهم كاملاً.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ فسواء بقوا أو اتبعوا العدو تضرروا أو أضروا بالمخالفين ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

فهناك مقياسان للعمل الذي يجازيه ربنا الرحيم به:

المقياس الأول: أن تحسب مقدار عنائك وتعبك.

المقياس الثاني: أن تقيس مقدار تجسد عملك في الخارج وبالذات أثره في عدوك، فإن الله سبحانه حسب هذا المقياس أو ذاك سوف يجزيك دون أن يضيع عنك أجراً.

ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره

[١٢١] كذلك الله يحسب حساب نفقاتك وحتى خطواتك.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فالجزاء دقيق وأفضل من العمل، ولذلك لا تنظر إلى عملك نظرة مطلقة وعامة، بل انظر إلى كل جزء من عملك، واعلم بأن لكل جزء جزاء. مثلاً: إعلم بأن كل تسبيحه تعني شجرة في الجنة فاشتل أكبر عدد ممكن من الأشجار في الجنان، بأكبر قدر ممكن من التسبيح، وأعلم بأن كل خطوة تجازي بغرفة، فابن لك غرفاً أكثر بخطوات أكثر تخطوها للعمل الإسلامي.

الأمة الإسلامية وواجب الطليعة

[١٢٢] المجتمع الإسلامي مجتمع رسالي متحفز أبداً إلى الأمام، وهو لذلك بحاجة إلى طليعة رائدة همها الوحيد التفقه في الدين والتعمق في رسالته السماوية فهما وتطبيقا، وتكون هذه الطليعة شاهدة في الأحداث وقريبة من القيادة، بينما يبقى الاخرون في أرضهم يقومون بأعمالهم العادية ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ فيجتمعوا جميعا حول الرسول في المدينة أو يخرجوا معه إلى الغزوات ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ أي نفر من كل فريق ومجموعة متماسكة بعض ليقوموا بالواجب نيابة عن الآخرين، فمثلاً من كل عشيرة، ومن كل منطقة بعض أهل العشيرة، وأهل المنطقة ليكون أقرب إلى واقعهم واعرف بمشاكلهم.

﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي ليعرفوا الدين أعمق وأفضل، أما وظيفة هؤلاء بعد التفقه في الدين فليس القعود واجترار الحسرات بل الإنذار ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾.

صفات الفقهاء

الفقهاء في الإسلام يتصفون بثلاث صفات:

أولاً: إنهم ليسوا من طبقة أو عرق معين بل من صميم كل المجتمعات.

ثانياً: إنهم يتعلمون الفقه داخل ساحة العمل الرسالي وليس في زوايا المساجد أو المدارس، بل أنهم ينفرون مع الرسول أو مع القيادة الرسالية، ويتعلمون الدين عبر الصراع القائم بين الجاهلية والإسلام.

ثالثاً: إنهم سوف لا يجمدون بعد التفقه ليأتي اليهم الناس، بل ينطلقون إلى مواقع قومهم ويقومون بواجب الإنذار. والإنذار بهدف إيجاد روح الحذر والتقوى عند الناس لذلك يجب ألا يقتصر الإنذار على مجرد اسقاط الواجب الشرعي، بل يستمر إلى تحقيق هدفه وهو تربية روح الحذر في الناس.

موقف المنافقين من القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا(١) إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

وفي نهايات سورة التوبة المخصصة لبيان جوانب من شرائع الجهاد الإسلامي يبلغنا السياق الحكيم ضرورة البدء بقتال العدو الأقرب إلينا بشدة وغلظة، مع المحافظة على حدود الله، واتقاء تجاوزها حتى يكون الله معنا.

كما يبلغنا عن نفسية المنافقين وموقفهم السلبي تجاه الآيات القرآنية زاعمين أنها لا تنفع شيئاً ويتساءلون بسخرية وربما بغباء أي واحد من المؤمنين زادته هذه الآية إيماناً ويجيب القرآن: بأن المؤمنين استفادوا زيادة في الإيمان ووجدوا في الآيات نعمة يبشر بعضهم بها بعضاً، بينما الكفار والمنافقون توغلوا في العناد حيث أصروا على موقفهم السلبي، فازدادوا رجساً بسبب

---

(١) رجساً. الرجس هي النجاسة.. وإنما سموا بذلك لأن الكفر والنفاق كالنجاسة.

كفرهم الجديد الذي استمر معهم إلى النهاية.

وكما لا ينتفع المنافقون بالآيات القرآنية النازلة وحياً، كذلك لا ينتفعون بالآيت الكوبية كالكوارث والمصائب التي عادة تنزل عليهم كل سنة، أما مرة أو مرتين ومع ذلك لا يتوبون إلى الله ولا يتذكرون.

وهكذا موقفهم من الآيات إذا أنزلت آية أخذ بعضهم ينظر إلى بعض مشيرا إلى عدم فهمه لمحتوى الآية، ثم يلتفتون إلى من حولهم خشية أن يراهم المؤمنون فيكتشفون موقفهم السلبي من الآية، ثم ينصرفون ويذهبون، وسبق أن أبعد الله تعالى قلوبهم عن الإيمان بسبب جهلهم وعدم فهمهم.

بينات من الآيات:

قرار الحرب لأقرب الاعداء

[١٢٣] حينما تكون الأمة مستقلة في قرار الحرب والسلم، وغير متأثرة بالإعلام المضلل الذي يقوم به الأعداء فإنها تبدأ بقتال أقرب أعدائها خطراً عليها كما أمر الله، ثم إذا تفرغت منه توجه عداءها ضد العدو البعيد، كما أمر الله في هذه الآية وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ ومثل هذه الأمة لا تلين بسبب الإحساس بالخطر، بل تتصلب أكثر فأكثر ضد مصدر الخطر القريب لأنها أمة مستقلة تعتز بكرامتها وأصالتها، ولا تساوم على كرامتها أحداً.

والله تعالى يعد المؤمنين إذا كانوا كذلك، وإذا احترموا حدوده فلم يدفعهم إلى القتال غرور أو طمع، وبالتالي إذا اتقوا يعدهم أن يكون معهم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أما الأمة المهزومة نفسيًّا، والتابعة لتهديد الآخرين وإعلامهم فإنها تعادي أبداً العدو الضعيف والبعيد الذي لا تحس منه الأمة بخطر مباشر عليها.

فالمسلمون حين كانوا أقوياء ناطحوا الروم الذي أحسوا بخطرهم المباشر، وخاضوا معركة تبوك ومؤتة، ولم يستسلموا للروم ليحاربوا معهم الفرس، ولم يقولوا: إن الروم أقرب الينا ديناً لأنهم نصارى والفرس مجوس، ولكن نجد أحياناً أن بعض المسلمين أو لا أقل بعض الأنظمة الحاكمة عليهم عندما يشعرون بالضعف فإنهم يستسلمون للعدو الأقرب والأخطر ويتحالفون معه ضد العدو الأبعد والأقل خطراً.

وهذا الضعف هو الذي خلق جيوب النفاق داخل الأمة الإسلامية، فقد حاولت الأنظمة الطاغوتية أبداً أن تختلق أعداء وهميين، وتغذي بعض ضعفاء النفوس بالحقد عليهم، لكي تتخذ منهم أدوات طيعة لتحقيق تسلطها السافر على الناس.

موقفنا وموقفهم

[١٢٤] والمنافقون أبداً يشككون بقيمة الآيات القرآنية، ولا يعرفون مدى انتفاع المؤمنين بها ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وهكذا كان موقف المنافقين سلبيا أمام السور القرآنية بسبب جهلهم بالحاجة الماسة إليها، بينما المؤمنون فقد كانوا يشعرون بالحاجة لذلك كانوا يستبشرون كلما نزلت عليهم سورة ويتدبرون فيها وبذلك يزدادون إيماناً فوق إيمانهم.

متى يكون الهدى سببا في الضلال؟

[١٢٥] ولأن المنافقين كانوا يكفرون بالسور الجديدة، فإن ذلك الكفر كان يكرس العناد في ذواتهم ويزيدهم رجساً إلى رجسهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ قلب البشر مزود بجهاز رؤية يحدد مساره في شؤون الحياة، فإذا وجد هذا الجهاز عقبة اجتماعية نبه القلب إلى ضرورة التحدي. وإذا واجه أزمة ذكر القلب بضرورة مضاعفة السعي، وإذا أنذر حذر وإذا بشر اندفع وهكذا.. فإذا أصيب القلب بمرض وتعطب الجهاز فإن النتائج سوف تكون عكسية وخطيرة. فمثلاً: حين يواجه عقبة ليس لا ينبه القلب إلى وجودها فقط بل وأيضاً يقول إنها طريق معبد، وإذا وجد أزمة يحسبها رفاهاً ويحتسب المشكلة رفاهاً وهكذا.

وهكذا تكون كل ظاهرة خارجية مفيدة لصاحب القلب السليم، بينما تكون مضرة بالنسبة إلى القلب المريض، وهكذا الكلمة الحق بالنسبة إلى القلب السليم هدى وموعظة. بينما هي بالذات تتحول بالنسبة إلى القلب المريض ضلالة ورجساً، كيف؟.

لنضرب مثلاً: إنك تنصح أخاك وتقول له: اقرأ كتاب نهج البلاغة، وهو بدوره يرى فيك الأخ الناصح ويتقبل نصيحتك ولكن إذا قلت ذات الكلمة لعدوك فلأنه مصاب بعقدة تجاهك يفسر كل كلمة منك على إنها اسلوب تستخدمه لتحطيمه، فإنه سوف يترك قراءة نهج

البلاغة لو كان يقرؤه سابقاً، وكذلك لو ألقيت هذه الكلمة الناصحة على شخص متكبر مغرور بنفسه فلا يكون رد فعله سوى الإستياء منك ومن الكتاب الذي تأمره بمطالعته، وهكذا كانت بعض القبائل من قريش الذين كانوا يعتبرون بني هاشم منافسا تأريخيا لهم، كانت مواقفهم من الرسالة نابعة من هذه العقدة، فعارضوا الرسالة، وازدادوا معارضة لأفكارها وتوجيهاتها الحقة لمجرد إنها تجلت في بيت بني هاشم.

التفسير الخاطئ للأحداث وسببه

[١٢٦] وكما موقف القلب المريض من الكلمة الحق، موقف عكسي مضر كذلك موقف الإنسان ذي الرؤية الفاسدة من الظاهرة الخارجية، فبدل أن يفسرها تفسيرا مناسباً تراه يفسرها معكوسة، ويعمل حسب ذلك التفسير، فإذا وجد تخلفاً في حياته الاجتماعية فسره على إنه نتيجة تمسكه بالتقاليد الأصيلة فتركها وازداد تخلفاً، بينما كان عليه أن يفسرها على إنها نتيجة تبعيته للآخرين وتكاسله عن العمل.

وهكذا الفتنة التي هي ظاهرة صعبة في الحياة الاجتماعية مثلاً: الفقر والمرض والحرب والمجاعة، كل ذلك إشارات خطر تدل على سلوك فاسد لذلك الإنسان، ولكنها بالنسبة إلى المنافقين ذوي القلوب المريضة والرؤوس الفاسدة، ليست نافعة أبداً. لأنهم يفسرونها تفسيراً شاذاً ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فلا هم يعودون من الأعمال السيئة التي تسببت في تلك المشاكل ولا هم يتعمقون في فهم الحياة بسبب تلك المشاكل. ويبدو من هذه الآية إن المجتمعات تصاب عادة بفتن ومشاكل عامة، بين فترة وأخرى وأن عليها أن تعتبر منها وتدرسها دراسة معمقة.

[١٢٧] وكان موقف المنافقين من سور القرآن الحكيم الجديدة ليس الملاحظة النظيفة والدراسة السليمة من العقد، بل تجاهلها والعودة إلى عصبياتهم وأفكارهم الجاهلية وتقييم السور الجديدة على أساسها.

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ ربما كان ينظر بعضهم إلى بعض ليرى كل واحد موقف رفاقه من السورة دون أن يكون لديه ثقة بعقله هو والإستفادة منه في دراسة السورة ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يفقهون أن فوائد السورة لهم إذا نظروا إليها بتجرد ودون اتخاذها وسيلة لنفاقهم، والإنصراف عنها إلى قيمهم الفاسدة.

صفات الرسول ﷺ

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)﴾.

هدى من الآيات:

في الآيتين الأخيرتين لسورة التوبة يذكرنا السياق بأن الرسول ﷺ قادم من صميم قومه الذين أرسل اليهم، فهو من أنفسهم، وإنه يتأثر ويحزن إذا وجد مكروهاً يصيب قومه، وإنه يحرص على سلامتهم، وإنه رؤوف رحيم بالمؤمنين.

ولكن لا يعني ذلك أن الرسول ﷺ يعتمد على قومه ويتأثر بسلبياتهم. كلا؛ بل يصمد أمامها اعتماداً على الله تعالى فإن تولوا فإن حسبه الله يتوكل عليه، وهو رب العرش العظيم.

بينات من الآيات:

سيرة الرسول ﷺ

[١٢٨] المواقف الخاطئة للمنافقين من الرسالة ربما كانت بسبب سوء فهمهم لواقع الرسول ﷺ وأنه جاء منقذاً لهم من الآلام التي يعانون منها ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ فهو يتحسس بالعناء الذي يعيشونه ويحزن لهم ويسعى من أجل تخفيف الألم عنهم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ يحرص على راحتهم، ويسعى من أجل حصولهم على الراحة ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يوفر لهم أسباب الخير والرفاه، ويغض عن نواقصهم، والأذى الذي يصيبه منهم.

لو لم يؤمنوا برسالته؟

[١٢٩] ولكن رحمة الرسول ﷺ ليست بعاطفة قومية أو اقليمية بل لأنه رسول الله، والله يأمره بذلك، لذلك لا يوقفه توليهم عن متابعة مسيرته ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ولأنه رب العرش فهو الذي يدبر شؤون العباد وعرشه عظيم، فهو أكبر من سلطان ذوي السلطان.

سُورَةُ يُونُسَ

* مكية.

* عدد آياتها: ١٠٩.

* ترتيبها النزولي: ٥١.

* ترتيبها في المصحف: ١٠.

* نزلت بعد سورة الإسراء.

فضلُ السُّورة

عن النبي محمد ﷺ: «مَنْ قَرَأَهَا أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ بِيُونُسَ وكَذَّبَ بِهِ وبِعَدَدِ مَنْ غَرِقَ مَعَ فِرْعَوْنَ».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٤١)

***

عن أبي عبدالله عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ يُونُسَ فِي كُلِّ شَهْرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ وكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥١)

الإطار العام

التوكّل على الله في مواجهة الطغاة

لابد من التوكل على الله سبحانه عندما يتحدى الإنسان ضغوط الطبيعة، وإرهاب الطغاة، كما فعل شيخ المرسلين نوح عليه السلام، وكما أمر النبي موسى عليه السلام قومه بأن يفعلوا، ولابد أن يؤمن الإنسان بالله وبسلطانه على خلقه وتدبيره له، ويؤمن بأن جزاءه حق، وأنه يعاقب الكافرين بيوم الجزاء كما يثيب الصالحين بأفضل الجزاء.. هناك يقوى على الشهوات ويواجه إرهاب الطغاة.

ومتى يعي البشر حقيقته وأنه عبد لله، وأنه لا إله إلا الله؟.

يعي ذلك عند الضراء، حين تتساقط حجب الغفلة والشرك وتتجلى قدرة الله سبحانه. وتتأكد الذكرى بهذه الحقيقة في سورة يونس عليه السلام ثلاث مرات، وتتناسب مع قصة قوم النبي يونس حيث سمي القرآن السورة باسمه، لأنه قد رفع الله عنهم العذاب بعد أن أحاط بهم.

تبدأ السورة بالإشارة إلى كتاب الله وإلى عجب الناس من أن يوحي الله إلى رجل منهم يبشرهم وينذرهم (الآيات: ١-٢).

ثم يتحدث القرآن الكريم عن التوحيد والربوبية، ثم عن المعاد والجزاء، وعن بعض آيات الله المتجلية في الشمس والقمر واختلاف الليل والنهار و.. (الآيات: ٣-٦).

ولكن لماذا يكفر فريق من الناس بالرغم من هذه الآيات الواضحة؟ لأنهم لا يحبون لقاء الله، ولذلك فإن النار مأواهم. أما المؤمنون بالله والعاملون الصالحات فإن الله يهديهم في الدنيا ويجزيهم جنات النعيم في الآخرة (الآيات: ٧-١٠).

ولكي يستفيق البشر من غفوتهم، فإن القرآن الحكيم يذكرهم بما ينتظرهم من العذاب

بسبب أعمالهم. وبالرغم من أن فطرة الإنسان تدعوه إلى الله إذا مسه الضر، ولكنه يستمر في حياته المنحرفة بعد أن يكشف الله عنه الضر. ولكن الله يهلك المجرمين كما أهلك من كان قبلهم، ثم يأتي بأجيال أخرى ينظر ماذا يعملون (الآيات: ١١-١٤).

ثم نقرأ في آي السورة، عن جدل الكفار حول القرآن، وكيف يفنده الذكر. ولعل ذلك جزءاً من التحدي الذي أمر به القرآن في هذه السورة (الآيات: ١٥-١٧).

ولكي تتم عند النفس حالة التحدي في مواجهة الطغاة والقوى الطبيعية، لابد أن يستهين المؤمن بالشركاء، الذين لا يضرون ولاينفعون (الآية: ١٨) وتأخير العذاب عنهم ليس إلا لكلمة سبقت من الرب (الآية: ١٩)، والغيب عند الله (الآية: ٢٠)، والله أسرع مكراً ورسله يكتبون ما يمكر المجرمون (الآية: ٢١).

وبعد أن يذكّر القرآن الناس مرة أخرى بحالتهم عند إحاطة الخطر بهم، وكيف أنهم ينسون الشكر بعد أن ينجيهم الله سبحانه (الآيات: ٢٢-٢٣)، يضرب مثل الحياة الدنيا، والمثل مقتبس من دورة حياتية يتميز بها النبات (الآية: ٢٤)، والسلام عند الله، وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم (الآية: ٢٥)، وسلام الله إنما هو للذين أحسنوا، أما المجرمون فلهم النار (الآيات: ٢٦-٢٧).

وهكذا يأمرنا بالكفر بالشركاء، لأنهم يتبرؤون من أتباعهم، وعند الله الجزاء (الآيات: ٢٨-٣٠). ويستمر السياق القرآني في بيان حقيقة الشركاء وأنهم تافهون، وأن إتبّاعهم ليس إلا اتباعاً للظن (الآيات: ٣١-٣٦).

ويعود إلى بيان أن القرآن لا ريب فيه، وأن جهلهم به هو الذي دعاهم إلى التكذيب به (الآيات: ٣٧-٤٠). ويأمرنا بتحدي المشركين والبراءة منهم، ويبين ضلالة الذين يكفرون بالقرآن، وأنهم هم عمي، وأن عماهم وصممهم منهم، لأن الله لايظلمهم (الآيات: ٤١-٤٦).

ثم يعود ويبين أن الله هو الذي يملك الضر والنفع، فلابد أن نتوكل عليه، ونترك الشركاء (الآيات. ٤٩-٥٢)، ويؤكد أن القرآن وما فيه حق، وأن الجزاء واقع، وأن وعد الله حق، وأن الله يحيي ويميت، وأن القرآن موعظة وشفاء (الآيات: ٥٣ ٥٨). كل ذلك يثبت فؤاد المؤمنين تمهيداً للبراءة من الشركاء.

ويبين القرآن أن التشريع إنما هو لله وحده وليس للشركاء، وينذر الذين يفترون على الله الكذب، وأن الله شاهد على كل كلام، وأنه مسجل عنده صغيراً وكبيراً (الآيات: ٥٩-٦١).

وأن أولياء الله لا خوف عليهم (بعكس أولياء الشركاء) وأن لهم البشرى، وأن لله العزة (وليس للمشركين)، وأن له ما في السماوات والأرض، وليس للطغاة، وأنه هو الذي جعل الليل ليسكن فيه الناس والنهار مبصراً وليس الشركاء (الآيات: ٦٢-٦٧).

أما قولهم بأن الله قد اتخذ ولداً -وهو أحد سخافات المشركين- فإنه ضلال، لأن الله سبحانه غني عن الولد، وأنه ليس إلا افتراءً لا يفلح صاحبه، وأن هدف الافتراء متاع الدنيا، وهو قليل، ونهاية المشركين العذاب الشديد بكفرهم (الآيات: ٦٨-٧٠).

كل تلك الآيات تمهد لإعلان البراءة من المشركين، كما فعل نوح شيخ المرسلين عليه السلام فأغرق الله قومه وخسر المشركون (الآيات: ٧١-٧٣).

ولعل الآيات (الآيات: ٧٠-٩٣) هي غرر هذه السورة الكريمة، حيث تفصل القول عن تحدي الرسل لطغاة عصرهم وكفار الناس من قومهم، وكيف أنهم أمروا أتباعهم بالتوكل على الله، وبالتالي كيف نصرهم الله سبحانه.

ثم بعد بيان قصص الأنبياء عليهم السلام، يأمر الله بطرد الشك في القرآن، والابتعاد عن التكذيب بآيات الله، وأن الكفار لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم (الآيات: ٩٤-٩٧)، ولكن هل ينفع الإيمان ذلك اليوم؟ لا؛ إنما قرية واحدة نفعها إيمانها حين آمنت بالله، وهي قرية النبي يونس عليه السلام (الآية: ٩٨).

ولكن هل إن مصدر الإيمان من العبد أو من الرب؟.

لا ريب أن الله لا يكره الناس على الإيمان، وهكذا على كل نفس تحدي أمواج الكفر للوصول إلى شاطئ الأمان، حيث يأذن الله له بالإيمان (الآيات: ٩٩-١٠٠).

ويعود القرآن ليسفّه حالة الانتظار في النفس، بل على الإنسان أن يبادر للإيمان، حتى يكون من الذين ينجيهم الله عند العذاب (الآيات: ١٠١-١٠٣).

ويعلن القرآن على لسان النبي صلى الله عليه وآله البراءة من الشركاء، وأنه يخلص العبودية لله وبذلك يتحدى المشركين (الآية: ١٠٤)، ويأمره بإقامة وجهه لله حنيفاً ورفض الشركاء، لأنه من غير ذلك سيصبح ظالماً لنفسه (الآيات: ١٠٥-١٠٦)، والاعتقاد بأن الذي يرفع الضر هو الله، وأنه إذا تفضل على عبده بخير فلا رادّ لفضله إلا هو (الآية: ١٠٧).

وهكذا على المؤمن أن يتحدى الشركاء والمشركين والتمسك بهدى الله، لأنه آنئذ ينفعه، كما أن ضلالته عن القرآن تضره هو وليس غيره. وأن على المؤمن اتباع ما يوحى إلى الرسول

والصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (الآيات: ١٠٨-١٠٩).

وبهذا نستطيع أن نستفيد من سورة يونس عليه السلام روح التوكل على الله، وتحدي الطبيعة والطغاة، ومقاومة ضعف النفس أمام المشاكل والأخطار.

لماذا كذبوا برسل الله؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

تلك آيات القرآن الحكيم، التي ركبت من ألفاظ وأصوات معروفة كالألف، واللام، والراء، ولكنها اتسمت بالحكمة البالغة، فهي تكشف الحق وتهدي البشر اليه والناس لا يصدقون بهذه الحقيقة، أن يكون رجل منهم يوحى اليه القرآن، بينما لا عجب في ذلك خاصة وأن هدف نزول الوحي انذار الناس جميعاً، وتبشير المؤمنين بأن لهم قدم صدق عند الله، فمقامهم عند ربهم ثابت لا يتزلزل، وبالتالي فالله ينصرهم ويجزيهم الحسنى.

ولكن الكافرين قالوا: إن هذا لساحر مبين، فهو ساحر لأنه جاء بشيء غريب لا يقدر عليه الآخرون، وهو واضح الحجة، قوي البينة.

وقد لخصت هاتان الآيتان كثيراً من توجهات السياق القرآني في هذه السورة، والتي سوف يفصلها فيما يلي تفصيلا.

بينات من الآيات:

معنى الحروف القرآنية المقطعة

[١] ﴿الٓر﴾ تلك هي المقاطع الحرفية التي نجدها في كثير من سور القرآن، والرأي

الذي ذكرناه عدة مرات حولها هو: إنها إشارة إلى ذات الحروف، وهي بالتالي تشبه كلمة (هذا) والجملة التالية هي خبر لها، وهناك تفسيرات أخرى لهذه المقاطع والله أعلم[1].

وهذه الأحرف هي آيات وعلامات تشير إلى مجموعة متكاملة وثابتة من العلوم التي تنفع الإنسان في حياته، فهي آيات الكتاب الثابت والمشتمل على الحكمة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إن كتاب الله ثابت يكشف الحق، فهو متين لا تجد فيه عوجا ولا أمتا، كما لا تجد فيه تناقضاً ولا اختلافاً فهو محكم الأطراف.

[٢] ومشكلة البشر مع القرآن مشكلة نفسية، حيث أنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الكتاب، بل تراهم يستغربون منه ويقولون: كيف يصبح رجل منا حاملاً لرسالة الله العظيم التي تحمل الإنذار والبشارة؟!.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ ولكن بما أن الهدف من القرآن هو إنذار الناس، فلذلك كان من الحكمة أن يكون واحد منهم حاملاً للرسالة، فلماذا التعجب والإستغراب؟!.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ القدم الصادقة التي وضعت في مقامها الصحيح وبوعي، ذلك لأن المؤمن يعرف أين يذهب، وهو حين يسعى لتحقيق هدفه هذا وهو الوصول إلى مرضاة الله يبلغه، فقدمه عند الله قدم صادقة، هذا هو محتوى الكتاب الحكيم، ولكن ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ تفسير الكافرين بالرسالة لها أنها سحر، دليل على أنهم لم يستوعبوا واقعها بسبب مشكلة فيهم لا مشكلة مستوى الرسالة، والإهتداء إلى ما فيها من خير ومنافع ولو أن الإنسان اجتاز حاجزه النفسي لوجد أن الرسالة حق لا ريب فيه، ولكن ذلك الحاجز النفسي يجعله يفتش عن تفسيرات بعيدة لظاهرة الرسالة، حتى أنه يفسرها بأنها سحر مبين، وبتعبير آخر لا يفسرها بشيء إذ السحر هو كل ظاهرة غريبة لا تفسير لها.

(١) سبق الحديث في سورة البقرة عن مثل هذه الحروف المقطعة، وكذلك في أوائل كثير من سور القرآن.

آيات الربوبية تذكرة للمتقين

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) ﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأول من هذه السورة، وبعد إشارة خاطفة إلى السياق العام لها، يبين القرآن الكريم صفة الربوبية اللازمة على الخلق، والتي تتجلى في خلق السماوات والأرض عبر أيام متتالية، مما يحتاج إلى العناية الدائمة، ثم استواء ربنا على عرش التدبير وقيامه بتدبير شؤون الكون، دون أن يكون له منافس قادر على التدخل في شؤون مملكته الواسعة إلا حسب إذنه وبعد السماح له بذلك.

فهذا هو الرب الذي يأمرنا القرآن بعبادته، وتلك أيضاً وصية عقولنا لو نتذكر قليلا. ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والتقدير الدقيق، بينما الذين كفروا يجازيهم

بشراب حار، وعذاب مؤلم بسبب كفرهم.

وتتجلى مرة أخرى في تقديره الهادف، وأنه كيف جعل من الشمس ضياء للناس يتوهج، بينما جعل القمر نوراً هادئاً، وقدره حسب منازله المختلفة بهدف معرفة الحساب، وليعلم الإنسان عدد الأيام وينظم حياته وفقها، كل شيء خلق بهدف وضمن خطة حكيمة، ولم يخلق شيء عبثا، وان القرآن يفصل الحديث، ويوضحه تفصيليا لقوم يعلمون.

وتتجلى مرة أخرى في اختلاف الليل والنهار، وكيف نجد كل شيء في الليل والنهار وضع موضعه، ولتحقيق هدف خاص به.

بينات من الآيات:

الربوبية الواقعية

[٣] الله هو الرب العظيم، والربوبية ليست صفة اعتبارية طارئة على ربنا سبحانه، بل هي صفة ذاتية تتجلى في حاجة الكون الدائمة إليه تعالى (وهو الغني فلا اضطرار من جهته تعالى إلى الخالقية، فالحاجة الذاتية من جهة المخلوقين)، إنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهكذا أركز فيها الحاجة الماسة إلى تقديره وقيمومته، ذلك لأنه أعطاها في كل يوم شيئاً جديداً في الخلق، وبعدئذ لم يتركها لشأنها، بل أستوى على عرش القدرة مهيمناً على أمور الحياة، مدبراً لها بلا منازع ولا شريك، إلا من يأذن له وبقدر القدرة المخولة له.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ فأمور الخلق بيده المقتدرة يدبرها بها، ويخطط لكل مرحلة من مراحلها، ويجري خطته سبحانه، أما الخلق فهم مخولون للقيام ببعض التدبير في حدود سماحه لهم بذلك، ولأمد معدود.

فالبشر مثلاً قد زوده الله بالإرادة، وسخر له الأشياء، وخوله بعضاً من سلطاته سبحانه، وسمح له بالإستفادة منها، دون أن يفقد هو شيئا من سلطاته الذاتية ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ فليس له شفيع أو منافس أو منازع لقدرته، بل قد يكون غيره قادر ضمن قدرته وفي مجرى قدرته تعالى، وبعد إذنه سبحانه.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ذلك لأن قليلاً من التذكر والعودة إلى المقاييس العقلية يكفينا معرفة بأن الرب الحقيقي هو الله، إذ هو الخالق وهو المدبر المهيمن فلا شفيع إلا بإذنه، فإذن هو المعبود الحق، وليست السلطات الجائرة التي تفرض نفسها

على الشعوب بالقوة الظاهرة والزائلة.

[٤] ومن مظاهر ربوبيته وآياته الواضحة: أن الله سبحانه هو مرجعنا الأخير، وغداً سوف نجد أنفسنا أمامه ليحاسبنا حساباً دقيقاً ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالدقة دون أن ينقصهم من عملهم شيئا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾.

من أهداف الخلق

[٥] ومن آيات تدبير الله للكون، وهيمنته المطلقة عليه، ذلك التقدير الحكيم، الذي نجده في كل أرجاء العالم الرحيب، إلا تجد الشمس كيف جعلها الله سبحانه ضياء؟ وضياؤها بقدر محدد صيفا وشتاء، ضحى وظهرا، لو زادت إشعاعاتها لاحترقت الأرض، ولو نقصت لتجمدت بردا وماتت الحياة فيها؟ والقمر بدوره يسيل منه ذلك النور الهادىء، وهو يتحول عبر منازل، إبتداء من المحاق، فالهلال ثم البدر، ثم يتناقص حتى يعرف كل واحد من الناس إن الزمن يمر عنه، وأن عليه ان ينظم أوقاته ويعمل بجد ليوم حاجته، إنك تجد كل يوم يشبه اليوم الماضي تقريبا، لأن الشمس هي الشمس كل يوم، أما القمر فيتحول عبر منازل ليهديك إلى التحولات اليومية التي تحصل في ذاتك ربما دون ان تشعر بها ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ولأجل تحقيق هدف محدد ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

[٦] واختلاف الليل والنهار دليل آخر على ربوبية الله سبحانه، ذلك لأن الاختلاف دليل الهدفية والتدبير ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من مختلف أنواع الخلق مما لا تحصى كثرة وتنوعاً، وكل واحد منها يحقق هدفاً خاصاً.

﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ ولأنهم يتقون الله ويخشونه، فإن حجب الغفلة والجهالة لا تؤثر على قلوبهم، فتكتشف هدفية الحياة، وإن كل شيء قدر لهدف محدد سلفاً.

العلاقة بين هدفية الحياة والتقوى

إن هدفية الحياة التي تتجلى في النظام المتين في كل أبعاد الكون، إنها تدعونا إلى التقوى لماذا؟ وكيف؟.

وإلى هذه الحقيقة يشير الإمام الصادق عليه السلام حين يوضح للمفضل بن عمر كيف إن

التدبير في الكون يدلنا على ربنا العزيز فيقول: «يَا مُفَضَّلُ أَوَّلُ الْعِبَرِ وَالْأَدِلَّةِ عَلَى الْبَارِئِ جَلَّ قُدْسُهُ تَهْيِئَةُ هَذَا الْعَالَمِ وَتَأْلِيفُ أَجْزَائِهِ وَنَظْمُهَا عَلَى مَاهِيَ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْعَالَمَ بِفِكْرِكَ وَمَيَّزْتَهُ بِعَقْلِكَ وَجَدْتَهُ كَالْبَيْتِ الْمَبْنِيِّ الْمُعَدِّ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ، فَالسَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ كَالسَّقْفِ، وَالْأَرْضُ مَمْدُودَةٌ كَالْبِسَاطِ، وَالنُّجُومُ مَنْضُودَةٌ كَالْمَصَابِيحِ، وَالْجَوَاهِرُ مَخْزُونَةٌ كَالذَّخَائِرِ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهَا لِشَأْنِهِ مُعَدٌّ، وَالْإِنْسَانُ كَالْمُمَلَّكِ ذَلِكَ الْبَيْتَ، وَالْمُخَوَّلِ جَمِيعَ مَافِيهِ وَضُرُوبُ النَّبَاتِ مُهَيَّأَةٌ لِمَآرِبِهِ، وَصُنُوفُ الْحَيَوَانِ مَصْرُوفَةٌ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ، فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ بِتَقْدِيرٍ وَحِكْمَةٍ، وَنِظَامٍ وَمُلَائَمَةٍ. وَأَنَّ الْخَالِقَ لَهُ وَاحِدٌ وَهُوَ الَّذِي أَلَّفَهُ وَنَظَّمَهُ بَعْضاً إِلَى بَعْضٍ. جَلَّ قُدْسُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ وَكَرُمَ وَجْهُهُ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ. تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْجَاحِدُونَ وَجَلَّ وَعَظُمَ عَمَّا يَنْتَحِلُهُ الْمُلْحِدُونَ»[1].

ذلك لأنك حين ترى كل شيء في الدنيا يحقق هدفا، ويسعى في سبيل بلوغ غاية محددة، فتتذكر حقيقة هامة في ذاتك، هي أنك بدورك خلقت لهدف ومن أجل بلوغ غاية، وهذا التذكرة تصبح حجر الزاوية في بناء كيانك الفكري.

إذا تتساءل ما هو الهدف؟ وكيف أحققه؟ وما هي الغاية وكيف الوصول اليها؟.

وعبر سلسلة من التساؤلات التي تؤدي بك إلى التدبر العميق في نفسك، وفي آفاق الكون حولك، تصل إلى الهدف الأساسي من خلقك، ذلك هو العروج إلى مقامك الأسمى عند الله، وتبحث عن الوسيلة التي تساعدك على الوصول إلى مقامك المنشود عند الله، إلى مرضاة ربك العزيز المقتدر، فلا تجدها إلا في التقوى، لذلك: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾. وجاء في آية اخرى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

حين نجد كيف يتدرج المتفكر في خلق السماوات والأرض من معرفة هدفية الخلق، وأنه لم يخلق باطلاً، حتى يصل إلى التقوى من الله والحذر من عذابه.

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٦١.

الكفر والإيمان.. الأسباب والنتائج

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

مع هذه الآيات الواضحة المبثوثة في آفاق الأرض، والتي نبهت إليها آيات الدرس السابق، لماذا يكفر فريق من الناس؟.

باختصار: لأنهم لا يحبون لقاء الله، ورضوا بالحياة الدنيا، واطمأنت نفوسهم بما فيها من زخرفة ومتع زائلة، وزعموا بأنها باقية لهم أبداً، ولأنهم بالتالي غفلوا عن آيات الله التي تدلهم على أن للدنيا نهاية، وأنهم خلقوا للبقاء في عالم آخر.

وما هي عاقبة هذا الفريق الكافر؟.

أولئك مأواهم النار، ذلك لأن هذه النظرة الضيقة إلى حياتهم، تجعلهم يقترفون ذنوبا ويجترفون آثاما تستوجب لهم النار.

بينما الذين آمنوا بالله، وبأن وراء حياتهم هذه حياة أخرى يهديهم الله، لذلك عملوا صالحا لحصول مرضاة الله ونعيم الآخرة، لذلك تراهم مهتدين لأن الله يجعل من إيمانهم ضياءً يهديهم به إلى حقائق الأشياء، وعند الله يجزون بجنات النعيم التي تجري من تحتها الأنهار.

إنهم يزدادون إيماناً بالله لذلك فدعاؤهم عند الله ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وتحيتهم فيما بينهم ﴿السَّلَامُ﴾، فعلاقتهم بالله وهكذا بإخوانهم تزداد متانة، ونفوسهم راضية مرضية ولذلك يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

بينات من الآيات:

هل ترجو لقاء الله؟

[٧] اللقاء مع الله خالق السماوات والأرض، الرحمن الرحيم، هدف سام يرجى بلوغه لما فيه من مصالح هامة، ولكن بعض الناس لا يرجون لقاء الله، فهم غير مرتبطين بهدف أسمى في حياتهم، لذلك تجدهم يهتمون بعاجل الدنيا، يحسبون ما فيها من لذائذ ومتع هي كل شيء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بينما هم غافلون عما حولهم من الآيات بينات، تدل على أن الإنسان أرفع درجة من سائر الأحياء، وأنه قادر على بلوغ مراتب عالية، لذلك لا يعيشون قلق المؤمنين النفسي الذي يبعثهم إلى النشاط من أجل بلوغ تلك المراتب، بل تجدهم يطمئنون بالحياة الدنيا، يرضون بها فيها من متع ولذات، كالبهيمة السائبة همها علفها!.

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ وقليل من التفكر في آيات الله، يبعث الفرد إلى الإيمان بأن الدنيا هذه الحلقة الفارغة التي لا تعني شيئاً، إنها أتفه من أن تكون هدف البشر. عمل وأكل ونوم، ثم تكرار ذات الاسطوانة، أعمل لتأكل، وكل لتنام، ونم لتعمل غداً.. وهكذا!.

[٨] لأن هؤلاء الناس اطمأنوا بالدنيا، فأن الدنيا سلمتهم إلى النار. لأن الذي يحسب الدنيا نهاية مطافه، يجترح السيئات ويكتسب شراً، وذلك الشر يتحول في القيامة إلى عذاب اليم ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فاكتسابهم الشر هو الذي سبب لهم النار، ولكن هذا الكسب كان بسبب سوء عقائدهم.

النموذج المعاكس

[٩] وفي مقابل هذا الفريق نجد الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر، فاصبح إيمانهم هذا سبباً لتطلعهم الأسمى نحو مرضاة الله، فكانت حياتهم ذات مغزى وهدف، فلم ياكلوا ليعملوا، ثم ليأكلوا ثم ليعملوا وهكذا بل أكلوا للعمل وعملوا لله، وليس للأكل المجرد، وهكذا عملوا

الصالحات، فلم يعملوا لكي يصلوا إلى الشهوات العاجلة، بل فقط العمل الصالح ذا النهج السليم الذي لم يضر بهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ إن انتزاع واقع الهدفية من الحياة، كما فعل الكفار، يخرب المعادلة في فهم أهداف الكون، ويحدث الحلقة المفقودة التي تجعل فهمنا لسائر القضايا فهماً محدوداً، بل ناقصاً، بل متناقضاً، ما هذه الدنيا ولماذا خلق فيها الشقاء والعذاب؟ ولماذا أعطي الجبابرة والطغاة فرصة الأعتداء على الناس وهل الموت تلك النهاية الباردة لحرارة الحياة؟.

وهذا ما يجعلنا نرى ظواهر الكون بعين واحدة، ومن بعد واحد، وحين يؤمن الإنسان بالغيب وبالآخرة يجد تلك الحلقة المفقودة ويكتشف السر الخفي، وبالتالي تكتمل عنده أجزاء المعادلة، فيفهم كل شيء لذلك قال ربنا: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ هذا في الدنيا.. أما في الآخرة فهم في جنات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

متعة المؤمنين

[١٠] كل ما في الجنة بعد الموت يمكن أن نوجد منها صورة مصغرة في الدنيا قبل الموت، بل هو انعكاس لما في الدنيا، والمؤمنون في الآخرة يتمتعون بما يلي:

ألف: إنهم ينزهون الله عما يتصل بخلق الله، وكلما وجدوا جمالاً وقوة ونظاما نسبوه إلى مصدره، وهو جمال الله وقوته وحكمته، وكلما وجدوا ضعفاً عرفوا بأن رب الخلق منزه عنه، ولذلك فيمكن أن يرفع بعض النقص عن خلقه مستقبلاً، لذلك فهم يتحركون في سلم التكامل، لذلك تجد الكلمة المفضلة، عندهم هي (سبحان الله) وتلك دعواهم ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾.

بـاء: إن علاقتهم ببعضهم علاقة سليمة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

جيم: وعلاقتهم بالأشياء حسنة، فهم أبداً راضون عما أنعم الله عليهم ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الامتحان الإلهي

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

هدى من الآيات:

لكي يستفيق البشر من غفوتهم، يذكرهم القرآن الحكيم بما ينتظرهم من العذاب بسبب أعمالهم، الذي لو عجله الله لهم لما بقوا أحياء، إذ أن الأعمال السيئة كثيرة وعظيمة العقاب، ولكن البشر يطالب أبداً بالجزاء العاجل، دون أن يعرف أن جزاء الخير خير وجزاء الشر شر، بيد أن الله يؤخر جزاء الشر، لامهالهم في طغيانهم.

فطرة الإنسان تدعوه إلى نسيان كل عاداته وأفكاره وثقافته الباطلة، والعودة إلى فطرته النقية، فإذا مس الإنسان الضر، دعا ربه في أية حالة كان، نائماً على جنبيه، أو قاعداً أو قائماً، ولكن لما كشف الله عنه الضر مشى في حياته دون أن يتذكر أن هناك ضراً مسه، وذلك بسبب زينة الدنيا في نفسه، خصوصا فيما أسرف فيه، وتعود عليه.

والله يستجيب للإنسان الذي يدعو لدفع الضر عنه، إلى فترة محدودة، فإذا انقضت

مهلته أخذه كما أخذ القرون الماضية لما ظلموا، وأتم الله حجته عليهم بإرسال الرسل، ولكن لم يستغلوا فرصة الإيمان وكانوا مجرمين.

ثم جعل الله الآخرين مكانهم، لا لأنه ملكهم ما في الأرض، بل لمجرد امتحانهم.

بينات من الآيات:

العجلة من الشيطان

[١١] لقد فطر البشر عن البحث عن الخير العاجل، واذا قام بعمل حسن انتظر جزاءه فورا، وقليل من الناس أولئك الذين يعملون الآن ليحققوا مكاسب في المستقبل البعيد.

ولكن الحياة ليست بأماني الأحياء، لذلك تجد الجزاء قد يتأخر سنين عديدة، ولو أن ربنا سبحانه خلق الحياة بحيث يجازي العاملين فيها فوراً، إذا انتهت فرصة اختبار الإنسان في هذه الحياة الدنيا.

إن جزاء من يرتكب المعاصي الكبيرة أن يهلك هلاكاً، فهل ترضى أن يحيط بك جزاء معاصيك فور ما تقوم بها، ودون إعطائك فرصة للمراجعة والإصلاح؟! كلا.. وهكذا عليك أن ترضى بهذا الوضع عموماً، وهو تأخر الجزاء خيراً كان أو شراً، وليس من الصحيح أن تطالب بتأخير جزاء الشر، وتستعجل الله في جزاء الخير، فالحياة واحدة، والسنن الحاكمة عليها واحدة، في حقلي الخير والشر معا.

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ لقد أعطى الله للناس فرصا محدودة، ولهم أن يختاروا خلالها طريقهم، وفي نهاية المطاف سوف يأخذون جزاءهم الأوفى ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يترك الله الذين لا يؤمنون به وباليوم الآخر حيث يلاقون فيه ربهم ليجازيهم بتركهم فاقدي الرؤية بسبب ظلام الطغيان الذي يحيط بهم.

الطغيان عمى البصيرة

[١٢] الطغيان يفقد الرؤية، والإسراف ينسي النعم، ويبطر أصحابها، إن المسرف يزعم أن النعم ملك مورث له، ولذلك فهو لا ينتبه إلى حقيقة عبوديته وضعفه وصغاره إلا بعد أن يفقد النعم، فتراه يتضرع إلى الله حتى يعيدها عليه، فإذا أنتهت محنته يعود إلى سابق غروره، كل

ذلك سبب الإسراف، وبسبب الأعمال السيئة التي كان يقوم بها بدافع الإسراف، فتطبع بها واعتاد عليها ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ أي دعا ربه في كل الحالات، أو في مختلف حالاته الصعبة ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ فبدل الوقوف للشكر تراه يمشي من دون اعتناء، وكأنه لم يصب أبداً بمصاب ولم يدع دعاءا؟!.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وعلى الإنسان أن يتحرر من سلبيات النعم التي ينزلها الله له، ومن أخطرها حبه لنوع حياته، واستئنافه بنمط معيشته، اللذان قد يدفعانه إلى الغرور والى ارتكاب معاصي كبيرة.

الهلاك مصير المجرمين وسنة الحياة

[١٣] الجزاء يتأخر وقد تطول المسافة بين العمل والجزاء، بيد أن ذلك لا يعني أبداً أن الجزاء لا يأتي، وعلى البشر أن يفهم هذه الحقيقة جيداً: إن الجزاء حق لا ريب فيه، وأن يذكر نفسه بمصير الهالكين من قبله، الذين أخذهم الله بشدة بعد أن توافرت عوامل هلاكهم والتي تتلخص في ثلاث فلقد ظلموا، فبعث الله لهم رسلا بالبينات فما آمنوا هنا لك أهلكهم الله.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ إنها سنة عامة تختص بالقرون السابقة، فعلينا جميعاً انتظار ذات المصير إذا أجرمنا.

[١٤] وبالذات على المجتمعات أن تدرك هذه الحقيقة الهامة إن وجود نسبة عالية من الفساد الخلقي أو الاقتصادي أو السياسي، سوف تقضي عليها قضاء تاما ولو بعد حين، لذلك ينبغي أن ينشط الجميع من أجل تقليل هذه النسبة حتى لا تنطبق عليهم صفة القوم المجرمين. لذلك ترى القرآن يذكرنا بأننا خلائف أولئك الهالكين، وتنطبق علينا ذات القوانين الفطرية.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فنحن خلفاء أولئك، والهدف من إعطاء الفرصة لنا دونهم، والله يريد أن يبتلينا، فهل نعقل تجارهم ولا نكرر اخطاءهم أم ماذا؟!.

الكافر بالآخرة لا يفقه الآيات

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾.

هدى من الآيات:

حين يعيش البشر في حدود لحظته الحاضرة، ولا ينظر بعيداً في مستقبله، ولا يرجو لقاء الله في الآخرة، فسوف يتخذ من آيات الله موقفاً خاطئاً، حيث تراه حين تتلى عليه آيات الله الواضحة يطالب الرسول بتغيير القرآن، أو تبديل آياته، وكأن الرسول هو صاحب القرآن، أو كأن الحقيقة تتبدل وتتغير حسب أهوائه، ولا يعلم أن الرسول نفسه يخشى ربه، فلو عصى ربه ولم يبلغ رسالته، أو لم يطبقها فيكون جزاؤه عذاباً في يوم القيامة ذلك اليوم العظيم.

ومن هنا لم تكن الرسالة من صنع الرسول، بل لو لم يشأ الله ما تلاها على الناس ولم يعلمهم، والشاهد على هذه الحقيقة أن الرسول كان يعيش بين أظهرهم فترة طويلة ولم يبلغهم شيئاً من الرسالة، والرسول يعرف أن افتراء الرسالة على الله جريمة كبيرة، وأنه لا يفلح المجرمون، فهو لا يقوم على هذا العمل بدافع الغفلة أو التهاون، أذا فرسالته إنما هي من الله سبحانه.

بينات من الآيات:

الأيمان طريق المعرفة

[١٥] الإيمان بالآخرة يؤثر بصورة مباشرة في فهم الحقائق، اذ أن الغرور والاستكبار ودواعي الشهوة والغضب قد يكون كل أولئك سبباً في نكران الحقيقة، أو عدم الإنتباه إليها، والتهاون بشأنها، فإذا آمن البشر باليوم الآخر وعرف ما فيه من أهوال وعذاب أليم، عاد إلى رشده وأخذ يفكر في الحياة بواقعية لكي ينقذ نفسه من شرور ذلك اليوم.

من هنا تجد الذين لا يؤمنون ولا يرجون لقاء الله، يستهينون بآيات الله الواضحة، ويطالبون الرسول بتغيير القرآن جملة واحدة، أو لا أقل تبديل تلك الآيات التي تمس مصالحهم وتخالف ثقافتهم، فالمستكبرون مثلا يطالبون بقرآن يؤيد تسلطهم اللامشروع على المستضعفين، والمسرفون يطالبون بقرآن يبرر استغلال المحرومين.. وهكذا.

ولكن هل القرآن كتاب الرسول أم كتاب الله؟ وكيف يغير الرسول كتاب ربه، وهو يؤمن بيوم القيامة، ذلك اليوم العظيم الذي يجعل الولدان شيبا؟. إن إيمان الرسول بلقاء الله يمنعه من تبديل رسالة الله، أو الخضوع لضغوط البشر الهادفة تغيير بنود القرآن.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ يبدو أن المعنى غيره كله أو بعضه ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ فالكتاب كتاب حق وعلم وعقل، ولا يداخله هوى النفس وشهواتها ومصالحها ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فالرسول يتبع الوحي ويدعو الناس إلى إتباعه، وهو يخشى ما ينبغي أن تخشاه، وهو عذاب يوم القيامة ذا الأهوال.

دلائل إلهية الرسالة

[١٦] ولو شاء الله سبحانه لمنع الوحي عن رسوله، فلم يستطع تلاوته على الناس وإعلامهم بما يحتويه، والشاهد على ذلك أن الرسول بقي في قومه عمرا طويلا وزمنا ممتدا ولكنه لم يبين لنا شيئاً من ذلك الشلال الهادر من الهدى والبينات، ولو كان الكتاب من نفسه وأفكاره وملاحظاته وتجاربه، إذا لنشره في كل مناسبة خلال هذه الفترة الطويلة ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ كما أن ربنا قادر على توقيف الوحي فلا يقدر الرسول على تلاوته ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولم تكن هذه الأفكار وتلك البينات والبصائر شبيهة أبداً بما كان في الجاهلية لا من قريب ولا من بعيد.

إن اعداء الرسالة حاولوا ربط أفكارها الجديدة بها لدى الفرس والروم، أو بالسحر والقوى العيبية الأخرى، لأنهم وجدوا تناقضا حادا بينها وبين الأفكار الشائعة في وسطهم الثقافي، كما أن فريقاً من المستشرقين وأدعياء علم التاريخ يحاولون ربط بينات القرآن بما كان عند الأحبار والرهبان من أفكار.

بيد أننا نرى تناقضاً واضحاً بين هدى وبينات وبصائر القرآن، وبين الثقافة المسيحية الخليطة بالوثنية المانوية، أو الأفلاطونية الجديدة التي كانت شائعة آنئذ في عالم اليهود والنصارى.

من هنا كان واضحاً إن ما جاء على لسان الرسول كان وحياً خارقاً للعادات والقوانين السائدة، طاهراً نقيًّا عن مؤثرات الوسط الاجتماعي أو الثقافي للرسول، ولذلك أكد القرآن على هذه الحقيقة قائلا: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ خلال ذلك العمر الذي بلغ الأربعين عاماً تبلورت شخصية الرسول بدأ الوحي ينزل عليه متتاليًّ بنسق واحد وباسلوب مختلف جداً عن كلامه ﷺ وما كانوا يعهدون منه ﷺ قبل الوحي.

إن المهندس يتعلم القراءة والكتابة ثم يعطى معلومات موجزة عن الرياضيات، ومن ثم يتدرج في تعلم أوليات الهندسة، وكل يوم يزداد علمه حتى يتخرج من الكلية بصفته مهندساً، لأنه قبلئذ كان يعلم كثيراً من المعلومات الهندسية، ولكن إذا نام هذا الرجل واستيقظ مهندساً، وكانت معلوماته كلها جديدة بالنسبة إليه، أو ليس في ذلك دليل واضح على أن علمه كان غيبيًّا؟!.

[١٧] والرسول كان يؤكد على هذه الحقيقة وهي أن نسبة فكرة أو رؤية إلى الله جريمة نكراء، وأن جزاءها العاجل هو عدم وصول صاحبها إلى هدفه الذي رسمه لنفسه، وبتعبير أوضح أنه لا يفلح، من هنا لم يكن يقدم على هذه الجريمة، ولم يكن ينسب الوحي إلى الله لو لم يكن من عنده فعلا ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ وعادة ما يكون المفتري على الله كذباً هو ذاته الذي يكذب بآيات الله، لأن البشر ينتمي إلى مبدأ معين وذلك المبدء قد يكون رساليًّا، وقد يكون جاهليًّا، فإذا انتمى إلى المبدأ الجاهلي لابد أن يبرر انتماءه فيفتري على الله كذباً، ليدعي أن مبدءه حق، وأن المبادىء الأخرى باطلة.

وكلمة اخيرة: إن بعض الناس لا يفترون على الله الكذب بصورة مباشرة، ولكنهم يعتبرون بنات أفكارهم وتخرصات أهوائهم هي الحق الذي لا ريب فيه، وهذا بدون شك نوع من الإجرام بحق أنفسهم، وبحق الفكر السليم، وهو يؤدي حتماً إلى الفشل وعدم الفلاح.

وحدانية الله سبحانه

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) ﴾.

هدى من الآيات:

عدم الإيمان بالآخرة يجعل البشر يتخبط في مواقفه، فتارة لا يؤمن بالرسالة كما رأينا في الدرس السابق، وتارة يتخذ من دون الله شفعاء يزعم بأنهم شركاء لله في سلطانه، ولا يفقه هذه الحقيقة البسيطة وهي أن مقام الألوهية لا يحتمل التعدد، فهو أرفع وأقدس من أن ينازعه شيء، وأن الله لا يعلم لنفسه شريكاً في عرض السماوات والأرض، وأن هذه العبادة المزدوجة لا تجديهم نفعاً، وأن هؤلاء الشركاء أو الشفعاء لا يقدرون على إلحاق ضرر بهم لو تركوا عبادتهم.

والله سبحانه لم يخلق بعض الناس كفاراً، والبعض مسلمين بل خلقهم أمة واحدة، إلا أنهم كانوا مختارين، فأختار طائفة منهم الهدى، بينما ضل الآخرون. ولقد سبقت كلمة الله بتأجيل قضاء الحق بينهم إلى أجل محدود ولولاها لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه.

ويطالب البعض بأن ينزل الله آية على رسوله، آية معينة حتى يضطروا للإيمان بالرسالة، بينما جعل الله الدنيا دار اختبار وهو يعلم بالحكمة، والنهاية سوف تكون للرسالة باذنه.

بينات من الآيات:

بمن نتشفع؟

[١٨] لماذا يعبد البشر غير الله؟ ولماذا يستسلم للأصنام كرمز للطبيعة أو للطاغوت، كرمز للقوة أو للمستكبرين كرموز للقيم الزائفة؟ إنه يخضع لكل أولئك ويطيعها، لزعمه أنها تضر وتنفع. فيستسلم لها رهباً ورغباً، ولكنها في الواقع لا تضر ولا تنفع، إلا أن يشاء الله، فهي محكومة بقدرة الله، والقوة التي تملكها الطبيعة أو البشر إنما هي مخولة إليها من قبل الله سبحانه وليست شريكة لله حتى يتخذها البشر شفعاء عند الله، إذ أن الله لا يحتم عليه شيء، والشفيع يجب أن يكون بحيث يستطيع الضغط على الله تعالى أو يكون قد أذن له الرب في الشفاعة.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾. بلى؛ لو أمر الله بطاعة أحد مثل الرسل وأولي الأمر الذين تتمثل فيهم القيادة الرسالية، إذا لم تكن الطاعة من دون الله بل كانت باذن الله وبأمره، ولذلك تصبح طاعة الرسول وأولي الأمر من بعده شفيعة عند الله، لأنها باذن الله ولتحقيق مرضاته.

والسؤال الذي يطرحه القرآن على هؤلاء هو: هل هناك شريك لله أو شفيع عنده لا يعلم به الله؟!.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لو كانت هناك قوة غير الله حاكمة في السماوات والأرض لعلم بها الله حتماً، ولكانت رسالته تكشف عنها وتأمرنا بالتقرب إليها ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فالله قدوس ومنزه عن أن يجد سلطانه الواسع شريك، وهو أعلى من أن يصل إلى مقامه الأسمى شريك.

سبب الإختلاف

[١٩] هل أن إيمان طائفة من الناس وكفر أخرى مرتبطة بطينة الناس وفطرتهم؟ أو أن الله خلق هؤلاء كفاراً وأولئك مسلمين؟ أم ماذا؟.

يقول القرآن: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ خلقهم الله بصورة واحدة، وأعطاهم جميعاً قدراً من العقل يكفيهم لهدايتهم إلى الله، ولكن بعضهم استفاد من عقله بينما غفل عنه الآخر، وكان الإختلاف بفعلهم هم لا بسبب خلقتهم.

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ وأمهلهم الله حتى يتم اختبارهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن

رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ تلك الكلمة - حسبما يبدو لي - هي أن الله جعل الدنيا دار ابتلاء ولم يجعلها دار جزاء.

لا للجبر نعم للاختيار

[٢٠] ولجهل الناس بحقيقة الدنيا، فهم يزعمون أن على الله يجبرهم على الهدى جبراً، ولا يعلمون أن على أنفسهم مسؤولية الإهتداء إلى الحق، وذلك بتشغيل عقولهم بحثاً عن الحقيقة ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ إن الله يعلم الغيب، ومن الغيب الحكمة البالغة التي يعلم بها، إن أي قدر من الآيات يكفي الإنسان في بحثه عن الحقيقة لو استخدم عقله، أما أن يريد تدخل الله في أمور الحياة مباشرة فذلك أمر يحتاج إلى وقت، حيث أنه بعد انقضاء مهلة هؤلاء سوف يأخذهم الله بعذاب عظيم.

في الشدائد يجأر الإنسان للـه

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

وفي سياق الحديث عن الذين يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم، وللدلالة الفطرية على واقع هذه العبادة، يبين لنا الله سبحانه موقف الناس من آيات الله، وكيف يتبدل حسب اختلاف حالاتهم النفسية، فإذا كانوا في شدة وضراء ثم أسبغ الله عليهم نعمه، وجعلهم يتحسسون برحمته، تجدهم يحتالون على آيات الله ويناقشون فيها حتى لا يؤمنوا بها بكل وسيلة ممكنة، بينما الله سريع الجزاء لما يفعلون، وقد أوكل سبحانه أمر كتابة أعمالهم ومكرهم إلى الملائكة المرسلين اليهم.

وكمثل على هذه الحالة أن الله يوفر للإنسان أسباب السير في البر والبحر، ويركب الناس السفن الشراعية، ويهب عليها نسيم هادئ يفرحون به لأنه يؤنسهم ويسير سفينتهم، ولكن بعدئذ تأتيهم ريح عاصف يهيج بها أمواج البحر حتى تحيط بهم من كل جانب، ويظنون أن الهلاك قد اقترب منهم هنالك ينسون الشركاء ويخلصون العبادة لله، ويدعونه ويتعهدون أنه

لو انجاهم يصبحون من الشاكرين.

بيد أنه حين يخلصهم الله من ورطتهم تراهم يفسدون في الأرض، ويرتكبون المعاصي، بينما تلك المعاصي موجهة ضدهم، لأنها بالتالي متاع الحياة الدنيا المحدودة، وبعدها ينتقل البشر إلى ربه ليجازيه.

بينات من الآيات:

المكر بعد الرحمة

[٢١] الرحمة بعد الضراء ليست كالرحمة من دونها، فحين تكون مريضاً يستبد بك الألم والخوف، فتنزل عليك رحمة السلامة والعافية، وحين تكون فقيرا يضيق بك رحب الدنيا وتلاحقك أعين الناس ازدراءً، فتهبط عليك رحمة الغنى والعزة، آنئذ تشعر عمق لذة النعمة، بذات الحساسية التي شعرت بألم الضراء.

والإنسان الذي تذوق الرحمة وأحس بمس الضراء، عليه أن يعترف بأن الله هو مدبر الخير والشر، وأنه، يملك من ذاته شيئاً، ولكنه لا يفعل ذلك.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ يحاولون تفسير الآيات بما يتناسب وغرورهم، أو يسعون في طمس معالم الحقيقة التي تخالف مصالحهم وأهواءهم، أو حتى أنهم يتصرفون في نعم الله، بغير الوجه السليم الذي يضمن استمرارها، وآنئذ يأخذهم الله بعملهم السيء.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إن مكر الله هو تقليب الأمور وفق السنن التي يجريها في الحياة، والتي تقضي بزوال النعم التي لا يشكرها الناس، ولا يحافظون على عواملها السلوكية والنفسية.

إن ملائكة الله يحصون على الإنسان كل صغيرة وكبيرة حتى لا يقدر على التحايل عليهم، والأدعاء بأنه قد عمل صالحاً.

ويبدو أن هذه الآية تصدق على الحضارات البشرية التي تبدأ بصعوبات كبيرة حتى تبلغ مرحلة النضج ويعم الرخاء، ثم يمكر البشر في آيات الله فتنحدر إلى الحضيض، كما تنطبق على حياة كل واحد من البشر، تحمل الصعاب حتى بلغ منيته، ولكنه اغتر بعدئذ بنعم الله عليه فكفر بها، فأزالها الله عنه.

[٢٢] وكمثل على هذه الحقيقة يبين ربنا سبحانه قصة راكبي البحر بالسفينة الشراعية التي وقفت في عرض البحر بسبب ركود الهواء، ثم تهب عليها ريح طيبة فيستبشرون بها، ولكنهم في ذات الوقت يفرحون بها مما ينسيهم شكر الله.

وبعد فترة من الوقت يحيط بهم الخطر بسبب تحول الريح الطيبة إلى ريح عاصف تثير الأمواج العاتية حول السفينة، فلما رأوا ذلك تضرعوا إلى الله سبحانه لينقذهم من الخطر، فلما نجاهم إذا هم يكفرون ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم الخطر بحيث أصبحوا محاصرين من كل مكان دون قدرة على الفرار، وربما الظن هنا -كما في سائر الآيات- بمعنى التصور فهو أشد وقعا في النفس وتأثيراً، إذ أن الظن تصور ينطلق من معطيات فإن كانت علم وواقع فهو يقين وإلا فهو تخرصي.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي كان دعاؤهم مختلفاً عن دعائهم السابق، ففي السابق كانوا يدعون الله والشركاء معاً، وكانت قلوبهم منقسمة بين الله والشركاء، ولكن الآن اخلصوا التزامهم بالله، وصفوا قلوبهم من رجس الشرك.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ماذا كانوا يعنون بالشكر؟ هل هو مجرد ترداد كلمة شكرا لله؟ أم فوق ذلك الإلتزام بكل ما أمر الله من واجبات؟ من الواضح إن الشكر بالمفهوم الأول كان بسيطاً وكانوا مستعدين له أبداً، أما الذي لم يفعلوه فهو الشكر بالمعنى الثاني.

الكفر بعد الشكر

[٢٣] وهكذا مكروا في آيات الله، وأخذوا يظلمون بعضهم ويستغلون رحمة الله اداة للباطل، وأخذوا يسرفون في نعم الله كما فعل قوم لوط، وكانوا يفسدون في الأرض كما فعل فرعون وقومه، وأخذوا يستكبرون في الأرض بالباطل كما فعل عاد وثمود وهكذا ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ أي أن هذا الظلم، وهذا التحويل في طريقة الانتفاع من آيات الله، إن ذلك سوف ينعكس عليكم، ذلك لأنه ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

حقيقة الحياة الدنيا

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ[1] بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ[2] وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ[3] وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس السابق بين الله لنا أن الذين يمكرون في آيات الله بغيهم على أنفسهم، لأن متاع الحياة الدنيا قليل.

وفي هذا الدرس يعطينا السياق رؤية عامة تجاه الحياة الدنيا، ويضرب لنا مثلاً ببعض ما نراه ظاهراً من تحولات طبيعية، كالماء ينزل من السماء ويختلط به نبات الأرض من فواكه تأكلها الناس، وأعشاب تأكلها الأنعام، وتزدهر الأرض وتصبح بهيجة ومزينة، حتى تصور أهل

(١) تغن: غني بالمكان أقام به والمغاني المنازل.
(٢) يرهق: الرهق اسم من الإرهاق وهو أن يحمل الإنسان على ما لا يطيقه ومنه سأرهقه صعوداً.
(٣) قتر: القتر الغبار والقتار الدخان.

الأرض أنها أصبحت محكومة لهم، وأنهم قادرون عليها، وعلى أنواع التصرف فيها، ولكن لا تبقى هذه الحالة إذ سرعان ما ياتيها أمر الله ليلاً أو نهاراً بعاصفة ثلجية، أو سيول هادرة، فإذا بها تحصد حصداً وكأنها لم تقم هكذا سابقا. هكذا يضرب الله لنا مثلاً، من ظواهر الدنيا التي هي آيات الله التي ينبغي أن نتفكر فيها.

ومادامت الحياة غير مأمونة العواقب، فعلينا أن نفتش عن أمان، والله يدعو إلى ذلك ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، يبلغهم دار السلامة والأمن في الدنيا، وفي الآخرة حيث يضمن للذين أحسنوا الفكر والعمل الحياة الحسنى وزيادة على فعلهم الحسن، تلك الزيادة قد تكون في غناهم الروحي والمادي، وأنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

بينما الذين عملوا السيئات يجازيهم الله بمثل ما فعلوا، وتحلق بهم الذلة، ولا يستطيع شيء أن يمنع عنهم عذاب الله، ووجوههم مسودة كأنما قد أحاط بها الظلام، وهم أصحاب النار فيها خالدون.

بينات من لآيات:

الهيمنة والتدبير

[٢٤] الذي خلق الطبيعة خلق الإنسان، والذي يقلب ظواهر الطبيعة من حال لحال، هو الذي يقلب حياة البشر، ولو تفكر الإنسان في خلق الطبيعة لعرف الكثير من خلق البشر.

والمنهج القرآني الفريد يذكرنا بهذه الحقيقة من خلال الأمثال التي يضربها من واقع الطبيعة ويطبقها على واقع الإنسان، فمثل حياتك في الدنيا وما فيها من طفولة وشباب وكهولة، إنما هو مثل الأرض شتاء وربيعا ثم خريفاً فصيفاً.

إنك ترى الأرض هامدة فينزل الله عليها ماء من السماء، ويكون الماء عاملاً مساعداً لتفاعل ذرات الأرض مع بعضها، فالأملاح تدخل في قلب البذرة الحية، فتنمو هذه الأخيرة وتصبح فاكهة لذيذة يتمتع بها الناس، وعشباً غنيًا يأكله الأنعام، وتفترش الأرض بساطاً مزروعاً فيه منافع الأرض وزينتها، ويتصور الناس أن هذه الحالة دائمة لهم وأنه المسيطرون على خيرات الأرض، ولكن سرعان ما يعصف بالزرع أمر الله في صورة عاصفة ثلجية فتصبح الأرض بلقعاً، وكأنه لم يكن عليها شيء قائم بالأمس.

وهكذا حياتك تبدأ بالنشاط والزهو، ويبارك الله فيها بالغنى والقدرة حتى تغتر بنفسك،

وتزعم انك قادر على ما تشاء، فإذا بك تحاصر من حولك بالمرض، والعجز والفقر، ولا تقدر على شيء، ان علينا ان نتفكر مليا في آيات الله في الحياة ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ﴾ أي اختلط بسبب الماء نبات الأرض ببعضه، وأنتج ما يأكله الناس وما يستفيد منه الأنعام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ يبدو أن الزخرف هي منافع الأرض، وتزيين الأرض مباهجها الظاهرة.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فالآيات الإلهية سواء تلك التي يراها الإنسان على شاشة الطبيعة، أو التي يسمعها من فم الرسالة، إنها واضحة المعالم لمن تفكر فيها واعتبر بها.

إلى دار السلام

[٢٥] وهكذا الحياة تتقلب حتى تبلغ نهايتها الصاعقة، والله يدعو عباده إلى دار السلام التي تصونهم من العواقب الوخيمة، وذلك عن طريق هدايتهم إلى صراط مستقيم يصلون عبرة إلى أهدافهم الصالحة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

[٢٦] كيف يكون عند الله دار السلام التي يدعو اليها ربنا عبر صراط مستقيم؟.

إن دار السلام تعني في الدنيا تلك المناهج الإلهية للأعمال الحسنة، والتي تؤدي إلى الحياة الحسنى ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الله يضاعف لمن يفعل الحسنات، لأن ربنا سبقت رحمته غضبه، وهو أرحم الراحمين قبل أن يكون شديد العقاب، ومن مظاهر الحياة الحسنى أن ظلام الشهوات والأهواء لا يحجب عقولهم، وأن ذلة السيئات لا تحيط بشخصياتهم، فرؤيتهم واضحة، ونفوسهم عزيزة.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي لا يلحق وجوههم غبار ولا صغار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والشهوات في الدنيا ظلام في الآخرة، كما أن الغرور والإستكبار ذلة وصغار في الآخرة، ولذلك جاء في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ بِمَائِهَا إِلَّا حَرَّمَ اللهُ ذَلِكَ الْجَسَدَ عَلَى النَّارِ وَمَا فَاضَتْ عَيْنٌ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ إِلَّا لَمْ يَرْهَقْ ذَلِكَ الْوَجْهَ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ»**[1].

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٥ ص ٢٤٢.

جزاء السيئات

[٢٧] أما الذين عملوا السيئات فأصبحت ثقلاً على ظهورهم، فإن جزاء كل سيئة تكون بقدرها تماماً دون أن ينقص منها شيء، وتلحقهم ذلة وصغار بسبب تلك السيئة، وتحيط بهم ظلمات السيئات فتحجب عنهم الرؤية السليمة وكأنها قطع من الليل.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ ﴾ فلا يفكر أحدهم أنه قادر على الخلاص من جزاء سيئاته من دون الله وعن طريق الشركاء كلا..

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾ أي كأن الله قد أغشى وستر وجوههم بقطع من الليل المظلم، هكذا يحيط بهم السواد، وهكذا تسبب الشهوات افتقاد النور والرؤية.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ إن كل واحد منا معرض لأن يكون من مصاديق هذه الآية، إلا أن يوفقه الله للتوبة من سيئاته والعمل بمناهج الله سبحانه.

هل ينفع الشركاء في اليوم الآخر؟

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في الدروس السابقة ذكرنا القرآن بأن الشركاء من دون الله لا يضرون ولا ينفعون، ثم أعطانا رؤية متكاملة تجاه الحياة الدنيا، والتي ينبغي أن تكون كافية للإنسان في توحيد الله ونبذ الشركاء.

وعاد السياق ليحدثنا عن قضية الشركاء بتصوير مشهد من مشاهد يوم الحشر، حيث يجمع الله الشركاء والمشركين جميعا، ويفرز بينهما وينكر الشركاء أساساً إنهم كانوا يعبدون من دون الله، ويشهدون الله أنهم كانوا غافلين عن عبادة المشركين لهم، فماذا ينتفع البشر من عبادة من هو غافل عن عبادته؟!.

وهنالك تكشف لكل نفس ما أسلفت في الدنيا، ويردون إلى الله قائدهم ومولاهم الحقيقي، بينما يتلاشى الشركاء الذين كانوا يجعلونهم شفعاء عند الله افتراءا على الله والحق.

بينات من الآيات:

وكُشف الحجاب

[٢٨] وفي يوم القيامة تتوضح الحقائق بحيث لا يقدر أحد على انكارها، وحين نتصور

-ونحن في الدنيا- مشاهد ذلك اليوم، يكفينا هذا التصور، توضيحاً للحقيقة، وكشفاً لمعالمها، لماذا؟.

لأن الذي يحول بيننا وبين فهم الحقيقة هو الغفلة، أو الغرور والإستكبار، وتصور مشاهد يوم الحشر يذوب حجب الغفلة والغرور عن أنفسنا، ويجعلنا نرى الحقيقة بلا حجاب، ولذلك يرفع القرآن الستار لنرى مشهد الحوار بين المشركين وبين آلهتهم التي عبدوها دهراً زاعمين بأنها تنفعهم يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ الشركاء المزعومون ومن عبدوهم. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ أي انتظروا جميعاً لكي تسألوا، ثم فرق الله بين الفريقين ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ لقد أنكر الشركاء أنهم كانوا يعبدونهم إنكاراً كاملاً، كما أنكرت الملائكة ذلك في آية اخرى، وفي الواقع إنهم أنكروا علمهم بهذه العبادة بدليل ما جاء في الآية القادمة.

التبري من المسؤولية

[٢٩] واشهد الشركاء الله سبحانه على أنهم كانوا غافلين عن هذه العبادة ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ وسواء كان الشركاء الأصنام الحجرية، أو الجن والملائكة، أو حتى الأصنام البشرية، فهي غافلة عن طاعة المشركين لها وغير مهتمة بذلك، لأنها مشغولة عنها بقضاياها الخاصة.

[٣٠] وعند الله في يوم القيامة تظهر حقائق كل نفس وأعمالها التي اسلفتها في الدنيا، وتقف أمام الله المولى الحق البشرية لتجيب عن تلك الأعمال ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ لقد افتروا على الله بأنه تعالى يخضع لضغط الشركاء، وافتروا على الله سبحانه بأنه يسمع كلامهم، أما الآن فليس بشيء من ذلك موجوداً أمامهم، لقد ابتعد عنهم وتلاشى كما يتلاشى السراب.

التدبير آية الرب والفسق حجاب البصيرة

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾.

هدى من الآيات:

من أجل اقتلاع جذر الشرك من قلب الإنسان الذي خلق ضعيفاً، يتابع السياق لحديث عن التوحيد، ويتساءل عن الرزاق الذي ينزل الرزق من السماء ماءاً وأشعة، ويفجر الأرض رزقا ورحمة، أوليس الله؟.

ومن يعطينا أداة الرؤية والسماع أوليس الله؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وبالتالي من يدبر أمر الكون، ويستوي على عرش السماوات والأرض وبيده ملكوتها؟ إذا سألتهم فسوف يقولون جميعاً أنه الله، وهنا يبرز السؤال التالي: إذا لماذا لا تتقون ربكم؟ ولماذا لا تخشونه؟.

إنه الله ربنا جميعاً الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، فأين مكان الشركاء؟ وأين تصرفون أيها المشركون في أي واد واي سبيل منحرف؟!.

وسؤال أخير: لماذا لا يؤمن هؤلاء جميعاً برغم وضوح الآيات؟.

والجواب: هو أن هؤلاء قد فسقوا، والفسق يحجب البصيرة.

بينات من الآيات:

رزق الأرض والسماء

[٣١] يهبط من السماء الماء، ولكن ليس بطريقة عشوائية، بل بحكمة بالغة، فالماء لا يسيل كما تنفتح القربة، حتى يفسد الأرض ويخرب البيوت، ويأتي مشفوعاً بالمواد الضرورية للزرع، وينزل معه فُراتاً سائغاً، ويأتي بقدر نافع لا يزيد ولا ينقص وبالتالي فهو رزق للإنسان متناسب مع حاجات البشر حجماً ونوعاً، مما يدلنا على أن خالق الإنسان هو رازقه الماء من السماء، والشمس تشع على الأرض، فتغني التربة مواداً نافعة لرزق الإنسان كمية وكيفية، مما يدلنا أيضاً أن خالق الشمس هو خالق البشر، وهكذا يرزق الله عباده من السماء.

ومخازن الرزق متواجدة في الأرض، فالأحواض الطبيعية الضخمة داخل الأرض تستقبل مياه المطر لتخرجها في صورة ينابيع، وقمم الجبال تجمد الماء من الشتاء إلى الصيف، والتربة تختزن المواد المفيدة، وهكذا يرزق الله عباده من الأرض ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أوليس هو ذلك القادر الحكيم الرحيم بالناس، أو ليس هو الله؟!.

من الخالق؟

ونتساءل: من الذي يوفر للإنسان فرصة الإتصال بالحياة رؤية أو سماعاً، بما يستلزم من أنظمة معقدة في مخ البشر وأعصابه، وألياف عينه، وعظام أذنه، وبما يحتاج من ضياء وهواء يحمل إلى عيوننا وأسماعنا تموجات النور على الاشياء وذبذبات الصوت على الهواء؟ أوليس هو ذلك الخبير اللطيف، أو ليس هو الله؟!.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ وأكثر من هذه جميعاً هو التطور الهائل الذي يحدث في الأشياء صعودا من الموت إلى الحياة، ونزولاً من الحياة إلى الموت، من الذي يدبر هذا التطور أوليس مالك الموت والحياة؟!.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ ويبدو من هذه الكلمة أن الحياة هبة الهية تعطى لشيء فيصبح حياً، وينفصل من واقع الأشياء الميتة بعد أن يكتسب منها مواد ميتة، فالبشر مثلاً- كان نطفة أعطاها الله الحياة، ثم تتغذى النطفة من المواد الميتة، فتضاف إليها وتصبح تلك الميتة بدورها ذات حياة، والعكس يحدث هكذا!!.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ إن قيادة الكون منظمة، وهي توحي إلينا بضرورة من يشرف عليها

ويدبرها، لا يكون غير الله، وهذه الأسئلة لو وجهتها إلى أي واحد من المشركين ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

لماذا الانحراف؟

فما دام الله هو فاعل كل ذلك فلماذا لا نخشاه ونتقه؟ ونعمل بمناهجه؟.

إن القرآن الحكيم يربط بين النظرة الشاملة إلى الكون وبين البصيرة السلوكية الخاصة، وهذا الربط هو الذي ينقص كثيراً من الناس، حيث يجهلون أن سلوكهم يجب أن يكون منسجماً مع مسيرة الكون كلها، ومع الحقائق التي يهتدي إليها الإنسان من خلال تفكره في هذه المسيرة.

[٣٢] وإذا شذ البشر عن المسيرة العامة للوجود فإلى أين يشذ؟ أوليس إلى الضلال؟ هل هناك حقائق في هذه الحياة؟ هناك حق واحد يجب أن نفتش عنه، ونطبقه على واقعنا.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي إلى أية جهة تعدلون بعبادتكم، إلى الباطل أم انكم تعملون من دون تفكر؟!

[٣٣] ويبقى تساؤل إذا كانت القضية بهذا الوضوح، فلماذا يتعمد البعض بتجاهلها واهلاك انفسهم؟.

ويجيب القرآن الحكيم: إن السبب هو فسق هؤلاء الذي يمنعهم من الإيمان، هذه سنة الله في الحياة: ان الفاسق لا يؤمن ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يدل ذلك على أن الله يمنعهم عن الإيمان منعاً، بل على أنهم عادة لا يؤمنون، ذلك بسبب تكاثف حجب الفسق على أعينهم وبصائرهم.

البشر بين الظن والحق

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

يتساءل السياق القرآني: هل بمقدور أحد الشركاء أن يبدأ الخلق، ثم يفنيه ثم يعيده، كما يفعل الله؟ ويعلم المشركون أن الخلق بيد الله وحده، فلماذا يصرفون إلى الافك؟.

ويتساءل مرة أخرى من الذي يهدي الأحياء بعد أن يعطيهم خلقهم إلى ما فيه صلاحهم ودوام حياتهم؟ الله أم الشركاء؟.

ويجيب: إن الله هو الذي يهدينا، فهو الذي وفر لنا العقل والسمع والأبصار، وزود الأحياء بالغرائز التي اهتدوا بها إلى صلاحهم، إذا فهل من الصحيح التسليم لله أم للشركاء الذين لا يهتدون إلا بقدر ما يهديهم الله؟ فكيف يحكم المشركون باتباع من لا يهدي، بل ولا يهتدي الا بصعوبة؟!.

نعم.. إن سبب ضلالة هؤلاء وحكمهم الفاسد هو أنهم يتبعون الظن والتصورات النابعة من خيالهم، والظن لا يغني عن الحق شيئاً، والله عليم بما يفعلون، نتيجة اتباعهم للظن من الأعمال السيئة.

بينات من الآيات:

الكفر بعد المعرفة

[٣٤] الذي يتبع السلطان الجائر، والذي يخضع للغني المستغل، أو لصاحب الشهرة والنفوذ، يعلم أن قائده لا يستطيع أن يهب الحياة، أو يعيدها بعد أن يسلبها الله، وهو يعلم يقيناً أن موهب الخلق ومعيده بعد الفناء هو الله، الواسع القدرة والعلم، وهنا يتساءل القرآن إذن لماذا الخضوع للشركاء من دون الله؟!.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ويأتي الجواب: كلا.. ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إنه يبدأ الخلق من غير مثال سبقه اليه أحد، ولا معالجة ولا لغوب، فليس ربنا كما البشر يحتاج إلى تجربة حتى يخلق الخلق بهذه الدقة المتناهية، ولو احتاج إلى التجربة لأحتاج إلى بلايين التجارب من أجل خلق خلية حية واحدة، كما يؤكد على ذلك العلم الحديث والله يعيد الخلق حتى يسوي بنان الإنسان بذلك الشكل الذي لا يتشابه مع بنان أحد في العالم!.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي أين تصرف بكم الأهواء، وتتحرك بكم الشهوات؟ ولماذا تتركون الخالق العظيم إلى بعض المخلوقين الضعفاء؟!.

الصلاح من الله

[٣٥] والله يعطي كل شيء خلقه ويهديه إلى ما فيه صلاحه، إنك تجد النملة كيف تفتش عن رزقها حتى تلتقطه وتحافظ عليه من الصيف للشتاء، وتبني بيتها بطريقة هندسية غريبة، وكما النملة تفعل النحلة ببيتها، وتفتش عن رحيق الزهور، وتنظم نفسها في خلاياها بأفضل تنظيم، ثم تصنع عسلا وتحافظ عليه لرزقها أيام السنة، فمن الذي أوحى إليها بذلك وهداها لصلاحها غير الله؟.

وكما النمل والنحل فكذلك سائر الأحياء، والنباتات تنشط باتجاه مصالحها في سبل متعددة وباساليب شتى، أو ليس الله الذي هداها إلى ذلك، كما هدى الإنسان طبيعيًّا وحضاريًّا؟! ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ فهو الذي خلق البشر والطبيعة وفق الأنظمة الفطرية، وهو الذي علم الإنسان كيف يستفيد من الطبيعة وفق تلك الأنظمة دون أن يصطدم بها ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ الشركاء لا يهتدون إلا إذا هداهم الله، فهذا الطاغوت الذي يعبد من دون الله لو سلب الله منه عقله وعلمه، أولا يصبح مجنوناً يطرده أهله؟!. وهذا الثري الموغل في الفخر والغرور، لو

سلب الله منه عقله وعلمه، أولا يصبح مثاراً للسخرية؟! وهذا الصنم الحجري الذي يعبده الجاهلون هل يهدي أحداً؟!.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ولماذا تقيسون الشركاء برب العالمين؟ ويبدو لي أن الآية الكريمة تشير إلى أولئك الشركاء الذين يتخذهم الناس أرباباً فكريين، ويأخذون منهم علومهم وثقافتهم من دون الله، ومن دون تمحيص، فقد جاء في حديث شريف: «مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنِ الله فَقَدْ عَبَدَ الله وإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنْ إِبْلِيسَ فَقَدْ عَبَدَ إِبْلِيسَ»[1]. وجاء في حديث آخر في تفسير الآية الكريمة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال الإمام الباقر عليه السلام: «وَالله مَا صَلَّوْا لَهُمْ وَلَا صَامُوا وَلَكِنْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ الله»[2]. وفي حديث ثالث عن المفضل بن عمرو عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ دَانَ الله بِغَيْرِ سَمَاعٍ مِنْ عَالِمٍ صَادِقٍ أَلْزَمَهُ الله التِّيهَ إِلَى الفَنَاءِ، وَمَنِ ادَّعَى سَمَاعاً مِنْ غَيْرِ الْبَابِ الَّذِي فَتَحَهُ اللهُ لِخَلْقِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ وَذَلِكَ الْبَابُ هُوَ الأَمِينُ المَأْمُونُ عَلَى سِرِّ الله المَكْنُونِ»[3]. وفي حديث آخر عن جابر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «مَنْ دَانَ اللهَ بِغَيْرِ سَمَاعٍ مِنْ صَادِقٍ أَلْزَمَهُ اللهُ التِّيهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4]. وجاء في تفسير قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عن أبي نصر عن أبي الحسن قال عليه السلام: «يَعْنِي مَنِ اتَّخَذَ دِينَهُ رَأْيَهُ بِغَيْرِ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى»[5].

إن اتباع أحد بصورة مطلقة ومن دون الإنتفاع بعقولنا، إنه نوع ظاهر من أنواع الشرك بالله، لأن أهم اضرار الشرك هو إضلال الإنسان في الحياة.

بين الظن والحق

[٣٦] ولأن الشرك والطاعة العمياء للأصنام وكهنتها، ورموز السلطة والثروة والرجعية -لأنه يسلب العقل ويلغي دوره- فإن المشركين يتبعون التصورات والظنون وهي لا تجديهم شيئاً، ذلك لأن الظن يعكس حالة صاحبه النفسية، ولا يعكس الحقيقة الخارجية، والإنسان زود بالعقل من أجل أن ينسق بين واقعه وبين الحقائق الخارجية، ويدرأ عن نفسه أخطار هذا الواقع، ومثل هؤلاء كمن يرسم خريطة وهمية عن منطقة ثم يسير عليها دون أن يعتمد على عينه وأحاسيسه ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾.

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٧، ص١٥٣.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص١٣٣.
(٣) مستدرك الوسائل: ج١٧ ص٣٠٨.
(٤) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص٧٥.
(٥) الكافي: ج١ ص٣٧٤.

والسؤال: لماذا يتبع هؤلاء الظن بينما زودوا بالعقل والبصيرة؟.

الجواب: إن المشركين يتبعون أهواءهم، ويجعلون هوى الذات وحب النفس محوراً لتحركهم، فهم لا يهدفون أبداً الوصول إلى الحق حتى يبحثوا عن السبيل الذي يوصلهم اليه، وهو العلم ولذلك فهم يرتكبون الجرائم بوعي واصرار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ والله يجازيهم على أفعالهم، ولكن يذكرها أيضاً بأن اتباع الظن هو طريق الخطايا، لكي يتجنب المؤمنون ذلك، ويبحثوا أبداً عن المعرفة التي توصل إلى الحقيقة.

القرآن يتحدى الكفار

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

وفي سياق الحديث عن الظن الذي يتبعه الجاهليون المشركون، يذكرنا القرآن الحكيم بالطريق المؤدي إلى الحق وهو العلم، واحد مصدري المعرفة هو القرآن الذي لا يكون افتراءاً لوضوح آياته وتطابقه مع العقل، ولأنه جاء مصدقاً لرسالات السماء السابقة، وموضحاً الكثير مما كان غامضاً في تلك الرسالات، وبذلك لا يرقى شك إلى أنه نازل من رب العالمين الذي وسعت رحمته كل شيء، فربى كل شيء وأعطاه التكامل، وأعطى الإنسان تكامله بالقرآن.

وهم يزعمون أن الرسول قد افتراه، إذا ليأتوا بسورة واحدة مثل القرآن، وليستعينوا بمن شاؤوا لصنع هذه السورة المفتراة إن كانوا صادقين؟!.

كلا.. إن السبب في كفرهم أنهم لم يبلغوا علم القرآن، ولم يحيطوا بكل أبعاده، فكذبوا به لنقص فيهم، ولأن الحقائق التي بشر بها القرآن لم تتحول إلى واقعيات أمامهم، وحين تصبح الحقيقة واقعاً خارجيًّا لا تنفع التوبة كما كانت عاقبة الظالمين من قبل، والذي لا يؤمن بالقرآن مفسد في الأرض، والله به عليم، أما المصلحون فإن قلوبهم نظيفة وأعينهم مفتوحة ولذلك يؤمنون به.

بينات من الآيات:

استحالة افتراء القرآن

[٣٧] إن لكل حق حقيقة، وعلى كل صواب نورا، ومن يرى الحقائق بعين بصيرة وقلب نظيف بعيداً عن الحجب والنظارات السوداء، وبعيدا عن العقد النفسية فإنه لا يخطئ، والقرآن ذاته دليل صحته وأنه من الله، فهو لا يمكن افتراءه إذ هو أسمى من أن يقدر على صنعه أحد. إنه صنع الله الذي لا يقدر على مثله البشر، هل يستطيع أحد أن يخلق طيراً كما خلق الله؟ كلا.. كذلك لا يقدر أحد على افتراء القرآن ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ولكن القرآن حلقة في سلسلة رسالات سماوية تصدق بعضها بعضاً، وهو خط ممتد يؤمن به الناس مجملا، بالرغم من أن شهواتهم تدعوهم إلى الكفر بالرسالة الجديدة لنقص في ذاتهم ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فالقرآن يصدق الرسالات السابقة، مما يدل على أنه في خطها، ومن يؤمن بها لا بد أن يؤمن به أيضاً. وهو لا يرقى إليه ريب أو نقص، لأنه من وحي الله سبحانه. والله رب العالمين الذي أعطى كل شيء خلقه وتصاعده، فخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وفي كل يوم يضيف خلقاً جديداً ونعمة جديدة إليها، وهو رب الإنسان الذي يعطيه تكامله بطرق شتى ومنها الوحي، فواهب العقل هو منزل القرآن، والإنسان غير المعقد يفهم هذه الحقيقة بوضوح.

[٣٨] ولكنهم يصرون على اتهام الرسول بأنه قد افترى القرآن كله، إذا قل لهم ليفتروا هم بدورهم قرآنا، وليأتوا ولو بسورة واحدة مثل القرآن في علمه وبلاغته، وليستعينوا بمن شاؤوا من الجن والأنس من أجل صنع سورة واحدة!.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ وكما لا يستطيع أحد أن يخلق نملة واحدة فهو لا يقدر على أن يأتي بجزء بسيط من القرآن، لأن خالق النملة هو موحي القرآن، والقرآن بذلك المستوى الأرفع الذي لا يحيط به علم البشر وقدراته.

دوافع الكفر

[٣٩] وأحد العوامل النفسية التي تقف أمام إيمان هؤلاء هو جهلهم، وضيق صدورهم، وقلة استعدادهم، لذلك تراهم يكذبون بأي شيء لا يعرفون كل أبعاده وخصائصه، ولا يفكرون أن الحقيقة التي يرونها ويعرفون صحتها جديرة بالإيمان، ولا يجوز لهم انكارها بمجرد

أنهم لا يعرفون كل أبعادها.

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ وهذه صفة عامة للبشر، وقد عبر عنها الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا»[1].

وهده من أسوأ الصفات الجاهلية والمتخلفة التي تقف عقبة في طريق تقدم البشرية، وعلى الإنسان أن يربي نفسه ومجتمعه على استقبال كل جديد بروح إيجابية، ولا يرفض أي شيء جديد بمجرد انه لا يعرف عنه شيئا.

ومن الصفات الجاهلية هي انتظار تحول الحقيقة إلى واقع، فإذا أنذر الجاهلي والمتخلف حضاريًّا بالمجاعة بسبب التكامل أو الاختلاف لم يؤمن بالحقيقة، وانتظر قدوم المجاعة فعلاً حتى يؤمن بها، ولكن ما فائدة الإيمان آنئذ.

إننا نريد العلم لنستبق به الأحداث، ونمنع عن أنفسنا الأخطار، أما بعد مجيئه فإن الإيمان لا يجدي شيئاً، بل سوف يحيط الواقع السيء بالإنسان ويقضي عليه كما دلت على ذلك أحداث التاريخ ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

[٤٠] ومرة أخرى يؤكد القرآن إن أحد العوامل الأساسية للكفر بالقرآن الحكيم هو العمل السيء الذي ران على قلوب الكافرين، فلم يدعهم يؤمنون بالرسالة، ذلك العمل هو الفساد في الأرض.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ في المستقبل إذا كان مصلحاً طيب القلب، ينتظر المزيد من الآيات، أو بعض الحالات النفسية التي يتغلب بها على ضغوط المجتمع الفاسد أو الشهوات العاجلة ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ وهذا الفريق لا يؤمن بالرسالة بسبب توغله في الفساد، وبناء حياته على أساس منحرف وشاذ ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

---

(١) نهج البلاغة: حكمة:١٧٢.

البراءة من اصحاب القلوب المريضة

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)﴾.

هدى من الآيات:

وفي سياق البيان الإلهي للقرآن، وكيف أنه معجز لا يقدر على مثله بشر، يبين ربنا سبحانه الحل الحاسم الأخير، والذي يتسم بصرامة الحق وصراحته، فإن كذبوا الرسول برغم وضوح رسالته، فليقل أنه بريئ من عملهم منفصل عنهم، كما هم بريؤون من عمله، فكل يتحمل مسؤولية عمله، ولذلك فهو والمؤمنون به أمة، وهم أمة.

ومنهم من يزعم أن تقربه إلى الرسول ومن دون الإيمان برسالته تنفعه شيئ، ولكن هل يقدر الرسول اسماع من به صمم؟. كلا.. لأن النقص فيه وفي قدرته على الإستجابة للرسالة.

كما أن بعضهم ينظر إلى الرسول عسى أن يريه سبيل الهدى دون أن يؤمن برسالته التي هي الضياء والهدى، ولكن حين تكون العين عمياء هل تنفعه أشعة الشمس القوية شيئاً؟!. إن الصمم والعمى ليسا من الله بل من إرادة الناس أنفسهم، لأن الله لا يظلم أحداً، فيخلقه

سبحانه- أعمى أو أصم، كلا.. بل الناس يظلمون أنفسهم بعدم محاولة الرؤية والاستماع.

وهكذا يعطي هذا الدرس رؤية واضحة تجاه كفر الناس وإيمانهم، وأنه من أنفسهم وبسبب سوء اختيارهم.

بينات من الآيات:

العلاقات المبدئية

[٤١] يبدو أن بعض الناس يريدون الإبقاء على علاقتهم مع رسل الله، بعد قطع علاقتهم مع رسالاتهم، فيكذبون الرسول ولكنهم يريدون أن يكونوا هم والرسول من قوم واحد، وهكذا الأمر بالنسبة إلى علاقة الناس بأصحاب المبادىء، بيد أن الله يأمر رسوله بقطع العلاقة مع من يكذب بالرسالة.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فالكل يعمل حسب وجهته ويتحمل وحده مسؤولية عمله، والمبدأ هو الذي يفصل هذه الجماعة عن تلك، وليس أي شيء آخر، وحين يفصل المبدأ بين قوم واخرين لا ينفع وحدة الأرض واللغة، أو حتى القرابة في ربط بعضهم ببعض.

مسؤولية الذات في الهداية

[٤٢] ومن الناس من يزعم أن الرسول هو الذي يعطيهم الرؤية من دون أن يسعى هو من أجل ذلك، وهذا غلط فظيع، ذلك لأن الهداية او الضلالة بقدر من الإنسان نفسه، والذي لا يبدأ الخطوة الأولى في هذا الطريق لا يجديه شيء آخر، ويكون مثله كمثل أصم يطلب من الآخرين أن يسمعوه شيئاً بينما النقص من ذاته، وأنه مهما كانت قوة الصوت فإنه لا يسمع!!.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ فالأصم لا يستجيب عقله لحديث، لأن سمعه مسدود، وهؤلاء لا ينتفعون بسمعهم ولا يعقلون ما يدخل سمعهم من أحاديث، والسمع أرفع جهاز إدراك عند البشر، باعتباره الأداة الأوسع انتشاراً والأكثر فائدة في نقل التجارب والخبرات من جيل لآخر، وبالتالي فهو الواسطة الفضلى للحضارة البشرية، التي هي تراكمات الخبرات عبر العصور المتمادية، وربما لذلك عقب القرآن على الصمم بعدم العقل.

[٤٣] وكذلك هناك بعض من لم يعرف هذه الحقيقة، إن الهداية هي أولى مسؤوليات البشر، وإن من لا يعمل من أجلها لا يبلغها أبداً ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ وكأن الرسول هو المسؤول عن هدايته وعن توجيهه ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ فالأعمى لا يرى، لا لأن الضوء قليل، بل لأن جهاز الإستقبال معطب، والتحرك يجب أن يكون ابتداءً من الفرد نفسه.

[٤٤] ولا يجوز أن يزعم الإنسان أن الله هو الذي سلب الفرد سمعه وبصره، بل الإنسان هو نفسه الذي لا ينفع بسمعه وبصره.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فالناس هم الذين لا يستفيدون من أدوات التوجيه عندهم، وربما عبر القرآن بكلمة الناس لسبب هو أن بعض الناس يضلل بعضهم بعضاً، وأنهم مسؤولون عن هداية بعضهم، كما أن التعبير القرآني في السمع جاء بصفة جماعية، بينما جاء عند التعبير عن البصر بصفة فردية، ربما لأن السمع عملية حضارية يكلف بها الناس جميعاً، بينما البصر يغلب عليه الجانب الفردي.

[٤٥] للإنسان الجاهلي غلطتان كبيرتان:

الغلطة الأولى:

عدم فهم طبيعة الجزاء وأنه ليس من الضروري أن يكون بعد العمل مباشرة. الجزاء يأتي وكل آت قريب لذلك لا يجوز للإنسان من أن يكفر بالجزاء لأنه قد تأخر قليلاً عنه ثم الجزاء الموعود في القرآن ليس جزاء بسيطاً لأنه يتسم بصفتين أساسيتين:

الأولى: إنه جزاء خالد.

الثانية: إنه لا يمكن للإنسان أن يهرب منه أو يطلب الإذن من ربه في العودة إلى الدنيا لتجربة إرادته مرة اخرى.

وبالقياس إلى الخلود الذي يتسم به الجزاء الإلهي على الأعمال فإن الفترة التي يقضيها الإنسان في الدنيا بسيطة وبسيطة جداً ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ الفترة التي كانوا خلالها في الدنيا تعتبر بالقياس إلى زمن الآخرة ساعة واحدة ويكفيك للقياس أن تعلم بأنك قصارى ما تعيش في الدنيا سبعين عاماً أو ثمانين أو اكثر أو أقل بينما تعيش في يوم القيامة في يوم واحد فقط خمسين ألف عام، هل بإمكانك ان تقيس هذه الفترة المحدودة بذلك الزمن الممتد إلا أن تقول أن هذه ساعة من ذاك.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً، ويتذكر بعضهم بعضاً، وكأنهم في هذه الدنيا وهنالك تكون الخسارة لمن؟. لأولئك الذين كذبوا بذلك اليوم أما الرابحون فهم الذين آمنوا بذلك اليوم واستعدوا له سلفاً ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

[٤٦] أما الغلطة الثانية:

فهو الإعتقاد بأن الجزاء الذي يعدهم الرسول ناطقاً عبر الله إن هذا الجزاء إنما هو من الرسول نفسه. فمثلاً ينتظر بعضهم وفاة الرسول أو يدبرون المؤامرات ضده زاعمين أن تصفية الرسول يعني خلاصهم مما ينذرهم به.

الرسول مجرد منذر ومبشر، أما العذاب فهو من الله، فسواء كان الرسول أو لم يكن بين أظهرهم فإن جزاء أعمالهم لابد أن يلحقهم ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ الله قبل الرسول هو شهيد على أعمالهم فأين يهربون.

لكل أمة أجل

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ[1] إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا[2] إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الدرس السابق حدثنا القرآن الحكيم عن مسؤولية الإنسان المباشرة عن الهداية، حيث تنتهي عاقبة الضلالة بالخسارة الكبرى التي تلحق المكذبين بآيات الله ولقائه، وحين يحشرهم الله للجزاء في ذلك اليوم الرهيب يعرف الناس بعضهم بعضاً، ويزعمون أنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا برهة قصيرة من الوقت، وليس المهم أن يرى صاحب الرسالة ما يعدهم الله من العذاب في الدنيا، أو يتوفاه الله ولكنهم بالتالي يعودون إلى ربهم، والله شهيد على مواقفهم وأفعالهم.

ولكل أمة رسول، فإذا جاء الرسول وبلغ الرسالة وأتم الحجة عليهم، قضى الله بينهم بالقسط وهم لا يظلمون، بل يجازون بما فعلوا.

---

(١) الوعد: خبر بما يعطي من الخير والوعيد خبر بما يعطي منه الشر.
(٢) نفعاً: اللذة والسرور.

ويستعجل الناس العذاب، ويقولون متى هذا الوعد؟! ويجيب ربنا قائلاً: إن هناك أجلاً محدداً لكل أمة يستنفذون قبله كل فرصة لهم في الدنيا، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وإذا وافاهم أجلهم سواء بالليل أو بالنهار، فهل يسبقوه، أو هل هو مما يستعجله البشر، وهل يطالب المجرم بسرعة الجزاء؟!.

بل أنهم سوف يؤمنون بعد انتهاء الفرصة، ذلك لأنه أصبح حقيقة واقعية أمامهم، ويعرفون أن استعجالهم كان خاطئاً.

بينات من الآيات:

مجيء الرسول شرط التوقيت

[٤٧] قبل ان يتم الله حجته على خلقه لا يأخذهم بذنوبهم، لذلك فأنه تعالى يبعث لكل أمة رسولا، ويحدد لهم اجلا، فإذا جاء اليهم رسولهم وبلغهم رسالات ربه، فإذا كذبوه قضى الله بينهم بالقسط، فمن آمن واتبع هدى ربه نجى وافلح، ومن كفر أحاط به البلاء، والله لا يظلم احدا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

والسؤال: هل أن هذا الرسول يجب أن يكون رسولاً يوحى إليه مباشرة من الله، أو قد يكون وليًّا من أولياء الله تابعاً لرسول من قبل الله، يقوم بتبليغ رسالات الله بمثل ما كان يفعل الانبياء عليهم السلام؟.

يبدو لي أن عموم الكلمة تشمل القسم الثاني.

[٤٨] ولكن متى يقضي الله على الأمم؟ وكم هي الفترة بين بعث الرسول، وبالتالي كفر الناس بها، وبين العذاب؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فقد تمتد الفترة ويتأخر العذاب حتى يتساءل الكفار بأسلوب المنكر المستهزيء متى العذاب؟ ولماذا لم يأت الدمار الموعود؟!.

[٤٩] وهذا السؤال يكشف عن خطأين أساسيين عند البشر:

الخطأ الأول: أن الناس يزعمون أن مبلغ الرسالة هو الذي ينزل العذاب، وبالتالي يحدد

موعده، بينما الله هو الذي يحدد موعد العذاب لا الرسول، أما الرسول فلا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، ولهذا فهو لا يدعي أنه الذي يبعث العذاب.

الخطأ الثاني: يحسب الإنسان أن العقاب يكون مباشرة وراء العمل وكأنه النار والحرارة، ولا يعرف أن العمل السيء في المجتمع مثل الميكروب في الجسد يتكاثر وينتشر، ثم تظهر عوارضه فتحيط بالجسد وقد تقضي عليه، وأن بين العمل السيء، والجزاء فترة معلومة عند الله، إذا انقضت فسوف لا تمدد، وبالتالي لا يزيد ولا ينقص.

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴾ فإذا شاء الله أعطى بقدر ما تقتضيه حكمته، اعطى في صلاحية العمل وقدرته ضراً أو نفعاً ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

سنن الحق في الحياة

إن الحياة قائمة على موازين حق لا تتبدل بأهوال الناس، فهناك عوامل السقوط وعوامل النهوض، وهناك آثار إيجابية للإخلاص والتضحية، والنشاط والوحدة، ونظافة القلب والجسد، وسلامة العمل واتقانه، كما أن هناك آثاراً سلبية للغل، والإستئثار، والكسل والتفرقة، والعقد النفسية، والأوساخ المادية فإذا تفاعلت هذه الآثار، ورجحت كفة الآثار السلبية إنهارت الأمة، بينما تتقدم إذا انعكست الحالة، المهم أن الإنسان قادر على انقاذ الموقف قبل أن يتردى إلى نهايته، فهناك لا فرصة للخلاص أبداً.

[٥٠] ومن هنا فإن الذين يستعجلون العذاب ويتساءلون بضجر متى هذا الوعد؟ لا يعرفون ان العذاب ليس مما يستعجله الإنسان، وأنه إذا جاءهم لم يجدوا مهربا منه، فكيف يستعجلونه؟!.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا ﴾ حينما اتخذتم النوم لأنفسكم لباساً للراحة والأمن، فإذا بالعذاب يباغتكم ﴿أَوۡ نَهَارٗا ﴾ وأنتم على كامل الإستعداد لمواجهة الأخطار، ولكن من دون أن تكون لديكم القدرة على مواجهة عذاب الله ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ هل يستعجلون آلامه الشديدة، أم يستعجلون تحطيم أمانيهم وقهر كبريائهم، ومفارقة احبتهم، هل هي أشياء يطالب بها الإنسان، أم أنه الغرور والنزق؟.

[٥١] نعم.. إذا وقع العذاب وأصبح حقيقة ملموسة بأيديهم ماثلة أمام أعينهم آنئذ فقط يؤمنون به ولكن عبثاً! ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ وكان

استعجالهم السابق دليلاً على عدم إيمانهم به وعدم توقعهم لحدوثه.

[٥٢] وأخطر شيء في القضية هو أن العذاب لا ينتهي بل يبقى خالداً ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فالجزاء هو ذاته الأعمال التي اكتسبتموها، والتي تحولت إلى عذاب دائم، أعاذنا الله منه.

القرآن يحطم حواجز الإيمان

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ[1] أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ[2] بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾.

هدى من الآيات:

في سياق الدروس السابقة التي كانت آيات القرآن تهدينا إلى أنها وحي من عند الله، تحطم هذه الآيات الحواجز النفسية التي تمنع الإيمان، ثم تذكر بأن القرآن شفاء وموعظة، وأنه فضل ورحمة وخير مما يجمع الناس، فتبدأ الآية الأولى بالسؤال الذي يوجهه الكفار إلى الرسول عن أن القرآن حق؟ ويجيب الرسول ويحلف بربه الكريم أنه لحق، أما حاجز الغرور والعزة بالأثم فإنه وهم باطل، إذ أن الكفار ليسوا بقادرين على تعجيز أقدار الله وتفشيل خطط الرسول، ثم لا ينفع المال والبنون، لأنه حين يأتي العذاب ويراه الظالمون يتمنون لو قبل الله منهم أن يفتدوا عن عذاب ذلك اليوم بكل ما في الأرض لو كانوا يملكونها، وقد بلغت الندامة أعمق أعماقهم وقضي بينهم بالقسط، وجوزوا على أعمالهم وهم لا يظلمون، والحاجز الاخر الذي يحول بين

---

(١) يستنبئونك: الاستنباء طلب النبأ الذي هو الخبر.

(٢) لافتدت: الافتداء ايقاع الشيء بدل غيره لدفع المكروه به يقال فداه يفديه فدية.

الإنسان والإيمان بيوم الجزاء هو تردده في قدرة الله أو صدق وعده سبحانه، ولكن أليس لله مافي السماوات والأرض، وأن وعده حق كما يدل عليه ما يجري في السماوات والأرض؟ ولكن جهل هؤلاء بالدنيا وسننها هو السبب المباشر لضلالتهم، ثم أوليس الله يحيي ويميت؟ أو ليس قادرا على بعث الناس من جديد؟!.

وهكذا ينادي القرآن الناس بأنه جاء موعظة من ربهم، وأنه يشفي صدورهم من عقد الجهل والعصبية والإنغلاق، وأنه يهدي الناس، وإذا آمن به الناس وطبقوه فهو رحمة لهم ورفاه، وهذا الرفاه يجمعه الناس من وسائل مادية بحتة لا تعطيهم رفاه ولا رحمة.

بينات من الآيات:

في رحاب الحقائق

[٥٣] ويتساءل الكفار هل يؤمن الرسول بما يقول ويقولون له: أحق هو؟ فيجيب الرسول بحسم وبالضرورة: انه لحق ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ وبين السؤال والجواب نستنبط عدة حقائق:

أولاً: بالرغم من أن الحقائق الفلسفية العامة ليست قابلة للتقليد والطاعة العمياء إلا أن السؤال عنها مفيد، إذ قد تحمل الإجابة إشارات هادية لك لو فكرت فيها لعرفت الحقيقة مباشرة، فيكون السؤال مثل أن يسأل أحد عن مكان الماء، فحين يشير الآخر إليه ويلتفت السائل يرى الماء مباشرة.

ثانياً: إن إحدى المشاكل الرئيسية التي تعترض طريق الناس عن الإيمان هو تهيب الإيمان، والإعتقاد بأن المؤمنين ليسوا في الواقع مؤمنين بصدق، ولذلك إذا عرفوا صدق إيمان المؤمنين بالرسالة، زال حاجز الهيبة وتشجعوا على الإيمان، ومن هنا كان تأكيد المؤمنين إيمانهم قوليًّا وعمليًّا أو بسبب تضحياتهم الرسالية كان ذلك ذا أثر فعال في روحية المترددين والشاكين.

ثالثاً: إن الرسول أجابهم بصورة مؤكدة، وحلف بربه حلفا يؤثر في وجدان السامعين، لأنه يتصل بمن رباه وانعم عليه، وعموما القسم بالرب قسم وجداني عميق الأثر.

وبعد الحوار أكد الرسول على أن حاجز الغرور هو الذي يفصلهم عن الإيمان، فيزعمون أنهم قادرون على مقاومة نفوذ الرسالة، أو الأتيان بأفضل منها حتى يسبقوها! كلا ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

التذكير بالآخرة نقطة الانطلاق

[٥٤] الإنسان بفطرته مؤمن، ولكن دواعي الشهوة والطيش والغرور، والجهل تمنعه عادة عن الارتفاع إلى مستوى الإيمان، ويهدم القرآن جدار الغرور بتذكير البشر بيوم فاقته، حين يحين ميعاد جزائه على ظلمه لنفسه، عندما يتمنى لو كان يملك ما في الأرض جميعاً ليفتدي بها عن نفسه، فيخلصها من العذاب، ولكن هيهات!.

وهنا لابد أن يتذكر الإنسان بأن المهم ليس ما يملك لأنه يزول عنه، ولكن نفسه وعمله هما الباقيان.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ ظلماً ذاتيًا بارتكاب المعاصي، أو ظلماً اجتماعيًا باغتصاب حقوق الآخرين، لو أنها كانت تملك ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وربما كان معنى أسرار الندامة الشعور بها عميقاً في سرهم، وليس بمعنى اخفائها، لأنه لا أحد يقدر على كتمان حالته يوم القيامة، ولكن من المسؤول عن ندامتهم أوليست أنفسهم! ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالدقة التامة دون أي زيادة أو نقيصة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الوعد الحق

[٥٥] ولو زعم الكفار أن اعادة بعث الناس مستحيل، أو زعموا أن جزاءهم في الدنيا غير وارد، فليعلموا أن الله هو مالك ما في السماوات والأرض وأن وعده حق ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولو كان لهؤلاء العلم بالكون وقوانينه، وسنن الله الحاكمة فيه، لعرفوا أن كل عمل يتحول إلى جزاء عاجلاً أو آجلاً، خيراً أو شراً، تلك هي أبسط قاعدة حياتية، فكيف لا تنتهي حياة الناس بالجزاء الشامل يوم القيامة؟.

[٥٦] والله يحي ويميت، فهو قادر على إحياء الناس بعد موتهم، ولذلك فنحن نرجع إليه للحساب ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

[٥٧] والله الذي يذكرنا بنفسه ينزل القرآن الذي يتفجر من خلاله التذكرة بالله، وهو موعظة من رب العالمين، فالذي وفر للعاملين أسباب معيشتهم، وهداهم إليها بالغريزة والعقل، هو الذي أنزل القرآن ليكون جسراً بين الحقيقة والسلوك، ويوجه البشر إلى الإصلاح ويحذرهم من الفساد، والسبيل الذي يتبعه الذكر لبلوغ هذا الهدف هو: تزكية النفوس وتهيئتها

لقبول الحقائق فهو شفاء لما في الصدور، والنتيجة التي يحصل عليها الناس بعدئذ هي:

أولاً: الهداية ومعرفة ما ينبغي عمله وما يجب تركه.

ثانياً: الرحمة التي هي الرخاء والرفاه والسعادة، وهي خاصة بالمؤمنين المنفذين لتعاليم القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

السعادة الحقيقية

[٥٨] وعلى الناس أن يفرحوا عندما يطبقون مناهج الله، ويحصلون من ورائها على السعادة والفلاح، لأنها سعادة حقيقية لكل الناس وفي كل زمان، وحتى في الآخرة.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ ربما يكون فضل الله هو القرآن والعترة وائمة الهدى، بينما رحمة الله ما ينتهي إليه العمل بالرسالة ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الذي أمده قصير، وخيره محدود في طائفة دون طائفة، وهو بالتالي يختص بالدنيا فقط.

حرمة الابتداع في دين الله

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ[1] وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ[2] فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ[3] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

الهدف من الوحي الإلهي هو موعظة الإنسان، وشفاء صدره وهدايته، وبالتالي انزال الرحمة عليه، ويتجسد هذا الهدف عملياً في التشريعات الصائبة التي تتجاوز الهوى والشهوات، ومن لا يتبع هدى القرآن يبدأ بتشريعات شاذة في رزق الله وفي نعمه السابغة، فتراه يجعل بعض النعم حلالاً، وبعضها حراماً افتراء على الله، وبعيداً عن إذن الله، وماذا ينتظر هؤلاء يوم القيامة، بعد أن كفروا بنعم الله وحرموها على أنفسهم؟ أوليس ذلك خلاف العقل والفطرة أن يتفضل الله على الناس فلا يشكرونه، بل ويفترون عليه الكذب ويحرمون رزق الله على انفسهم؟.

إن أعمال البشر كلها تجري بعلم الله وبشهادته، ففي أية حالة يكون البشر، وأي عقيدة

---

(١) شأن. الشأن اسم يقع على الأمر والحال تقول ما شأنك وما بالك وما حالك.

(٢) تفيضون الافاضة الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه مأخوذة من فيض الاناء إذا انصب الماء من حواسه

(٣) يعزب: العزوب الذهاب عن المعلوم وضده حضور المعنى للنفس.

يتمي إليها، وأي عمل يقوم به، فإن الله شاهد عليه حين تحركه دون أن يغيب عنه شيء بوزن الذرة أو أكبر أو أصغر، وهو بالإضافة إلى شهادة الله يسجل في كتاب مبين، فعلى البشر أن يتبع في كل عمل من أعماله حدود الله وهداه، ولا يعمل حسب أهوائه.

بينات من الآيات:

الوحي هدى الطريق

[٥٩] لقد جاء الوحي ليملأ فراغاً حقيقيًا في الحياة، ذلك لأن الحياة نعمة واسعة من الله علينا فلا يحق لنا بل لا ينبغي أن نتحرك فيها من دون هدى الله الذي يرسم لنا خريطة التحرك، ويحدد لنا معالم العمل.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ وهل يحق لنا أن نتصرف في رزق الله، ونقول: هذا حرام وهذا حلال؟ كلا.. بل علينا أن نتقيد وفق إذن الله.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ إنها قضية فطرية، أن التصرف في نعم الله لا ينبغي أن يكون من دون إذنه، وهل أذن الله للناس إذنًا مطلقًا بالتصرف في ملكوته، من دون عقل كافٍ وعلم، أم أنه كذب وافتراء؟ أجل إن علينا أن نبحث عن وحي الله ليحدد لنا خريطة الحياة.

[٦٠] وماذا يتصور الذين يفترون على الله الكذب، ويشرعون من دون إذن الله؟ وكيف يمكن أن يعاملهم الله هناك، وقد كفروا بأنعم الله، فحرموها على أنفسهم وعلى الناس من دون إذن الله، هل يعذبهم أم يغفر لهم؟!.

إن مجرد التفكير في أن المشرع سوف يسأل أمام الله يوم القيامة يكفيه رادعًا عن التشريع بالهوى ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ لقد من الله بمختلف النعم على البشر وسخر للإنسان مافي السماوات وما في الأرض، وزوده بقدرة الإرادة ونور العقل وسلامة الجسد، ولكن الناس ضيقوا على أنفسهم وحددوا طاقاتهم بلا سبب، فرسموا لبعضهم البعض الحدود الزائفة في الأرض، قائلين هذه أرضك وهذه أرضي، ثم وضعوا أنظمة للتجارة والصناعة، ومن ثم صنعوا الأغلال الفكرية والأثقال الثقافية ووضعوها حول نفسيات البشر، من خوف الطبيعة إلى خشية الإبتكار إلى المحرمات الكثيرة التي ما أنزل الله بها من سلطان، إلى الرسوم والعادات الباطلة، وكل ذلك منعهم من الإنتفاع بنعم الله وكان بمثابة الكفر بتلك النعم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وهل هذا شكر لفضل الله على الناس، أن يحرموه على أنفسهم؟! من هنا ينبغي أن يسارع البشر إلى وحي الله، ويؤمن به ويتخذ منه تشريعاته دون أن يحيد عنه قيد شعرة، لا زيادة ولا نقيصة، حتى ينتفع بالنعم.

الرقابة الإلهية

[٦١] البشر محاط برقابة الله عليه، فلا يكون في وضع ولا ينتمي إلى فكرة ولا يعمل عملاً إلا ويشهد الله عليه، لأنه حاضر عنده وليس بغائب عنه، إذا فعلى البشر أن يجعل أوضاعه وأفكاره في أطار الوحي، ووفق تشريعات الله، ولا يسترسل في قراراته حسب أهوائه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ﴾ أي في حالة من الاحوال ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ﴾ أي ما نقرأ من القرآن -حول ذلك الشأن- هذا عن الرسول والمؤمن الذي يتبع في شؤون هدى القرآن، أما بالنسبة إلى غيره فما يتلوه هو أفكاره النابعة من اهوائه، والله سبحانه شاهد عليها كما هو شاهد على شأنه وعمله.

﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ تحول الخطاب إلى الجماعة بعد أن كان فرديًّا، والسبب قد يكون إن لكل إنسان شأنه وفكره، ولكن العمل عادة ما يكون جماعيًّا يقوم به أولا أقل يرضى به مجموعة من الناس فيشتركون في مسؤوليته، ولو بقدر الرضا عنه وعدم ردع عامله.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي حين تخوضون فيه وكأنكم منفلتون عن القيود، أحرار في التصرف لكم مطلق القرار في العمل، بينما الواقع غير ذلك وهو أنكم محدودون في إطار شهادة الله عليكم، لذلك اتبعوا هدى الله ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ إن كل شيء له وزنه الخفيف أو الثقيل، إبتداء من وزن الذرة الصغيرة وحتى وزن المجرة الكبيرة، إنها جميعاً محسوبة عند الله، ومسجلة في كتاب واضح لا تختلط أوراقه، أو تضيع معلوماته، من هنا ينبغي أن يتصرف البشر بعقل وبحذر، يضع كل شيء موضعه المناسب ولا يرفع قدما ولا يضع خطوة ولا يتحرك قليلاً أو كثيراً، إلا وفق برنامج معد سلفاً، مطابق للوحي، حتى لا تسجل ضده نقطة في كتاب الله، وفي الدرس القادم يُبين القرآن كيف يتجنب الفرد هذه المشكلة، مشكلة الإسترسال في الحياة.

العزة للّه ولرسوله والمؤمنين

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

هدى من الآيات:

مادامت حياة الفرد محاطة بشهادة الله وتسجل عليه كل حالة وفكرة وجولة، فان البشر في خطر عظيم، ويطرح السؤال: كيف الخلاص؟.

الجواب: عن طريق الإيمان والتقوى، الذي يجعل الفرد وليًّا لله، قريباً منه، ويبعد عنه الخوف والحزن، ويوفر له البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والله حكم بألا يبدل سننه وكلماته، بل يعطي للمؤمن المتقي أفضل النعم في الدنيا والآخرة، ومن تلك النعم العزة، لأن العزة لله جميعاً، وهو الذي يعطيها للمؤمنين المتقين، وهو السميع العليم.

بينات من الآيات:

هل نحن أولياء اللـه؟

[٦٢] من هو الولي الحقيقي لله؟.

إنه المؤمن المتقي الذي لا يجعل بينه وبين ربه حاجباً من غفلة أو شهوة أو ضلالة، ولأن هذا الفرد قريب من مصدر الأمن والبشرى، فلا خوف عليه من المستقبل، ولا حزن على الماضي

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

[٦٣] وكيف يمكن أن يبلغ البشر درجة ولاية الله؟.

بالإيمان بالله وبرسالاته، وبالتالي بالحق الذي قد يخالف أهواءه، ثم التقوى بتطبيق برامج الرسالة في حياته عمليًا بالتزام صارم وتعهد مسؤول ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ ويبدو من الآية ضرورة استمرار الإيمان والتقوى في حياة الفرد، بدلالة صيغة الماضي المؤكدة بكلمة (كان) ذلك لأن اكثر الناس يؤمنون ويتقون ولكن قبل أن يتعرضوا لامتحانات عسيرة.

لمن البشرى؟

[٦٤] ولهؤلاء المؤمنين البشرى بحياة آمنة كريمة في الدنيا، وأفضل منها في الآخرة.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ والبشرى هي التطلع إلى هذه الحياة الآنية، ذلك التطلع الذي يحققه الفرد بعمله وجهاده ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فالله قد اجرى في الكون سننا حكيمة، وجعل منها إعطاء الحياة الآمنة السعيدة للمؤمن، وأنه لا يبدلها لأنه قوي عزيز، والواقع أن الإيمان بالله وبرسالاته، والتقوى بتطبيقها عمليا يعني تسخير أفضل ما في الكون من أجل سعادة البشر، والإجتناب عن كل شيء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

لمن العزة؟

[٦٥] وبما أن عاقبة الأمر للتقوى، فإن الوصول إلى هذه العاقبة يمر عبر صعوبات كبيرة ومنها الحرب الإعلامية التي تحاول بث اليأس في قلوب المؤمنين عن طريق تسفيه آمالهم وطموحاتهم المستقبلية، وتوجيه نظرهم إلى واقعهم الفاسد الذي يعيشونه، والذي يتسم بتسلط الظالمين عليهم، ولكن القرآن يؤكد مرة أخرى أن هذا الواقع سوف ينتهي ويأتي مكانه واقع أفضل، حيث العزة والكرامة ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فربنا المهيمن على حياتنا لا يدع المؤمنين في هذه الحالة الإستثنائية، حتى يكرمهم بالنصر والكرامة، ولكن بعد أن يوفروا في أنفسهم صفات أولياء الله التي جاءت في النصوص الإسلامية والتي تذكر بعضها فيما يلي:

١ سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فَقِيلَ لَهُ: «مَنْ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءُ؟». فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ:

«هُمْ قَوْمٌ أَخْلَصُوا لله تَعَالَى فِي عِبَادَتِهِ، وَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، فَعَرَفُوا آجِلَهَا حِينَ غَرَّ النَّاسَ سِوَاهُمْ بِعَاجِلِهَا، فَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ وَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنَّهُ سَيُمِيتُهُم..»[1].

٢ عنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إِذَا أَدَّوْا فَرَائِضَ الله وَأَخَذُوا سُنَنَ رَسُولِ الله وَتَوَرَّعُوا عَنْ مَحَارِمِ الله، وَزَهِدُوا فِي عَاجِلِ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَرَغِبُوا فِيمَا عِنْدَ الله، وَاكْتَسَبُوا الطَّيِّبَ مِنْ رِزْقِ الله لِوَجْهِ الله، لَا يُرِيدُونَ بِهِ التَّفَاخُرَ وَ التَّكَاثُرَ ثُمَّ أَنْفَقُوا فِيمَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ حُقُوقٍ وَاجِبَةٍ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ بَارَكَ الله لَهُمْ فِيمَا اكْتَسَبُوا وَ يُثَابُونَ عَلَى مَا قَدَّمُوا لِآخِرَتِهِم»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٣١٩.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٢٧٧.

الشرك بين الظن والخرص

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

خلفية الخوف من الجبت والطاغوت هو الشرك بالله. وفي هذا الدرس يذكر ربنا عباده بحقيقة الشرك الذي ليس هو سوى الظن والوهم (تصورات وخيالات) بينما الله وحده مالك كل من في السماوات والأرض، ومن بينها أولئك المعبودون من دون الله باسم الشركاء، وأنظمة الحياة التي تساعد الأحياء على البقاء، إنما بدورها من الله، فهو الذي جعل الليل ليسكن فيه الأحياء، وجعل النهار مضيئا، كل ذلك آيات لمن يفتح أذنه للسماع.

وليس من قوة في الأرض وفي السماء ألا وهي خاضعة لله، وليست أداة وآلة بيد الله، لأن الله غني وهو أرفع من أن يتخذ مساعداً أو ولداً، إن هذا الكلام نابع من الجهل الذي لا برهان عليه.

والذين يفترون على الله الكذب، ويدعون شركاء لله أو أولاداً، لا يفلحون ولا ينالون السعادة، إذ أن بعض المتعة يصيبهم في الدنيا، وبعدها يذوقون عذاب النار الشديد بسبب كفرهم بالله.

بينات من الآيات:

الملك لله

[٦٦] لا خوف على المؤمنين بل لهم النصر والعزة، وأن أصحاب السلطة، أنهم ليسوا في الواقع سوى مملوكين لله، كما أن الملائكة والجن من سكان السماوات الذين يعبدون من دون الله، ويزعم البسطاء أن لهم تأثيراً حاسماً على أحداث الحياة ويعيشون الرعب من تأثيراتهم، كل أولئك مملوكين لله!.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ إنهم ليسوا شركاء لله، بل عباد مربوبون، كأي شخص أو شيء آخر، وفي الواقع اتباعهم هؤلاء نابع من التصور والوهم.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ فخلفية الشرك بالله العظيم، هي اتباع الخيال والاحتمال، فمن يتبع العقل يتخلص من التصورات النابعة من قوة الخيال، أو من ضغوط الشهوات، لأن العقل يميز بين الخيال النابع من الحب والغضب (الهوى) وبين الرؤية الصافية للحقائق، كما أن من يتبع العلم يتخلص من سلطان الاحتمالات التي لا مرجح لأحدها على الآخر، أما الجاهلي فإنه يتبع الظن والخرص، وهما يدعوانه إلى الخضوع للشركاء.

تدبير الله

[٦٧] والله هو المهيمن على الكائنات، فهو الذي قدر الليل والنهار، فجعل الليل ساكناً هادئاً يأوي فيه كل حي إلى فراش النوم والراحة، أما النهار فإنه جعله مضيئاً يساعد الأحياء على الأبصار ورؤية الأشياء، مما يدفعهم إلى النشاط والحركة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ فهو الذي يملك أمر الناس، ويدبر شؤونهم وعلينا ألا نخضع للناس من دون الله مالك شؤونهم، ولكن هذه الحقيقة البسيطة قد يغفل عنها بعض الناس بسبب افتقادهم لأبسط شروط القيم وهو السماع.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أما الذين يتبعون الظن والخرص فلا يدعوهم احساسهم بالحاجة إلى العلم، ولا يدعوهم إلى السماع، وبالتالي الفهم.

لا والد ولا ولد!!

[٦٨] ليس هناك ما يوازي سلطان الله لا في العرض ولا في الطول، أي لا يوجد هناك شريك لله يكون بمستوى علمه وقدرته سبحانه، كما لا يوجد هناك ولد لله يستمد منه صفاته الألوهية سبحانه ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ولماذا يتخذ الله ولدا؟ هل لأنه سوف يموت فيستخلفه الولد؟ أم لأنه عاجز عن إدارة أموره فيساعده الولد؟ أم لأنه فقير فيعطيه الولد شيئا؟. كلا.. إن ربنا غني بذاته.. وسبب غناه انه يملك كلما يوجد في السماوات والأرض من قوة وامكانية ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أما الذين يزعمون أن لربنا ولداً فهم لا يعلمون شيئاً من مقام الألوهية المقدس عن النقص، ويشبهون خالق السماوات والأرض بالمخلوقات العاجزة، دون أن يكون لهم دليل إلا جهلهم بالحقيقة.

ولو سألتهم كيف تتصورون بأن لله ولداً؟! لأجابوا: إذا كيف يدبر السماوات والأرض، بل كيف أوجد الأشياء وكذلك كيفية خلقه للأشياء؟! أو لا يعلموا أن تدبير الله ليس كتدبير البشر بالإداة والوسيلة والوسائط، بل انما أمره أن يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

عاقبة الافتراء

[٦٩] وإذا عرف البشر أن الكلام من مسؤوليته، وأنه لو قال كلاماً من دون دليل خصوصاً فيما يرتبط برب العالمين فإنه مسؤول عنه، وأنه يسبب له الشقاء إذا ما بادر بالافتراء على ربه العظيم ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ والسبب أن الكذب على الله يسبب انحرافاً عقائديًا وسلوكيًا كبيراً. يجره إلى انحرفات لا تحصى، وتجعل حياته جحيماً لا يطاق.

[٧٠] ثم إن الآخرة تنتظرهم بعذاب شديد ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ولا يسع البشر أن يقول لم أعرف، إذ يقال له: لماذا اتبعت جهلك وهواك، ولم تسمع كلام الحق؟! اولم تبحث عنه بصدق! من هنا نعرف أن الهدى والضلالة من مسؤوليات الإنسان، ولو عرف البشر هذه الحقيقة، إذا ما ضل كثير منهم بالإسترسال واللامبالاة. والقول بغير الحق، والقرآن الحكيم في هذا الدرس وفي دروس أخرى يذكر البشر بهذه الحقيقة لأن ذلك طريق قريب لهداية الإنسان.

نوح عليه السلام يتحدى بالرسالة الكافرين

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

هدى من الآيات:

تلك كانت محتويات الرسالة الإلهية: التذكرة بالعقل، والتوجيه إلى الله ومقاومة الجاهلية التي هي اتباع الظن والخرص، وهناك محتوى آخر للرسالة الإلهية يشهد على أنها حق من رب العالمين وهو توكل المؤمنين بها على الله، واستقامتهم أمام كل الضغوط، إعتماداً على الغيب كما فعل شيخ المرسلين نوح عليه السلام، حيث تحدى قومه بكل وضوح فقال: إن كان تذكيري بالله صعباً عليكم فإني قد توكلت على الله، فاجمعوا أمركم ولملموا قواكم أنتم وشركاؤكم، ثم لا يكن أمركم بينكم غمة، تحزنون على تفريطكم في الإستعداد للمواجهة، ثم طالبهم نوح بالمواحهة الفعلية دون تعطيل.

أما إذا توليتم فلن أطالبكم بأجر، وهذا دليل آخر على صدق الرسالة، ولن أطالبكم بأن تصبحوا لي مسلمين بل لله، بيد أن قوم نوح كذبوه، فتدخل الغيب الذي اعتمد عليه ونجاه الله ومن معه في الفلك، وجعلهم الله ورثة لمن هلكوا بالغرق، وهكذا كانت عاقبة الذين كذبوا الهلاك.

بينات من الآيات:

التوكل سلاح المؤمن

[٧١] حين نتلوا قصة الرسالات السماوية في صراعها مع الجاهلية، نزداد وعيًا بحقيقة هذه الرسالات وإيماناً بصدقها، ولهذا يكرر القرآن بيان هذه القصة الواحدة في جوهرها، والمختلفة في صورها، فهذا نوح شيخ المرسلين يتحدى قومه بسلاح الرسالة وحدها، متوكلاً على الله ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإن كان قيامي ضد أفكاركم وتقاليدكم صعباً عليكم، وخروجي عن أطار الرسوم والعادات، بالرغم من أني واحد منكم، فأنتم قومي دون غيركم، والأصعب من ذلك عليكم أنني اذكركم بآيات الله، وأحاول ردعكم عن الأفكار والتقاليد التي آمنتم بها، فإن كان كل ذلك عندكم عظيماً ولا يمكنكم احتماله.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ دون خوف منكم، ودون اعتماد على قوة مادية دونكم، بيد أن الله الذي أتوكل عليه قوي عزيز، لذلك لا أخشى منكم بل إنني اتحداكم بصلابة.

﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي أجمعوا كل ما تملكون من قوة مادية ومعنوية، وأضيفوا إليها قوة شركائكم، دون أن تتركوا شيئاً من الإستعداد حتى لا تحزنوا غدا.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ باعثاً للغم والأسى ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

من حقائق الرسالة

أي رتبوا أمركم فيما يخصني، وضعوا خططكم في مقاومة رسالتي، وتفاصيل مكركم ضدي بمتانة وإحكام، ولا تعطوني مهلة أبداً.

إنه تحداهم بقوة الرسالة، ونابذهم العداء اعتماداً على الله، مما دل على الحقائق التالية:

أولاً: إن الرسالة ليست ناشئة الوسط الثقافي والاجتماعي حتى تكون متأثرة به سلبيًا، بل انبعاث مبارك ضد سلبيات هذا الوسط.

ثانياً: إن الرسول مؤمن قبل أي أحد برسالته ويضحي من أجلها بكل ما يملك، ولو كان -حاشا لله- كاذباً أو ساحراً لما أقدم على التهلكة من أجلها.

ثالثاً: إن الرسالة ظاهرة غيبية تتحدى كل العوامل المادية وتنتصر عليها، والرسول

عارف بذلك.

رابعاً: إنها لا تداهن السلبيات القائمة، ولا تجري لاصلاحها سبيل التدرج المرحلي، أو الطرق السلمية، بل تتحداها جذريًا، لأنها جاءت من عند الله خالق الناس ومالك السماوات والأرض، ولذلك لا معنى للمهادنة، أو تقديم التنازلات المرحلية، أو السكوت عن السلبيات.

صدق الرسالة والرسول

[٧٢] وأخذ نوح عليه السلام ينصح قومه بأسلوب آخر، حيث أوضح لهم أن هدفه من تبليغ الرسالة ليس أبداً الحصول على مكاسب مادية، بل رضوان الله، وأنه هو أول من يعمل بها يقول ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهكذا سائر الرسالات السماوية لا يهدف العاملون عليها والمبشرون بها بلوغ مطامح مادية مما يشهد على صدقهم فيما يخبرون.

[٧٣] والذي حدث في نهاية المطاف دل على صدق الرسالة أيضاً، حيث أهلك الله وبطريقة غيبية قوم نوح ونجاه هو والمؤمنين برسالة الله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ الذين انذرهم الله عن طريق رسوله نوح عليه السلام لقد انتهت عاقبتهم بالغرق بسبب تحديهم للرسالة واستكبارهم، أو ليس ذلك شاهد على صدق الرسالة الإلهية؟!.

هكذا يطبع الله على قلوب المعتدين

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ (٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (٧٧) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا(١) عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ(٢) فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)﴾.

هدى من الآيات:

ومضت رسالات الله على ذات السنة، حيث بعث الله أنبياءه الكرام عليهم السلام إلى قومهم، فجاء الرسل بالبينات لهداية قومهم، ولكنهم رفضوا الإيمان كما رفضه الأسبقون، وذلك لتمرسهم بالإعتداء والظلم.

وهكذا استمرت سلسلة الرسالات حتى جاء دور موسى عليه السلام حيث بعثه الله تعالى وهارون إلى فرعون وملأه بآيات الله، فاستكبر فرعون وكبار المفسدين ممن حوله، ورفضوا الهداية ومارسوا عمليا الجرائم بحق المستضعفين، واتهموا موسى بأنه ساحر، كما أتهموا رسالته الحقة بأنها سحر واضح، وتميز موسى عليه السلام غضباً كيف يقولون للحق إنه سحر بينما الساحر لا يفلح ولا ينتصر، ولكنهم عاندوا بالرغم من دحض باطلهم، وقالوا المهم عندنا البقاء على دين آبائنا، وأننا لا نتنازل عنه، ولأن هدفكم هو السلطة، وإننا لا نؤمن لكم أبداً.

(١) لتلفتنا: اللفت الصرف عن الأمر.

(٢) الكبرياء: السيادة والسلطة.

وهكذا تكررت سيرة نوح عليه السلام عند موسى وهارون عليهما السلام باختلاف بعض التفاصيل، ولكن بذات المحتوى.

بينات من الآيات:

خط الرسالة

[٧٤] رسالات الله تشكل خطا مستمرا عبر العصور، كما أن الجاهلية التي تقف أمام الرسالات تشكل خطاً ثابتاً في جوهره، وعلينا البحث عن خط الرسالات الذي يجسد اليوم واقع الرسالات السابقة بجوهرها فننتمي إليه.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ﴾ كما الرسالات خط، فالجاهلية خط مستمر معها، فإن قوم نوح كذبوا رسالته، وكذب قوم إبراهيم عليه السلام برسالته لماذا؟.

لإشتراكهم جميعاً في دوافع التكذيب ومنها الإعتداء الذي هو تجاوز الحقوق، والإسراف في النعم، والذي جاءت رسالات الله من أجل إنقاذ البشر منه، وكما جاء في آية قرآنية أخرى حيث قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٦]. فإقامة القسط والعدالة في الأرض هدف الرسالات الإلهية، كما أن منع الإسراف في الشهوات وتوجيه الغرائز، وبالتالي مقاومة ما يسمى بالظلم الذاتي هدف آخر للرسالات، وطبيعي في هذه الحالة أن يقف المعتدون الظالمون للناس أو لأنفسهم أمام الرسالة، ذلك لأن الظلم ظلمان فظلم في القلب، وظلم في السلوك السيء ينعكس سلبيًّا على النفس، ويحجب عنها نور العقل ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ فالمعتدون تنغلق قلوبهم عن الاهتداء، وهذه سنة من سنن الله سبحانه

موسى وفرعون النموذج البارز

[٧٥] وكمثل على هذه الحقيقة يستشهد به القرآن الحكيم، ليعطيا رؤية واضحة تجاه ما يمكن أن يكرر يوميًّا في حياة الناس، كمثل عليها قصة موسى وهارون عليهما السلام الذين بعثهما الله برسالاته إلى فرعون الطاغوت وملأه، أي كبار معاونيه المفسدين في الأرض، ولكن بسبب ممارستهم الجريمة، والظلم والإعتداء، وبسبب انعكاس سلوكهم الفاسد على فكرهم، استكبروا عن قبول الرسالة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا

فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾.

[٧٦] كيف أستكبروا؟ وهل اعترفوا بالحقيقة وهي أن ظلمهم للناس، هو سبب استكبارهم وضلالتهم؟.

كلا.. بل برروا رفضهم للرسالة بتبريرات باطلة، مما يمكن أن يتكرر في كل عصر ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ إنهم رفضوا التسليم للحق الذي هو من عند الله خالقهم، والذي كان واضحاً لا ريب فيه، ونسبوا الحق إلى السحر، والناس البسطاء لا يميزون بين السحر والرسالة، إذ كلاهما خارق لعاداتهم ولا يعرف الناس مغزاهما، لذلك تلبس الأمر على الناس، وهكذا أضلوا الناس، وكذلك يمكن أن يتكرر الأمر مع الناس في كل عصر، فالطاغوت وملأه حين يخالفون الحق لا يعترفون بالدوافع الحقيقية لمخالفتهم من استكبارهم، وتمرسهم بالجريمة والظلم، بل يتهمون الحق ببعض التهم التي تضلل الناس البسطاء وتفتنهم، وتلبس الحق بالباطل وتشبه الرسالة بالسحر، والنهضة التغييرية بالفوضى، والإصلاح بتعكير صفو الأمن، والمطالبة بالحرية والمساواة بالهرطقة والتمرد على القيم هكذا.

فعلى الناس أن يتسلحوا بالوعي الكافي للتميز بين الأقوال التي ينطق بها أصحاب الرسالة، أو أنصار الطاغوت، ولا يرفضوا الرسالة بالتأثر بالشبهات التي تثيرها أجهزة الطغاة ضدها، وهذا من عبر القصص القرآنية حول الرسل.

الرد الرسالي

[٧٧] وكما كانت شبهة الطغاة حول الرسالة متناسبة مع بساطة الجماهير، فإن رد هذه الشبهة من طرف الرسل كان بلغة مفهومة لدى الجماهير الساذجة ايضا، مما كشف زيف الشبهة لهم ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ فلقد نفى موسى عليه السلام ان يكون كلامه سحراً، وأوضح أنه حق، والحق واضح المعالم بعيداً عمن ينطق به، فإذا جاءكم الحق سواء عن طريقي أو بطريق آخر، لابد لكم أن تقبلوه وتطيعون، وربما تشير الآية إلى أن الحق هذا كان مقبولاً عندهم إذا بقي بعيداً عنهم، فكل الناس حتى الطغاة منهم يتفوهون بالحق ويعتقدون به، بل يطالبون الآخرين بتحقيقه، فمن الذي لا ينطق بالعدالة ولا يطالب بالتقدم والتطوير؟!.

ولكن إذا جاءه الحق وعارض مصالحه، رفضه ونسبه إلى السحر، بينما الحق نفسه لما كان عند غيره كان مقبولاً ولا يسمى بالسحر، أو ليس هذا الدليل البسيط والمفهوم عند الناس كافياً

لدحض شبهتهم؟.

ولم يكتف موسى عليه السلام بهذا الدليل بل تابع مضيفاً: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ مؤكداً أنه يرفض مهنة السحر، بينما السحرة يفتخرون بها، وهذا وحده كاف للدلالة على أنه غير ساحر، ثم ان الساحر لا يبلغ اهدافه لأنه لا يتبع الحق، بل يجري وراء مصالحه وتراه في صف الظالمين والطغاة، ولا يتسم سلوكه الشخصي بالقيم الإنسانية، بل تجده عادة متوغلا في الرذائل المنبودة عند الناس، وبالتالي تجد الساحر بسبب مواقفه السياسية وسلوكه الشخصي مكروها عند الناس، ولا يقدر على تحقيق أهدافه من إمامة الناس، وقيادة المجتمع، بينما الرسول يدعو إلى فطرة الحق، ويقف إلى جانب المستضعفين، ويطبق تعاليم السماء في توجيه الناس إلى الخير، وسلوكه الشخصي سلوك مثالي، مما يجعله قريباً إلى قلوب الناس، قريباً إلى تحقيق أهدافه منتصراً سعيداً، وهذا واضح للناس جميعاً، فالناس أنى كانوا راوا أو سمعوا المصلحين وفي طليعتهم الرسل، وعرفوا السحرة آنئذ يمكنهم أن يعرفوا الفرق بين هذين الطرازين من الناس، بأدنى توجيه وتذكرة.

النخوة الجاهلية

[٧٨] وحين زهق باطل الطغاة، عاند القوم وأثاروا في الناس نخوة الجاهلية، والخوف من الإصلاح ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ فنحن قوم متحضرون ذوو تقاليد قديمة كيف نؤمن بكم وانتم ضدها؟!.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأنتما لستما من رسل الحق بل من طلاب المنصب، وهذه تهمة مباشرة للشخص، بينما موسى كان يوجه الحديث إلى محتوى الرسالة. وهذا التغيير هو من عادة الطغاة، حيث يحولون الصراع بينهم وبين أصحاب الدعوة إلى صراع شخصي بينما هو صراع فكري لذلك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ وكأن موسى وهارون عليهما السلام دعوا قومهما بالإيمان بهما دون الرسالة.

وهكذا انتهت مرحلة البلاغ، وجاء دور الصراع السياسي الذي نقرؤه في الدرس القادم بإذن الله تعالى.

الفشل عقبى المستكبرين

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ[1] مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

وجاء دور الصراع الثقافي والاجتماعي، وجمع فرعون سحرته الماهرين في السحر وطلب منهم موسى أن يلقوا سحرهم، فلما ألقوا قال موسى عليه السلام متحديًا ومتوكلاً على الله، إن الله سيبطل سحركم، لأن الله لا ينصر المفسدين، وهم السحرة الذين يبتغون الفساد من سحرهم، وأن الله يحق الحق بكلماته، الغيبية الحقة، ولو كره فرعون وأمثاله من المجرمين.

وآمن لموسى عليه السلام ورسالته ذرية من بني إسرائيل، خائفين من فرعون والمفسدين من أعوانه لكي لا يكرههم على الكفر مرة أخرى، لأن فرعون كان عاليًا متجبراً ومتسلطاً على الناس، وكان من المسرفين الذين يستخدمون كل إمكاناتهم في لحظة واحدة.

---

(١) درية: الذرية جماعة من نسل القبيلة.

ولكن موسى عليه السلام الذي تحدى السحرة بعزة الله، أمر قومه المؤمنين بتحدي فرعون بقوة الإيمان، وسلاح التوكل على الله والتسليم لأوامره، ولما يستوجب أوامره من تضحيات، واستجاب قومه لهذا الأمر فتوكلوا على الله سبحانه وقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تمتحنهم بنا، فيقتلوننا ويعذبوننا دون أن تردعهم غيبيًّا لكي تبتليهم، ودعوا الله أن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين.

بينات من الآيات:

ودقت ساعة الصفر

[٧٩] وحانت لحظة المواجهة، التي كشفت الخلفية الغيبية للرسالات السماوية والتي تميزها كليا عن الدعوات الاصلاحية أو النهضات الاجتماعية أو الصراعات السياسية، تلك اللحظة التي وقف فيها موسى (رسول الله) يتحدى كل أسلحته الطاغوت بإيمان راسخ وعزم شديد ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

[٨٠] ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لقد تحداهم موسى لأنه لا يرهب قوة سحرهم، لا لأنه كان يعرف ماذا سيحدث إذا ألقوا سحرهم تفصيليًّا، بل دون أن يعرف ما هو سحرهم بالضبط، ولكنه كان عالما بالنيجة عن طريق إيمانه بالله.

[٨١] ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ وعلمه بأن الله سيبطل سحر السحرة كان بدوره نابعاً من معرفته بسنة الله في الحياة التي تقضي بإبطال الفساد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ والسحرة مفسدون، لا يهدفون إصلاح المجتمع بعلمهم، والفساد شذوذ ينتهي، وانحراف يزهق، وباطل لا يدوم، والله لا يصلحه، بعكس الرسول المصلح الذي ينشد إقامة الحق والعدل.

نصر الله

[٨٢] ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فالحق ينصره الله، مرة بكلماته الرسالية التي تفضح الباطل، وتعطي للمؤمنين بالحق سلاحاً فكريًّا وبرنامجاً تغييريًّا متكاملاً، ومرة بكلماته الغيبية التي إذا قال لشيء ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، أما الطاغوت فإنه مجرم بحق الناس، والمجرم لا سلطة له على الحياة برغم التظاهر بذلك.

[٨٣] وهكذا استمر الصراع حتى تبلور في إيمان طائفة من الناس بالرسالة وتجسيدها

لمفاهيمها وبراعجها ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ لماذا خشوا من فرعون؟ إنهم خافوه على دينهم حتى لا يفتنهم عن الدين بالضبط الشديد ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ ولقد كان فرعون متسلطاً على الناس، مسرفاً في استخدام موارد الطبيعة ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

التوكل سلاح الحسم

[٨٤] ولكن بالرغم من علو فرعون وإسرافه، وبالرغم من قدرته وثروته، فإن موسى أمر قومه بالتوكل على الله ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ وهكذا أمرهم موسى عليه السلام بأن يكونوا مثله في التوكل على الله.

[٨٥] ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إنما قالوا هذه الكلمة الحاسمة بعد أمر موسى عليه السلام لهم، وتذكيرهم بأنها شرط الإيمان بالله، وشرط التسليم لقضائه وقدره، ولكنهم بالرغم من توكلهم على الله، كانوا يتطلعون إلى النجاة من مأساتهم.

ولم يكونوا يهدفون تعذيب انفسهم مثلما تفعله (السادية) أو توحي به بعض المذاهب الصوفية، لذلك تراهم يدعون الله لكي لا يجعلهم مادة لإختبار الظالمين وابتلائهم، مما يدل على أن الله يقدر لبعض المؤمنين الشهادة ولا يمنع عنهم ظلم الظالمين امتحانا لأولئك الظالمين، بالرغم من انه سبحانه ينصر عباده المؤمنين في عاقبة الأمر، جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام إن معنى هذه الآية: «لا تُسَلِّطْهُمْ عَلَيْنَا فَتَفْتِنْهُمْ بِنَا»[1].

الرؤية في الصراع

[٨٦] لذلك تضرع المؤمنون من قوم موسى عليه السلام إلى ربهم لكي ينجيهم قائلين: ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهذه هي رؤية المؤمنين إلى الصراع، فليست عاقبة الصراع مجهولة، ولا هي في مصلحة الكفار، ولكن لا يعني ذلك إن الصراع يكون سهلاً وبلا تضحيات، أو بلا عمل واجتهاد، والدعاء إلى الله هو نوع من العمل.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٢١٦.

هكذا نصر الله رسوله

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا[1] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ[2] عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا[3] بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ[4] فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا[5] وَعَدْوًا ۖ[6] حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

---

(١) تبوء تبوأ أي اتخذا يقال تبوأ لنفسه بيتاً أي اتخذه وبوأت له بيتاً أي اتخذته له.

(٢) اطمس: الطمس محو الأثر.

(٣) وجاوزنا: المجاوزة الخروج عن الحد من أحد الجهات الأربع.

(٤) فأتبعهم: الاتباع طلب اللحاق بالأول وأريد به أنه اقتدى بهم واتبع أثرهم.

(٥) بغياً: البغي طلب الاستعلاء بغير حق.

(٦) عدواً: العدو والعدوان الظلم.

هدى من الآيات:

وبعد أن آمنت ذرية من قوم موسى بالرسالة، اتخذ الصراع شكلاً اجتماعيًّا، وأمر الله رسوله أن يتخذ لقومه المؤمنين بيوتاً متقاربةً ومتقابلة، وأن يقيموا الصلاة، ويبشر المؤمنين، وهكذا انفصل المؤمنون عن الكفار، بيد أن زينة الدنيا ومباهجها وثروتها كانت بأيدي الكفار، فدعى موسى عليه السلام ربه ألا يدع فرعون وزبانيته ويضلون عن سبيل الحق بسبب تلك الزينة والأموال، بل يطمس على أموالهم، ويشدد على قلوبهم فيسلبهم علمهم وعقلهم، فلا يؤمنوا حتى يأتيهم العذاب، فلا ينفع الإيمان.

فاستجاب الله لدعوة موسى وهارون عليهما السلام، ولكنه أمرهما بالمقابل أن يستقيما وإلا يخضعا للضغوط فيتبعان سبيل الجاهلين، ولكن كيف تحقق دعاء موسى وهارون؟ ومتى؟.

حينما هيأ الله لبني إسرائيل البحر بطريقة غيبية، فعبروه إلى صحراء سيناء، فلحقهم فرعون وجنوده ليفتكوا بهم ولكنهم أغرقوا، وحين أحاط به الماء قال: آمنت انه لا اله الا الله، بعد أن جاءه العذاب الأليم، وناداه مناد هل تؤمن بعد ان عصيت الله وأفسدت في الأرض؟ إن الإيمان لا ينفع الآن، وأن الله سوف ينجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وعبرة، بيد أن كثيراً من الناس عن آيات الله غافلون.

ولقد هيأ الله لبني اسرائيل مقاماً آمناً، ورزقهم من الطيبات، وما اختلفوا إلا من بعد أن جاءهم العلم، فلم يقصر الله سبحانه بحقهم، وأن الله سوف يقضي بينهم يوم القيامة بالنسبة إلى خلافاتهم.

بينات من الآيات:

ضرورة التجمع

[٨٧] في بعض مراحل الصراع بين الإسلام والجاهلية، تحتاج الفئة المؤمنة إلى تجميع افرادها في كتلة اجتماعية رصينة، لكي يقاوموا الضغوط ولا يذوبوا في تيار الجاهلية الخادع، ومن هنا أوحى الله إلى موسى وهارون أن يبنيا لقومهما بيوتاً مجتمعة إلى بعضها ومتقابلة، لمقاومة احتمالات الإعتداء، وأن يقيموا الصلاة، ويعطوا أمل الإنتصار للناس ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وإقامة الصلاة تزيد التلاحم الرسالي كما تزيد روح المقاومة، كما أن روح الأمل

وانتظار الفرج تحافظ على مستوى النشاط والحيوية في الرساليين، وفي تلك الاجواء المنغلقة كانت إقامة الصلاة والبشارة ضرورة هامة، لكي لا يفقد المؤمنون روح النشاط والترابط.

الدعوة على الكافرين

[٨٨] وبعد الفصل الاجتماعي بين الفئة المؤمنة والأغلبية الكفارة، حانت المرحلة الثانية حيث دعا موسى ربه بأن يسلب من فرعون وملأه المفسدين ما أعطاهم من الثروة والسلطة.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قيل بأن الزينة هي: «الحلي والثياب»، وقال البعض إنها: «الجمال وصحة البدن»، واعتقد أن الكلمة ﴿زِينَةً﴾ شاملة أيضاً لحسن الذكر والهيبة الاجتماعية، مما يكون جانبا من السلطة، إذ السلطة تعتمد على عامل مادي هو المال، وعامل معنوي هو تسليم الناس لها، واعتبار المشرفين عليها أفضل من غيرهم ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ فالسلطة يجب أن تكون سبباً لسعادة الناس، وليس طريقاً لضلالة الناس عن سبيل الله، كما فعل فرعون وملأه فاستحقوا العذاب. ويبدو لي أن لفظة (اللام) في كلمة ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ لا تدل على العاقبة، ولا على الهدف والغاية، بل بمعنى الاستفهام، أي هل كان المال والزينة بهدف ضلالة الناس أم بهدف هدايتهم واسعادهم؟! بالطبع الجواب أنه كان بهدف الهداية، إذ أن فرعون وملأه كفروا بنعمة السلطة وينبغي أن يسلبها الله منهم.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي اجعلها بحيث لا ينتفعون منها، كما تطمس الديار بالرياح فتمحوا آثارها، فمثلاً مع انعدام الأرزاق، وقلة السلع، وافتقاد الأمن في سبل التجارة لا ينفع المال شيئاً، ومع انتشار الأوبئة والأمراض السارية، والجفاف وسوء الطقس لا ينفع المال شيئاً، ومع انتشار الإرهاب، وتسلط الظلم، والغلاء الفاحش لا ينفع المال شيئاً، وهكذا يفعل الله بمن لا يشكر نعمة المال فيسلب فائدته.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي إنزع اللين والإنفتاح من قلوبهم حتى تصبح قلوبهم متحجرة، ومنغلقة، والتحجر يسبب فقدان العواطف والاحاسيس، وبالتالي فقدان الترابط الاجتماعي بين أبناء الفئة الحاكمة، كما أن الانغلاق يمنع التطوير والتقدم، ويسبب الجمود على الأفكار السابقة، وهكذا يزول حكم هؤلاء بسبب الشد على قلوبهم، لأن السلطة التي عبر عنها القرآن -فيما يبدو لي- بالزينة مستحيلة مع التفتت والجمود.

ومن أبرز مظاهر الجمود إن صاحبه لا يؤمن بالحقائق إلاّ بعد فوات الأوان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟

﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ والسلطة المستمرة هي التي تحس بالتطورات القائمة وتحاول احتوائها، وآل فرعون لم يؤمنوا بما حدث إلا بعد أن أدركهم الغرق.

أستجابة الدعوة

[٨٩] وكان ذلك بسبب دعاء موسى وهارون عليهما السلام ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ ولكن هل الدعاء وحده كاف للقضاء على الجاهلية؟.

كلا.. بل يجب أن يلتزم صاحب الدعاء بدوره بمحتوى دعائه، فحين يدعو المسلم على الطاغوت بزوال سلطانه، فعليه ألا يخضع لهذا الطاغوت، لأن خضوعه له نوع من الدعم له، وبالتالي مخالف لوجهة دعائه، وحين يلعن المنادي بالعدل سلطة جائرة فإن معنى اللعن ابتعادها عن رحمة الله، وهكذا يجب عليه الأ يدعم هذه السلطة بل يحاربها أيضاً، كما يطلب من الله أن يحاربها، لذلك أمر الله تعالى موسى وهارون في مقابل استجابة دعائهما أن يستقيما ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والاستقامة تعني مقاومة ضغوط الطاغوت قبل سقوطه، مثل: السجن، والتعذيب، والقتل، والتجويع، بيد أن محاربة الطاغوت بحاجة ايضا إلى محاربة نهجه الفاسد، فالفئة المؤمنة يجب أن تغير ذاتها سلوكيًا، ثم تتعهد بتطبيق برامج الله على نفسها في علاقاتها مع بعضها، وفي اتباعها لقيادتها الرسالية، وفي سلوكيات أبنائها الشخصية، وهذا بعض معاني الكلمة الأخيرة في الآية.

[٩٠] وجاوز الله تعالى ببني إسرائيل البحر بسبب استقامتهم، واتباعهم نهج الرسالة، وأغرق الله تعالى فرعون وجنوده استجابة لدعاء المؤمنين ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي لحقهم فرعون استعلاء في الأرض، وطلبا للسلطة، وظلما للناس ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهكذا استمر فرعون كافراً حتى جاء العذاب الأليم، فآمن في الوقت الذي لم ينفعه الإيمان.

[٩١] ولكن الإيمان بعد حلول العذاب لا يجدي صاحبه شيئاً، لذلك خاطبه الحق ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي أتؤمن الآن، بعد مشاهدة العذاب بينما عصيت قبل ذلك وافسدت في الأرض؟.

[٩٢] والتهمت الأمواج فرعون، ولكنها قذفت بدنه خارجاً ليكون اية لمن بعده، كيف انتهت عاقبة ذلك الطاغوت الذي أدعى أنه الرب الأعلى لبني اسرائيل؟ ولا يزال في متاحف

مصر بعض أجساد فراعنتها ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾.

الإختلاف بعد العلم

[٩٣] وهكذا انتصرت الفئة المؤمنة بالرسالة، المتوكلة على الله، والمتحدية سلطان الجاهلية، أنتصرت بإذن الله على كيد الطاغوت، ولكن انتصارهم لم يكن بالمكر والظلم بل بالعمل الصالح ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي مكنهم الله مقاماً آمناً بصدق ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ فاختلافهم اللاحق لم يكن بسبب الرسالة، بل بسبب اهوائهم، وكان بعد وضوح السبيل أمامهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ إذ الحق عند الله، وغموضه عند طائفة من الناس إنما هو بسبب اتباعهم للهوى والشهوات.

قوم يونس تابوا في الوقت المناسب

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ[1] (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٩٧) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن استعرض السياق قصص الرسالات السابقة، وكيف كفر بها الناس، فتوكل المؤمنون بها على ربهم، حتى نصرهم، بين هذا الدرس عبرة تلك القصص فيما يخص الرسالة الخاتمة، وأمر رسوله ومن ورائه كل من يقرأ الكتاب بأنه لو كان في شك من الرسالة أو من انتصارها، فليسأل العارفين بالتاريخ، وأن هذا هو الحق من الله، ولا يكونن من الشاكين، ولا من الذين كذبوا بآيات الله وخسروا، فيكون مثلهم خاسراً.

بلى، إن الذين ظلموا أنفسهم وانحرفوا سلوكيًا، إنهم حكموا من قبل الله بالضلالة، فحقت عليهم كلمة ربك، ولذلك فهم لا يؤمنون حتى ولو جاءتهم مختلف الآيات التي يطالبون بها، والتي يعتقد أنها لو جاءتهم آمنوا بها، أجل أنهم سوف يؤمنون في لحظة مشاهدة العذاب، حين لا ينفعهم إيمانهم، كما لم ينفع أية قرية من هذه القرى الظالم أهلها الذين أهلكهم الله بكفرهم وبذنوبهم فلم يؤمنوا إلا في لحظة اهلاك، إلا قوم يونس لما آمنوا كشف الله عنهم

(١) الممترين: طلب الشك مع ظهور الدليل.

عذاب الخزي في الحياة الدنيا وأعطاهم مهلة إلى فترة محددة.

بينات من الآيات:

بين الشك واليقين

[٩٤] لم يشك الرسول في صحة رسالة الله التي أنزلت اليه، ولكن خشية الرسول كانت من عدم تطبيق الرسالة بسبب جحود الكفار، وبسبب حكمة الله البالغة التي قد تقتضي تأجيل نصر الله لرسالته، كما كانت خشية موسى عليه السلام حين ألقى السحرة حبالهم فسحرت أعين الناس، كانت خشيته آنئذ من أن تشاء حكمة الله إلا ينصر رسالته في تلك اللحظة فتنة للناس، وابتلاء للرسول.

بيد أن هذا الشك وهذا الخوف يقل حينما نراجع التاريخ، ونسأل الذين يقرؤونه، حيث ينصر ربنا سبحانه رسالته في لحظة الحرج وساعة العسرة ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ ولا يعني السؤال هنا: أن يذهب رسول الله أو المؤمنون به إلى شخص مثل (عبد الله بن سلام) الذي آمن بالرسالة، وكان عارفاً بتاريخ الرسالات، إنما جرى الحديث مجرى العموم، أي مراجعة الخبراء والعارفين بالتاريخ من جميع الطوائف، وطبيعي أن سؤالهم يؤيد الحقائق القرآنية، ولكن بشرط أن يكونوا ثقات، والثقة شرط فطري وعقلي للعالم الذي يسأله الناس.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي حين تراجع التاريخ وترى كيف نصر الله رسالاته آنئذ إبتعد عن الشك إلى اليقين، وهذه الآية توحي ببعض الحقائق التي نشير اليها فيما يلي:

ألف: إن الخطابات القرآنية لا يجب أن تكون موجهة إلى شخص الرسول، لأن القرآن كتاب الله إلى الناس جميعاً، وبذلك لانحتاج إلى التأويل، كلما وجدنا خطاباً في الآيات، ولذلك قال الزجاج في هذه الآية كلاماً نراه في كل الآيات المتشابهة تقريبا: «بأن هذه الآية قد كثر سؤال الناس عنها وخوضهم فيها، وفي السورة ما يدل على بيانها، فإن الله سبحانه يخاطب النبي وذلك الخطاب شامل للخلق، فالمعنى: (فإن كنتم في شك فاسألوا) والدليل على قوله في آخر السورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ الآية [يونس: ١٠٤] فأعلم الله سبحانه إن نبيه ليس في شك»[1].

(١) مجمع البيان: ج٥، ص٢٢٦.

ويبقى أن نذكر عدم شك الرسول ومتانة يقينه إنما جاء بسبب الوحي، فلولا الوحي ولولا روح القدس الذي كان يأتيه بالوحي، إذا كان الرسول بشراً كسائر الخلق، ولذلك ينبغي إلا نحاول فصل الرسول وعصمته ورفعه درجته عن القرآن وأثره فيه.

باء: إن الانتفاع بالعلم الحقيقي جزء من رسالة الدين، ولا يقتصر هذا العلم بالفيزياء والكيمياء مما يتعلق بالعلوم التجريبية، بل وأيضاً التاريخ والاجتماع والتي تسمى بالعلوم الإنسانية، ولكن بشرط فصل الرواية عن الدراية، وفصل المعلومات الحقيقية عن النظريات الإحتمالية.

جيم: إن الشك واليقين عملان من عمل البشر الذي يختارهما اختياراً، ذلك لأن الشك قد يكون بسبب انعدام العلم، وهذا مفروض على البشر وموجود بسبب عجز البشر الطبيعي، ولكن قد يكون الشك نابعاً من الهوى واتباع الشهوات، فكثير أولئك الذين يشكون في الحقائق، لأنهم قرروا سلفاً البقاء في شكهم، ولأنهم لا يفكرون منطقيًّا ولا يبحثون عن المصادر السليمة للمعرفة ولأنهم بالتالي يخافون من مسؤوليات العلم التي لابد أن يتحملها كل عالم، لذلك نهى ربنا عن أن يكون الفرد من الشاكين، لأن الشك من عمل الإنسان.

كيف تخسر نفسك؟

[٩٥] كما أن الكفر والأيمان من عمل الإنسان، لذلك نهى القرآن من أن يكون الفرد مكذبا بآيات الله، بأن يتخذ موقفا سلبيًّا مسبقاً من كل دليل علمي يدل على الحقيقة ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ولماذا يكذب الفرد بالحق، أوليس من أجل مصالحه وشهواته؟! ولكن عليه أن يعرف أن التكذيب بالحق يسبب له خسارة نفسه ومصيره.

[٩٦] والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا يسبب الفرد خسارة نفسه عن طريق تكذيبه بآيات الحقيقة؟.

الجواب: إن فريقاً من الناس يكذبون بالحق بسبب سوء أعمالهم وسلوكهم، فمن اعتاد الظلم، ومارس الجرائم يطبع الله على قلبه حتى لا يؤمن، إلا في وقت لا ينفعه إيمانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

[٩٧] وعدم إيمان هذا الفريق من الناس ليس بسبب نقص في الآيات، بل بسبب انغلاق أنفسهم دون نور الإيمان ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أجل أنهم يؤمنون فقط حين يرون العذاب فلا ينفعهم إيمانهم ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

التكذيب سنة اجتماعية

[٩٨] يبقى أن نعرف: إن ذلك ليس قدراً مقضيًا عليهم بل سنة اجتماعية، والفرق بين القدر والسنة، إن القدر كطلوع الشمس من مشرقها في وقتها لا يخضع أبداً لإرادة البشر، بينما السنة كما التمرد ضد الظلم، وسقوط الطاغوت، قد يتقدم أو يتأخر، أو حتى لا يقع إذا أراد الإنسان، فقد لا يقرر المجتمع المضطهد التمرد ضد جلاديه، وقد يغير الطاغوت عاداته الظالمة في الوقت المناسب فيمدد في أجله، وهكذا جحود الظالمين وكفر المكذبين بآيات الله ليس قدراً، بل سنة، فمن الممكن عقلاً أن يدور المرء مائة وثمانين درجة باتجاه الصلاح كما فعل قوم يونس، ولكن لا يقع ذلك عادة بسبب تكبر الفاسقين وتعاليهم عن التوبة إلا بعد فوات الوقت.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ﴾ أي لماذا لم يقدم هؤلاء إيمانهم في الوقت المناسب؟ لماذا لم يتب الطاغوت حين رأى تململا اجتماعيا، بل أخذته العزة بالإثم، حتى أصبح التململ تمرداً عارماً؟ ولماذا لم يتب الشعب المتوغل في الفساد الخلقي، وفي ظلم بعضهم لبعض، حين رأوا نقصا في الثمرات، وتدهورا في الاقتصاد، وفي الصحة العامة، بل استمروا في غيهم حتى انهار اقتصادهم وصحتهم تماما؟!.

إن هذا التحريض القرآني الشديد يدل:

أولاً: على إمكانية تحول الفرد والمجتمع تحولا جذريًا قبل فوات الأوان.

ثانياً: إنه يدل على الصعوبة البالغة لهذا التحول، مما يقتضي التحريض بكلمة عنيفة وهي ﴿لَوْلَآ﴾.

أجل إن قوم يونس ضربوا مثلاً رائعاً في هذا التحول، الذي ينبغي أن يكون قدوة للمجتمعات الضالة التي يعبر عنها القرآن الحكيم عادة بكلمة ﴿قَرْيَةٌ﴾.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن انتهى أجلهم الطبيعي الذي حدده الله لهم، فالأمم كما الأفراد ينتهون بطريقتين: إما بصورة طبيعية كحالة الشيخوخة، وأما بسوء أعمالهم كحالة القتل في الفرد، والإضطراب في الأمة.

وقد سميت هذه السورة باسم يونس لأهمية التحول الاجتماعي الذي حدث عند قومه فليس من السهل أن يستيقظ مجتمع مسترسل في الفساد، سادر في الميوعة واللامبالاة مرة واحدة، ويعود إلى رشده الأولي.

وجاء في حديث الصادق عليه السلام عن قصة قوم يونس: «**وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلَانِ (عَابِدٌ)**

وَ(عالِمٌ) وَكَانَ اسْمُ أَحَدِهِمَا (مَلِيخَا) وَالْآخَرُ اسْمُهُ (رُوبِيلُ)، فَكَانَ الْعَابِدُ يُشِيرُ عَلَى يُونُسَ بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ. وَكَانَ الْعَالِمُ يَنْهَاهُ وَيَقُولُ لَا تَدْعُ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللهَ يَسْتَجِيبُ لَكَ، وَلَا يُحِبُّ هَلَاكَ عِبَادِهِ. فَقَبِلَ قَوْلَ الْعَابِدِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنَ الْعَالِمِ فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ، يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فِي سَنَةِ كَذَا وَكَذَا، فِي شَهْرِ كَذَا وَكَذَا، فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا.

فَلَمَّا قَرُبَ الْوَقْتُ خَرَجَ يُونُسُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَعَ الْعَابِدِ، وَبَقِيَ الْعَالِمُ فِيهَا فَلَمَّا كَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَزَلَ الْعَذَابُ. فَقَالَ الْعَالِمُ لَهُمْ: يَا قَوْمِ افْزَعُوا إِلَى اللهِ فَلَعَلَّهُ يَرْحَمُكُمْ وَيَرُدُّ الْعَذَابَ عَنْكُمْ.

فَقَالُوا: كَيْفَ نَصْنَعُ. قَالَ: اجْتَمِعُوا وَاخْرُجُوا إِلَى الْمَفَازَةِ وَفَرِّقُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَالْأَوْلَادِ وَبَيْنَ الْإِبِلِ وَأَوْلَادِهَا، وَبَيْنَ الْبَقَرِ وَأَوْلَادِهَا وَبَيْنَ الْغَنَمِ وَأَوْلَادِهَا ثُمَّ ابْكُوا وَادْعُوا فَذَهَبُوا وَفَعَلُوا ذَلِكَ وَضَجُّوا وَبَكَوْا فَرَحِمَهُمُ اللهُ وَصَرَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَفَرَّقَ الْعَذَابَ عَلَى الْجِبَالِ وَقَدْ كَانَ نَزَلَ وَقَرُبَ مِنْهُمْ...»[1].

وجاء في بعض التفاسير: «إن قوم يونس قد تابوا بعدئذ توبةً نصوحا، حتى رد كل ظالم، حق المظلوم إليه، حتى أن الحجر كان في أساس البناء وكان غصبا، كان الفرد يهدم بناءه ويرده إلى صاحبه».

وفي هذا الحديث اشارة واضحة إلى السبب في توبة قوم يونس وهو: (تواجد العلماء بينهم، واحترامهم لمقام العلم).

(١) تفسير القمي: ج١ ص٣١٧، بحار الأنوار: ج١٤ ص٣٨٠.

بصائر الأختيار السليم

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾.

هدى من الآيات:

يتسائل القارىء للآيات السابقة: لماذا وكيف يختار البشر طريق الإيمان أو الكفر؟!. فيجيب هذا الدرس عن هذا السؤال بإعطاء بصيرة ذات ابعاد أربع عن الإيمان والكفر وهي:

١ - لا يتحقق الإيمان بالإكراه، لا من قبل الله، ولا من قبل الرسول، فلو شاء الله لآمن من في الأرض جميعاً، ولكنه لا يكره الناس على الإيمان، فهل يحق لبشر أن يكره الناس على الإيمان وخالق البشر أحق بذلك، لو كانت المصلحة تقتضيه ؟.

٢- إن الإيمان نعمة كبيرة يتفضل بها الله على الإنسان، بعد توفير شرائطه من قبله وان الله يجعل الرجس وهو الكفر ومفاسده المترتبة عليه على أولئك الذين لا ينتفعون بنور عقولهم فلا يعقلون.

٣- إذا فتح الإنسان عينه، ونظر إلى ما في السماوات والأرض نظر اعتبار من دون حجاب، فإنه يوهب الإيمان، ولكن إذا قرر الفرد عدم الإيمان سلفاً فكل الآيات والنذر لا

تغنيه ولا تنفعه شيئا.

٤ - إن انتظار الكفار هو تحول الغيب إلى شهود، والحقيقة المبشر بها إلى واقع قائم أمامهم، مثل أن ينزل عليهم فعلا العذاب الذي يتوعدهم به الرسل، وآنئذ لا ينفعهم الإيمان كما لم ينفع الذين كذبوا بالرسالات السابقة، وانما نفع المؤمنين من قومهم الذين نجاهم الله. وهذا وعد حق يقطعه الله على نفسه للمؤمنين عبر العصور إنه ينقذهم مما ينتظر الكفار من العذاب

بينات من الآيات:

الإيمان مادة الاختبار

[٩٩] لقد خلق الله الحياة ليختبر فيها الناس، وجعل مادة الاختبار الإيمان، وقد منح ربنا للبشر حرية القرار فيما يخص الإيمان، وكان بامكان ربنا القدير أن يهب الإنسان نعمة الإيمان بمثل ما وهب له نعمة العين، وأضاء له النهار، ولكنه لم يفعل، فعلينا الا نحاول اجبار الناس على الإيمان ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي هل أنت تضغط عليهم باستمرار حتى يصبحوا مؤمنين، فهذا أمر يتنافى مع حكمة الاختبار في الدنيا، وهو لا يمكن عمليًا لأنه بعيد عن سنة الحرية التي قررها الله للبشرية.

الإيمان ومشيئة الله

[١٠٠] ثم إن الإيمان ليس كأي عمل آخر يقوم به البشر، بل إن جانباً منه متعلق بمشيئة الله، فهو كالنصر في الحروب لا يمكن اليقين به مائة بالمائة ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فالله يأذن للنفس البشرية أن تقتبس شعلة من نور الإيمان، بعد أن توفر النفس في ذاتها كل العوامل الممكنة، وتتصل بربها عن طريق الضراعة والتبتل، وإذا كانت النفس منطوية على غل أو فساد، فإن الله العليم والمحيط بأبعاد النفس لا يأذن لها بالإيمان، وهذا الحقيقة تدعونا أولاً إلى اعتبار الإيمان مستوى رفيعاً لا يبلغه الفرد إلا بعد جهاد صعب، وبعدئذ فهو فضل من الله.

ثم إن الإيمان حقيقة خارجية، حيث إنه رؤية واضحة، وعرفان شامل، وتطويع للشهوات، وترويض للنفس الجموحة، فهو عموما رحمة من الله، إن الكفر نقمة ينزلها الله على من لا يعمل جاهدا من أجل الحصول على الإيمان ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

والذين لا يبلغون مستوى الإيمان هم الذين لا ينتفعون بنور العقل الذي زودوا به من قبل الله، فوقعوا في رجس الجهل والشهوات.

هل نتفكر؟

[١٠١] إن الفرد الذي ينتفع بعقله يكفيه أن ينظر إلى ملكوت السماوات والأرض، إلى الجبال الراسية التي تحفظ الأرض من أن تميد، وتترابط من داخلها بطبقات صخرية، وتحتفظ في اجوافها بأحواض ماء عذب تتفجر عيونا وتجري أنهاراً، كما تخزن المعادن الثمينة من الذي وضعها مواضعها، وثبت بها الأرض التي انبسطت أمامها مهادا للناس، يتخذون من ترابها اللين فراشاً ومستقراً، ويزرعونها لمعاشهم؟.

وإذا نظرت إلى السماء، إلى مواقع نجومها، ونظام مجراتها ومنظوماتها الشمسية، إلى تعادل الجاذبية فيها، إلى سعتها وامتدادها بحيث لا يستطيع علم البشر أن يلاحقها، ولا تقدر الأجهزة التلسكوبية المتطورة أن تبصرنا أبعادها، وتختفي المسافات العادية لنتحدث عن المسافات النورية فنقول: مليون عام ضوئي يفصل بيننا وبين المجرة الكذائية، أي أن النور الذي خرج من مصدره وصلنا بعد مليون عام، بينما يسير النور في كل ثانية مسافة مائة وثمانين ألف ميل، وإذا أردنا أن نعد أجرامها فسوف يتجاوز الحساب رقم الملايين إلى البلايين، علما بأن بعض أجرام السماء أكبر من أرضنا ملايين المرات، حتى لتبدو أرضنا كحبة رمل في صحراء مترامية، من الذي انشأها ودبر أمرها، وحافظ على انظمتها الحكيمة، هل أنا وأنت أم هذا الطاغوت وذلك الثري وذلك الكاهن، أم الله خالق السماوات والأرض سبحانه؟!.

ولكن حين لا يريد الفرد الإيمان، أو بتعبير آخر حين يصمم على الأ يؤمن بالله مهما كانت آياته واضحة، فماذا تغنيه الآيات؟! وماذا تفيده كلمات التحذير والانذار؟! ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

عذاب الله متى؟ وكيف؟

[١٠٢] لماذا يصمم البشر على عدم الإيمان؟ أوليس استجابة لشهواته العاجلة، زاعماً أن الكفر يوفر له المزيد من المتع المادية؟ ولكن الحقيقة غير ذلك إذ أن الكفر يسلب منه نعم الله، ويرديه في واد سحيق ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾ الجميع ينتظر، ولكن الرسول ينتظر الفرج، بينما الكفار ينتظرون عذاب الله، الذي يحل بهم عاجلاً ام آجلاً.

[١٠٣] وعذاب الله ليس أعمى يصيب الجميع، بل يبتعد عن رسول الله والمؤمنين، لأن الله هو الذي يرسل عذابه وهو الحكيم العليم ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونجاة الرسول والمؤمنين دليل واضح على أن العذاب ليس بسبب عوامل طبيعية، كالشتاء والصيف، لأنه إن كان كذلك شمل الجميع، بل بإرادة غيبية، كما أن ذلك دليل على أن الناس لو آمنوا لتجنبوا العذاب بإيمانهم، وربما تشير نهاية الآية إلى هذه الفكرة.

الرسول الشاهد على الناس

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير من هذه السورة، حدد الله مسؤولية الرسول لو لم يتبعه الناس شكاً في رسالته، تلك هي رفض عبادة الآلهة، وإخلاص العبودية لله، والإيمان الصادق به، وتطبيق أحكام الله ظاهراً وباطناً، وألا يدعو مع الله الآلهة والأصنام البشرية والحجرية، فيكون آنئذ ظالماً لنفسه لأنها لا تضر ولا تنفع، ذلك لأن ما ينفع ويضر حقاً هو الله سبحانه، الذي لو أصاب الإنسان ضر ما كشفه سوى رحمته الواسعة، وإن أصابه خير فبفضله سبحانه، ولا أحد يستطيع سلبه منه، فمسؤولية الرسول هي إخلاص الطاعة لله، ولكنه ليس مسؤولاً عن الناس، لأن الهدى في منفعة البشر نفسه، كما إن الضلال يضره شخصيًّا، أما الرسول فإنه يتبع ما يوحى اليه، ويصبر بانتظار حكم الله الذي هو خير الحاكمين.

بينات من الآيات:

موقف الرسول

[١٠٤] من أهم المكاسب الرسالية لبعثة الانبياء هو انشاء واقع اجتماعي جديد، يتجاوز دور التبليغ والدعوة، فإذا كان خط الكفر والضلالة شاكا في دين الله، فان النبي على يقين من هذا الدين نظريا، ويعمل ببرامج الدين عمليا، فيصنع بذلك واقعا اجتماعيا ثقيلا ومتينا، تمهيدا لتأسيس مجتمع مؤمن إلى جانب المجتمع الكافر، وخط ايماني نقي إلى جانب خطوط الشرك والشبهة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى ﴾ والتردد مبعثه الشهوات والأهواء، وتهيب الواقع الجديد، فان الرسول ليس في شك من دينه، بل انه على يقين وهو قدوتكم جميعا في هذا الخط، وعمله الخالص لله يفتح لكم الطريق الذي تجبنون من السلوك فيه ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فأنا اول من تحمل الضغوط ومشاكل الكفر بالشركاء والتمرد على سلطان الالهة ﴿وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي أني شخصيا أنتمي إلى جماعة الإيمان في مواجهة الجاهلية.

مسؤولية الرسول

[١٠٥] وقد أكد القرآن الأمر الاخير، الذي جاء في نهاية الآية السابقة، وهو السبق إلى الإيمان والاستقامة عليه، لأهميته في زرع بذور الإيمان في تلك النفوس الشاكة والمترددة ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي انفصل عن واقع الجاهلية نظريا بالحنفية، وعمليا بالتوحيد.

[١٠٦] وجاءت الآية الثالثة تؤكد نهاية الآية الثانية وهي رفض الشرك وتعللها بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ أي لا تطلب حاجة من الالهة الصماء أو الالهة البشرية الضعيفة التي تعبد من دون الله، من دون ان تملك شيئا من قوة النفع والضرر الا بأذن الله ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ان التسليم للآلهة والشركاء ظلم للنفس، حين يفقد البشر هويته التي هي اغلى جوهرة يملكها، وهو ظلم للناس بتشجيع الضلالة الفكرية، والتسلط السياسي، وهو ظلم للشركاء أنفسهم بتشجيعهم على امتهان حرفة الطغيان، والزعم بانهم آلهة من دون الله.

[١٠٧] النافع الضار هو الله حقا، لانه اذا ابتلى احدا بضراء لا يكشفها احد غيره، وان منح خيرا لم يقدر احد على سلبه ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن

يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذي تسبق رحمته غضبه، ولا يؤاخذ اهل الأرض بألوان العذاب رحمة بهم وفضلا، ولا يعجل على المذنبين بذنوبهم.

مسؤولية الجماهير

[١٠٨] الرسول اول من أمر بالعمل برسالته، وهو رائد المؤمنين الذي يخترق طريق الإيمان بثقة وعزم وتوكل على الله، ولكنه ليس وكيلا عنهم فلا يجبر الناس على الإيمان، ولا يسلبهم مسؤولية قرارهم النهائي برفض أو قبول الرسالة، بل من ضل فضلالته موجهة ضد نفسه، ومن اهتدى فهدايته نافعة لنفسه ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾.

[١٠٩] ولكن استقامة الرسول على طريق الحق تكلفه الكثير، فان عدم اتباع الضلال سوف يؤدي إلى أن يواجه الكثير من الأذى وبمختلف الوسائل، وعليه ان يصبر وينتظر حكم الله، وهذا الصبر بدوره دليل اخر على صدق رسالته، ويرفع حواجز الشك والتردد الموجودة في نفوس الناس، حيث يتهمون الرسول بأنه يطلب السلطة او الثروة، ولكن هل هذا طريق من يطلب الدنيا، أن يخالف دين الناس، ويرفض كل قوة ارضية، ويصبر على الأذى في هذا الطريق؟!.

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

المحتويات